



إيسيسكو
ICESCO

أحمد بابا التمهكتي

نموذج للدبلوماسية الحضارية في غرب إفريقيا

أعمال الندوة العلمية التي عُقدت بجامعة القاضي عياض،
ضمن برامج مراكش عاصمة الثقافة في العالم الإسلامي 2024



عاصمة الثقافة
في العالم الإسلامي
2024
CULTURE CAPITAL IN THE ISLAMIC WORLD



منشورات
الإيسيسكو



مركز الحوار الحضاري
Centre du Dialogue Civilisationnel
Center for Civilizational Dialogue



أحمد بابا التمبكتي

نموذج للدبلوماسية الحضارية في غرب إفريقيا

تحرير

الدكتور عبد الله الحسين ميغا

خبير بمنظمة الإيسيسكو

أعمال الندوة العلمية التي عُقدت بجامعة القاضي عياض،
ضمن برامج مراكش عاصمة الثقافة في العالم الإسلامي 2024



الجلسة الافتتاحية



كلمة معالي الدكتور سالم بن محمد المالك المدير العام للإيسيسكو

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي خلق فأبدع.. وكرم فأوسع..
والصلاة والسلام على نبيه ميزان الحكمة وموئل الجمال.

معالي الدكتور أحمد توفيق،
وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية

معالي البروفيسور بورما كنساي،
وزير التعليم العالي والبحث العلمي بجمهورية مالي..

معالي الدكتور عبد اللطيف ميراوي،
وزير التعليم العالي والبحث العلمي والابتكار

فضيلة السيد محمد فاضل،
رئيس المجلس العلمي الجهوي لمراكش آسفي

سعادة الدكتور بلعيد بوكادير،
رئيس جامعة القاضي عياض

الحضور الكريم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

لا أظنه بغائب عن إدراك كل متأمل، ما تمر به الإنسانية اليوم من لحظات انتقال حضاري ذي دوي وأصداء تنتظم المعمورة كلها.

حالة الحيرة.. واحتدام التنافس.. واستشراء القلق.. والتوتر نحو قادم لا يعرف أحد ملامحه..

كلها شارات على طريق التحول الكبير.. هو تحولٌ مطلوبٌ.. بموجبات اختلال التوازن في بنية العلاقات الدولية.. وهو تحول مرغوب.. بمطلب الأمل الراني إلى عالم أكثر عدالة وأقل احتزابا.. وهو تحول منظورٌ.. بمنطق استحقاقاتٍ ترفع لافتاتها شعوبٌ قررت أن تهجر الوسائد لتتصالح مع مستقبلها.

ولعل ما تشهده القارة الأفريقية من اعتماد مطالب التغيير على المستويين الداخلي والخارجي، هو أوضح دليل على حركة التبدلات البنيوية العظمى التي تضج -لا في أفريقيا وحسب - بل في الغالب الأعم من بقاع العالم.

أفريقيا.. بثراء مواردها البكر.. بقدرات إنسانها المتطلع.. بنمائها الديموغرافي المتنوع.. بتحملها من البقاء في قمم الظلم والظلمات.. هي غير أفريقيا التي أدمنت لعقود، الاستكانة لسياسات المستعمر.. والاستسلام لاتهامات جائرة بالكسل والجهالة والتخلف..

فشواهد استيقاظ الأفارقة اليوم، ملامح تاريخية حملت سمات ذلكم التنوع الجميل الأسر.. فقد عبرت الديانات على التحوم، فكانت أبقى أثراً من الجيوش المستعمرة، وأعلى صوتاً من دفيف خطى الجنود على أديم القارة السمراء..

هي شواهد ماثلةٌ بأثر تليد ومن تلکم الشواهد.. التي نحتفي بها اليوم.. الشيخ العلامة أحمد بابا التمبكتي، الذي نعتز بجميل آثاره، كنموذج رفاف بمعاني التواصل الحضاري.. ابن صنهاجة الذي احتضنته تمبكتو وسعدت بمقدمة مراکش.. ما أوصدت مراکش دونه أبواب دورها وقصورها

ولا تعقبت خطاه بمظنة أو شبهة أو توجس.. فكان النتاج ذلكم البستان المخضوضر المتورد بثمرات كتبه التي فاقت الستين عدداً، وبفرائد مجالسه التي تناوست بها طرائف الفكر ونوادر الأدب: ينهل من ينابيعها الضامنون، ويثوب إليها المدركون، لتغدو مراکش بكل ذلك، طليعة من طلائع النطاق الإبداعي الذي لا ينتمي إلا إلى الفعل الحضاري المواري بالتسامح، النضاح بالعرفان، المشاء بمبدأ كرامة الإنسان..

ذاك ما أسمته الإيسيسكو في مفهومها المبتكر بسياق «الدبلوماسية الحضارية».. المفهوم الذي احتضنت هذه الجامعة السامقة - جامعة القاضي عياض - أول كرسي علمي له.. تتساقط الخطى وتتوافق لانطلاقة قريباً.. وهنا تلتمع بعض قناديل مفهوم الإيسيسكو المعرفي.. هنا حيث «هنا» ظرف مكان حضاري بامتياز..

فمراكش الأمس هي مراكش اليوم.. ذات الضمار المحتكم.. إلى صحائف المثاقفة على سطور ألف عام من العطاء الإيجابي المبادر.. المقتردر..

نحتفي كل يوم فيها بمطلع شمس جديدة في أفق العواصم الثقافية للعالم الإسلامي، ومراكش وحدها تستحق أن تكون عاصمة للثقافة على مدار عقود وعقود من الزمان..

فشكراً لجامعة القاضي عياض مديراً وأستاذة وطلاباً على استضافة مزهر الوصل، الثاوي بين شتى آلات الأوركسترا الحضارية المتميزة إلى (هنا).. وإلى الإنسانية جمعاء.

شكراً للولاية والعمالة والجهة.

فكل منها له في بستان الإنجاز غصنا وريفا يحمل إيماءاتٍ من امتنان.

شكراً لأصحاب المعالي الوزراء وهم يمنحون الموسم والمناسبة حقاً من اعتبار
وشرفاً بإكبار..

شكراً لأبناء مالي.. وزيراً هماماً.. ومديراً حصيفاً.. ومساعدين.. فمراكش
تواقه لأن تحتفظ لكل منهم بذكرى تستعيد للوشائج الحضارية إيماضها السني
المستشرف..

شكراً لكم جميعاً..

والحمد لله أولاً وأخيراً

تقديم المؤتمر:

السفير خالد فتح الرحمن

مدير مركز الحوار الحضاري بالإيسيسكو

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

جمعة مباركة ..

وبعض من أريج بركات هذه الجمعة، انعقاد هذا المنتدى الذي يراوح خطى
تفرّده بين رجل ومدينة، ذلك أنّ ثمة علاقة جذابة بين المدائن الكبريات
والرجال الأكابر .. ملمح يطرد عبر الزمان..

ولنا أسوةً في رسولنا صلى الله عليه وسلم، حين علّق على جدار الزمان
تذكارات مودّته ووفائه لمكة المكرمة وللمدينة المنورة.. فثمة مدن تُشكل
التاريخ والجغرافيا فيغدو أثرها أكبر من الدول و الممالك، ومنها عاصمة الثقافة
في العالم الإسلامي 2024، «مدينة مراكش»، التي تستقبلنا بكل هذا العرفان
الغامر والحفاوة المتجلية.

أما الرجال، فحسبنا في مساردهم، كلمة رشيقة للأستاذ عباس العقّاد يقول فيها:

« آلةٌ محسوبٌ في حسابها حساب سبعين سنة..

وآلةٌ محسوبٌ في حسابها حساب ألف سنة..

وآلةٌ محسوبٌ في حسابها حساب الزمان كله..

فرجلٌ حياته حياة فرد..

ورجلٌ حياته حياة أمة..

ورجلٌ حياته حياة الناس أجمعين .»

وحسبنا من شخصية اليوم (أحمد بابا التمبكتي)، هذا الشيخ الجليل، أن يكون من أولئك الرجال الذين جاوزوا بحياتهم حيوات أناس و أفراد و أمم، ويكفى أن تتصل خطاه بين تمبكتو ومراكش لتصل إلى الرباط ، حيث منظمة الایسیسكو التي يسعدها اليوم أن تكون حاضنة لهذه الوضاعة، في شراكة ذكية مع جامعة القاضي عياض.

كلمة معالي الدكتور عبد اللطيف ميراوي وزير التعليم العالي والبحث العلمي والابتكار

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين،
السيد رئيس الحكومة السابق،
السيد المدير العام للإيسيسكو،
السيد وزير التعليم العالي والبحث العلمي بجمهورية مالي،
السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية،
السيدات والسادة الكتاب العامون،
السيد رئيس جامعة القاضي عياض بمراكش،
السيد رئيس المجلس العلمي المحلي بمراكش،
السيدات والسادة عمداء والمدراء،
السيدات والسادة الأساتذة الباحثين،
أعزائي الطلبة والطالبات،
حضرات السيدات والسادة الأفاضل،

يسرني أن أكون اليوم في رحاب جامعة القاضي عياض، ضمن أنشطة «برنامج مراكش عاصمة الثقافة في العالم الإسلامي»، لنحتفي بالروابط العلمية التي أصبحت اليوم ركيزة أساسية في العلاقات الدبلوماسية على المستوى العالمي.

إن تنظيم هذه الندوة يأتي في وقت نحتاج فيه إلى استلهام دروس التاريخ لإرساء قواعد التفاهم والتعاون بين شعوب قارتنا وذلك عبر استحضار سير ومآثر الشخصيات التي طبعت هذا التاريخ. ولعل سيرة العالم الجليل أحمد بابا التَّمْبُكِي خير نموذج يستحضر في هذا الإطار كرمز للتواصل والتقارب بين الشعوب، وكفاعل ساهم في تعزيز الروابط الثقافية والدينية بين شمال وجنوب الصحراء. وإذ نحتفي به اليوم في مدينة مراكش التي صُنِفَ في رحابها معظم مؤلفاته، فإنه لا يفوتنا أن نذكر بأن بلادنا كانت على مر التاريخ ملتقى ومنطلقا لعلماء أجلاء، على شاكلة أحمد بابا التَّمْبُكِي، شكلوا جسرا بين المغرب وبلاد شنقيط وتومبوكتو والسودان الغربي، صانوا بيضة الدين جيلا بعد جيل حتى عم نفعهم وتواترت مؤلفاتهم وكانت لهم الريادة في الحفاظ على الأمن الروحي بغرب إفريقيا قاطبة.

حضرات السيدات والسادة،

هذا الإرث العلمي والتاريخي موصول إلى اليوم، ولله الحمد، بفضل الرؤية السديدة لصاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله الذي يقود نموذجاً تنمويا طموحا ومبتكرا، يجمع بين متطلبات التنمية وضمنان الأمن الروحي وتوثيق الروابط الأخوية مع شركاء المملكة خاصة من دول إفريقيا جنوب الصحراء.

وفي هذا الإطار، يسرني أن أشير إلى أن المغرب قد أصبح مرجعا في مجال تكوين الأئمة والمرشدين الدينيين في إفريقيا، وذلك من خلال إنشاء مراكز تكوين أبرزها «معهد محمد السادس لتكوين الأئمة المرشدين والمرشدات»

و«مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة»، والتي تهدف إلى توحيد جهود العلماء الأفارقة والمغاربة للتعريف بقيم الإسلام السمحة وترسيخها، وإقامة المراكز والمؤسسات الدينية والعلمية والثقافية وإحياء التراث الإفريقي الإسلامي المشترك.

كما تجدر الإشارة إلى أن التكوين في هذه المعاهد لا يقتصر على الأئمة المغاربة فقط، بل يشمل أيضاً طلاباً من مختلف الدول الإفريقية الشقيقة، خصوصاً دول غرب إفريقيا. وهذا يعكس التزام المغرب بتعزيز القيم الروحية المشتركة وبناء جسور التعاون الديني والعلمي على المستوى القاري، مما يسهم في نشر السلام والاستقرار والتنمية في ربوع القارة الإفريقية.

وقد أسهمت هذه المبادرات ومثيلاتها في إرساء قواعد متينة للفضاء الديني بإفريقيا، عبر التمكين لإسلام وسطي يراعي الخصوصية الإفريقية ويعترف بالتنوع الذي يميز المجال الإفريقي الواسع.

حضرات السيدات والسادة،

إن الرؤية الرشيدة لصاحب الجلالة نصره الله وأيده لطالما أكدت على أهمية الاستثمار في المجال العلمي كركيزة أساسية للتنمية. والجامعة توجد في صلب هذا التوجه باعتبارها الفضاء الأمثل لإعداد رأس مال بشري مُمكن، قادر على مواكبة الأوراش التنموية الكبرى وعلى مواجهة تحديات العصر والمساهمة في بناء مستقبل البلاد.

وهكذا، وامتنالا لهذه الرؤية المولوية السامية، فقد عملت وزارة التعليم العالي والبحث العلمي والابتكار على إطلاق دينامية جديدة للجامعة المغربية من خلال المخطط الوطني لتسريع تحول منظومة التعليم العالي والبحث العلمي والابتكار، الذي يفتح آفاقاً واعدة لتعزيز التعاون العلمي، الثنائي والمتعدد الأطراف، كآلية لتعزيز الانفتاح الدولي للجامعة المغربية، وتطوير برامج الحركة الدولية

للطلبة والباحثين، وتقاسم التجارب والخبرات مع الجامعات والمعاهد الإفريقية والدولية. كما أننا نولي عناية خاصة لتعزيز التعاون الأكاديمي والعلمي مع دول غرب إفريقيا، التي تربطنا بها علاقات إنسانية وثقافية وحضارية ضاربة في عمق التاريخ، ونسعى جاهدين لتطوير برامج ومبادرات مشتركة تسهم في تبادل المعارف والخبرات بين مؤسساتنا التعليمية والبحثية.

وفي هذا السياق، تجدر الإشارة إلى أن تكوين الطلبة المنتمين للقارة الإفريقية يشكل جوهر هذا التعاون إذ بلغ، مجموع الطلبة الأفارقة المسجلين بمختلف مؤسسات التعليم العالي المغربية، خلال السنة الجامعية 2023-2024، على سبيل المثال، 23020 طالب من أصل إفريقي، أي ما يقارب 85% من إجمالي الطلاب الأجانب ببلادنا، مما يعزز الروابط الأكاديمية والعلمية ويساهم في بناء قدرات بشرية قادرة على مواجهة التحديات المشتركة في المنطقة.

وفي الختام، أود أن أعبر عن خالص متمنياتني بنجاح أشغال هذه الندوة، راجياً أن تسفر عن نتائج ملموسة تسهم في تعزيز العلاقات الثقافية والحضارية بين دولنا وشعوبنا. كما أؤكد على التزام وزارة التعليم العالي والبحث العلمي والابتكار بدعم كل المبادرات التي تسعى لتعزيز البحث العلمي والحوار الثقافي على المستوى الوطني والدولي.

وبما أننا نحتفي بذكرى عالم جليل، فإنه لا يسعني إلا أن أستلهم عادة أهل العلم بالصحراء في افتتاح مُصَنَّفَاتِهِمْ وأقول: لِيَكُنْ جمعنا هذا «مَيْمُونُ الْإِبْتِدَاءِ، مُبَارَكُ الْإِنْتِهَاءِ».

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

كلمة معالي البروفيسور بوريم كنساي

وزير التعليم العالي والبحث العلمي

بجمهورية مالي

(مترجمة عن النص الفرنسي)

السيد وزير التعليم العالي والبحث العلمي والابتكار بالمملكة المغربية

السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية

السيد المدير العام للإيسيسكو

السيد رئيس المجلس العلمي المحلي لجهة مراكش - آسفي

السيد رئيس جامعة القاضي عياض

السيد مدير مركز الحوار الحضاري بالإيسيسكو

السيدات والسادة

الحضور الكريم

بدايةً، أود أن أنقل إليكم التحيات الأخوية لرئيس المرحلة الانتقالية في مالي، العقيد عاصمي غويتا، وتحيات الشعب المالي.

يشرفنا أن نشارك في هذا الحدث الهام والبناء الذي يخدم العلاقات بين المملكة المغربية وجمهورية مالي.

تأتي هذه الندوة بعنوان «أحمد بابا التمبكتي: نموذج للدبلوماسية الحضارية في غرب أفريقيا»، في إطار الاحتفاء بمراكش عاصمة للثقافة في العالم الإسلامي لعام 2024.

ويطيب لنا أن نشكر السلطات المغربية على حفاوة الاستقبال وكرم الضيافة التي حظينا بها منذ قدومنا إلى هذه الأرض الأفريقية.

كما نتوجه بالشكر أيضاً إلى منظمي هذا الحدث لمنحنا فرصة اللقاء.

يُعدّ أحمد بابا علما شامخا في التاريخ العلمي والثقافي لمالي، ومكتبة لا تنضب ومصدر فخر واعتزاز خاص. فسيرة الرجل يستحيل فهمها دون الإلمام بتاريخ إمبراطورية الصنغاي ومدينة تمبكتو المهمة.

1. مدينة تمبكتو

تأسست مدينة تمبكتو في القرن الحادي عشر على يد الطوارق الأمازيغ وفقاً لسجلات عبد الرحمن السعدي (تاريخ السودان)، وقد رسخت مكانتها تدريجياً كواحدة من أكبر المدن في منطقة الساحل والصحراء. ومنذ القرن الرابع عشر، تفوقت على ولائته، التي كانت في السابق أهم مركز فكري وتجاري في المنطقة. يروي كتاب «تاريخ السودان» كيف استقطبت تمبكتو تدريجياً القوافل التجارية والعلماء من كل أنحاء العالم الإسلامي. فقد استقر فيها علماء وتجار من مصر وفزان وغدامس وتوات ودرعة وتافيلالت وفاس

وسوس، بالإضافة إلى سكان من عدة مناطق أخرى، ما جعل المدينة ملتقى ثقافي وفكري حقيقي. وقد أدت هذه الحركة البشرية والمعرفية الهائلة إلى نمو تمبكتو على حساب ولاتة التي فقدت تدريجياً دورها كمركز عالمي. وهكذا أصبحت تمبكتو ملتقى قبائل صنهاجة وشعوب الساحل الأخرى، معززة بذلك أهميتها الاقتصادية والثقافية في العالم الإسلامي خلال العصور الوسطى.

وقد شهد ليون الإفريقي، المستكشف الذي زار المدينة في القرن السادس عشر، على أهميتها عندما قال أن المخطوطات «كانت تباع بأسعار تفوق أي سلعة أخرى». ويوضح هذا الاقتباس القيمة التي كانت تولي للمعرفة والتعليم في هذه المدينة، التي كان البحث عن المعرفة فيها يفوق حتى السلع المادية.

2. أحمد بابا السوداني (1556-1627)

وُلد أحمد بابا السوداني، أحد أكثر الشخصيات الرمزية في عصره، يوم 26 أكتوبر 1556 في تمبكتو، في خضم هذه الفترة من الإشعاع الثقافي. وُلد أحمد بابا في أسرة مثقفة، واستفاد من تعليم رفيع المستوى، أولاً تحت وصاية والده أحمد، ثم عمه أبو بكر الذي منحه تعليمًا ثانويًا. ثم تلقى تعليمه العالي على يد أستاذه المرموق محمد باغاويغو حتى سن الثلاثين. وقد مكن هذا التعليم الصارم والشامل أحمد بابا من أن يصبح أحد أعظم علماء عصره، حيث ساهم في التألق الفكري لمدينة تمبكتو. ويعكس تعليمه التفوق الأكاديمي للمدينة، حيث كونت المؤسسات التعليمية وحلقات العلماء نخبة فكرية تركت أثرًا في العالم الإسلامي بأسره. وقد لعبت تمبكتو، بوصفها ملتقى للمعرفة، دورًا حاسمًا في تكوين شخصيات مثل أحمد بابا، وعززت مكانتها كمركز فكري عالمي.

3. المواجهة السلمية مع المغرب عام 1591

في عام 1591، أرسل سلطان المغرب مولاي أحمد المنصور الذي حسم مصير اللقاء بين المغرب والسودان الذي من شأنه أن يغير الديناميكيات السياسية

والفكرية لمدينة تمبكتو. في ذلك الوقت، احتج أحمد بابا، وهو عالم محترم يبلغ من العمر 36 عاماً، سلمياً على الشكل العسكري لهذا التداخل وقاد شكلاً من أشكال المقاومة الفكرية والثقافية في تمبكتو، وحشد النخبة العلمية في المدينة، ولا سيما علماء جامعة سانكوري المرموقة.

إلا أن هذه المقاومة لم يتم قبولها وتم اعتقال العديد من الأعضاء البارزين في عائلة آقيت، بالإضافة إلى أحمد بابا نفسه، بتهمة الإخلال بالنظام القائم. تم إرسالهم إلى مراكش، حيث وصلوا في 20 يونيو 1593 وتم وضعهم تحت المراقبة. تم إطلاق سراحهم في 19 مايو 1595، وتم اجبار العلامة على البقاء في مراكش.

وخلال إقامته، واصل أحمد بابا التلقي العلمي والتألق فكرياً. فدرس في جامع الشرفاء الذي يُعد مؤسسة مرموقة. كما خصص جزءاً من وقته للأنشطة الأدبية، وقام بتأليف العديد من المؤلفات التي استمرت في تغذية المعرفة الإسلامية.

وظل أحمد بابا شخصية رئيسية في العلوم الإسلامية، حيث ساعد في إقامة وإثراء التقاليد العلمية في تمبكتو على الرغم من فقدانه لوطنه الفكري.

بعد أن قضى حوالي أربعة عشر عاماً في المنفى بمدينة مراكش، سمح السلطان مولاي زيدان الذي تولى العرش عام 1607، لأحمد بابا بالعودة إلى وطنه. وفي 27 مارس من العام نفسه، غادر أحمد بابا مراكش متوجهاً إلى تمبكتو، حيث استعاد مكانته بين النخبة المثقفة في المدينة، واستأنف بعد عودته تدريسه في جامعة سانكوري، وساعد في تكوين أجيال من العلماء والطلاب.

وفي الوقت ذاته، تفرّغ أحمد بابا للكتابة، مما أثرى الأدب الإسلامي إثراءً كبيراً.

ظل أحمد بابا شخصية مؤثرة حتى وفاته يوم 22 أبريل 1627 في تمبكتو. وكانت وفاته، بعد عشرين سنة من عودته من المنفى، خسارة كبيرة للوسط العلمي. رحمه الله. لا يزال إرثه حياً بفضل كتاباته العديدة وتأثيره الدائم على التعليم والفقهاء الإسلاميين في المنطقة. فقد كان ولا يزال حلقة وصل بين مالي والمغرب.

4. الدروس المستفادة

4.1 الوطنية ومقاومة الاضطهاد

يعتبر أحمد بابا بارزا للوطنية ومقاومة الاضطهاد. إذ يشهد إصراره على الدفاع عن استقلال تمبكتو ضد الغزو المغربي، على الرغم من المخاطر الشخصية التي ينطوي عليها ذلك، على تعلقه العميق بوطنه. فلم يتردد في إعلان معارضته للهيمنة المغربية، مؤكداً أن المغرب ليس له أي حق على السودان. ويظهر دوره كقائد في المقاومة الفكرية في تمبكتو كيف استخدم العلماء معرفتهم كسلاح ضد الغزاة، وساعدوا في الحفاظ على هوية المنطقة واستقلالها الثقافي.

4.2 العلاقات الفكرية بين مالي والمغرب

عزز نفي أحمد بابا في مراكش، مع أنه كان قسرياً، التبادل الفكري الكبير بين مالي والمغرب. فخلال إقامته في مراكش، استمر أحمد بابا في التدريس وإصدار الفتاوى والكتابة، مما ساعد على نشر المعرفة بين المنطقتين. وقد ساهم هذا التبادل في إغناء التراث الفكري لكلا البلدين، مبرزاً كيف تتجاوز المعرفة الحدود وتساهم في بناء ثقافة مشتركة حتى في ظل النزاع.

4.3 الاختلاط المجتمعي والحوار بين الثقافات

أحدث التواجد المغربي في تمبكتو نهاية القرن السادس عشر الميلادي، لا سيما من خلال التجارة والتعليم، أثراً عميقاً ودائماً في مجتمع المدينة وثقافتها. كما اندمجت الجالية المغربية في المجتمع المحلي من خلال الزواج والتحالفات. وقد أدى الزواج المختلط إلى تداخل الثقافتين المغربية والمالية ما طبع بشكل كبير هوية تمبكتو الاجتماعية والثقافية.

ما يزال هذا الاندماج للجالية المغربية في المجتمع المحلي واضحاً حتى اليوم، لا سيما من خلال بعض الأسماء العائلية الرمزية مثل توريه وتاندينا وفاسكوي،

والتي تشهد على هذا الانصهار التاريخي. تُعد هذه الأسماء العائلية شواهد حية من التراث المغربي، وتوضح كيف ترك المغاربة بصمة لا تُمحى في المنطقة. فهي لا تمثل ذاكرة تاريخية فحسب، بل تعد أيضاً دليلاً على كيف يمكن للأحداث التجارية والفكرية والعسكرية والسياسية أن تحدد التركيبة الديموغرافية والثقافية لمجتمع ما على المدى الطويل.

5. تكريم أحمد بابا في مالي

تخليداً لذكرى أحمد بابا، أنشأت حكومة جمهورية مالي في عام 1970 مركز أحمد بابا للتوثيق والبحوث التاريخية لجمع المخطوطات القديمة وحفظها واستغلالها. وقد أصبح هذا المركز معهد أحمد بابا للتعليم العالي والبحوث الإسلامية، الذي يضم اليوم أكثر من 39,000 مخطوطة قديمة في مكتبته. شرع المعهد في منح دبلوم الدراسات العليا في التكنولوجيا الذي يركز على المخطوطات القديمة، ويشمل ثلاثة تخصصات: علم المخطوطات والرقمنة والفهرسة.

وختاماً، فإن العلامة أحمد بابا كان ولا يزال عالماً كبيراً يعكس ذروة المعرفة التمبكتوية. وقد فتح له تواجده بالمغرب آفاقاً أخرى مكنته من تأليف معظم مؤلفاته، بل وأثبت أيضاً المستوى الفكري لعالم تمبكتو الذي تلقى كل تكوينه الفكري في هذه المدينة.

وأخيراً، آمل أن نستمر في الاستفادة من نبع تاريخنا المشترك الذي لا ينضب لتعزيز علاقاتنا الدبلوماسية والسياسية والعلمية والثقافية الحالية ولتمهيد الطريق نحو عالم أفضل للأجيال القادمة.

شكراً جزيلاً

كلمة الدكتور محمد فاضل رئيس المجلس العلمي الجهوي لمراكش آسفي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن
تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: فإنه لمن دواعي السرور أن أحضر لهذا المحفل العلمي والتاريخي الذي
جمع الله فيه ثلة من خيرة العلماء والباحثين والمفكرين، وإنني من خلال
هذه الكلمة الموجزة حسبما يقتضيه عامل الزمن أتوجه إلى الله العليّ القدير
أن يجزي القائمين على هذه الندوة خير الجزاء، وأن يكمل أعمالها بالنجاح
والتوفيق.

يشرفني ويسعدني أن ألقى كلمة باسم المجلس العلمي الجهوي وقد أحب
السادة المنظمون أن تكون من بين الكلمات التي تفتتح بها هذه الندوة

وكلمتي إن شاء الله سأختصرها في عنصرين: أحدهما حول مكانة هذا العالم
وعلاقته بالمملكة المغربية الشريفة، مؤكدا من خلالها على العلاقة الوطيدة
ببلدان إفريقيا التي ما فتئ سلاطين وملوك الدولة العلوية على توطيدها وربط
الصلات بها، وخصوصا في عصر مولانا أمير المؤمنين وحامي حمى الملة والدين
جلالة الملك محمد السادس أعزه الله ونصره.

وثانيهما: في التنويه بهذه الندوة التي شارك فيها أعلام كبار من مختلف جهات
المملكة المغربية.

أما العنصر الأول: في مكانة العالم أحمد بابا التمبكتي، فهو من خيرة العلماء الوافدين على المغرب خلال العصر السعدي، وقد وصفه مترجموه بالعالم الموسوعي والعلامة الفاضل والشهير، من كبار المثقفين، ومؤلفاته خصوصا في جانب التاريخ من أنفع المراجع التي هي عمدة الكثير من الباحثين والمؤرخين، وإن كان قد عاش محنا وتغرب عن بلاده، فلم يكن ذلك مانعا له من بلوغ الغاية والمنى في طلبه للعلوم، وقد بلغ فيها شأوا ومنزلة يعرفها من اعتكف على قراءة كتبه وأبحاثه.

ولست بصدد التعريف به؛ إذ ما سيأتي من مداخلات ستوقف الباحثين على محطات مهمة من حياة هذا الإمام، لكن يكفي في هذا السياق التنويه بكتابه الماتع الموسوم: «نيل الابتهاج بتطريز الديباج» الذي هو مرجع مهم لكل من جاء بعده؛

وقد تكلم رحمه الله في نيل الابتهاج عن نفسه؛ فيبين أنه نشأ في طلب العلم وحفظ بعض الأمهات وقراءة النحو والتفسير والحديث والفقه والأصول والعربية والبيان والتصوف والمنطق.

أما العنصر الثاني: فهو حول هذه الندوة التي أعدت للوقوف على حياة هذا العلم من مختلف النواحي والجهات، وإنه لمن جميل المناسبات أن تعقد هذه الندوة بهذه المدينة الضاربة جذورها في التاريخ، فقد نال هذا العلم شرف التدريس بمسجد الكتبية بمدينة مراكش بين علماء مغاربة وأجانب، وساهم في ازدهار الثقافة الإسلامية بالمغرب.

وهذه الندوة قد جمع الله فيها هذه الثلة العالمة من الباحثين والمفكرين، الذين أغنوها بمداخلاتهم القيمة، من خلال ثلاث جلسات، حيث خصصت الأولى لبيان الأثر في تكوين أحمد التمبكتي، فتناولت معالم من مسيرته، ثم تغريته بمراكش، وحياته من المحنة إلى الاستقرار، وختمت بتجليات التواصل العلمي بين بلاد المغرب الإسلامي والسودان الغربي.

أما ثاني جلساته فأبرزت جانب التواصل الحضاري بين المغاربة وإفريقيا جنوب الصحراء، من خلال البعد الروحي والديني والتواصل العلمي والتواصل الحضاري من خلال الرحلات.

أما الجلسة الأخيرة فركزت على التواصل الثقافي بين شمال إفريقيا وجنوبها، كما فيها مداخلات في التواصل العلمي والحضاري بين المغرب والسودان من خلال مخطوطات التمبكتي التي خلفها، وختم بموضوع حول القوانين العرفية لبعض سكان الجبال.

فنسأل الله تعالى أن يكتب الأجر والثواب لكل القائمين على هذه الندوة التاريخية التي تبرز في عمقها الصلات الحضارية والعلمية الروحية بين المملكة المغربية وبلدان إفريقيا، ونسأل الله التوفيق لجميع المتدخلين.

كلمة معالي الدكتور بلعيد بوكادير

رئيس جامعة القاضي عياض

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

السيد رئيس الحكومة السابق

السيد وزير التعليم العالي والبحث العلمي والابتكار

السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة

السيد وزير التعليم العالي والبحث العلمي بجمهورية مالي

السيد المدير العام للإيسيكو

السيدة الكاتبة العامة لوزارة الثقافة

السيد رئيس المجلس العلمي الجهوي لمراكش آسفي

السيدات والسادة عمداء ومديرو المؤسسات الجامعية

السيدات والسادة رؤساء المصالح الخارجية

السيدات والسادة الأساتذة والموظفون الكرام وأبنائي وبناتي الطلاب الأعزاء،

أيها الحضور الكريم

السلام عليكم ورحمته الله تعالى وبركاته

إنه لشرف عظيم لي أن أرحب بكم جميعاً في هذا اللقاء العلمي المميز الذي تحتضنه جامعة القاضي عياض، في إطار الاحتفالات بمراكش عاصمة الثقافة في العالم الإسلامي لعام 2024. يشكل هذا الحدث مناسبة فريدة لتكريم مسيرة عالم جليل من علماء الإسلام في غرب إفريقيا، وهو العلامة أحمد بابا التمبكتي، الذي يمثل رمزاً مشرقاً للدبلوماسية الحضارية والتواصل العلمي بين الثقافات.

مراكش، هذه المدينة العريقة التي تأسست على قيم الانفتاح والتسامح، لطالما كانت مركزاً حضارياً يقصده العلماء والمفكرون من مختلف أنحاء العالم الإسلامي. ومن بين أعلامها البارزين يبرز الإمام القاضي عياض، الذي ترك بصمته في تاريخ العلم والفقه الإسلامي.

وكان حلقة وصل بين المشرق والمغرب. ونحن، في جامعة القاضي عياض، نفتخر بحمل اسم هذا العالم الكبير، ونستلهم من إرثه لنواصل المسيرة في نشر العلوم وبناء جسور التواصل مع مختلف الحضارات.

وفي هذا السياق، لا يمكننا إلا أن نستحضر التوجيهات السامية لصاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله، التي تحث على تعزيز العلاقات التاريخية والثقافية بين المغرب وباقي الدول الإفريقية. فالرؤية الملكية السديدة تهدف إلى جعل المملكة المغربية جسراً للتواصل والتعاون مع إفريقيا، ليس فقط على المستوى الاقتصادي والسياسي، بل أيضاً من خلال نشر العلوم والمعرفة وتبادل الخبرات.

وكما أشار معالي وزير التعليم العالي والبحث العلمي والابتكار، السيد عبد اللطيف ميراوي، في مداخلته القيمة، فإن العلاقات الثقافية والعلمية بين المملكة المغربية والدول الإفريقية ليست وليدة اليوم، بل تعود إلى قرون طويلة من التبادل الفكري والعلمي. فقد أشار السيد الوزير إلى الجهود التي تبذلها المملكة في دعم تكوين الطلبة الأفارقة في الجامعات المغربية، حيث يشكل

هؤلاء الطلبة جزءاً كبيراً من مجموع الطلبة الأجانب في بلادنا. هذه المبادرات تسهم في تعزيز التعاون الأكاديمي وبناء جسور الحوار والتنمية المستدامة بين شمال وجنوب الصحراء.

ومن خلال هذا التوجه الملكي، نسعى في جامعة القاضي عياض إلى مواكبة هذه الدينامية وتعزيز دورنا كفاعل رئيسي يساهم في تكريس هذا التعاون المثمر مع الجامعات والمؤسسات العلمية في إفريقيا. وتعكس مشاركتنا في هذه الندوة الدولية، التي تنظمها الإيسيكو، حرصنا على دعم المبادرات التي تعزز الحوار الحضاري بين العالم الإسلامي وباقي الشعوب.

أيها الحضور الكريم

إن أحمد بابا التمبكتي، الذي نستذكره اليوم، لم يكن مجرد عالم فقيه، بل كان نموذجاً للعلماء الذين اعتادوا الترحال، ناشرين العلوم والقيم الإسلامية السامية، ومؤسسين لجسور الحوار بين إفريقيا والمغرب الكبير. واليوم، ونحن نحتفي بهذا الإرث، نجد أن جامعة القاضي عياض تسير على نفس النهج، ساعية إلى تعزيز التبادل العلمي والثقافي بين المغرب وبقية القارة الإفريقية، وتكريس دورها كمحور للتعاون العلمي والتنموي.

ختاماً، لا يسعني إلا أن أجدد شكري العميق لكل من ساهم في تنظيم هذه الندوة القيمة، وأتوجه بخالص الامتنان لضيوفنا الكرام على حضورهم ومشاركتهم. وأسأل الله التوفيق.

كلمة معالي الدكتور أحمد توفيق وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية «سياق التدخل السعودي في السودان، وقراءات حال أحمد باب»

السيد الفاضل معالي المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة،

السيد الفاضل وزير التعليم العالي في جمهورية مالي،

السيد الفاضل وزير التعليم العالي في المملكة المغربية،

أيها السادة الأفاضل، أيتها السيدات الفضليات،

أهنئ منظمة العالم الإسلامي للتربية والعلوم والثقافة على برجة هذه الندوة وعلى تنظيمها في مدينة مراكش حول عالم تين بكتو¹ أحمد باب² المعروف بالسوداني، نسبة إلى السودان الغربي أي إفريقية الغربية.

ولد أحمد باب عام 1556 ميلادية بمدينة تين بكتو الواقعة شمالي مدينة باماكو الحالية بحوالي ألف ومائتي كلم. وحيث إن تلك الجهات التي يبدأ فيها العمران جنوبي الصحراء، وعلى حافة المناطق المدارية الساحلية، تعرف عند المغاربة بالسودان، فقد اشتهر أحمد باب في الأدبيات العربية بـ «السوداني».

1. الاسم مركب من «تين» التي تدل في اللغة الأمازيغية على الإضافة إلى مكان أو وصف مثل «تين (ل) غير» أي (القرية) التي في عرف الجبل، أو تين مل، أي التي في منحدر، ويقال إن بكتو، والغالب أنها بسكون الباء والكاف، امرأة كانت تملك بئرا هي الأصل في تسمية البلد.

2. المفروض حسب النطق الأمازيغي الصحراوي أن يتم الوقوف على الباء الأخيرة مفتوحة دون مد بالألف.

ولد أحمد في عائلة أمازيغية من قبيلة مُشوفة إحدى فروع صنهاجة (إزناكن)، تسمى عائلة أقيت³، وهي عائلة كانت فيها أجيال متعاقبة من الفقهاء والأئمة والقضاة، ولعل أحمد اشتهر أكثر منهم بفتاويه وبتأليفه في الفقه والتراجم وفي مواضيع طريفة من مواضيع العلم، وقد كان عمره أربعاً وثلاثين سنة 1590 عندما غزت جيوش سلطان المغرب تلك الجهات. وقد أبدى أحمد باب معارضة لهذا التدخل اشتهر بها، وبعد عامين أشهر خلالهما هذه المعارضة تلقى عامل السلطان، واسمه محمود زرقون، الأمر بنقل أحمد إلى مراكش معتقلاً مع عدد من أهله، ويستنتج من الواقعة وتاريخها أن هذا الاعتقال تقرر لوضع حد لتحريضه على الفتنة بين السكان. ولا يظهر من الأخبار أن الأمر يتعلق بـ «سجن»، وإنما هي إقامة مع الأهل بمنزل بمراكش، ولم تطل تلك الإقامة إذ حُرر الرجل وأعطى الفرصة للتدريس في مسجد الشرفاء المعروف في هذه المدينة بمسجد المؤاسين. واستمر على تلك الحال التي شهد بها المعاصرون له من العلماء إلى أن توفي السلطان أحمد المنصور عام 1603، فتولى ولده زيدان الذي لم يلبث أن سمح لأحمد باب بالرجوع إلى تين بكتو عام 1607. وفي طريقه نحو الجنوب توقف في زاوية تامكروت شهوراً استفاد فيها من كتب الزاوية ووضع بعض مصنفاته. وقد امتد به العمر إلى عام 1627.

لفهم قصة أحمد باب وما يدور حولها من التأويلات فهما تاريخياً يتعين فهم سياق التدخل السعودي في السودان في الإطار العام لعلاقات المغرب التاريخية مع مجال الصحراء الكبرى والمجال الواقع جنوبيها وهو مجال الساحل، ولتاريخ هذه العلاقات، كما هو معلوم، ثلاثة أزمنة متميزة، أولها الزمن القديم، وتميز بتواصل بشري وتبادل تجاري، إذ أن الصحراء الكبرى لم تكن يوماً حاجزاً حائلاً بين هذا التواصل أو التبادل، ومنذ ذلك الزمن والمجالان، المغرب وجنوبي الصحراء، مطبوع كل منهما بسمات المجال الآخر. والزمن الثاني

3. وهي في الأصل أقيت، بكاف بدوية، ولعل معناها العماد، إي عماد الخيمة.

هو الزمن الوسيط، وتميز بامتداد الإسلام من المغرب إلى المجال الساحلي وما رافق هذا الامتداد من قيام ممالك إسلامية ودخول علوم الدين وآلتها اللغة العربية ونشوء نخبة على أساس امتلاك العلمين كان لها نفوذ عند الولاة وعند العامة أكبر من نفوذ حملة علم الدين واللغة في الشمال، وقد نشطت في هذا الزمن الوسيط المبادلات التجارية عبر الطرق العابرة للصحراء كما قدمها كتاب ريمون موني Raymond Mauny : Le Tableau Géographique de l'Ouest Africain au Moyen Age. وبسبب هذا العنصر الجديد، وهو دخول الإسلام تميزت أربعة فضاءات، فضاء الشمال، وهو الفضاء المغاربي، والفضاء المباشر الذي يبدأ فيه العمران جنوبي الصحراء، وفيه تقع تين بكتو، بلدة أحمد باب، ومعظم سكان هذا المجال من الشمال أي من قبائل أمازيغ صنهاجة ومن عرب معقل؛ ثم فضاء «الساحل»، وفيه قامت ممالك إسلامية سكانها وأمرؤها من السود، ثم فضاء الغابات الكثيفة، وأهله من قبائل السود في أدغال الغابات الاستوائية، ومعظمهم وثنيون، وهم المتحكمون في الثروتين الأساسيتين اللتين يعمل ولاة الساحل على التوسط فيها مع المغرب، وهما الذهب والرقيق.

في آخر هذا الزمن الوسيط نجد شهادتين مفيدتين في تاريخ ابن خلدون، حيث يقول في الجزء السابع من كتاب العبر: «الخبر عن هدية السلطان إلى ملك مالي من السودان المجاورين للمغرب»:

«كان للسلطان أبي الحسن مذهب في الفخر وإيفاد الرسل على ملوك النواحي القاصية. وكان ملك مالي أعظم ملوك السودان لعهد، على مائة مرحلة في القفر، ولما استولى أبو الحسن على ممالك المغرب الأوسط سما سلطان مالي منسا موسى إلى مخاطبته فأوفد من أهل مملكته مع ترجمان من المثلثين، فوفدوا على السلطان في التهئة بالغلب والظفر بالعدو فأكرم وفادتهم وأحسن مثواهم ومنقلبهم فأتحف طرفا من متاع المغرب وماعونه وعين رجالا من أهل دولته وأوفدهم على ملك مالي منسا سليمان بن منسا موسى، وأوعز إلى أعراب الفلاة من المعقل بالسير معهم

ذاهبين وجائين، ففعلوا امتثالاً لأمر السلطان فأحسن مبرتهم وعادوا إلى مرسلهم في وفد من كبار مالي يعظمون سلطانه ويؤدون طاعته فأدوا رسالتهم وبلغ السلطان أرباً من من اعتزازه على الملوك وخضوعهم لسلطانه».

ثم قال في مكان آخر من نفس الجزء: «الخبر عن وفد السودان وهديتهم وإغرابهم فيها بالزرافة»:

«كان السلطان أبو الحسن لما بعث إلى ملك السودان منسا سليمان بن منسا موسى هديته المذكورة اعتمل في مكافأته وجمع من طرف أرضه وغرائب بلاده، وهلك السلطان أبو الحسن خلال ذلك، ووصلت الهدية إلى أقصى تغورهم وهلك منسا سليمان قبل وصولها، وشغل أهل مالي بالفتنة حتى قام فيهم منسا زاطة وأخبر أن الهدية بوالاتن، وأمر بإنفاذها إلى ملك المغرب، وضم إليها حيوان الزرافة، فوصلوا فاس في صفر من سنة اثنتين وستين وسبعمائة، فجلس لهم السلطان بـرج الذهب مجلس العرض، وغص الفضاء بالناس. وحضر الوفد وأدوا رسالتهم بتأكيد الود والمخالصة».

تُستفاد من نصي ابن خلدون أمور مفيدة في فهم السياق البعيد للتدخل السعودي في السودان، منها:

أولاً: جودة العلاقات بين ملوك المغرب وملوك السودان كما تبينها هذه الوقائع العائدة للقرن الرابع عشر الميلادي، علاقات ود يرمز لها تبادل الوفود والهدايا؛

ثانياً: أن القبائل التي على أطراف تلك المناطق السودانية من جهة الشمال من عرب معقل كانت لها تبعية لسلطان المغرب؛

ثالثاً: أن الحياة السياسية لتلك الجهات السودانية غير مستقرة.

أما الزمن الثالث في هذا السياق فهو الزمن الحديث، بالاصطلاح الأوروبي، ويتميز بتدخل طرف ثالث، وهو أوروبا الغازية في طريق استكشاف العالم الجديد، ونبدأ الكلام عن هذا العصر بوصف مؤلف كتاب وصف إفريقيا الحسن الوزان المعروف بليون الإفريقي لمدينة تين بكتو التي زارها عام 1511، ومما قاله عنها:

«فيها دكاكين كثيرة للصناع والتجار، لاسيما نساجي القطن، وتصل إليها أيضا أقمشة أوروبا يحملها تجار البربر. والسكان أغنياء مترفون لاسيما الأجانب المقيمين في البلاد. لكن الملح قليل جدا لأنه يستورد من تغازي البعيدة عن تين بكتو بنحو خمسمائة ميل. ويملك الملك خزينة كبيرة من النقود والسبائك الذهبية، وزن الواحدة منها ألفا وثلاثمائة رطل. والبلاد الملكي على قدر كبير من النظام والأبهة. وهو يحارب الأعداء من جيرانه ممن يتمتعون من أداء الخراج، وإذا انتصر باع في تين بكتو كل من أسره في القتال، حتى الأطفال. وفي تين بكتو عدد كثير من القضاة والفقهاء والأئمة، يدفع لهم الملك جميعا مرتبا حسنا ويعظم الأدباء كثيرا، وتباع أيضا مخطوطات كثيرة تأتي من بلاد البربر وتدر أرباحا تفوق أرباح سائر البضائع. وقد فُطر أهل تين بكتو على المرح وهم يعزفون على آلات الطرب ويرقصون، ولهم عدد كبير من الرقيق، ذكورا وإناثا، يعملون في خدمتهم.»

وتُستفاد من شهادة الوزان حول تين بكتو معطيات تلقي الضوء على الجو المتأصل في هذه المدينة في شمالي مالي، ومنها:

أولا: أنها كانت مركز تجار وصناع جاء بعضهم من الشمال أي من المغرب وغيره؛

ثانيا: أهمية نقط استخراج الملح، ومنها تغازي؛

ثالثا: أن ولاية هذه الجهة كانوا يسترقون مغلوبهم؛

رابعا: وجود نخبة متميزة بالعلم العربي منهم الفقهاء والقضاة والأئمة يتمتعون بعطاءات سخية من الحكام؛

خامسا: أن أهمية الثقافة العربية التي كان المغرب منطلقها المستمر جعلت الكتب أكثر البضائع المدرة للأرباح.

إذا كانت ملامح العلاقات المغربية السودانية في القرن الرابع عشر هي ما ألمحت إليه شهادة ابن خلدون فإن ظرفية حاسمة قد استجدت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، فعلى صعيد المغرب بدأ الضغط الإيبيري على أراضيه منذ احتلال سبتة عام 1415 إلى احتلال عدد من مدنه على الشاطئ الأطلسي إلى إعلان الجهاد لتحريرها، وهي ظرفية الجهاد التي حملت السعديين إلى الحكم، وقد عاصروا وصول هؤلاء الإيبيريين إلى خليج غينيا والتوغل في بعض الأودية كنهر السنغال وما استتبع كل هذا من تغيير في طرق تجارة السودان مع المغرب عبر الصحراء بتحويلها إلى عدد من المراكز التجارية الإيبيرية على البحر حيث كانت تصل السفن حاملة لبضائع منافسة في النوعية والثلث مع ما كان لذلك من تأثير سلبي على الصناعات اليدوية وانخفاض كبير في كميات الذهب التي تصل إلى المغرب، وقد وصف مؤرخ الإمبراطورية البرتغالية Godinho هذا التحول بأنه *La bataille des caravelles contre les caravanes*. أي معركة السفن المتوسطة السريعة ضد القوافل.

دام هذا الضغط الإيبيري على المغرب شمالا وجنوبا لأزيد من قرن ونصف، وجاهد المغاربة فحرروا كثيرا من المواقع الشاطئية المحتلة، وتنفس المغرب الصعداء من إجهاد قيام دولة جديدة على مواجهة الغزو عندما تحقق لهذه الدولة التي قامت على الجهاد كسر جيش البرتغال عام 1578 في معركة وادي المخازن. وكان من الطبيعي أن يلتفت المنصور إلى الضغوط على آفاقه الجنوبية، وما يتوجب من محاولة كسر الحناق الاقتصادي المرتبط بالتحويلات على الواجهة السودانية، ولا أحد يمكن أن ينكر أن جهاد المغرب هو قبل كل شيء في ذلك السياق ومن منظور الفاعلين فيه هو جهاد بالنيابة عن الأمة على

غرار ما قام به في المواجهة قرونا متوالية على الساحة الأندلسية، فالمغرب من منظور الإسلام واجهة للآفاق السودانية، ولو احتل المغرب في القرن السادس عشر لثم تنصيره ولما توقف هذا التنصير عند حدوده الجنوبية الصحراوية⁴.

أيها السادة، أيتها السيدات،

لقد سبق للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة أن أقامت ندوة في نفس هذه المدينة عام 1991 حول أحمد باب، ومع نفس الجامعة، جامعة القاضي عياض، والذي يهمني في المواد المنشورة لهذه الندوة من باب ملامسة الجانب السياسي في الموضوع، هو مقال الأستاذ المالي محمود الزبير، فمعلوم أن هذا الأستاذ هو صاحب أوفى دراسة عن أحمد باب، قدمها سنة 1977 لنيل دكتوراه السلك الثالث من الجامعة الفرنسية، وقدمها للنشر المشرف عليها وهو الأستاذ الشهير شارل بيبلا، وهي تحت عنوان: Ahmad bābā de Tom-bouctou (1556-1627), sa vie et son œuvre.

وفي المقال المذكور ما يلي:

أن أحمد بابا كان أكثر العلماء شهرة في تين بكتو إبان الحملة المغربية على مملكة سونغاي عام 1591، وأنه كان ذا مكانة بين مواطنيه.

وأن غرض سلطان المغرب من حملته هو بسط سيطرته ونفوذه على مناجم الملح والذهب في السودان.

وأن قائد الجيش السعدي، محمود زرقون، وبعد أن بسط سلطته على تين بكتو واجهه عصيان أحمد باب الذي كان يقول إنه لا حق للمغاربة في بلاد السودان.

⁴. تصدق هذا المنطق تطورات المشروع التوسعي الأوروبي في العالم ومنه إفريقيا وما انتهت إليه تلك التطورات لاسيما في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من الاحتلال والاستغلال، وإن كانت وقائع التطور الرأسمالي مصحوبة بالتطورات السياسية والفكرية قد جعلت الغزو اقتصاديا أكثر منه صليبيا لا سيما بعد ابتعاد الكنيسة عن الدولة بدرجات حسب الدول.

وحسب تعبير الزبير فإن أحمد باب تزعم مقاومة النخبة ضد «الغزاة» مستعملا فصاحته وجاذبية شخصيته.

وأن قائد الجيش هذا أعلم السلطان بالتفاف المعارضة حول التينيكيتي، ولكن السلطان لم يتخذ أي إجراء في حق المعارض إلا بعد سنتين، أي سنة 1593، عندما بلغه أن باب يحاول تعبئة الجماهير، عندئذ أمر باعتقاله ونفيه إلى المغرب مع أفراد عائلته.

وعلق الزبير بقوله إن علماء المغرب استنكروا غزو السودان لأن أهله كانوا مسلمين منذ القرن الثامن الميلادي ولم يكونوا يوما رعايا لهذه المملكة.

وفي رأي الزبير أن قصد المنصور هو سد العجز المالي بالغنائم والأسرى، سيما وأنه كان يخوض حربا ضد البرتغاليين.

ومع كل هذا فإن الزبير يقر بأن أحمد باب وأهله وجدوا عناية في مراکش، واقتصر الأمر على وضعهم تحت المراقبة في أحد البيوت. ثم لم يلبث أن أطلق سراحهم في ماي 1595. على أن يظلوا في مراکش.

وقال الزبير إن أحمد باب استدعي لقصر السلطان فلم تفلح فيه أساليب الترغيب والترهيب، وبذلك ظل البطل المقدم لاستقلال السودان.

وقد كان له من عام 1595 إلى حين رحيله عام 1607 مجلسان، مجلس لتدريس العامة في جامع الأشراف، ومجلس يستقبل فيه الخاصة في داره.

وختم الزبير بقوله إن الفترة الممتدة من 1593 إلى 1607، وأحمد باب بالمغرب، هي قمة عطائه، إذ ألف فيها أكثر من نصف أعماله، أي تسعة وعشرين من ستة وخمسين.

أيها السادة، أيتها السيدات،

في الكتاب الذي نشره كل من عمر ألفا كوناري وزوجته آدم با كوناري بعنوان Les Grandes Dates du Mali أورد المؤلفان حقائق تتعلق بوقائع السنوات العشر السابقة عن تدخل جيش السلطان أحمد المنصور في السودان، وتتلخص في أمرين، الأمر الأول هو حرص المنصور منذ توليه على نهج سياسة الصداقة مع مالي، وفي هذا الإطار قام بإرسال عدد من الهدايا إلى حكام الصونغاي من أسرة أسكيا؛ وعمل على التحكم في أهم محطات الطرق التجارية المؤدية إلى تين بكتو، وهي توات وكورارة، وعرض اقتراحات لاستغلال الملاحات على الأمراء الأسكيين. والأمر الثاني هو عدم الاستقرار السياسي، حيث تعاقب على الحكم في ظرف عشر سنوات أربعة من أمراء أسكيا، ثم وقوع أوبئة وانتفاضات لم تسلم منها جهة تين بكتو. وفي هذه المعطيات ما يؤكد أن التدخل السعدي لم يُطرح بمملكة الصونغاي، هذه المملكة التي كانت في انهيار للأسباب المشار إليها.

في سنة 1986، أي قبل انعقاد ندوة الإيسيسكو الأولى بخمس سنوات، شارك شيخ من مالي اسمه علي جالو في الدروس الحسنية الرمضانية، وألقى درساً عن «العلاقات التاريخية بين المغرب وبلاد السودان ودورها في دخول الإسلام وانتشاره في غرب إفريقيا». ولم يتعرض قط في درسه لتدخل السعديين ولا لقصتهم مع أحمد باب.

وعقب هذا الدرس تكلم جلالة الملك الحسن الثاني رحمه الله وأمر الحكومة بإيجاد مؤسسة تعنى بالدراسات التاريخية للعلاقات بين المغرب وبلاد السودان، أي بلدان إفريقيا الغربية.

لقد تم تعييني في دجنبر 1989 مديراً لهذه المؤسسة التي حملت اسم «معهد الدراسات الإفريقية» كمعهد بحث تابع لجامعة محمد الخامس، وقد واجهتني منذ البداية المعضلة الإيديولوجية المتمثلة في ميل زملائنا من المثقفين في دول إفريقيا الغربية،

وعلى رأسها مالي، إلى إسقاط الحاضر على الماضي (l'anachronisme)، وهو خطيئة عند المؤرخين المهنيين، وكانت قصة أحمد باب عنوان هذه المعضلة، فقد خرجت بلدان ما كان يسمى بالسودان الفرنسي من قرن من الاستعمار والاستغلال والاستلاب الأوروبي، وكان على شبابها، لاسيما من ذوي الثقافة الفرنسية، أن يبحثوا عن أبطال في تاريخ النضال الوطني بعيدا عن الاستعمار الذي خرجوا منه لتوهم، فكان على رأس هؤلاء الأبطال أحمد باب، وأن يبحثوا عن غزاة مستغلين، فكان المغرب يُقدم كذلك، لاسيما في الكتب المدرسية في عهد الاستعمار وإلى عقود بعد أن ولى العهد الاستعماري سياسيا.

كان على المعهد الذي عينت في إدارته أن يقيم مع الأصدقاء الأفارقة حوارا مهنيا من منظور صناعة التاريخ، وكان عليه، من أجل ذلك، أن يقيم محاضرات وندوات يحضرها الأفارقة من جنوبي الصحراء ويحضرها مختصون كبار من أمثال جون هانويك من نورث ويسترن يونيفيرسيتي وآن ماك دوكل من جامعة ألبرطا.

فهمت منذ البداية أن من مهمات المعهد إصلاح الفهم الخاطئ لهذه العلاقات عند الطرف الآخر، وقد صار المغرب في محافلهم يُقدم على أنه أمبيرالي وغاز مستعبد. ولذلك نَصَب المعهد منصة للكلام عن التراث المشترك، افتتحها أحمد مختار امبو الذي كان مديرا لليونيسكو وكان المحاضر الثاني فيها هو الأستاذ جون هانويك من أكبر معهد للدراسات الإفريقية بالولايات المتحدة. وكان من الباحثين الماليين المحاضرين في هذه السلسلة الأستاذة آدم با كوناري، من المدرسة العليا بياماكو، وكان زوجها إذ ذاك ألفا عمر كوناري مشغلا بالصحافة قبل أن يصير رئيسا للجمهورية. وأتذكر أنني صاحبت الأستاذة كوناري تلبية لرغبتها الملحة لكي تزور جامع الشرفاء بمراكش حيث كان يدرس أحمد باب. وقد صلت في خشوع ركعتين فاضت فيهما دموعها، وذلك من استحضار روح أحمد باب، كما

يتمثلها أهله مظلوما، ومن ثمة ازداد يقيني بضرورة تحرير أحمد باب من نفسه أولا ثم من القراءات الاستعمارية المغرضة ومن القراءات الإيديولوجية الوطنية التي ركبت عليه⁵.

ومن حسن الحظ أن عددا من المؤرخين المحترفين المتخصصين في تاريخ العلاقات بين ضفتي الصحراء الكبرى من خارج نطاق الثقافة الفرنسية قد أسهموا في نقاشات المعهد المتوالية واستطاعوا الإسهام في تعديل فهم بعض زملائنا الباحثين من دول غرب إفريقيا⁶.

أيها السادة، أيتها السيدات،

يتعين بعد المعطيات التي سقناها أن نحاول الحسم في الموضوع بتعليقين في غاية الإيجاز، أحدهما تاريخي، والآخر سياسي.

أما التعليق التاريخي فيتناول أمرين اثنين: أحدهما تصرف السلطان السعدي بالتدخل في السودان من جهة، وتعامله مع عالم تين بكتو من جهة أخرى. الأمر الثاني هو سلوك أحمد باب كرد فعل عن نقله إلى مراکش، وشخصيته من خلال أربعة كتب، ربما كانت أهم كتبه.

أما تصرف المنصور بالتدخل في السودان فكان، كما ذكرنا، ردا على أمرين، التدخل الإيبيري في المجال السوداني عن طريق البحر والإغراء بتحويل طرق التجارة والتجار عن المغرب، وردا على تنكر حكام الصونغاوي المتأخرين لتقاليد التعامل بالحسنى في المصالح المشتركة.

5. كانت مشاركة السيدة آدم با في نشاط المعهد سنة 1991 منشورة بعنوان: Les Relations Politiques et Culturelles entre le Maroc et le Mali à travers les âges وهي محاضرة تورد كل الوقائع المتعلقة بالسياق الدولي المتمثل في الغزو الإيبيري، ولكنها، ولنفس الاعتبار « الوطنية »، تعزله عن التدخل السعدي كما لو أن تلك المنطقة الجنوبية لا يهتمها ما يجري في الشمال بالرغم من الاشتراك في المصير الذي يقتضيه الإسلام وتفرضه وقائع تحويل الطرق التجارية نحو البحر.

6. في المدة ما بين 1990 و 1995 نظم المعهد أكثر من أربعين محاضرة ونشرها في إطار كرسي التراث المغربي والإفريقي، ونظم عددا من الندوات الدولية.

أما تعامل المنصور مع أحمد باب فقد كان في غاية ما درج عليه سلاطين المغرب من توقير العلماء، فقد أمهله سنتين بعد وصول الجيش إلى السودان واضطر لنقله لأنه كان يحرض على الفتنة، ثم إنه أكرمه في عاصمته مراكش هو وأهله وفسح له المجال للتعليم والتواصل العلمي وتأليف أكثر من نصف كتبه بالمغرب، وبعد هذا كله فإن السلطان قد تحمل الجراءة التي أظهرها التمبكتي في استقباله.

أما سلوك أحمد باب فقد كان مزاجيا، وحيث إن هذه الندوة تنعقد في جامعة القاضي عياض، فإننا نذكر أن هذا القاضي كان من علماء المغرب الكبار ومن مشاهير بلده سبتة، وأنه كان في هذه المدينة العلمية الروحية العتيقة وهي سبتة عندما دخلها خليفة الموحدين عبد المؤمن بن علي، وأن القاضي عياضا أظهر معارضة لدخول الموحدين سبتة ومن ورائها معارضته لإطاحة هؤلاء الموحدين بالمرابطين الذين كانت لديهم الخطوة الكبرى لفقهاء المالكية، وتخوفا من عبد المؤمن من ألا يستتب له الأمر في سبتة بتأثير موقف القاضي عياض قرر نقله إلى مراكش، ولو قورن نقل المنصور للتمبكتي من بلده إلى مراكش بنقل عبد المؤمن الموحي للقاضي عياض من سبتة لنفس التخوف وهو خلق جو المعارضة لأمر اقتضته مصلحة الأمة من ولي الأمر لظهر الفرق شاسعا، بين إسلام عياض لولي الأمر وتنطع التمبكتي، فقد ضعفت دولة المرابطين وأحاطت المخاطر بالمغرب والأندلس تحت ضغوط خانقة من المسيحيين، وما كان لعياض أن يتشبث بالشرعية الحرفية للمرابطين وهو يتجاهل تقدير الظروف السياسية الجديدة، فظهر في موقف عالم سبتة كما ظهر أحمد باب كعالم تين بكنو، وفي سلوكه مقابل فإن عالم الأندلس الشهير أبا بكر ابن العربي المعافري قد هرع ليستنجد بعبد المؤمن لإنقاذ الأندلس بالرغم من الاختلاف معه في كل شيء، ولكنه ظهر بمظهر عالم الأمة الذي يقدم مصلحتها وهي البقاء. ولو كان لأحمد باب شعور عالم الأمة لأنحنى إجلالا أمام المنصور تقديرا لدولته في كسر القوة الأوروبية الأولى ذات الأهداف الصليبية وهي البرتغال

والتي كانت تدخلاتها في شواطئ غربي إفريقيا ستصل إلى مالي لولا دحرها في وقعة وادي المخازن، ولكن أحمد بابا إنما أظهر غيرته على تين بكتو حيث كان وأسرته وأشباههم من الأثرياء يتمتعون بامتيازات التوسط في تجارة الذهب والملح والرقيق. فهل كان بابا على غير علم بمواجهة السعديين لأوضاع دولية خطيرة في غربي المتوسط وقد كان عمره اثنتين وعشرين سنة عند وقوع معركة المخازن والأخبار تسري في شرايين الصحراء الكبرى مع سريان الرياح؟.

وهنا نقف على الكتاب الذي ألفه أحمد بابا بعنوان «جلب النعمة ودفع النقمة بمجانبة الولاة الظلمة»، ولولا أنه ألفه عام 1588، أي عامين قبل التدخل السعدي في السودان، لقلنا إنه مستوحى من واقعه مع المنصور، وربما يكون الدافع إليه التعامل السيئ الذي صار للسلطين الأسكيين المتأخرين مع العلماء، وعلى كل حال فالموضوع مسبق فيه الطرح والنقاش على امتداد قرون تاريخ المسلمين بناء على واقع تميز بكون المنتسبين إلى علم الدين هم في الغالب على أربعة أصناف: الصنف الأول وهم المداهنون وهم في الغالب من طلاب الدنيا، والصنف الثاني وهم الفتانون وهم إما من مهووسي العقول أو من طلاب التزعمات، والصنف الثالث وهم المقاطعون أو دعاة المقاطعة إما من جهة العجز أو من جهة التكبر وقد لا يخلو موقفهم من الفكرة المثالية القديمة عن قذارة السياسة مع ما تعززت به هذه الفكرة من التجارب السلبية في تاريخ المسلمين، أما الصنف الرابع فهم العلماء العاملون الصابرون الوعاظ الناصحون الذين يرون من واجبهم قبل كل شيء مراعاة مصالح الخلق من جهة الدين. وقد سبق للباحثة الإسبانية مانويلا مارين أن كتبت عن الصنف الثالث أي دعاة المقاطعة في الأندلس، وكان لهم شعار هو «الانقباض عن السلطان».

أما الكتاب الثاني الذي يمكن أن تستشف منه شخصية أحمد بابا فهو «معراج الصعود في نيل حكم مجلب السود، أو الكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان». وهو يدور على القول بجواز استرقاق السي في جهاد غير المسلمين، وهو المذهب الشائع بين عموم الفقهاء حيث إنك تجد في منظومة ابن عاصم قولاً في باب بيع الرقيق وسائر الحيوان، يقول:

بيع الرقيق أصله السلامة وحيث لم تذكر فلا ملامة

والواقع أن تاريخ المسلمين يدل على أنهم أجهضوا عددا من السيرورات التحريرية التي جاء بها القرآن والسنة ومنها تصفية الاستعباد أو وضع حد لتجارة الرقيق، وكانت هذه التصفية ستنتهي في العقود الأولى من تاريخ الإسلام، إما بأنواع الحث التعبدي على فك الرقاب، وإما بتجفيف منابع الرقيق بناء على عدم جواز نشر الإسلام بالإكراه، أما الذي حصل فهو اعتبار الرقيق حالة عادية تصنف في شروطه وحيثياته المصنفات. أما هذا المجال السوداني، ومنه تين بكنو، فقد رأينا في الأخبار أنه يعج بالعبيد ومصدرهم من الوثنيين وممن شبهوا بهم والذين يبيعهم المتحكمون فيهم من زعماء الأدغال، ويتصرف جزء مهم من هذه البضاعة الشنيعة إلى الشمال، أي المغرب، وما رأينا فقيها في هذا الساحل ولا في المغرب نهى عن هذا المنكر إذا استثنينا حالة الفقيه الفاسي جسوس في القرن الثامن عشر وتعاليق مؤلف «الاستقصاء» في الموضوع.

أما الكتاب الثالث فهو «تحفة الفضلاء ببعض فضائل العلماء»، وقد ألفه في المغرب عام 1603. وموضوعه في الموازنة بين العلماء والصوفية، وهو بدوره موضوع مطروق عند الغزالي وزروق وغيرهما، ويظهر أن سياق إعادة طرح التمبكي لهذا الموضوع هو انتشار التصوف في المغرب وارتباطه بالجهاد ضد الإيبيريين، وذلك على أيدي الشاذلية التي ذهب شيخها علي الغماري من المغرب واستعيدت على أيدي الجزولية وما تفرع عنها، وظهر وكأن للعلماء منافسين هم الصوفية في أمرين هما استقطاب العامة والحظوة لدى الحكام. وبينما رجح بعض من سبق للكتابة في الموضوع كفة الصوفية فإن أحمد باب، كما قد يبدو من العنوان، قد ألف ليرجح كفة العلماء، وهو أمر غير محقق من خلال التمعن في النص. والواقع أن الأمر لا يمكن الترجيح فيه على التعميم، لأن التفاضل أساسا قائم على التقوى، وهي مرجوة عند الطرفين، وقد قام المعهد بنشر نص «تحفة الفضلاء» مع ترجمته إلى الفرنسية (ترجمه الأستاذ محمد زنيبر وخرج أحاديثه

الأستاذ إبراهيم بن الصديق)، وذلك لإتاحة الاطلاع عليه عربونا لتراث التنبكي من لدن من لا يعرفون العربية، وهم جل أهل مالي. ولعله النص الوحيد المترجم لهذا العالم، وإن كان الزبير قد أشار إلى أن مستعربا إنجليزيا كان منشغلا بترجمة الكتاب الذي على محبوب السودان.

أما الكتاب الرابع فهو الذي عنوانه «اللمغ في الإشارة لحكم تبغ»، وقد ألفه في زاوية تامكروت سنة 1607 وهو في طريق الرجوع إلى تين بكتو. وموضوعه أن التبغ غير محرم بنص صريح، ولا يمكن أن يقاس على الخمر لأنه غير مسكر ولا مفتر، ولا شك أن التنبكي يقصد تناول التبغ بالشم والمضغ، وهذا ما يقدح فيه لأن التعود كيفما كانت الكيفية يؤدي إلى الإدمان.

ومن النكت المتبادلة مع أحد هؤلاء الجهابذة المتخصصين وهو جون هانويك بصدد هذا الكتاب أنه كان يقول لي مرارا: «لو قمنا معا بترجمة رسالة أحمد باب التي يحلل فيها التدخين والتي عنوانها: «اللمغ في الإشارة لحكم تبغ»، إلى اللغة الإنجليزية وقدمناها لشركة مارلبورو لحصلنا منها على مال طائل».

أيها السادة، أيتها السيدات،

مهما يكن الأمر فالمغرب جزء من حياة أحمد باب، ومن هذا النصيب المغربي في حياة أحمد باب تجددت مكانته في مشاريع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في مراكش: ومنها أمران هما العناية بالدار التي كان يسكنها في الزقاق المجاور للجامع الشرفاء، وتخصيص جناح له في مشروع متحف الحياة الدينية المبرمج بروض العروس ضمن جناح مراكش الإفريقية.

أيها السادة، أيتها السيدات،

آتي هنا بعد الحديث عن التاريخ والعلم إلى تعليق سياسي ضروري لأقول: لقد انتهى الغزو الأوروبي باستعمار بلاد السودان الغربي في شكل عدة

دول ووضعت لها حدود في خريطة المستعمرات، وكان المغرب من الدول المستعمرة التي فرضت عليها حدود في نفس السياق؛

وإذا توقفت العلاقات التجارية في أغلبها بين المغرب وهذه البلدان، فقد ظلت العلاقات الدينية والوشائج الروحية بين سكان غربي إفريقيا وبين المغرب، بل تعززت لاسيما بشبكة الطرق الصوفية؛

خرجت هذه العلاقات سليمة من ثلاث زوايا: زوابع الاستعمار وزوابع الشيوعية وزوابع الحماسة المصاحبة لتأكيد الهوية الوطنية العاطفية بعد الاستقلال.

وهي علاقات تدخل اليوم في مرحلة جديدة مبنية على أمرين: الأمر الأول هو الشعور المشترك من كل الأطراف بضرورة حماية الثوابت الدينية المشتركة في مواجهة التدخل الأجنبي المحتضن للإرهاب؛ والأمر الثاني هو التعاون الاقتصادي بشروطه العقلانية المتوازن عليها.

ومن العناصر التي تجاوب بها المغرب مع مساعي البلدان الإفريقية الواعية بقيمة التراث المشترك وفائدته لمواجهة متطلبات الظرف الجديد عنصران هما استقبال الطلبة في الجامعات، ثم استقبال طلبة البلدان الإفريقية في معهد محمد السادس لتكوين الأئمة المرشدين والمرشدات، وأول فوج كان من مالي، والعنصر الثاني هو تأسيس مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة، ولو كان أحمد باب التمبكتي حيا لكان من أعضائها، وها هو محمود الزبير الذي ألف الترجمة التي أشرنا إليها هو رئيس فرع المؤسسة في مالي.

قد يكون الغبار انجلى عن حقيقة العلاقات المغربية مع البلدان الإفريقية في الجانب الروحي بعد ستين عاما من الخروج الرسمي من الاستعمار الأوروبي، وقد تكون الأجيال الجديدة في هذه البلدان قادرة على إدراك براءة هذه العلاقات وعلى فهم التعاون المطلوب في الجانبين لصيانة التراث المشترك

الضامن للأمن من جهة والتعاون على التنمية بشروطها في مشاطرة الأرباح من جهة أخرى، ولكن هذه العلاقات هي أخطر من ذلك من منظور القراءة الكونية للمصالح الحضارية، لذلك فإن مخططات قطع المغرب عن بعده الإفريقي لا تفتأ تتجدد، وقد تكون في مكرها أكبر من وعي المستهدفين، ومن المؤسف أن أطرافا في العالم الإسلامي لا تعرف دور المغرب على امتداد القرون كثرغ لهذه الأمة، لذلك، ولحسابات ضيقة أو بسبب الغفلة قد تجد نفسها خادمة عن غير وعي للمخطط الكوني المذكور، فنظرية المؤامرة قد تضر التحليل أحيانا وقد تبعث على الوسواس، ولكنها ليست مما يترك كله إذا كانت قرائنها بادية للعيان. وللناس في ما يستقبل من الزمن أن يحكموا على هذا الكلام الذي ألقى في مراكش ومن منبر المنظمة الإسلامية للثقافة والعلوم والثقافة.

إن من حق أهل كل بلد أن تكون لهم رموز للنضال الوطني يستمدون منها قيم الحرية والصمود والتضحية، ومن حق إخوانهم في البلدان الأخرى أن يشاركوهم في الافتخار لأن قيم الحق قيم مشتركة، فعندما استقلت مالي من الاستعمار في القرن العشرين كان المغاربة يغنون: «مديوكايتا يا غالي، يا رئيس جمهورية مالي». ولكن الذي لا يجوز هو ابتسار حقائق التاريخ، ومن الابتسار إسقاط مفاهيم الحاضر على الماضي، ومنها مفهوم الوطنية، ومن الابتسار أيضا تجاهل السياق المركب لوقائع التاريخ، ومن هنا نرى أن تقدير شخصية أحمد باب كعالم ينتمي لثقافة كونية هي ثقافة الإسلام التي لا يجحد دور المغرب في قيامها على امتداد العصور في منطقة جنوبي الصحراء، تقدير ينصفه العقل في حدوده وليس بحاجة إلى إسقاط إيديولوجي كيفما كان، أو بمعنى آخر فقد آن الأوان لكي نعيد قراءة حياة أحمد باب بعيدا عن الإساءة للتاريخ بقطع هذه الحياة عن سياقها وبعيدا عن الحماسة الوطنية للقرن العشرين، إذ أن هذه الحماسة سواء بالنسبة للمغرب أو لمالي ينبغي أن

تربي الأجيال على وضع الأمور في مواضعها وبتقديرها، ومن هنا لا يجوز غمط حق أحمد باب في أي شيء كما لا يجوز إعطاؤه ما ليس من حقه وهو أن يُستعمل في طمس قرون من التواصل في إطار الإسلام والنظر إلى واقعة التدخل السعودي في مالي على أنها عملية بخلفية نهب اقتصادي واستعباد بشري كان أحمد باب من ضحاياه.



الجلسة الأولى

الأثر المغربي في تكوين أحمد بابا
التمبكتي في الموارد وكرق التلقي



معالم في مسيرة العلامة التمبكتي: الشيخ محمد بن محمود بن أبي بكر الونكري

البروفيسور عبد القادر إدريس ميغا
أستاذ التعليم العالي، ومدير معهد زايد للعلوم الاقتصادية
والقانونية بجمهورية مالي

المقدمة

الحمد لله الذي كرم الإنسان بالعقل، وشرفه بالعلم، القائل: ﴿يرفع الله
الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾، والصلاة والسلام
الأفضلان الأتمان على أفصح الخلق لسانا، سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين
بلسان عربي مبين، وعلى آله وصحابه الطيبين الأكرمين، ومن تبعهم
بإحسان إلى يوم الدين.

تعتبر الدراسات التاريخية المتعلقة بشخصيات العلم والتعلم في المجتمعات
الإسلامية من أبرز المجالات التي تسهم في فهم تطور الفكر الإسلامي
وتقدير دور العلماء في تشكيل الحضارة. إن البحث في حياة وأعمال
هذه الشخصيات لا يسهم فقط في إلقاء الضوء على دورها في بناء المعرفة
وتطويرها، بل يساهم أيضاً في فهم الأبعاد الثقافية والاجتماعية التي شكلت
التاريخ العلمي.

ومن بين الشخصيات البارزة التي أسهمت بشكل كبير في نشر العلم
وتعليمه، يبرز العلامة محمد بن محمود بغيوغو وهو أحد الأسماء اللامعة

التي تستحق دراسة معمقة. فقد شكل هذا العالم محط أنظار العديد من العلماء والطلاب في عصره، وكان له تأثير كبير على طلابه وعلمائه. ولكن هذا العالم لم يحظ بما يسحق من الاهتمام والدراسة وهذا ما يبرر اختياره موضوعاً لنا بعنوان: (معالم في مسيرة العلامة أحمد بابا التمبكتي: الشيخ محمد بن محمود بن أبي بكر الونكري التمبكتي ت 1002هـ)

يتناول هذا البحث إذا حياة العلامة محمد بن محمود بغيوغو من خلال تتبع سيرة تلميذه أحمد بابا التمبكتي، الذي يُعتبر من أبرز العلماء الذين استفادوا من علمه وعطائه. وبالتالي، فإن دراسة العلامة محمد بن محمود بغيوغو من خلال تلميذه أحمد بابا التمبكتي تتيح لنا نافذة لتقدير القيمة العلمية والأثر الذي تركه هذا العالم الجليل.

وسيعرض البحث أولاً نشأة أحمد بابا التمبكتي، والبيئة العلمية التي نشأ فيها، وعلاقته بالعلماء الذين تلقى العلم على أيديهم، مع التركيز على العلاقة المتميزة التي كانت تجمعهم بالشيخ محمد بن محمود بغيوغو.

كما يتناول البحث المكانة الاجتماعية والإصلاحية للعلامة محمد بن محمود بغيوغو، وأثره العميق في الساحة العلمية والاجتماعية. من خلال تسليط الضوء على تعليمه وتأليفه، ويتجلى لنا أثناء ذلك الأثر الكبير الذي خلفه في إثراء المعرفة، مما أكسبه شهرة عالمية امتدت عبر الأجيال.

وفي الختام، نأمل أن يكون هذا البحث إضافة قيمة في مجال الدراسات العلمية والتاريخية، وأن يُساهم في إلقاء الضوء على جوانب من حياة هؤلاء العلماء الذين قدموا للبشرية زاداً من المعرفة والفضل.

وكما لاحظتم فيما سبق سنخصص المبحث الأول لجزء من حياة أحمد بابا وهو الجزء الذي يتعلق بملازمة شيخه محمد بغيوغو ونهاية دراسته. وفي المبحث الثاني سنتعرض للحديث عن محمد بغيوغو من ولادته إلى وفاته حسبما تيسر لنا من المعلومات عنه. ولا شك أننا سنعتمد على أحمد بابا في الكثير منها. ويتشكل الهيكل حسب الآتي:

المبحث الأول: أحمد بابا التمبكتي: نسبه ومولده وتعلمه وسيرة حياته الاجتماعية،

المبحث الثاني: محمد بغيع بن محمود بن أبي بكر الونغري: نسبه ومولده، رحلته العلمية، تلامذته وحياته الاجتماعية.

الخاتمة: وتحتوي على نتائج هذا البحث والتوصيات.

المبحث الأول: أحمد بابا نسبه ونشأته وتعلمه وسيرة حياته الاجتماعية

أولا - نسبه ومولده:

أ. نسبه

هو أبو العباس أحمد بابا بن أحمد بن الحاج أحمد بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحيى بن قُـدَّالاً بن بَكُّ بن علي بن نِقُّ بن لَقُّ بن يحيى بن تَشْت بن تَكْبَر بن جِيزِي بن أَكَنْجَر بن أنصار بن أبي بكر بن عمر المسوفي، الصنهاجي، الماسني⁷، التكروري، التمبكتي، السوداني.

ب. مولده

ولد أحمد بابا بتمبكتو في 21 ذي الحجة سنة 963هـ/26 أكتوبر سنة 1556م، في عصر الإمبراطور أسكيا داوود بن أسكيا محمد بن أبي بكر⁸

7. ينظر: أحمد بابا بن أحمد بن الحاج أحمد بن عمر السوداني التمبكتي، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج (مخطوط)، رقمه: 2460، الورقة: 239، معهد أحمد بابا للدراسات العليا والبحوث الإسلامية، تمبكتو، جمهورية مالي.

8. اعتلى العرش في الثاني والعشرين من صفر سنة (955هـ/1549م)، وظل يسوس دولتهم إلى أن أتيح به يوم الثلاثاء السابع عشر من رجب سنة 991هـ/1582م. ينظر: القاضي ألفع محمود كعت بن الحاج المتوكل الكرمني الوعكري التمبكتي، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور وتفريق أنساب العبيد من الأحرار، نشر: هوداس، طبعة باريس، 1913م، ص 93، 119. Boubou Hamma ; Histoire Des Songhay ; Présence africaine, Paris, 1968. pp. 201-200.

وهو من أسرة اشتهرت بالعلم ورئاسة القضاء في المنطقة وتذكر الكتابات التاريخية أن جده محمد أقيت بن عمر هو أول من حل بـ«تمبكتو» من أهل بيته قادما من «ولتا»، حصل ذلك في بداية القرن العاشر الهجري الموافق للقرن الخامس عشر الميلادي، وكان من قبل ساكنا في بلدة «ماسنا»⁹،

ثانيا - نشأته وتعلمه:

الحقيقة أننا لا نعلم إلا النزر القليل عن طفولة أحمد بابا. إلا أنه بحزتنا بعض المؤشرات بشأن الظروف التي أتم فيها دراسته. ويبدو أنه نشأ بتمبكتو في بيت علم ومكانة وعز، بيت أقيت. وانشغل منذ طفولته بطلب العلم، والجد في دربه. اجتهد في ذلك حتى فاق معاصريه، بل سابقيه، وصار فريد عصره يُلجأ إليه في الضروريات، ونجم دهره يهتدى به من الغي والضلال في كل مجالات العلم، وبرع في كل فنون المتاحة له وقتئذ. فذاع صيته في الآفاق واشتهر أمره بين علماء المغرب والمشرق. ومن المتعارف عليه أن والده أحمد وعمه أبوبكر هما اللذان تكفلا بتعليمه وتربيته.

وإذا كان أحمد بابا محظوظا لكونه نشأ وترعرع في أحضان عائلة يعتبر جل أفرادها من الأدباء، فإن حظّه الأوفر تمثل في كونه عاش فترة شبابه في تمبكتو خلال أسطع فترات تاريخها الثقافي والحضاري. وقد كان بوسعه حضور مجالس العلماء، الكثيرين، في ذلك العصر. وبالتالي لم يكن عليه أن ينتقل كثيرا من أجل التحصيل العلمي والبحث عن الأساتذة الأكفاء لتلقيه العلوم الإسلامية الأساسية. فضلا عن ذلك، ومن الواضح أنه كان لهذه الحلقات والمجالس أثرها البالغ في بلورة شخصيته، ويتضح ذلك من خلال استعراضه لموجز حياة بعض كبار الأساتذة في السودان في ذلك العصر.

9. ينظر: عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران السعدي، تاريخ السودان، نشر: هوداس، ص 36، مكتبة أمريكا والشرق الأوسط، باريس، 1981م. Mahmoud A. Zouber, Ahmad Baba de Tombouctou, sa vie et son œuvre. pp.16 (1556-1627).

ويبدو من خلال استقراء لسيرته الذاتية أنه كان مثابراً ويعمل دون كلل وملل، ساعياً، من خلال مجالسته العلماء، إلى إثراء مداركه وإشباع فضوله ورغبته في المعرفة. ونستشف ذلك من أحد النصوص المقتبسة من كتاب «طريق السودان» الذي يصفه بالتلميذ المثابر الجاد.

ويبدو كذلك من أن أحمد بابا ظل يطلب العلم حتى ناهز سن الثلاثين، وبذلك أصبح الرجل الأكثر رسوخاً في العلم في عصره حتى مجيء المغاربة سنة 1591.¹⁰

وقد وصفه تلامذته وبعض العلماء، ومنهم السعدي الذي وصفه بقوله: «لا يناظر في العلم إلا أشياخه ... وكان وقفاً عند الحق ولو كان من أدنى الناس، ولا يدهن فيه ولو الأمراء والسلطين». ¹¹ وقال عنه تلميذه أبو عبد الله محمد بن يعقوب الأديب المراكشي في فهرسته: « كان أخونا أحمد بابا من أهل العلم، والفهم، والإدراك التام الحسن، حسن التصنيف، كامل الحظ من العلوم فقهاً وعربيةً وأصولاً وتاريخاً ». ¹²

ووصفه أحمد بن الحاج محمد بن أبي فهرى التواتي فيما نقله البرتلي: «بعالم الدنيا ومعلمها، حامل لواء الأحاديث ومفهمها، رافع رايات مذهب الإمام مالك ومقدمها». ¹³

10. حياة أحمد بابا التميمي: بحوث الندوة التي عقدتها إيسيسكو مراكش 22-25 صفر 2/ 5 سبتمبر 1991 منشورات المنظمة الإسلامية للثقافة والعلوم - إيسيسكو - 1414هـ/ 1993 ص 72.

11. السعدي: تاريخ السودان، ص 35.

12. خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر لمحمد الأمين بن فضل الله المحبي (111 هـ)، وزارة الثقافة والإرشاد القومي لا. ط، دمشق 1988، ج 2، ص 244.

13. البرتلي: أبو عبد الله الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي الولاتي، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تع: محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، سنة 1401هـ/ 1981م. ص 6.

ثالثاً. شيوخه

تنقل أحمد بابا خلال فترته الطلابية بين عدة علماء تمبكتو بناء على حاجته من الفن المعرفي الذي يتوق إليه، فكان توجهه إلى أحدهم يتم بناء على تيقنه من أنه مجيد تخصصه أكثر من غيره، أو أنه بارع في إيصاله إلى المتلقين بطريقة أنسب وأسهل من نظيره، وهذا هو ما أدى إلى أن يتعدد شيوخه وتطول قائمة أسمائهم، ومنهم:

1. عمه أبو بكر بن الحاج أحمد¹⁴.
2. وأبوه أحمد بن الحاج أحمد؛ كانت صلته بالملك أسكيا داوود متينة، ولذا كان كثير التردد بين المدينتين «غَاوُ» و«تَمبكتو»¹⁵.
3. ثم اتصل بالشيخ محمد بن القاضي محمود بن أبي بكر الونعري¹⁶ ولازمه ما فوق عشر سنين وكان أكثر ما أخذه عنه هو الحديث والفقه والمنطق والنحو والتنجيم، وقد أجازته في كل ما علمه بخطه¹⁷.

¹⁴.مر الحديث عنه.

¹⁵.ينظر: نيل الانتهاج بتطريز الديباج، تقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، ط 1، 141-142. Mahmoud A. Zouber, Ahmad Baba de Tombouctou (1556-1627), sa vie et son œuvre.pp.41

¹⁶.المشهور بـ«محمد بغيغ» التمبكتي، ولد في ولاية أسكيا الحاج محمد بن أبي بكر بـ«جيني» سنة 903هـ/1498م، وتوفي بـ«تَمبكتو» يوم الجمعة 19 شوال سنة 1002هـ/1594م، ودفن في مقابر سنكري. ينظر: أحمد بابا، كفاية المحتاج، 2/ 237 - 238. تاريخ الفتاش، ص 82. والسعدي، تاريخ السودان، والبرتلي، وفتح الشكور، ص 28.

¹⁷.ينظر: أحمد بابا السوداني، كفاية المحتاج، تح: محمد مطيع، 2/239 - 240.

4. العاقب بن محمود بن عمر بن محمد أقيت، ولد سنة 913هـ/1507م، كان عالماً جسوراً، وذا مبدأ ثابت لا يتزحزح عنه أبداً، كان قاضي تمبكتو في عهد كل من أسكيا داوود بن أسكيا الحاج محمد بن أبي بكر، وابنه أسكيا الحاج الثاني بن داوود¹⁸، وفي زمن هذا الأخير توفي سنة 991هـ/1583م، فتعطل القضاء لمدة سنة وخمسة أشهر، ثم بعدها وافق أسكيا الحاج الثاني بتولية القاضي عمر بن محمود بن عمر بن محمد أقيت يوم الخميس في أول المحرم سنة 993هـ/1585م، بعد استعطاف من الشيخ محمد بغيع.

يعد الفقيه العاقب من أعظم القضاة الذين عرفتهم مدينة تمبكت، وحظي باللقاء مع عدد من شيوخ زمانه بالمشرق أثناء رحلته إلى الحج منهم: أبو الحسن البكري، والشيخ البسكري، والناصر اللقاني الذي أجاز له في كل ما يستحق له فيه الإجازة. وهو من أساتذة أحمد بابا بالإجازة وهذا ما أثبتته هو نفسه في كتابيه «نيل الابتهاج بتطريز الديباج» و«كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج» بقوله: «وأجازني كذلك، وكتب لي بخطه»¹⁹.

5. أحمد بن محمد بن سعيد، حفيد الفقيه محمود بن عمر بن محمد أقيت، ولد سنة 931هـ/1525م، وتوفي سنة 976هـ/1568م، يعد من أجلاء علماء عصره، وكان أستاذاً محمد بغيع قبل أن يصير معلم تلميذه أحمد بابا، وعنه يقول هذا الأخير: «أدركته وأنا صغير، وحضرت دولته»²⁰.

18. ينظر: تاريخ الفتاش+، المصدر نفسه، ص 109، 114، 118 - 119، 121، 123، 124. والسعدي، المصدر السابق، ص 117 - 118.

19. نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، ط 1، ص 354. وكفاية المحتاج، تح: محمد مطيع، 1/378.

20. ينظر: أحمد بابا السوداني، كفاية المحتاج، تح: محمد مطيع، 1/139.

تولى منصبه في التدريس الشيخ محمد بغيغ بعد وفاته²¹. هذا دون الحديث عن العديد من العلماء الذين التقى بهم أو عاشهم في المغرب، والعديد من الأطباء المغاربة والأندلسيين والشارقة والذين غالبا ما يعرض لذكرهم والاستشهاد بهم في كتبه ومؤلفاته، والذين يمكن اعتبارهم أساتذته من الدرجة الثانية أو الثالثة.

فمن تتبع حياة أحمد بابا يجد نفسه أمام مثقف طلعة، وشخصية حملت لواء العربية ردحا من الزمن ونشر العلوم والثقافة العربية الإسلامية وضحي في سبيلها بالغالي والنفيس، وكفى شهادة كثرة تأليفه وتلامذته. وقد نقلت إلينا المصادر التاريخية ظاهرة ازدهام الطلاب من حوله ودوران الفتيا عليه لفظا وكتابة وما ذلك إلا اعتراف بفضله وعلمه الجم²².

ومن المعارف التي كان لهذا العالم قدم راسخ فيها: القرآن وعلومه، والحديث وعلومه، والفقه وأصوله، واللغة العربية، وعلوم البلاغة²³.

21. السعدي، تاريخ السودان، ص 42.

22. ينظر بحوث ندوة إيسيسكو في مراكش المرجع السابق ص 130

23. ينظر: أحمد بابا السوداني، المصدر السابق، 1/139، 2/239.

رابعاً. سيرة حياته الاجتماعية

واقترء بالمنهج السائد قديماً لدى مؤرخي السودان الغربي من عدم الاعتناء -غالباً- بالسيرة الاجتماعية للشخصيات التاريخية، فإن المعلومات التي تناولت هذا الجانب من حياة أحمد بابا كانت ضئيلة جداً، وتنحصر في الإشارة إلى أسماء عدد من الأعقاب المنتسبين له منهم:

ولده الذي يدعى محمد بن أحمد بابا، كان مرافقاً للباشا المغربي علي بن عبد القادر²⁴ يوم خرج من تمبكتو متجهاً إلى مكة للحج في 14 من صفر سنة 1041هـ/1632م، لكنهم اضطروا على العودة لما وصلوا بلدة «توات» نتيجة هجوم من بعض المردة عليهم، وتوفي الفقيه محمد بـ«تنبكتو» في 9 ذي الحجة سنة 1056هـ/17 من ديسمبر سنة 1655م²⁵، ولعل هو الملمح إليه عند بعض المؤلفين من الشمال الأفريقي الذي قال بمعرفته لابن له اسمه محمد²⁶؛

وحفيده المسمى محمد الذي يذكر أنه توفي بـ«مراكش»²⁷، ويقول كاتب مغربي أنه قابل له حفيداً يدرس علم التنجيم بالقاهرة أثناء رحلته للحج²⁸، كما ذكر له حفيده عرفت بـ«نانا عائشة» التي عثر على اسمها في حاشية لإحدى النسخ المخطوطة لـ«نيل الابتهاج بتطريز الديباج» بالمكتبة الوطنية بمدينة «باريس» تحت رقم: 5257²⁹.

²⁴. أخ القائد محمد العرب، وهو الباشا المعاصر للملك أسكيا داوود الثاني بن أسكيا محمد باني بن أسكيا داوود الأول، زوجه الملك بإحدى قريباته عقب تصالحه معه. ينظر: السعدي، تاريخ السودان، ص 232 - 233، 234.

²⁵. ينظر: المصدر نفسه، ص 223.

²⁶. أحمد بن محمد الحديقي، كتاب المناقب، 2/43، الدار البيضاء، 1357هـ/1950م.

²⁷. ينظر: أحمد بن محمد المقرئ، روضة الآس العطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، ص 76، منشورات المكتبة الملكية، الرباط، سنة 1964م.

²⁸. ينظر: عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيوخات والمسلسلات، تح: إحسان عباس، ط 2، 1/314.

²⁹. ينظر: أحمد بن محمد المقرئ، المرجع السابق ص 314.

ومن ناحية أخرى أورد كاتب فرنسي مر بمدينة تمبكتو في رحلة علمية له، أنه رأى حفيدين له وهما: أحمد أبو بكر وهو عالم وقاض، وعمر بابا الذي كان يحترف يومئذ مهنة الكتابة ونسخ المخطوطات³⁰.

ومما يمكن استنتاجه من هذه الأسماء ذات الصلة بأحمد بابا هو أنه كان أبا ناجحاً، ومربياً رشيداً، استطاع أن يعلم أبنائه، ويورثهم ما تلقاه من أجداده وآبائه من المعارف النفيسة والقيم النبيلة، فحملوا منه لواءها وواصلوا الرقي بها في الحياة، فأخلدوا بذلك مآثره ومآثر أجدادهم وأنفسهم إلى الأبد.

توفي أحمد بابا بـ«تيمكتو» ودفن بـ«مقبرة سيد محمود بن عمر»³¹ بجي «أبرج».

³⁰. ينظر: Felix du Bois, Tombouctou la mystérieuse, Paris, 1897. pp. 331 و Mahmoudy.

A. Zouber, Ahmad Baba de Tombouctou (1556-1627), sa vie et son œuvre. pp.36

³¹. ينظر: الأولياء الصالحون في تمبكتو الذين تحيط قبور بعضهم بالمدينة، ص 2، مقالة منشورة على الإنترنت.

المبحث الثاني: محمد بغيغ بن محمود بن أبي بكر الونغري

نسبه ومولده

لنعرف الكثير عن مكانة محمد بغيغ العمية والثقافية يجب أن نتعرض للحديث عن أسرته. فنجد أن والده محمود بغيغ من أكبر علماء مدينة جنيّ، وينتسب إلى قبيلة ونكري³². وكان يتمتع بجودة الذكاء وسرعة الإدراك، للأمور التي يصعب على غيره فهمها، وصل في العلم أقصاه، وفي المنزلة أعلاها. ولأه الأمير أسكيا إسحاق القضاء في جنيّ. وذلك بعد وفاة القاضي العباس كبّ في العام التاسع والخمسين بعد تسعمائة (959 هـ).

ويبدو أنه تنازل عن القضاء لينتقل مع أسرته إلى مدينة تمبكتو الثقافية والعلمية الفتية حيث قضى آخر حياته وعلا أمره. وهناك لمع ولداه أحمد ومحمد وبخاصة محمد محمود بغيغ، موضوع بحثنا هذا. الذي تقلد عمامة شيخ الشيوخ فيها. توفي محمود بغيغ في أواخر القرن التاسع، ولم أقف على تاريخ وفاته، رحمه الله - وأسكنه فردوسه.³³ وإلى جانب والده اشتهر حاله بالعلم والتفنن فيه و هو من الذين كان لهم الفضل في تكوين شخصية محمد بغيغ العلمية من الصغر وسنرجع إليه في موضعه.

أما محمد بن محمود بن أبي بكر الونغري هو موضوع حديثنا فهو الابن الأصغر لمحمود أبي بكر بغيغ، ولد سنة 903هـ/1498م. وكان أبوه قاضي مدينة «جنيّ» في زمن أسكيا إسحاق الأول بن الحاج محمد بن أبي بكر، وإذا كان هذا سيرة أسرته فليس غريبا أن يوصف هو بكل نعوت الفضل، والعلم، والتعبد، والصبر، والصلاح.

³² وهي القبيلة السنونكية التي قامت بدر كبير في الحياة الاقتصادية والثقافية بمالي ونجدها منتشرة في كل أنحاء مالي وتتمركز في الإقليم الأول حيث تشكل الغالبية العظمى من السكان

³³ انظر ترجمته: في السعدي: تاريخ السودان، ص19، والبرتلي: فتح الشكور ص29.

وكان بسبب ثقته في نفسه وأمانته وإخلاصه وحسن ظنه بالناس، تنعكس له صورة نفسه في الناس جميعاً، ولا يشك بأحد منهم شراً، ظنا منه أن الناس كلهم مخلصون مثله.

تتلمذه ورحلاته العلمية

وإذا كان أحمد بابا لم يكمن بحاجة للتنقل خارج المنطقة طلباً للعلم نظراً لكثرة العلماء وازدهار العلم في وقته فإن أستاذه محمد بغيغو لم يجد هذا الحظ بل قاداته ظروف الحياة أن يتعلم على أيدي كثير من العلماء والفقهاء داخل تمبكتو وخارجها.

وعليه فإن رحلته الدراسية قد بدأت بوالده القاضي الصالح محمود أبي بكر بغيغ وعليه أخذ العربية والفقه وعلى يد خاله الفقيه الصالح. ثم رحل لتمبكتو مع أخيه أحمد، فلازما الفقيه أحمد بن سعيد في المختصر. ثم حجاً مع خالهما، فلقوا بمصر الناصر اللقاني والتأجوري والزين البحيري، والشريف يوسف، والشيخ ولي الله محمد البكري، وغيرهم، فحصلوا هناك ما حصلوا. ثم رجع بعد أداء فريضة الحج. وملاقاة بعض علماء المشاركة إلى بلده فانتقل نهائياً إلى تمبكتو، ولازم الفقيه أحمد بن سعيد فأخذ عنه الفقه والحديث والمدونة والموطأ والمختصر وغيرها من الكتب. كما لازم والد أحمد بابا في الأصول والبيان والمنطق.³⁴

وأخذ عن الفقيه الحاج أحمد بن أحمد الأصول والبيان والنطق وقرأ عليه أصول السبكي وتلخيص المفتاح، وحضر عليه جمل الخونجي.³⁵

³⁴. ينظر أحمد بابا: نيل الابتهاج، ص 601.

³⁵. الحركة الفقهية ورجالها في السودان الغربي من القرن 8 إلى القرن 13 الهجري تأليف عبدالرحمن محمد ميغا منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المملكة المغربية 1432 هـ/ 2011م ص 285

وقال عنه تلميذه أحمد بابا إنه كان يتحلى بصبر عظيم على التعليم آناء الليل والنهار وعلى إيصال الفائدة للبليد بلا ملل ولا كسل حتى يضجر حاضروه وهو لا يكثرث فنفذ الله به كثيرا ويضيف أحمد سمعت بعض أصحابنا يقول: «أظن هذا الفقيه شرب ماء زمزم لئلا يمل في الإقراء تعجبا منه لما رئي من صبره».³⁶

حتى صار أخيرا شيخ وقته في الفنون لا نظير له.

ومن الفنون المعرفية التي أتقنها الشيخ محمد بغيغ: القرآن، التفسير، الحديث وعلومه، والفقه وأصوله، والعقيدة، والنحو، والصرف، والبلاغة، والمنطق، والتنجيم...؛ ولم يقف عند إجادتها فحسب بل درّسها للمتعلمين من مختلف المستويات والأعمار، كما أجاز كثيرا منهم فيها مثل أحمد بابا وهذا بشهادة لسانه:

مكانته العلمية

كان رحمه الله مجدد القرن العاشر في السودان الغربي، عالما، علامة، متفنا، ويصف أحمد بابا علمه قائلا: «كان ... محققا، درّاكا، ذكيا، فطنا، غواصا على اللطائف، حاضر الجواب، سريع الإدراك، وجودة الفهم، معروفا بذلك».³⁷

³⁶. ينظر أحمد بابا: نيل الابتهاج، تحقيق الدكتور علي عمر، المجلد الثاني 295

³⁷. أحمد بابا: نيل الابتهاج، ص 601.

ويعد محمد بغيغو بلا شك أحد الرجال الذين كان لهم أثر بليغ على شخصية أحمد بابا ويقول بهذا الصدد: ((كان بالنسبة إليّ المعلم والمرشد في مجال حرفة الأدب، ولم يكن لغيره علىّ فضل بنفس القدر، ولي الحق في أن أقول ذلك)) أضاف القول: ((كنت أكنّ لمحمد بغيغو إعجاباً حقيقياً، وخير دليل على ذلك هو أنني ما برحت ملازمته عشر سنوات، ولا انقطعت عن الاستقاء من علمه ومعارفه)) وبها يمكننا الجزم بأن أفكار محمد بغيغو قد أثرت كثيراً كتابات أحمد بابا وأنه قد ساهم بشكل لا يرقى إليه الشك في تكوين وتوجيه فكر أحمد بابا، ويتضح من خلال النص السابق مدى الإعجاب الشديد الذي كان يكتنه لأستاذه.³⁸

ووصفه آخرون بأنه كان صالحاً، عابداً ناسكاً، متواضعاً، لين الجانب، نزيهاً عادلاً محبوباً لدى العامة والخاصة مفتياً من خيار عبد الله الصالحين والعلماء العاملين ملازماً للعبادة مبتعداً عن رديء الأخلاق والخوض في الفضول، يسعى حوائج الناس ويبدل مجهوداً كبيراً في حرمة الناس، ويتفجع لمكروهم ويصلح بينهم وينصحهم بحبة العلم وملازمة مجالسه، جماعاً للكتب. بذاك نفائس كتبه العزيزة النافعة لطلبة العلم.³⁹

كان حبّه لأهل العلم عظيماً، واعتناؤه بهم شديداً، فبذل لهم نفائس الكتب الغربية العزيزة، ولم يفتش عنها بعده، فضاع له بذلك كتب كثيرة. يقول عنه تلميذه أحمد بابا في ذلك:

«وربما يأتي لباب داره طالب، فيرسل له براءة (رسالة) فيها اسم كتاب يطلبه، فيخرجه من الخزانة، ويرسله له، من غير معرفة من هو ... مع محبته للكتاب، وسعيه في تحصيله شراء ونسخاً. وقد جئته يوماً أطلب منه كتب نحو، ففتش في داره، فأعطاني كلّ ما ظفر به منها».⁴⁰

³⁸.

³⁹ الحركة الفقهية المرجع السابق 286

⁴⁰ أحمد بابا: نيل الابتهاج، ص 600.

وفيما يخص جهوده، فإنه قسم أوقاته بين قضاء حوائج الناس الاجتماعية والدينية، وبين التدريس والتأليف يقول أحمد بابا: «أدركته أنا يقرئ من صلاة الصبح أول وقته إلى الضحى الكبير دولا مختلفة، ثم يقوم لبيته، ويصلي الضحى مدة، وربما مشى بعدها للقاضي في أمر الناس، ويصلح بين الناس. ثم يقرئ في بيته وقت الزوال، ثم يصلي الظهر بالناس ويدرس إلى العصر ... ثم يذهب إلى موضع آخر، يدرس فيه إلى الاصفرار، أو قريبا منه وإذا صلى المغرب درس في الجامع إلى العشاء».⁴¹

وله تعليقات وحواش على هفوات شرح خليل وغيره، وله طرر تتبع فيه شرح التتائي من أوله إلى آخره فبين ما فيه من السهو نقلا وتقريراً في غاية الإفادة، جمعها تلميذه أحمد بابا في عدة كراريس تأليفاً مستقلاً. وله أيضاً كتاب سماه قرعة الطيور⁴² وله أعمال لازالت مخطوطة ومتناثرة بين المكتبات الخاصة والعامة في المنطقة وفتاوى عديدة لم تصل إلينا. بقي رحمه الله طول حياته في التدريس والفتوى والقضاء بين الناس إلى أن توفي يوم الجمعة من شوال عام اثنين وألف هجرية ص 286 منه⁴³.

حياته الاجتماعية

وإن كانت المصادر لم تحفطنا بكثير من مكانته الاجتماعية إلا أن الحال تقتضي وقتئذ أن يكون محمد بغيغ قد لعب دوراً كبيراً في المجتمع حيث ورد في كثير من المصادر التاريخية أن العلماء كانوا عماد الحياة الاجتماعية وكانوا أصحاب العقد والحل. بل كان الملوك والسلطين يخافون منهم ويجلونهم. وصفه أحمد بابا بقوله:

⁴¹. المرجع نفسه، ص 601.

⁴². هذا الكتاب موجود في (I.R.S.H) المعهد للأبحاث العلمية والإنسانية، قسم المخطوطات العربية.

⁴³. ترجمته في: أحمد بابا: نيل الابتهاج، ص 600 - 603، ومحمد مخلوف: شجرة النور الزكية، ص 287، وأحمد بابير: السعادة الأبدية، ص 34 - 35. والحركة الفقهية ص 286

«كان من خيار عباد الله الصالحين، والعلماء العاملين مطبوعا على الخير، وحسن النية، وسلامة الطوية، حتى كاد يتساوى عنده الناس في حسن ظنه بهم، وعدم معرفة الشر. كان يسعى في قضاء حوائج الناس، ويضرب نفسه في ذلك، حتى كان يتوجع لمكروه أصاب أحدهم. وكان كذلك يهتم بتطهير نفوسهم من دنس الجهل حيث كان ينصحهم بطلب العلم، وملازمة تعلمه.»

ويسترسل أحمد بابا في ذكر محاسنه أنه تحلى بملازمة العبادة وصلاح النية والتجافي عن رديء الأخلاق وإضمار الخير لجميع البرية حتى للظلمة، مقبلا على ما يعينه متجنبنا الخوض في الفضول⁴⁴.

وقد عرف محمد بغيغ بمخافة الله وغلبة العفة وكرهية الاستعلاء على خلق الله، حتى كره أن يتولى أي منصب سواء كان دينيا أم سياسيا، خوف الإيقاع بالرعية أو التعدي على حق من حقوقهم، ولذلك رفض القضاء يوم رغب أسكيا إسحاق الأول بن أسكيا محمد بن أبي بكر، أن يوليه إياه بمدينة جنى، وكان يومئذ في زيارة تفقدية لأحوال الرعية، والسبب نفسه هو ما حفزه على الامتناع عن التوقيع على وثيقة الباشا محمود بن علي بن زرقون⁴⁵ التي كتب فيها للسلطان المغربي المنصور أحمد الذهبي⁴⁶، ما يرر قبضه على القاضي عمر بن محمود بن عمر بن محمد أقيت...، وقد خُير بين التنفيذ لما أمر به وقطع اليد، فكان رده على الباشا مبتسما: «قطعك اليد أفضل وأولى من كتب شهادة الزور، فالعياذ بالله، فأنا والله أختار قطع الرأس عليه»⁴⁷.

44. أحمد بابا كفاية المحتاج، تحقيق د علي عمر، المجلد الثاني ص 238

45. هو الباشا الذي أرسله أحمد المنصور الذهبي إلى بلاد سنغي ليخلف الباشا جودر.

46. هو السلطان المنصور بالله أبو العباس مولاي أحمد الذهبي بن محمد الشيخ بن محمد أمغار الشريف بن عبد الرحمن، وأمه جارية اسمها «للسه عودة» تنتسب إلى بني فالال، ولد بفاس عام 956/1549م، وبويع بالسلطنة في ساحة معركة وادي المخازن يوم الاثنين آخر جمادى الأولى سنة 986/4 من أغسطس 1578م، توفي ضحوة يوم الثالث عشر من الربيع النبوي عام 1012هـ/1603م، وهو عائد من مدينة فاس إلى مراكش، فحمل إليها وبها دفن. ينظر: السعدي، تاريخ السودان، ص 206.

47. نظر تاريخ الفتاش، ص 176، 177.

تلامذته

حسب الإشارات الواردة في طيات بعض الكتب يبدو أن محمد بن محمود بغيوغو قد خرّج طلاب وعلماء كثيرين ولكن للأسف، فهو ممن ظلمتهم الدراسات التاريخية فلم يجدوا حظهم من الترجمة وما يسحقون من ذكر جهودهم التعليمية، وكل الذين درسوا على أيديهم. فمن الغريب أن نجد محمد بغيوغو الذي وُصف بالصبر على التعليم بصفة عامة وعدم الملل والكسل في تعليم حتى البليد بصفة خاصة وما قيل عنه أنه يلازم الإقراء من صلاة الصبح إلى الضحى الكبير، وما قال عنه أحمد بابا «لأزمته أكثر من عشر سنيين فهو شيعي وأستاذي مانتفعت بأحد انتفاعي به» ومع كل هذا وذاك لم نجد له تلاميذ حجة.

ونذكر من تلامذته الشيخ الخونجي من غير أن نقف على ما أخذه عليه والفقيه أحمد بابا الذي لازمه أكثر من عشر سنين، فقرأ عليه أكثر من عشرين كتابا في الفنون والعلوم المختلفة. أعاد قراءة بعضها مرّات عديدة، فختتم عليه مختصر خليل وفرعي ابن الحاجب قراءة بحث وتحقيق وتحرير، وختتم عليه مختصر خليل أكثر من عشر مرات وحضر عليه التوضيح، وقرأ عليه الموطأ قراءة تفهم، وختمه عليه، وحضر عليه المنتقى والمدونة غيرها من الكتب الفقهية والعربية واللغوية⁴⁸

يقرّ أحمد بابا بفضل عليه قائلا: «وبالجملة فهو شيعي وأستاذي، ما انتفعت بأحد انتفاعي به وبكتبه - رحمه الله ونفعه - وأجازني جميع ما يجوز له، وعنه، وكتب لي بخطه في ذلك. وأوقفته على بعض تألّفي وتقاييدي فكتب لي بخطه الثناء والموافقة، بل كتب عني أشياء من أبحاثي حين نيته. وسمعته ينقل في دروسه بعضها لإنصافه وتواضعه وقبوله الحق حيث تعيّن».⁴⁹

توفي القاضي محمد بغيوغو بن محمود في تمبكتو يوم الجمعة 19 من شوال سنة 1002هـ/1594م، ودفن بمقابر سنكوري⁵⁰.

48. الحركة الفقهية ص 285

49. أحمد بابا نيل الابتهاج، المرجع السابق، ص 602.

50. ينظر: تاريخ السودان، ص 212. وتاريخ الفتاش، ص 91.

الخاتمة

نستنتج من هذا البحث الآتي

1. أن كتب الترجمة والتاريخ قد أهملت محمد محمود بغيوغو وبُحلت في ذكر جهوده العلمية والتعليمية مما لم يسعفنا الوقوف على شخصية بغيوغو ودوره في تثقيف المجتمع من ثم معرفة كل الذين استفادوا من علمه وفكره
2. أنه كان غزير العلم في عدة تخصصات وفنون مما حدا بأحمد بابا أن يلازمه أكثر من عشر سنين وقرأ عليه أكثر من عشرين كتاب.
3. أنه لولا أحمد بابا لما سمعنا عن هذا العالم الجليل وعلمه وصبره ومحبه للناس شيئا يذكر.
4. وأنه شارك في تطوير العلاقات العلمية والثقافية بين السودان الغربي وشمال إفريقيا والمشرق العربي بتعليمه وتعلمه.

التوصيات

1. تنظيم مثل هذه الندوات التي تتناول التاريخ المشترك من خلال المخطوطات وأعمال القدامى لإثراء المكتبات العربية والعالمية بنتائج البحوث والدراسات.
2. تكوين فريق من الباحثين الماليين والمغاربة لدراسة العلاقات بين البلدين لغربة التاريخ واختيار ما يمكن أن يوطد الروابط الثقافية والسياسية والاجتماعية بين الشعبين.

المصادر والمراجع

تنقسم المصادر والمراجع إلى عدة أقسام وهي:

أولاً: المصادر العربية

أ- المخطوطات:

1. أحمد بابا بن أحمد بن الحاج أحمد بن عمر السوداني التمبكتي، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، رقمه: 2460، وعدد أوراقه: 352، معهد أحمد بابا للدراسات العليا والبحوث الإسلامية، تمبكتو، جمهورية مالي.

ب- المطبوعات:

1. أحمد بابا السوداني، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، تح: محمد مطيع، مطبعة فضالة، المحمدية، المملكة المغربية، سنة 1421هـ/2000م.
2. أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج (المقدمة)، تقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، ط 1، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 1989م.
3. أحمد بابا السوداني، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، تحقيق الدكتور علي عمر مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى القاهرة 1423هـ/2004
4. أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج تحقيق الدكتور علي عمر مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى القاهرة 1422هـ/2003
5. أحمد بن محمد الحديقي، كتاب المناقب، 2/43، الدار البيضاء، 1357هـ/1950م.

6. الحركة الفقهية ورجالها في السودان الغربي من القرن 8 إلى القرن 13 الهجري تأليف عبد الرحمن محمد ميغا منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- المملكة المغربية 1432 هـ/2011م ص 286

7. حياة أحمد بابا التمبكتي: بحوث الندوة التي عقدتها إيسيسكو مراكش 22 - 25 صفر 2/5 سبتمبر 1991 منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة-إيسيسكو-1414هـ/1993 ص 72

8. الأولياء الصالحون في تمبكتو الذين تحيط قبور بعضهم بالمدينة، مقالة منشورة على الإنترنت.

9. خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر لمحمد الأمين بن فضل الله المحبي (111 هـ)، وزارة الثقافة والإرشاد القومي لا. ط، دمشق 1988، ج 2، ص 244.

10. القاضي أرفع محمود كعت بن الحاج المتوكل الكرمني الوعكري التمبكتي، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور وتفريق أنساب العبيد من الأحرار، نشر: هوداس، طبعة باريس، 1913م.

11. عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدي، تاريخ السودان، نشر: هوداس، مكتبة أمريكا والشرق الأوسط، باريس، 1981م.

12. أحمد بن محمد المقرئ، روضة الآس العطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، منشورات المكتبة الملكية، الرباط، سنة 1964م.

13. المحبي: والحبي محمد أمين بن فضل الله بن محب الله بن محمد المحبي الحموي الدمشقي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، القاهرة، سنة 1876م.

14. البرتلي: أبو عبد الله الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي
الولاتي، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تح: محمد
إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت،
سنة 1401هـ/1981م.

ثانيا: الكتب المترجمة من الفرنسية إلى العربية

1. محمود عبده زبير، السيرة الذاتية لأحمد بابا التمبكتي، من كتاب (أحمد
بابا التمبكتي، بحوث ندوة إيسيسكو، بمناسبة مرور أربعة قرون ونصف
على ولادته، مراكش 22 - 25 صفر الحزير 1412هـ/2 - 5 سبتمبر
1991م).

ثالثا: الكتب المترجمة من العربية إلى الفرنسية

1. Aboubacar Ismail MAIGA, La culture et l'enseignement islamiques au
Soudan Occidental de 400 à 1100 h sous les empires du Ghana, du Mali
et Songhay, Traduit: Mahibou Sidi Mohamed et Diouldé Laya, les presses
de la nouvelle imprimerie du Niger, Niamey.

رابعا: المصادر باللغة الأجنبية

1. Boubou Hamma : Histoire Des Songhay ; Présence africaine, Paris, 1968.
2. Félix du Bois, Tombouctou la mystérieuse, Paris, 1897.
3. Mahmoud A. Zouber, Ahmad Baba de Tombouctou (1556-1627), sa
vie et son œuvre. G. P. Maisonneuve Et Larose, 11 rue Victor-Cousin.
Paris. 1977.

مع العالم أحمد بابا التمبكتي السوداني في تغريبته

بمراكش 1593 - 1607م

الدكتور توفيق محمد لقبايي

شعبة التاريخ - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مراكش

تعتبر قضية تغريب العالم أبي العباس أحمد بابا التكروري التمبكتي السوداني من مسقط رأسه بتومبوكتو إلى مدينة مراكش، من القضايا الهامة التي استرعت اهتمام العديد من المؤرخين والباحثين، إذ نالت قضيته تعاطفا من قبل هؤلاء، في حين استشنعوا الطريقة التي استقدم بها السلطان أحمد المنصور الذهبي هذا العالم من مسقط رأسه رغما عن أنفه هو وثلة من عائلته آل أقيت. وتعتبر السنوات العشر التي قضاها أحمد بابا بمراكش بين 1595 و 1606م من أزهى فترات حياته.

1. ظروف استقدام أحمد بابا التمبكتي إلى مراكش

لقد كان لشهرة عائلة أحمد بابا التمبكتي المنحدر من عائلة أقيت، وهي عائلة كان لها رسوخ في العلم والصلاح، وتحظى بنفوذ واسع وسط عامة مدينة تمبكتو وسائر بلاد السودان سببا في استقدام أحمد المنصور لها ولأحمد بابا. وعندما دخل محمود بن زرقون قائد الحملة السعدية إلى مدينة تمبكتو، قام بنهبها، وأصدر أحمد المنصور أوامره إلى قائده بالسودان محمد بن زرقون بترحيلهم إلى مراكش لتخوفه من تأثيرهم بين السودانيين⁵¹، خصوصا

⁵¹أيت الغازي، عبد القادر: العلماء والمخزن السعدي من قيام الدعوة إلى انهيار الدولة، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الرباط 2002 - 2003، ص 544.

وأن أهل السودان بدأوا يستشعرون تغيراً في سلوك الإدارة المغربية هناك، وهو ما أخاف السلطان السعدي من إشعاع علماء هذه الأسرة وقدرتها على توجيه الأهالي إلى غير ما يرغب فيه، بعد بروز بعض العيوب في سياسة قواده وجنوده هناك⁵².

وهكذا قبض محمود بن زرقون على من بقي منهم حياً من علماء تبكتو و من رجال الرأي فيها، من الذين أبدوا معارضة لحكم السلطان أحمد المنصور على بلادهم، وأرسلهم في القيود إلى مراكش في 18 مارس 1591م؛ وكان من بينهم المؤرخ أحمد بابا السوداني وطائفة من أهل بيته بلغوا السبعين.

لقد اعتبرت أسرة أقيت هذه الحملة خرقاً لشرعية الإسلام، فعاتبت على المنصور محاربة جيوش المسلمين لمسلمين آخرين⁵³، وارتكابهم لأفطع الجرائم استنكرها مؤرخو السودان⁵⁴، في الوقت الذي تغافل فيه عن تحرير الثغور المحتلة⁵⁵.

52. الناصري، أحمد بن خالد: كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء 1955، ج 5، ص 130.

53. في معركة تنديي كان السونغاوي يلهجون بالشهادة وينادون إخوانهم المسلمين ويطلبون منه أن يكفوا عنهم الأذى، وفي مقدمتهم خطيب جامع كاو الذي نبه جوذر إلى مسألة فقهية خطيرة، وهي أن «أهل السودان أسلموا طوعاً بلا استيلاء أحد عليهم، ولم يسمع أن هناك من فرض عليهم هذا الدين، فكيف يصح الجهاد فيهم مهما كانت المبررات للقيام بذلك». انظر.

السعدي، عبد الرحمن: تاريخ السودان، نشر هوداس، باريس 1898، ص 3.

54. يقول المؤرخ المجهول السوداني أثناء حديثه عن تصرفات الجنود المغاربة: «وأظهروا العجائب والغرائب من أنواع الظلم وسوء الأفعال في البلد كشرب الخمر شاهراً ظاهراً ليلاً ونهاراً، ودخلوا على المسبيين (التجار) في ديارهم كرها ويسألون عندهم ما أحبوا ويعطونها لهم أحبوا أم كرها». انظر.

مؤرخ مجهول: تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان، تحقيق هوداس، باريس 1901، ص 28.

55. نقصد بهذه النصوص، ما ورد عند المؤرخ المجهول الذي قال: «أتاه المتفقهة والقواد وعلماء الظاهر العاديين البصائر والأمناء بغير حقيقة، يهتئون قتال أهل الإسلام وأخذ أموالهم وتمليك عيالهم وأولادهم وفرح بذلك فرحاً عظيماً وسراً به سروراً». انظر.

مؤرخ مجهول: تاريخ الدولة السعدية الدرعية التاكمدارية، تحقيق عبد الرحيم بنحادة، مراكش 1994، ص 68.

وفي نفس الوقت أثارت هذه الأفعال نقاشا فقهيا حول شرعية ضم المغرب للسودان الغربي، وكان لأحمد بابا نصيب مهم فيه، حيث تصدى لتوضيح المسألة وملاساتها الشرعية والتاريخية، إذ بين أن أهل هذه البلاد مسلمون، أسلموا بلا استيلاء أحد عليهم⁵⁶؛ هذا في الوقت الذي اعتبر فيه أحمد المنصور السودان الغربي امتدادا طبيعيا لنفوذه السياسي نظرا للروابط التاريخية الممتدة بين المجالين والتي تعود إلى عهد المرابطين⁵⁷، وأجاز لنفسه كأمر للمؤمنين السيطرة على السودان بمباركة من علمائه⁵⁸.

ويتبدى موقف أحمد بابا السوداني المعارض والصريح من خلال رفضه التعامل مع السلطة السعدية أو تولي أية مناصب ضمن دواليها تجنباً للاعتراف بها أو بشرعية سيطرتها على السودان، حيث أحجم عن تولي مناصب قضائية وغيرها خلال إقامته الجبرية بمراكش رغم شهرته العلمية الواسعة⁵⁹؛ هذا في وقت وجد فيه أحمد المنصور بعض الصعوبة في الحصول على بيعة أهل السودان الغربي بعد السيطرة عليه، ولم يستتب له الأمر إلا بعد ترحيل عائلة بني أقيت

⁵⁶ يتعلق الأمر هنا بالنقاش الدائر حول استعباد الأفارقة من أهل السودان من المسلمين، حيث كان في المغرب — وغيرها من مناطق العالم الإسلامي — يتم في عدة حالات استرقاق هؤلاء لسواد بشرتهم وانتمائهم للسودان رغم ديانتهم الإسلامية، وهو ما أثار حفيظة أحمد بابا السوداني إلى جانب عدد من العلماء المغاربة، حيث أفتى بعدم جواز تملك المسلم أو الرقيق المجلوب من البلاد المعروفة بالإسلام، على أساس أن سبب الرق هو الكفر وليس السواد، كما أفتى بضرورة أخذ ادعاء العبيد الحرية بعين الاعتبار من قبل المشتري الذي عليه إثبات العكس، وحث على المعاملة الحسنة للمماليك والاجتهاد في تحريرهم وفق تعاليم الإسلام، وأكد على أن الأصل في الإنسان هو الحرية. انظر.

التمبكتي السوداني، أحمد بابا: **معراج الصعود**؛ أجوبة أحمد بابا حول الاسترقاق، تحقيق وترجمة فاطمة الحراق وجون هانويك، سلسلة نصوص ووثائق 7، معهد الدراسات الإفريقية - الرباط 2000، ص 22.

⁵⁷ عماري، الحسين: **المخزن المغربي والتجارة الصحراوية بين القرن 16 - 18م**، مجلة أمل، العدد 30، السنة العاشرة، 2004، ص 70.

⁵⁸ الإفرائي، محمد الصغير: **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي**، تحقيق وتقديم عبد اللطيف الشاذلي، الدار البيضاء 1988، ص 172.

⁵⁹ ZOUBER, Mahmoud Abdou : Ahmad Baba de Tombouctou (1556 -1627), sa vie et son œuvre, Publications du Département d'Islamologie de l'université Paris – Sorbonne III, Paris 1977, pp 30 – 31

إلى مراکش ومحاولة إلزامهم بمبايعته من أجل ضمان بيعة أهل السودان، وهو ما تبين من كلام المنصور لأحمد بابا حين استقبله بقصر البديع: «وأنتم في بلادكم من أعيانها، فإذا أذعنتم أذعن غيركم»⁶⁰

2. في الطريق إلى مراکش

لقد تعرض أحمد بابا ومن معه، وهم في طريق ترحيلهم إلى مراکش إلى صنوف حمة من التعذيب والإذلال، وفي هذا الصدد يذكر المختار السوسي نقلا عن أحد الأشخاص الثقات، بأن «قائد الحملة السعدية حين رجع من السودان بأسارى تمبكتو الشيخ أحمد بابا وإخوانه، نزل في بسيط تالوين وسط أقا بقرية أمسكدف بتزكي إرغن قرب تامدولت جنوب المغرب، فأذهله ما عليه صبية هذه القرية من سوء الأخلاق عندما اجتمعوا على الشيخ أحمد بابا، وهو مقيد وشفنتا الشيخ كبيرة، فصاروا يخزونه بالشوك في شفتيه، فأجال فيهم عينه فرآهم كالجعلان قبحا وسوادا، فقال: (والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا)⁶¹، قيل فدعا عليهم بدعاء»⁶². ومما يدل كذلك عن معاناة الشيخ وعدم رضاه عن منفاه الجديد ما تردد على ألسنة سكان جنوب المغرب من أن أحمد بابا السوداني لما أشرف على عبور جبل درن خلال رحلته إلى مراکش، سأل عن اسمه (أي الجبل) فسمي له، فقال: «جبل درن كم حويت من درن يا ليتني لم أره ولم يرن»⁶³.

60. الناصري: مصدر سابق، ج5، ص 135.

61. سورة الأعراف، آية 58.

62. السوسي، محمد المختار: خلال جزولة، تطوان - الغرب دون تاريخ، ج3، صص 80 - 81.

63. آيت عدي، مبارك: مغرب القرن السادس عشر من خلال كتابات العلامة أحمد باب الصنهاجي التميمي 963هـ / 1556م - 1036هـ / 1627م، مجلة أسيناك، المعهد الملكي للدراسات الأمازيغية، العدد 12، سنة 2017، صص 59 - 68.

يشير أحمد بابا هو بنفسه إلى هذه المحنة فيذكر: «أنه هو وطائفة من أهل بيته امتحنوا بثقافتهم في بلادهم في محرم عام اثنين وألف على يد محمود بن زرقون لما استولى على بلادهم وجاء بهم أسارى في القيود فوصلوا مراکش أول يوم من رمضان من العام المذكور (موافق 20 يونيو 1593م)، واستقروا مع عيالهم في حكم الثقاف إلى أن انصرم أمر المحنة، فسرحوا يوم الأحد الحادي والعشرين لرمضان عام أربعة وألف (موافق 19 مايو 1595م) ففرحت قلوب المؤمنين بذلك، جعلها الله كفارة ذنوبهم»⁶⁴.

ويذكر بوفيل قصة متصلة باعتقال أحمد بابا وأسرته، فيقول: «أن القاضي عمر بن محمود قاضي تمبكتو»⁶⁵ وأرسل في نهاية عام 1592م رسلا إلى السلطان المنصور ليضعوا تحت أنظاره ما لاقاه من عنت علي يد القائد محمود بن زرقون، وأن الرسل استقبلوا في القصر السلطاني استقبالا وديا، وأعيدوا معهم قاض يسمى بوختيار يحمل أمرا مشددا بحسن المعاملة لعمر وشعبه، لكنهم بعد أن وصلوا تغازى علموا أنهم خدعوا، وأن المنصور أرسل خلفهم رسولا بأوامر مغايرة تقضي بالقبض على عمر وعلى كل علماء تومبوكتو وإرسالهم وأسرهم وكتبتهم وما يملكون إلى مراکش عبر الصحراء، ونفذ الأمر. ويذكر أنهم لما كانوا ينتمون إلى الطبقة المثقفة الثرية، فإنهم لم يتحملوا وعورة الطريق والرحلة التي أرغموا على القيام بها، ولا سيما أنهم كانوا قد قبض عليهم ووضعوا لعدة أشهر في السجن مثقلين بالسلاسل، ولذا فقد مات منهم كثيرون وإن كنا لا نعرف عددهم بالضبط، لكن عمر رغم صحته المعتلة وكبر سنه فقد أكمل الرحلة هو وأحمد بابا المؤرخ المشهور، والذي فقد في هذه الرحلة كل أعماله فلم يبق منها شيء»⁶⁶.

64. التمبكتي، أحمد بابا: كفاية محتاج لمعرفة من ليس في الديساج، تحقيق محمد مطيع، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - الرباط 2000، ص 277.

65. ذكر الفشتالي نص خطاب من إنشائه هو، أرسله المنصور لهذا القاضي في بداية الحملة السعدية على السودان، يقيم فيه الحجة، ويوضح معالم الشرع والسنة والكتاب على وجوب بيعه المنصور وطاعته والانخراط في سلك الجماعة بالانقياد لدعوتها لبوية، ويدعو القاضي لتوضيح ذلك للناس. انظر.

الفشتالي، عبد العزيز أبو فارس: مناهل الصفا على مآثر موالينا الشرفاء، تحقيق عبد الكريم كريم، الرباط 1972، ص 131.

الإفراني: مصدر سابق، ص 81.

66. BOVILL, E. W: Caravans and old Sahara; Hardcover 1933, p 174.

وإذا ربطنا بين الخطاب الذي أشار إليه الفشتالي والذي طلب فيه المنصور من القاضي عمر الدخول في طاعته ودعوة الناس إلى ذلك، وبين الأحداث المتصلة باعتقال القاضي وعلماء تومبوكتو وإبعادهم إلى مراکش، يمكن أن نستنتج أن اعتقال هؤلاء العلماء وإبعادهم عن بلادهم يرجع إلى ما كان لهم من نفوذ وتأثير على مواطنيهم، وأنه كان يخشى من مقاومتهم للجيش المغربي ودعوتهم مواطنيهم لذلك، بعد أن اتضح عدم انقيادهم لما دعاهم إليه السلطان المغربي من الطاعة ودعوة الأهالي لذلك.

3. المناظرة السياسية بين السلطان أحمد المنصور وأحمد بابا التمبكتي

يذكر العباس بن إبراهيم التعارجي السملالي المراكشي، أن أحمد بابا استدعي لمقابلة أحمد المنصور في قصره بمراكش، وأنه لما دخل عليه وجده وقد اتخذ حجاباً بينه وبين الناس، وهو من وراء الستار يتكلم، ربما استحياء من رؤية الشيخ السوداني لذلك لم يحدثه أو يخاطبه إلا من وراء حجاب، فقال الشيخ: «ألا إن الله تبارك وتعالى يقول: وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب، وأنت تشبهت برب الأرباب، فإن كانت لك حاجة في الكلام معنا، فانزل إلينا وارفع الحجاب عنا». فنزل السلطان، فقال له أحمد بابا: «أي حاجة في نهب متاعي وتصفيدي من تمبكتو إلى هنا حتى سقطت من على ظهر الجمل وانكسرت رجلي؟».

فقال السلطان: «أردنا كي تجتمع الكلمة». فقال له الشيخ: «فهلا جمعت بترك تلمسان وما يليها من البلدان فإنهم أقرب إليك منا». فقال السلطان: «قال النبي صلى الله عليه وسلم اتركوا الترك ما تركوكم، فامتثلت للحديث». فقال الشيخ: «ذلك زمان وبعده قال ابن عباس لا تتركوا الترك ولو تركوكم»، فسكت السلطان ولم يجد جواباً وانفض المجلس⁶⁷.

⁶⁷ التعارجي السملالي المراكشي، العباس بن إبراهيم: الإعلام بمن حل بمراكش وأغامت من الأعلام، المطبعة الملكية - الرباط 1993، ص 305 - 306.
الإفراني، محمد الصغير المراكشي: صفوة من انتشار من علماء القرن الحادي عشر، تقديم وتعليق عبد المجيد خيالي، الدار البيضاء 2004، صص 114 - 116.

وهكذا أبان أحمد بابا في هذه المناظرة السياسية التي جمعتها مع أحمد المنصور عن علو كعبه وقوة حجته الشرعية في دحض كل ما قام به السلطان السعدي ضد عائلته ومتاعه وكتبه، وكذا انتقاد تكبره وبعض سياساته خصوصا تجاه السودان الغربي، كما ظهر أحمد بابا في بلاط المنصور عالما قوي الحجة، شديد المراس، لا يهاب السلاطين. كما تعكس هذه المقابلة غضب علماء غرب إفريقيا من التدخل السعدي في بلادهم، ولعل هذا ما جعل المنصور يمنع أحمد بابا من العودة إلى بلاده بعد إطلاق سراحه من السجن الذي قضى به سنتين تقريبا ما بين اعتقاله سنة 1594م وسنة 1596م سنة إطلاق سراحه، لكنه اكتسب احترام رجال البلاط وعلماء البلاد.

4. نشاط أحمد بابا الثقافي والعلمي بمراكش

من غير شك أن السنوات العشر التي قضاها أحمد بابا في مراكش حتى مغادرته لها في سنة 1606م، تهمنا بصفة خاصة لأنها كانت سنوات مثمرة، من عدة جوانب:

أ. كانت فترة إقامة هامة، فعلى الرغم مما تذهب إليه بعض الروايات التي تحكي عن معاناة أحمد بابا ورفقائه من العلماء خلال فترتي الترحيل والسجن⁶⁸، فإن هؤلاء عوملوا بعد إطلاق سراحهم معاملة جيدة ولم يكونوا سجناء، بل كانوا تحت الإقامة الجبرية، بدليل أن أحمد بابا أسكن هو وأهله بدرب الحمام من حي المواسين أو حومة الأشراف الذي يضم عليّة القوم من رجال الدولة السعدية وغيرهم. وكان للمنزل الذي أسكن فيه له باب على جامع المواسين وهو الموجود حاليا في درب الحمام والذي له صلة بدرب الجنائز أي الباب الذي تدخل منه الجنائز إلى المسجد من أجل الصلاة عليها، كما سمح له باستقبال الزوار.

.ZOUBER : op.cit, p 26.68

ب. على الرغم من صعوبة فراق بلده وما لاقاه في البداية من محن، إلا أنه شعر بنوع من الارتياح من خلال ما حققه من مكانة علمية وفقهية بارزة، وما ناله من إشعاع انطلاقاً من المغرب، وفي ذلك يقول: «تفضل من له الفضل وأحسن من له الطول سبحانه بوصولي إلى منبع العلم في الديار المغربية (...) فرأيت أسباب السعادة بها متيسرة، وأزمة الأمانى فيها مبذولة غير متعسرة...»⁶⁹.

ج. كانت فترة مهمة في العطاء العلمي لهذا العالم، ويتجلى ذلك في الميادين التالية:

في ميدان التأليف:

كانت فترة إقامة أحمد بابا الجبرية بمراكش فترة خصبة من حيث التأليف والكتابة في مختلف العلوم الأدبية والشرعية، بعد أن وسع من ثقافته بما وجدته في المكتبات المغربية من أمهات الكتب والمخطوطات، خاصة مكتبة أحمد المنصور؛ وفي هذا يقول: «لما قدر الله تعالى لي دخول بلدة مراكش على الوجه الذي أراده في الأزل وقضاه وذلك في أواخر عام اثنين وألف وسهل لي مع ما أنا فيه من التصييق والحبس الوقوف على جملة كتب غرائب لم أكن وقفت عليها»⁷⁰. ولعل الاطلاع على محتويات هذه الخزانة، ساعد أحمد بابا على التأليف والكتابة بشكل ملحوظ⁷¹، إذ ألف في هذه المدينة أبرز مؤلفاته اختلف في عددها⁷².

69. التميمي، أحمد بابا: منشورات الإيسيسكو، صص 84 - 86.

70. السملالي: مصدر سابق، صص 305 - 306.

71. القادري، محمد: نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، الرباط 1977، ص 275.

72. بنشريف، محمد: بين أحمد باب وأحمد المنصور، ضمن كتاب المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء في بدايات العصر الحديث، تنسيق فاطمة الحراق، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 2، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط 1995، صص 65 - 67.

وقد أورد صاحب فتح الشكور منها 39، في حين أن محمود الزبير ذكر بأن عددها بلغ 56 عنواناً⁷³، إلا أنه لم يورد منها إلا بضعة وثلاثين، وتتوزع هذه المؤلفات على عدة خزانات ومكتبات سواء بالغرب الإسلامي أو ببلاد السودان أو بلاد المشرق. أما ما تركه للخزائن المغربية من كتب - والتي جاءت ثمرة اجتهاده - أثناء إقامته بمراكش، فقد قدر بما بين الستين والثمانين مخطوطاً تهتم مختلف العلوم من فقه وحديث وسيرة وعقائد وتراجم وتاريخ ولغة عربية وتصوف فضلاً عن الفتاوى التي تناولت قضايا متنوعة⁷⁴.

ZOUBER : op.cit, p 194.⁷³

⁷⁴. التمكن، أحمد بابا: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تحقيق عبد الحميد عبد الله الهرامة، طرابلس 2000، صص 18 - 19.

لا يمكن حصر مؤلفات أحمد بابا التي صنف معظمها خلال إقامته بالمغرب، ونورد هنا بعضها على سبيل المثال لا الحصر:

في التراجم والمناقب:

نيل الابتهاج بالذيل على الديباج: والكتاب بمثابة تكملة لكتاب الديباج المذهب في أعيان علماء المذهب (المالكي) الذي ألفه قاضي المدينة المنورة أبو إسحاق برهان الدين إبراهيم بن علي بن فرحون اليعمرى الأندلسي (ت سنة 799هـ / 1396م).

تحفة الفضلاء ببعض فضائل العلماء والأخبار بما ورد من الآداب والأخبار وما خصوا به من أنواع الإكرام والاعتبار في كل الأعصار.

الآلئ السندسية في الفضائل السنوسية: مخطوط اختصر فيه أحمد بابا المواهب القدسية في المناقب السنوسية لمؤلفها أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن عمر بن علي الملاي (ت 897هـ / 1492م). وقد فرغ التمكن من تأليفه بمدينة مراكش في سنة 1596م.

في العقيدة: نزول الرحمة في التحدث بالنعمة.

في الحديث: غاية الأمل في تفضيل النية على العمل.

في السيرة النبوية: خمائل الزهر في كيفية الصلاة على خير البشر - الدر النضير في ألفاظ الصلاة على البشير النذير. في الفقه وملحقاته: شرح على مختصر خليل - المقصد الكفيل محل مقفل خليل - سنن الرب الجليل في سنن في تحرير مهمات خليل* - جلب النعمة ودفع النعمة بمجانبة الولاة الظلمة - معراج الصعود إلى نيل مجلب السود أو الكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان.

في التاريخ: دور السلوك بذكر الخلفاء وأفاضل الملوك - نيل الابتهاج بالذيل على الديباج.

في اللغة والنحو: النكت الوافية بشرح الألفية - غاية الإجابة في مساواة الفاعل للمبتدأ في شرط الإفادة.

في التوحيد: تنوير القلوب بتكفير الأعمال الصالحة للذنوب.

وإن التفاتة سريعة لفهارس هذه الخزانات والمكتبات، تقدم الدليل على العلم الغزير والفكر الموسوعي لهذا العلامة الذي كان منارة عصره، اعتبارا لمكانته العلمية ولما حظي به من حظوة وعطف من طرف المنصور السعدي. ولا بد من الإشارة في هذا المقام، إلى أن مراکش، كانت تحتل في هذه الفترة التي قضاها أحمد بابا بها مكانة علمية مرموقة، وكان المناخ العلمي في زمن أحمد المنصور على الخصوص يتيح الفرصة للبحث والإنتاج، كما اشتهر المنصور بتشجيعه للعلماء والأدباء، وكان هو نفسه - كما يقول عنه وزير قلمه الفشتالي - أديبا⁷⁵.

ويلاحظ القارئ لهذه المؤلفات أن المحنة التي اجتازها أحمد بابا، بصمت أغلب مؤلفاته، ويتجلى ذاك فيما يأتي:

حضور عبارات الأسى والأسف في أغلب هذه المؤلفات، حيث يختم أغلبها بعبارات لا توجد إلا في قاموس الأسرى والمسجونين، مثل: «يوم الكائنة الكبرى» و «يوم الفتنة» و«يوم وقعت علينا المحنة» و«لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» و «حسبي الله ونعم الوكيل» و «ما أنا عليه من الضيق والحبس»⁷⁶.

في الوعظ: تقييد فيما جاء في التحذير من قرب الظلمة ومصاحبتهم طلبا لحطام الدنيا.

إضافة إلى كتب أخرى: مختصر خليل من أول الزكاة إلى أثناء النكاح - تنبيه الواقف - التحديث والتأسيس في الاحتجاج بآين إدريس - شرح الصغرى للسنوسي - مختصر ترجمة السنوسي - الطلب والمأرب في أعظم أسماء الرب - ترتيب معيار الونشريسي - ممن الرب الجليل في مهمات تحرير خليل - فوائد النكاح على مختصر كتاب الوشاح للسيوطي، وغيرها من الكرايس والمسائل الفقهية. انظر.

التمبكتي، أحمد بابا: كفاية احتجاج ... مصدر سابق، ج2، صص 282 - 283.

75. الفشتالي: مصدر سابق، صص 265 - 307.

76. التمبكتي: نيل الانتهاج ... مصدر سابق، صص 171 - 172 - 220 - 229 - 236 / التمبكتي: كفاية

الاحتجاج ... مصدر سابق، ص 283.

عدم ارتياعه خلال فترة إقامته بالمغرب على الرغم مما لاقاه من رعاية وترحيب، ويظهر ذلك من خلال عبارات التوسل إلى الله بالفرج، التي ترد في بعض مؤلفاته مثل قوله: «عجل الله بالفرج التام بمحمد وآله» و «عجل بالفرج آمين» و «تشتت البال وتنكد الأحوال»⁷⁷.

في ميدان الفتوى:

لم تتوقف جهود أحمد بابا العلمية على التأليف فحسب، وإنما اشتغل بالفتوى، إذ يعتبر هذا العالم علماً من أعلام الفقه المالكي بالمغرب الإسلامي في القرن العاشر الهجري / XVI م، لما بذله من جهود في ترسيخه في المجتمع، سواء في المغرب أو في السودان الغربي. فقد أفتى في المغرب لفظاً وكتابة، بحيث لا توجه الفتوى في مراكش إلا إليه غالباً، وقد عين لها مراراً لكنه ظل يرفضها، وكان يبتهل إلى الله تعالى أن يصرفها عنه⁷⁸. وقد أورد المؤرخون عدداً من فتاويه في المغرب، حيث كان من أشهر اجتهاداته العلمية، ما يلي:

الفتوى في شأن استرقاق المسلمين من بلاد السودان، وهي نازلة معراج الصعود. وقد جاءت هذه الرسالة جواباً عن سؤال وجهه أحد العلماء من مدينة توات وهو الفقيه سعيد بن إبراهيم قدورة الجزائري إلى الفقيه أحمد بابا التمبكي في سنة 1021هـ / 1614م يستفتيه فيها عن جواز تملك العبيد المجلوبين من البلاد الواقعة جنوب الصحراء الكبرى، التي تقرر إسلام أهلها كبلاد برنو وعفنو وكانو

⁷⁷البرتلي الولاتي، أبو عبد الله الطالب محمد بن أبي بكر الصديق: فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، بيروت 1981، ص 34.

⁷⁸السعدي: مصدر سابق، ص 31.

وكاغو ونخوها؛ وقد تأخر الجواب عنه إلى سنة 1023هـ / 1617م لأسباب سكت عنها المجيب، وقد أفرد أحمد بابا الجواب برسالة خالف فيها رأي الإمام الونشريسي (توفي 914هـ) ختمها بقوله: « هذا آخر ما تيسر من «معراج الصعود إلى نيل مجلب السود»، وإن شئت فسمه الكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان . وقد بين أحمد بابا أن أهل هذه البلاد مسلمون، أسلموا بلا استيلاء أحد عليهم. كأهل كانو وبرنو ما سمعنا أن أحدا استولى عليهم قبل إسلامهم، ومنهم قدماء في الإسلام كأهل مالي أسلموا في القرن الخامس أو قبله. وقد تصدى أحمد بابا لتوضيح المسألة وملابساتها الشرعية والتاريخية، إذ ورد في متن الرسالة التي بعثت إليه: « وقولكم وقد أخبر بعض قضاة السودان أن الإمام الذي استفتحهم وهم كفار اختار إبقاءهم». ولا يخفى أنه يترتب على التسليم بهذه الرواية التاريخية جواز استرقاق أهل هذه البلاد، وإن حصل إسلامهم بعد ذلك.

لقد خالف أحمد بابا هذه الرواية، فهي - في نظره - دعوى بلا دليل، ومما قاله أحمد بابا في رد هذه الشبهة: «واسألوا هذا القاضي السوداني من هذا الإمام؟ وفي أي وقت فتح بلادهم؟ وأية بلاد فتح؟ يعين لكم ذلك كله، وما أقرب كلامه لعدم الصحة، فلو بحثتم الآن لا تجدون أحدا يخبركم بحقيقة ما قال. فما انبنى على كلامه لا يعتبر والله تعالى أعلم»⁷⁹. ويرتب الفقيه أحمد بابا على هذه المعطيات التاريخية والاستنباطات الشرعية والمقاصدية حكما في غاية الأهمية، وهو أن كل من عرف أنه من بلاد السودان التي أسلم أهلها، وذكر أنه من تلك البلاد، فيخلى سبيله، ويحكم له بالحرية المطلقة، ولا ننسى أن صاحبنا أحمد بابا أطلق هذه الفتوى الجريئة في أوج عظمة الدولة السعدية.

79. السوداني، أحمد بابا: معراج الصعود... مصدر سابق، ص 70.

الفتوى في قضية الدخان والحشيش: وقد جاءت هذه الفتوى، عندما قامت ضجة بالمغرب ضد التدخين الذي أدخله السودانيون إلى مراكش سنة 1002هـ / 1593م، ومن ثم أخذ في الانتشار. فطلب المنصور رأي العلماء فيه، فأفتى جلهم بكراهيته وتحريمه، أما الشيخ أحمد بابا السوداني - الذي كان بمراكش آنذاك - فكان له رأيه الخاص، إذ تتبع ظاهرة تعاطي سكان مختلف المدن المغربية لمادة التبغ، بعد أن أقبلت عليها مختلف الطبقات الاجتماعية - بما في ذلك بعض العلماء - في فاس ومراكش وبلاد درعة، وكان له رأي مخالف لجمهور العلماء المغاربة في التعاطي لهذه المادة، سواء من خلال مراسلاته مع فقهاء المغرب أو فتواه الشهيرة في مجال التدخين التي عرفت تحت عنوان **قواعد أحمد بابا في حلية التدخين**، وجاء رد أحمد بابا عليها مفصلاً في كراسة أطلق عليها اسم **اللمع في الإشارة إلى حكم طَبْع**، والذي انتهى من تأليفها سنة 1607م⁸⁰ ووعد بكتاب آخر يكون أكمل وأتم بعنوان **عين الإصابة في مسألة طابة**، وكانت فتوى أحمد بابا - الذي كان من المدمنين على التدخين - بحليته وبعدم مخالفة المقبلين على شربه للشرع ما دام غير منوم وغير مفسد للوضوء، فهو ليس كالخمر ويتصف بصفاته⁸¹، بل أكثر من ذلك ذكر العديد من منافع الجسيمة⁸²، لكنه لم يجز تدخين الحشيشة لأن الإكثار منها يسكر ويذهب العقل على طهارته، وأتى في ذلك بأرجوزة ضمنها كتابه المذكور، جاء في مطلعها:

قل لمن يأكل الحشيشة جهلاً يا خسيساً عشت شر معيشة⁸³

⁸⁰. بعد أن سمح السلطان زيدان بن أحمد المنصور لأحمد بابا التمكن من الرجوع إلى بلده تمبكت، عرج هذا الأخير على الزاوية الناصرية بتامكروت حيث ترك نسخة من فتواه حول التبغ، المتمثلة في كتاب **اللمع في الإشارة إلى حكم طبع**، وهو يحمل في تلك الخزانة عدد (6) 2990. انظر تعليق.

المنوني، محمد: **التكامل الثقافي بين المغرب وإفريقيا في العصر الحديث من خلال المصادر العربية**؛ مجلة دعوة الحق، عدد خاص حول «إفريقيا — القارة الإسلامية»، الرباط 1988، ص 124.

⁸¹. مطير، سعد غيث: **الثقافة العربية الإسلامية و أثرها في مجتمع السودان الغربي**، بيروت 2005، ص 126.

⁸². حجي، محمد: **الحركة الفكرية بالمغرب على عهد السعديين**، مطبعة فضالة 1977، ج 1، ص 247.

⁸³. السملالي التعارجي: **مصدر سابق**، ص 68.

في مجال التدريس

بعد إطلاق سراح أحمد بابا السوداني «تصدى لنشر العلم وهرع الناس للأخذ منه ولم يزل إلى وفاة المنصور». وهكذا طلب منه أعيان البلد وعلماءها أن يجلس للتدريس، فرفض في البداية، لكنه خضع تحت إلحاحهم. فجلس بمسجد الشرفاء (المواسين حاليا) بمراكش، وكان يعطي دروسه في مختلف العلوم اللغوية والشرعية، وأفاد واستفاد. وفي ذلك يقول: «ولما خرجنا من الخنة - أي السجن - طلبوا مني الإقراء، فجلست بعد الإباية بجامع الشرفاء من أنوه جوامعها»⁸⁵. وسرعان ما ذاع صيته، واشتهر أمره، فهرع إليه طلاب العلم في المغرب من كل حذب وصبوب لينهلوا من علمه الغزير، فقد وصلته وفود الطلاب من بجاية و الجزائر وتلمسان، بل جلس إليه علماء المغرب وقضاته ليأخذوا منه الفقه المالكي⁸⁶. أما من أخذ عنه العلم، فيصعب تقصي كل من أخذ عنه، ذلك أن أحمد بابا أجاز كثيرا من فقهاء المغريرين الأقصى والأوسط، ومع ذلك سنحاول إيراد جملة من الذين أخذوا عليه خاصة بمراكش، وهم من كبار علماء الدولة السعدية، نذكر منهم:

أبو عبد الله محمد بن يعقوب الآيسي المراكشي الذي لازمه كثيرا وأخذ منه الإجازة، وقال عنه: «كان من أوعية العلم (...) ولم ألق بالمغرب أثبت منه ولا أوثق ولا أحذق ولا أعرف بطرق العلم منه»، كما وصفه بأنه: «من أهل الفهم والإدراك التام الحسن، حسن التصريف، كامل الحظ من العلم، فقها وحديثا وعربية وأصولا وتاريخا، مليح الاهتمام

84. الإفرائي، محمد الصغير: نزهة الحادي ... مصدر سابق، ص 97.

85. البرتلي الولاتي: مصدر سابق، ص 343.

86. نفسه، ص 33 - 34

87. التمنارتي، عبد الرحمن: الفوائد الجمية في إسناد علوم الأمة، تحقيق اليزيد الراضي، بيروت 2007، ص 272.

88. القادري: مصدر سابق، ج 1، ص 272.

لمقاصد الناس، ساهرا على التقييد والمطالعة مطبوعا على التأليف»⁸⁸،

الحاج أحمد بن الحاج محمد فهدي بن أبي فهدي التواتي (ت 1061هـ)،
كان تلميذه الشديد القرب منه، إذ لازم - كما يقول - «بابه المبارك
أياما وشهورا وأعواما»، وقد أجازته إجازة من غير تقييد⁸⁹. كما أثنى
عليه الثناء الحسن، وذكر أنه كان: «عالم الدنيا ومعلمها، حامل لواء
الأحاديث ومفهمها، رافع رواية مذهب الإمام مالك ومقدمها، العالم
العلامة المقبول، الفاضل، الفهامة»⁹⁰.

الفقيه الجزولي، أحمد بن محمد بن داود الجزولي التملي الدرعي الشهير
بأحوزي وبالهشتوكي من أبرز رجال العلم بسوس في عصره. ذكر أن
من شيوخ شيخه عبد القادر الفاسي أحمد بابا السوداني، والجزولي هذا
هو المعروف بأحوزي ولد سنة 1057هـ / 1657م⁹¹.

أحمد المقرئ (ت 1041هـ / 1631م)، وهو أحد كبار علماء العصر
السعدي، كان أحمد بابا قد أجازته في عدة مؤلفات، وأعاره عددا من
الكتب من مكتبته الخاصة. ويشير المقرئ في روضة الآس إلى نص
الإجازة التي منحها إياه كتابة⁹².

⁸⁹ نفسه، ص 33.

⁹⁰ البرتلي: مصدر سابق، ص 33.

⁹¹ السوسي، محمد المختار: سوس العالمة، مطبعة فضالة — الحمديّة 1960، ص 123.

⁹² المقرئ، أحمد: روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، الرباط
1993، ج 2، صص 304 - 305.

ويذكر في ترجمته لأحمد بابا السوداني: «الشيخ الكبير المصنف العلم الطائر الصيت»، ويذكر في مكارمه العلمية، أنه له: «يد طولا في نوازل الفقه والتاريخ لا يجارى في ذلك، وكذا في علوم الحديث، مع المشاركة التامة في غيره»⁹³.

أحمد بن القاضي (ت 1025هـ / 1616م)، وكان يدرس الفرائض بمراكش، فحضر إليه جماعة من أعيان علمائها على رأسهم الفقيه العالم السوداني أحمد بابا، الذي قال: «لقيته بمراكش آخر عام أربعة وألف، واختارته خير رجل، وحضرت إلقاءه لـ» فرائض الحوفي» بحضرة صاحبنا سيدي إبراهيم الشاوي»⁹⁴.

محمد القصار (ت 1012هـ / 1603م)⁹⁵.

أبو زيد عبد الرحمن بن محمد التمنارتي (ت 1060هـ / 1650م)⁹⁶، الذي حلاه في قوله: «شيخنا الإمام المحدث الراوية»⁹⁷.

محمد بن أبي النعيم الغساني الفاسي قاضي الجماعة (ت 1032هـ).

عيسى بن عبد الرحمن أبو مهدي الجرجاني السكتاني مفتي مراكش وقاضيه⁹⁸.

⁹³المقري: مصدر سابق، ص 314.

⁹⁴ZOUBER: op.cit, p63.

⁹⁵Ibid, p 68.

⁹⁶.Ibid, p70.

⁹⁷التمنارتي: مصدر سابق، ص 133.

⁹⁸الطرهوني، محمد بن رزق: التفسير والمفسرون في غرب إفريقيا، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع — المملكة العربية السعودية 1426هـ، ج1، ص 274.

إن قراءة في مراتب هؤلاء الطلبة المذكورين، تثير لدينا الاعتقاد بأن كان صاحبنا على درجة علمية كبيرة، لأن طلابه لم يدرسوا عليه إلا في حاجة في طبيعة المادة التي توفر عليها المعارف التي استقاهها. ولا غرو فالسودان الغربي وإن كان على اتصال دائم بالشمال الإفريقي في طريق القوافل، إلا أن مؤثرات من الشرق الإسلامي كانت تصله دائما عن طريق الحجاج تارة وعن طريق الزوار تارة أخرى، وكذلك عن طريق الهجرات البطيئة التي لا تكاد تظهر لنا، ومما يدعم ذلك أن أصول أغلب السكان في المنطقة ترجعها أغلب المصادر إلى العرب والمصريين⁹⁹.

ويمكن من خلال تلمس طرق التدريس، والكتب التي درسها للطلبة والعلماء الذين كانوا يأتون إلى مجلسه، معرفة الأثر الذي تركه أحمد بابا في الثقافة المغربية خلال إقامته الإجمالية بمراكش. فقد: «... أقرأ مختصر خليل قراءة بحث وتحقيق ونقل وتوجيه، وكذا تسهيل ابن مالك وألفية العراقي (...)، وتحفة الحكام لابن عاصم، والسبكي، والحكم، والجامع الصغير (...) والصحيحين (...) ومختصرهما والشفاء والموطأ، والمعجزات الكبرى للسيوطي، والشمائل والكلاعي وغير ذلك...»¹⁰⁰.

لقد سجل العلماء المغاربة - ومن ضمنهم طلبته الذين ذكرنا آنفا - شهادات في حقه تنم عن فضله وعلمه، فقد وصفه صاحب الإعلام بأنه: كان (...) دؤوبا على نشر العلم معتنيا بالمطالعة، حريصا على التأليف»¹⁰¹.

⁹⁹.ZOUBER : op.cit, p192.

¹⁰⁰.السملالي التعارجي: مصدر سابق، صص 305 - 306، نقلا عن كفاية المحتاج لأحمد بابا التمكني السوداني.

¹⁰¹.نفسه.

ويذهب السعدي في وصف السيرة العلمية لأحمد بابا وشهرته في المغرب إلى القول بأنه: «الفقيه العالم، فريد دهره ووحيد عصره، البارع في كل فن من فنون العلم (...) فَجَدَّ واجتهد في بداية أمره بالعلم حتى برع جميع معاصريه وفاق عليهم جدا، ولا يناظر في العلم إلا أشياخه وشهدوا بالعلم، وفي الغرب اشتهر أمره وانتشر ذكره وسلم له علماء الأمصار في الفتوى، وكان وقافا عند الحق ولو كان من أدنى الناس، ولا يداهن فيه ولو للأمرء والسلطين»¹⁰². وقال عنه الحضيكي (ت 1189هـ / 1775م): «... كان رضي الله عنه إماما في الحديث والفقه وغيرها مدرسا فصيحاً ناصحاً منصفاً مشهوراً...»¹⁰³.

وإلى جانب هذا الثناء الذي كان بارزا في أقوال وشهادات العلماء في حقه، هناك مظهر آخر يبرز مكانته وقيمة آثاره العلمية في المغرب، إذ اعتمد على كتبه من جاء بعده، واستشهدوا بأقواله المقتبسة من مختلف مؤلفاته لأن ما عرف عن المغاربة هو الاقتباس عنه، ونخص بالذكر هنا علماء سوس الذين اشتهروا بذلك كثيرا، ويتبدى ذلك بجلاء في فتاوى علماء جزولة بالأطلس الصغير، حيث تظهر بصمة العلامة أحمد بابا السوداني بشكل واضح¹⁰⁴ ولا مرأ أن كثرة الثناء على أحمد بابا من طرف معاصريه ومن بعدهم يعد شهادة عظيمة واعترافهم له بفضله ومكانته. كما أن الاهتمام ببعض كتبه وتناولها بالشرح والتذييل والطبع، غني عن كل تعليق في بيان أهميتها وقيمتها العلمية، مثل كتابه «نيل الابتهاج» وكفاية المحتاج» في التزاجم ومن الرب الجليل» في شرح المختصر التي حظيت أو استأثرت باهتمام الدارسين في مختلف العصور.

¹⁰². السعدي: مصدر سابق، ص 35.

¹⁰³. الحضيكي، محمد بن أحمد: طبقات الحضيكي، تحقيق أحمد بومزكو، مطبعة النجاح الجديدة 2006، ج 1، ص 45.

¹⁰⁴. السعدي، ص 203.

5. نهاية المحنة

إن التأثير البالغ الذي تركه أحمد بابا في صفوف الطلبة المغاربة وتقديرهم له ولمكانته العلمية، هو ما جعلهم يكونون في مقدمة مشييعيه حين هم بالعودة إلى تمبكتو عقب وفاة السلطان أحمد المنصور، حيث أذن له المولى زيدان في سنة 1605 - 1606م بالرجوع إلى وطنه هو ومن بقي من أسرته، فانفصل عن المغرب إلى وطنه تمبكتو¹⁰⁵. وفي هذا الصدد يذكر الإفرائي بأن أحمد بابا لما خرج من مراکش يقصد بلده، شيعه أعيان الطلبة فأخذ بعضهم بيده عند الوداع، وقرأوا قوله تعالى: «إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى ميعاد»¹⁰⁶، على ما جرت به العادة من قراءتها عند وداع المسافرين فيرجع سالماً، فنزع أبو العباس يده بسرعة وقال: «لا ردني الله إلى هذا الميعاد ولا رجعي لهذه البلاد» وسلم عليهم وذهب لبلاده بسلامة وأمان¹⁰⁷. فكان وصوله إليها في 10 ذي الحجة 1016هـ / 27 مارس 1607م، بعد توقف بالزاوية الناصرية بتامكروت حيث ترك نسخة من فتواه حول التبغ¹⁰⁸ ثم كانت الفترة الأخيرة من حياته التي لم يعد يدل خلالها على وجوده سوى ما كتبه من فتاوى ورسائل وإجازات، إلى أن كانت وفاته في يوم الخميس 6 شعبان 1036هـ / 22 أبريل 1627م، أي بعد عودته من مراکش بما يقرب 22 سنة. وما آثاره العلمية التي استغل وجوده بمراكش لإنتاج القسم الأهم منها إلا نتيجة النتائج لتوارث العلم في أسرته آل أقيت لفترة طويلة.

¹⁰⁵ الزركلي، خير الدين: الأعلام، بيروت 2002، ج 1، ص 98.

ويذكر ابن القاضي بأنه لما تولى السلطان المولى زيدان الحكم بالمغرب بعد وفاة والده أحمد المنصور سنة 1603م، قدم العالم أحمد بابا لقراءة صحيح البخاري بين يديه، وهي المناسبة التي استغلها هذا العالم لتذكيره بوعده قطعه على نفسه أنه إذا انتقل له حكم المغرب ليطلقه، وكتب له بذلك. فلما أفضت إليه، قبل أحمد بابا أن يكون من خاصة هذا السلطان، كما قيل أن يختم صحيح البخاري بين يديه، فلما كان الختم ناوله المكتوب بوعده، فأطلقه فمضى. انظر: ابن القاضي الكناسي، أحمد: المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور، تحقيق محمد رزوق، الرباط 1986، ص 52.

¹⁰⁶ سورة القصص، آية 85.

¹⁰⁷ الإفرائي: صفوة من انتشر... مصدر سابق، صص 114 - 116.

¹⁰⁸ التمكني السوداني، أحمد بابا: اللمع في الإشارة إلى حكم طبع، مخطوط الخزنة الناصرية بتامكروت، عدد (6) 2299، انظر تعليق: المنوني: مقال سابق، ص 124.

المصادر والمراجع

- ابن القاضي المكناسي، أحمد : المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور، تحقيق محمد رزوق، الرباط 1986.
- الإفرائي، محمد الصغير المراكشي: نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تحقيق وتقديم عبد اللطيف الشاذلي، الدار البيضاء 1988.
- صفوة من انتشر من علماء القرن الحادي عشر، تقديم وتعليق عبد المجيد خيالي، الدار البيضاء 2004.
- آيت عدي، مبارك: مغرب القرن السادس عشر من خلال كتابات العلامة أحمد باب الصنهاجي التمبكتي 963هـ / 1556م - 1036هـ / 1627م، مجلة أسيناك، المعهد الملكي للدراسات الأمازيغية، العدد 12، سنة 2017.
- أيت الغازي، عبد القادر: العلماء والمخزن السعدي من قيام الدعوة إلى انهيار الدولة، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الرباط 2002 - 2003.
- البرتلي الولاتي، أبو عبد الله الطالب محمد بن أبي بكر الصديق: فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، بيروت 1981.
- بنشريف، محمد: بين أحمد باب وأحمد المنصور، ضمن كتاب المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء في بدايات العصر الحديث، تنسيق فاطمة الحراق، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 2، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط 1995.
- التمارتي، عبد الرحمن: الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة، تحقيق اليزيد الراضي، بيروت 2007.

- التمكني، أحمد بابا: كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، تحقيق محمد مطيع، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - الرباط 2000.
- نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تحقيق عبد الحميد عبد الله الهرامة، طرابلس 2000.
- معراج الصعود؛ أجوبة أحمد بابا حول الاسترقاق، تحقيق وترجمة فاطمة الحراق وجون هانويك، سلسلة نصوص ووثائق 7، معهد الدراسات الإفريقية - الرباط 2000.
- حجي، محمد: الحركة الفكرية بالمغرب على عهد السعديين، مطبعة فضالة 1977.
- الحضيكي، محمد بن أحمد: طبقات الحضيكي، تحقيق أحمد بومزكو، مطبعة النجاح الجديدة 2006.
- الزركلي، خير الدين: الأعلام، بيروت 2002.
- السعدي، عبد الرحمن: تاريخ السودان، نشر هوداس، باريس 1898.
- السملالي التعارجي المراكشي، العباس بن إبراهيم: الإعلام بمن حل بمراكش و أغمات من الأعلام، المطبعة الملكية - الرباط 1993
- السوسي، محمد المختار: سوس العالمة، مطبعة فضالة - المحمدية 1960.
- السوسي، محمد المختار: خلال جزولة، تطوان - الغرب دون تاريخ.
- الطرهوني، محمد بن رزق: التفسير والمفسرون في غرب إفريقيا، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع - المملكة العربية السعودية 1426هـ.
- عماري، الحسين: المخزن المغربي والتجارة الصحراوية بين القرن 16 - 18م، مجلة أمل، العدد 30، السنة العاشرة، 2004.

- الفشتالي، عبد العزيز أبو فارس: مناهل الصفا على مآثر موالينا الشرفا، تحقيق عبد الكريم كريم، الرباط 1972.
- القادري، محمد: نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، الرباط 1977.
- مطير، سعد غيث: الثقافة العربية الإسلامية و أثرها في مجتمع السودان الغربي، بيروت 2005.
- المقرئ، أحمد: روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، الرباط 1993.
- المنوني، محمد: التكامل الثقافي بين المغرب وإفريقيا في العصر الحديث من خلال المصادر العربية؛ مجلة دعوة الحق، عدد خاص حول "إفريقيا - القارة الإسلامية"، الرباط 1988.
- مؤرخ مجهول: تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان، تحقيق هوداس، باريس 1901.
- مؤرخ مجهول: تاريخ الدولة السعدية الدرعية التاغمادارية، تحقيق عبد الرحيم بنحادة، مراكش 1994.
- الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد: كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء 1955.

• BOVILL, E. W: Caravans and old Sahara; Hardcover 1933

• ZOUBER, Mahmoud Abdou : Ahmad Baba de Tombouctou (1556 - 1627), sa vie et son œuvre, Publications du Département d'Islamologie de l'université Paris - Sorbonne .III, Paris 1977

حياة أحمد بابا التمبكتي في مراكش: من المحنة إلى الاستقرار

الأستاذة صابرين البقالي

باحثة بسلك الدكتوراه بكلية الآداب والعلوم الإنسانية
تخصص العلوم الشرعية بجامعة محمد الأول وجدة

الملخص

في ساحة العلم والفكر، حيث تلتقي أضواء الحضارات وتتشابك خيوط الثقافات، يبرز أحمد بابا التمبكتي كجسر راسخ يربط بين المغرب الإسلامي وبلاد السودان. كان أحمد بابا رمزاً للوحدة المذهبية، تجسدت أسمى تحليلاتها في إخلاصه العميق للمذهب المالكي، الذي رُسم بألوان من التفاني والالتزام في مؤلفاته وأبحاثه. لقد تفاعل مع البيئة المغربية بشكل متكامل، حيث انخرط في نسيجها الاجتماعي والسياسي، وشارك بثقافته وعلمه بطرق تعكس تألفه مع علمائها وأهلها، الذين قدروا علمه ورفعوه إلى مكانة عالية من المحبة والتقدير.

رغم محتته المتمثلة في ترحيله من مسقط رأسه مدينة تمبكتو إلى مدينة مراكش بالمغرب، التي تُعد من الأحداث التاريخية المؤلمة؛ حيث تم نقله قسراً، وما عاناه من مشاق أثناء اجتيازه الصحراء، وما واجهه من شدائد خلال هذه الرحلة، إلا أن أحمد بابا التمبكتي استطاع أن يسطر هيئته وفكره اللامع، مُبرزاً أبعاد الوحدة المذهبية والتواصل الثقافي بين ضفتي العالم الإسلامي؛ ليعود إلى وطنه محملاً بأثر عميق لفقهه المالكي على كلا الجانبين، مغرباً وسوداناً.

الكلمات المفتاحية : أحمد بابا التمبكتي، مراكش، بلاد السودان، المغرب الإسلامي، التواصل الثقافي.

مقدمة

تُعَدُّ حياة أحمد بابا التمبكتي، أحد أبرز العلماء والمفكرين في العالم الإسلامي خلال القرن السادس عشر، مثلاً بارزاً على كيفية تأثير التحولات السياسية والاجتماعية على العلماء المجتهدين. وُلِدَ أحمد بابا في مدينة تمبكتو، والتي كانت آنذاك مركزاً مهماً للعلم والثقافة في غرب إفريقيا، حيث نال تعليمه وتطور كعالم ومفكر وفقيه. ومع ذلك، فإن مسيرته لم تكن خالية من التحديات؛ فقد تعرض للاضطهاد والأسر والتهجير الذي دفعه إلى البحث عن ملاذ جديد.

في خضم هذه التحولات والحن، كانت مدينة مراكش مدينة نابضة بالحياة ومركزاً رئيسياً للعلم والفكر والمعرفة في المغرب، حيث اجتمعت فيها ألوان مختلفة من الثقافات والمعارف. تعد فترة مراكش في حياة أحمد بابا التمبكتي فترة مفصلية، حيث تمكن فيها من إعادة بناء مسيرته العلمية والاجتماعية بعد فترة من الاضطرابات والحن.

إن هذا البحث يروم التعريف بهذا العلم وتسليط الضوء على تأثير استقراره في مراكش على مسيرته العلمية والاجتماعية، مع التركيز على التحديات التي واجهها في فترة سابقة وكيفية تعامله معها. كما يسعى البحث إلى فهم كيفية مساهمته في تعزيز الفكر والعلم في مدينة مراكش. من خلال تحليل هذه الفترة، تأمل الباحثة في تقديم رؤية متعمقة حول كيفية تحول الحن إلى فرص وكيفية تفاعل الأفراد مع بيئاتهم لتشكيل إرثهم الثقافي والعلمي.

ومن هنا جاءت فكرة الكتابة في هذا الموضوع الموسوم بـ: **حياة أحمد بابا التمبكتي في مراكش: من المحنة إلى الاستقرار** ليحاول الإجابة على الإشكالية التالية: كيف تأثرت حياة أحمد بابا التمبكتي العلمية والثقافية بعد انتقاله إلى مراكش؟ وكيف ساهمت بيئة مراكش في تشكيل إرثه العلمي والاجتماعي بعد فترة من التحديات والحن؟

ومن ثم يتفرع عن ذلك أسئلة أخرى؛ وهي كالآتي:

- ما هي الأسباب الدقيقة التي أدت إلى اعتقال أحمد بابا التمبكتي في تمبكتو؟
- كيف أثرت فترة سجنه في مراكش على حياته العلمية والشخصية؟
- ما هي طبيعة العلاقة بين أحمد بابا التمبكتي وأحمد المنصور الذهبي خلال فترة وجوده في مراكش؟ وما هي الأسباب التي دفعته للإفراج عنه؟
- كيف تمكن أحمد بابا من استخدام فترة إقامته في مراكش لتحقيق تأثير إيجابي على الحياة العلمية والثقافية في المدينة؟

وقد اقتضت محاور هذا البحث توظيف المنهجين: الوصفي: وذلك بالتعريف بأحمد بابا التمبكتي، والتحليلي: والذي يظهر من خلال دراسة المحن التي واجهت أحمد بابا في حياته إلى استقراره.

بدأت البحث **بمدخل** موجز في التعريف بأحمد بابا التمبكتي، **ومبحثين**: يتعلق الأول بذكر محنة أحمد بابا التمبكتي من تمبكتو إلى مراكش، والثاني: نتائج استقرار أحمد بابا التمبكتي في مراكش، ثم خاتمة تضم أهم النتائج والتوصيات.

مدخل حول ترجمة أحمد بابا التمبكتي الصنهاجي

نحاول من خلال هذا المدخل تقديم ترجمة مقتضبة لأحمد بابا، إذ تعتبر هذه الترجمة مفتاحاً أساسياً لما سيأتي من تفصيل في مباحث هذه المقالة العلمية.

هو: الشيخ المؤلف الكبير المصنف العلم الطائر الصيت¹⁰⁹، أبو العباس الذي عرّف بنفسه في كتابه كفاية المحتاج وقال: «جامع هذا الجزء هو أحمد بن أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت، ابن عمر بن علي بن يحيى بن كدالة بن مكّي بن نيق بن لف بن يحيى بن تشت بن تنفر بن حيراي بن النجر بن أبي بكر بن عمر الصنهاجي الماسني، ويعرف بابا»¹¹⁰، وأضيف في مقدمة كتابه: «السوداني ثم التكروري ثم التمبكتي المالكي»¹¹¹.

ولد أحمد بابا بأروان، التي توجد على الطريق التجارية الرابطة بين تمبكتو وتوات، في ذي الحجة من عام 963هـ (1556م)، وهذا التاريخ وجده التمبكتي بخط والده¹¹²، ونشأ وتربى في تمبكتو في بيت علم وصلاح ورياسة، في أسرة من بني أقيت المسوفين المعروفين بانتسابهم إلى العلم، وحظوة أغلبهم بمكانة اجتماعية عالية بين سكان الإقليم لاشتغالهم بالقضاء والتعليم واعتبارهم من أهل الفتيا والشورى والوجاهة¹¹³.

تلقي التمبكتي تعليمه في بيئة سودانية تكرورية، حيث تعلم على يد والده وأخذ عنه فنون الحديث والمنطق، ودرس على يديه الصحيحان وكتاب الشفا للقاضي عياض وغيرها من الكتب القيمة.

¹⁰⁹ المقري، أحمد. (1983). روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس. ط: 2، المطبعة الملكية، الرباط، ص: 303.

¹¹⁰ التمبكتي، أحمد بابا. (2000). كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج. ج: 2. دراسة وتحقيق: محمد مطيع. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ص: 281.

¹¹¹ التمبكتي، أحمد بابا. (2000). نيل الإبتهاج بتطريز الديباج. عناية وتقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة. ط: 2، دار الكاتب، طرابلس، ص: 13 - 27.

¹¹² التمبكتي، أحمد بابا. كفاية المحتاج، ج: 2، ص: 285.

¹¹³ الحراق، فاطمة. وجون هانويك. (2000). معراج الصعود أجوبة أحمد بابا حول الاسترقاق. ط: 1، معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، ص: 15.

كما تعلم النحو على يد عمه أبي بكر بن أقيت، وقرأ على القاضي العاقب بن الشيخ أبي الشاء محمود بن عمر، الذي أجازته، فضلاً عن اجازته من الشيخ يحيى بن محمد الخطاب في مكة، والشيخ محمد بن محمد المعروف بمحمد خادم الغلاني.

لكن من بين أساتذته، كان شيخه محمد بغيع¹¹⁴ الأكثر تأثيراً في حياته العلمية، حيث لازمه لمدة عامين قرأ عليه فيهما علوم التفسير والحديث والفقه والأصول واللغة العربية والبيان والتنجيم والمنطق والعروض، وغير ذلك من كتب تعد من الأمهات في تخصصاتها، والتي يزيد عددها عن أربعة عشر كتاباً، كما هو مفصل في ترجمته في كتاب «كفاية المحتاج». وصف دراسته مع شيخه بأنها كانت «قراءة بحث وتحقيق وتحرير»، وقد أكمل قراءة الموطأ «فهماً» على يد شيخه، وأشار إلى أنه سمع بقراءة شيخه وبقراءة غيره. كما ذكر أنه ناقشه في المشكلات وراجعته في المهمات، وختم بقوله: «بوجه عام، هو شيخي وأستاذي، وما انتفعت بأحد كما انتفعت به وبكتبه»¹¹⁵.

ذكر الولاتي في كتابه كلام الثقة أبو عبد الله محمد بن يعقوب الأيسي المراكشي صاحب أحمد بابا التمبكتي، حيث قال: «كان أخونا أحمد بابا من أهل العلم والفهم والإدراك التام الحسن، حسن التصنيف كامل الحظ من العلوم فقها وحديثاً وعربية وأصولاً وتاريخاً منحياً للاهتمام لمقاصد العلماء، مثابراً على التقييد والمطالعة، مطبوعاً على التأليف، ألف توالي فمفيدة جامعة، فيها أبحاث عقلية نقلية»¹¹⁶. فهذه شهادة من الثقات المقربين لأحمد بابا التمبكتي، تبين مكانة هذا العالم الجليل وقدراته العلمية الرفيعة.

¹¹⁴ محمد بن محمود بن أبي بكر الونكري التمبكتي، عرف ببغيع، بقاء مفتوحة فعين معجزة ساكنة فياء مضمومة فعين مهملة مضمومة. شيخنا وبركتنا الفقيه العالم المتفنن الصالح/ العابد الناسك. كان من صالحه خيار عباد الله والعلماء العاملين، مطبوعاً على الخير وحسن النية وسلامة الطوية والانطباع على الخير واعتقاده في الناس حتى كاد الناس يتساوون عنده في حسن ظنه بهم وعدم معرفة الشر. ينظر: التمبكتي. كفاية المحتاج، ص: 237.

¹¹⁵ التمبكتي. نيل الانتهاج، ص: 14- 15. الولاتي، البرملي. (1981). فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور. تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي. ط: 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص: 31- 32.

¹¹⁶ الولاتي. فتح الشكور. ص: 33 - 34.

كما نقل الولاتي إشادة أخرى من السيد أحمد بن الحاج محمد فهدي التواتي، الذي وصف أحمد بابا التمبكتي بالعلم والتقوى والفهامة، وعبر عن تقديره العميق له كعالم ومرشد، إذ قال: «قال فيه صاحبه السيد الأستاذ المتواضع الناظم النائر ذو الأخلاق الطاهرة، والشيم الفاخرة، الحاج أحمد بن الحاج محمد فهدي بن أبي فهدي التواتي ثم المراكشي رحمه الله تعالى: لما فتح الله تعالى علي بملاقة عالم الدنيا ومعلمها، حامل لواء الأحاديث ومفهمها، رافع رواية مذهب الإمام مالك ومقدمها، العالم العلامة، المقبول الفاضل الفهامة، سيدي وبغيي وهداي، ومسرجي ومثواي، ومهجتي وإياي، أبا العباس سيدي أحمد بابا، جعل الله تعالى أيامه للخير أسبابا، وفتح به إلى العلوم أبوابا، تلقيت منه ما فتح الله لي بالقبول، وألفيته علقه الوصول، فلازمت بابه المبارك ليالي وأياما، وشهورا وأعواما، وتضلعت من زمزمه بما فيه مقنع، وكنت معه كالذي يأكل ولا يشبع، فقرأت عليه رحمه الله تعالى القرآن العظيم بتفسير ذي الجلالين المحلي والسيوطي في عامين مرتين قراءة تحقيق وتفهم وتدقيق، ثم الموطأ للإمام مالك، ثم البخاري ومسلم، ثم اختصارهما للقرطبي، ثم الجامع الصغير للسيوطي مرارا، ثم الشفاء، ثم الخصائص للسيوطي، ثم العلوم الفاخرة ثم البدور السافرة، ثم ألفية الحديث مرارا، ثم دروسا كثيرة من الفقه في خليل والرسالة وتحفة الحكام، وغيرها من الكتب، ثم الكلاعي، وعدة من تواليفه رحمه الله، إلى غيرها مما حصلته من أجوبته وتقييده ومصنفاته وأبحاثه وفوائده، وأجازني جميع ذلك إجازة مطلقة من غير تقييد رحمه الله تعالى»¹¹⁷ فمن خلال هذه الشهادات، يتضح تأثير أحمد بابا التمبكتي العميق على محيطه العلمي وسمعته الطيبة بين العلماء، مما يعكس قيمته كمربي وفقه بارز.

عانى أحمد بابا التمبكتي من محنة قاسية في وطنه تمبكتو بسبب الأوضاع السياسية المضطربة في المنطقة، تم نقله أحمد المنصور الذهبي، برفقة أعمامه وأسرته، وهم من عائلة ذات ثروة وأصالة في الرئاسة، من تمبكتو إلى مراكش بعد فتح السودان

¹¹⁷الولاتي. فتح الشكور. ص: 33 - 34.

حيث قضى في السجن مدة عامين، ثم أطلق سراحه بناءً على قرار المنصور الذهبي. ولكن، كان هذا الإطلاق مشروطاً بأن يقيم أحمد بابا في مراکش ويواصل إقامته هناك. توفي جميع أعمامه في مراکش، بينما استمر هو في تدريس الفقه والحديث هناك، وقدم الإجازة للعديد من الطلاب بأسانيده. وبعد وفاة أحمد المنصور الذهبي، أعاده الملك زيدان إلى وطنه تمبكتو¹¹⁸.

هذا الإجراء لم يكن مجرد عقوبة، بل كان أيضاً وسيلة لضمان استقرار العلماء وتوفير بيئة ملائمة لهم لمواصلة أعمالهم العلمية بعيداً عن الاضطرابات السياسية التي عانوها في أوطانهم. ومع ذلك، فإن فترة سجن أحمد بابا التمبكتي وما تلاها من إقامات قسرية في مراکش تطرح تساؤلات عميقة حول محنته الشخصية والتحديات التي واجهها خلال هذه الفترة الحرجة. من بين هذه التساؤلات:

- ما هي العوامل التي ساهمت في تحويل محنة أحمد بابا التمبكتي إلى فرصة علمية؟

- هل كان هناك دور للبيئة العلمية في مراکش في دعم وتعزيز مساهماته الأكاديمية؟

هذه التساؤلات تكشف عن أبعاد متعددة لمحنة أحمد بابا التمبكتي، من الظروف السياسية والاجتماعية التي واجهها، إلى تأثيرها على حياته العلمية وكيفية استفادته من الوضع الجديد وهو ما سنجيب عنه في المبحث الآتي.

118. التمنارتي، أبي زيد عبد الرحيم. (2007). الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة. تحقيق اليزيد الراضي. تقديم محمد المنوني. ط: 1-2، دار الكتب العلمية، ص: 133.

المبحث الأول: محنة أحمد بابا التمبكتي؛ «من السودان إلى المغرب»

تُعدّ محنة أحمد بابا التمبكتي من بين أبرز القصص التاريخية التي تعكس صمود العلماء في مواجهة التحديات. فقد واجه هذا العالم الجليل سلسلة من المحن التي شكلت محطات فارقة في مسيرته العلمية والشخصية. في هذا المبحث، سنقوم بتفكيك محنة أحمد بابا إلى ثلاث محطات رئيسية، كل واحدة منها تُظهر جانبًا مختلفًا من معاناته.

أولاً، سنتناول محنته في مدينة تمبكتو، حيث نشأ وواجه الاضطهاد والتحديات التي قادته إلى بداية رحلة تهجيرهِ القسري.

ثانياً، سنستعرض ما عاناه أحمد بابا أثناء طريقه إلى مراکش، بما في ذلك المشاق والشدائد التي واجهها خلال عبور الصحراء.

ثالثاً، سنكشف عن محنته بعد وصوله إلى مراکش، حيث واجه صعوبات جديدة في بيئة علمية وثقافية مغايرة.

من خلال تحليل هذه المحطات، تهدف الباحثة إلى تقديم رؤية شاملة حول كيفية تأثير هذه المحن على مسيرة أحمد بابا التمبكتي، وكيف ساهمت في تشكيل إرثه العلمي والفقهي، مما يعكس صمود العلماء في وجه الأزمات وصبرهم على مواصلة نشر العلم.

أولاً: محنته في مدينة تمبكتو

في خضم الأحداث السياسية التي عصفت بمدينة تمبكتو، كان أحمد بابا التمبكتي، من بين العلماء البارزين الذين واجهوا محنة شديدة. تمبكت،

التي كانت منارة للعلم والثقافة في غرب إفريقيا، شهدت في تلك الفترة تحولات جذرية نتيجة التوسع المغربي تحت قيادة السلطان أحمد المنصور الذهبي. تعددت الشخصيات العلمية والقيادية في تمبكت، حيث كان بنو أقيت يحتلون مكانة مرموقة في المجتمع، ويُعتبرون رموزاً دينية وعلمية بارزة. وقد حافظوا على نفوذهم الديني والعلمي لعقود طويلة، مما جعلهم هدفاً للسلطات المغربية التي كانت تسعى لتوسيع سيطرتها وتأمين المنطقة.

عندما فتح جيش المنصور بلاد السودان، كانت بنو أقيت من بين العائلات التي قوبلت بمراقبة مشددة بسبب نفوذها الواسع وتأثيرها الكبير على سكان المنطقة. في عام 1602م، أمر السلطان أحمد المنصور عامله محمود بن عبد الله بالقبض على كبار علماء تمبكتو¹¹⁹، بما في ذلك أحمد بابا التمبكتي، وذلك ضمن حملة تستهدف تقليص نفوذهم وإحكام السيطرة المغربية.

استجابة لهذا الأمر، قامت القوات المغربية بقيادة القائد المغربي محمد زرقون¹²⁰ باعتقال عدد كبير من العلماء والأئمة، من بينهم أحمد بابا، وقاموا بتقييدهم ونقلهم إلى مراكش سنة 1594¹²¹، وقد كان هذا النقل القسري مصحوباً بأعمال نهب لممتلكاتهم الثمينة، بما في ذلك كتبهم ومكتباتهم، مما شكل ضربة قاسية للإرث العلمي والثقافي الذي كانوا يحملونه وهو ما يسميه أحمد بابا بالكائنة العظمى¹²².

119. حجي، محمد. (1976). الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين. ج: 1، منشورات دار المغرب للأليف والترجمة والنشر، سلسلة التاريخ (2)، ص: 71.

120. معراج الصعود إلى نيل حكم مجلب السود. ص: 15.

121. نفسه، ص: 15.

122. التمبكتي. نيل الابتهاج بتطريز الديباج. ص: 15.

قال الناصري: «كان بنو أقيت التكروريون من أهل مدينة تمبكتو ومن لهم الواجهة الكبيرة والرياسة الشهيرة ببلاد السودان دينا ودنيا، بحيث تعددت فيهم العلماء والأئمة والقضاة وتوارثوا رياسة العلم مدة طويلة تقرب مائتي سنة وكانوا من أهل اليسار والسؤدد والدين لا يبالون بالسلطان فمن دونه، ولما فتح جيش المنصور بلاد السودان أبقاهم الباشا محمود على حالهم إلى أن كانت سنة اثنتين وألف فكان أهل السودان قد سئموا ملكة المغاربة وأنسوا منهم خلاف ما كانوا يعهدونه من سلطانهم الأول، وكانت أذنهم مع ذلك صاغية لآل أقيت فتحوف المنصور منهم، وربما وشي إليه بهم، فكتب إلى عامله محمود بالقبض عليهم وتغريبهم إلى مراکش، فقبض على جماعة كبيرة منهم كان فيها الفقيه العلامة أبو العباس أحمد بن أحمد بن أحمد ثلاثة أحامد ابن عمر بن محمد أقيت المدعو: بابا، صاحب «تكميل الدياج» وغيره من التأليف. وكان فيها أيضا الفقيه القاضي أبو حفص عمر بن محمود بن عمر ابن محمد أقيت وغيرهما، وحملوا مصنفين في الحديد إلى مراکش ومعهم حريمهم وانتهب ذخائرهم وكتبهم»¹²³.

¹²³الناصرى. أبو العباس أحمد بن خالد. (1997). الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى الدولة السعدية. ج:5. تحقيق وتعليق: جعفر الناصري ومحمد الناصري. دار الكتب، الدار البيضاء، ص:129-130.

ثانياً: أثناء طريقه إلى مراکش

كانت رحلة أحمد بابا التمبكتي من تمبكتو إلى مراکش شاقة ومليئة بالصعوبات، حيث واجه العديد من المشاق والشدائد أثناء عبور الصحراء. كان هذا الانتقال القسري ليس مجرد تغيير في الموقع، بل كان امتحاناً شديداً لإرادته وصبره، حيث سُمي أحمد بابا هذه الرحلة بالكائنة الكبيرة، لما لحقهم فيها من التنكيل والعذاب إذ سيقوا موثقين بالقيود إلى مراکش، حيث أودعوا السجن من أول رمضان عام 1002هـ حتى يوم الأحد الحادي عشر من رمضان سنة 1004هـ، وفي الطريق إليها سقط الشيخ عن ظهر الجمل فكسرت ساقه، وفقد في هذه المحنة ستمائة وألف مجلد من كتبه¹²⁴.

قال محمد حجي: «ولما احتلت جيوش أحمد المنصور الذهبي تمبكتو في نهاية القرن العاشر/16م، أصابت الفتنة فيما أصابت مكتبات آل أقيت، وتحدث عن ذلك أحمد بابا السوداني بقوله: «أنا أقل عشيرتي كتباً وذهبت لي ست عشرة مائة مجلد»¹²⁵.

ظل أحمد بابا التمبكتي يشعر بمرارة الظلم الذي لحق به وبأهله نتيجة الاضطهاد والنقل القسري. وقد بلغت هذه المشاعر ذروتها عندما أتيحت له فرصة اللقاء بالسلطان أحمد المنصور الذهبي، الذي كان يتخذ من دار البديع مكاناً لإدارة شؤونه.

دخل أحمد بابا إلى قصر السلطان بعد تسريحه من السجن، ووجد السلطان يكلم الناس من وراء حجاب، من وراء ستارة، مما أثار غضب الشيخ، وقال: «قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾¹²⁶ [الشورى: 51]، وأنت تشبه برب الأرباب، وإن كانت لك حاجة في الكلام معنا فانزل لنا وارفع الحجاب عنا، فنزل السلطان، فقال

¹²⁴. التمبكتي. نيل الابتهاج بتطريز الديباج. ص: 15.

¹²⁵. حجي. الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين. ج 1، ص: 194.

¹²⁶. الشورى

له الشيخ أي حاجة في نهب متاعي وتصفيدي من تمبكتو إلى هنا حتى سقطت من على ظهر الجمل وانكسرت رجلي؟ فقال له السلطان أردنا كي تجتمع الكلمة، فقال له الشيخ: هلا جمعت بترك تلمسان؟ فقال له السلطان: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «اتركوا الترك ما تركوكم»، فقال له الشيخ: ذاك زمان وبعده هذا زمان، قال ابن عباس: لا تتركوا الترك وان تركوكم، فسكت السلطان»¹²⁷.

كان هذا اللقاء تحسيدا للإصرار والشجاعة التي تحلى بها أحمد بابا في مواجهة الظلم، وفي انتقاده الصريح للسلطان، مما يبرهن على قوة شخصيته وعزيمته في مواجهة التحديات.

في ذروة المحن التي عانى منها أحمد بابا، تعرضت عائلته لانتكاسة مأساوية إضافية. فقد أصيبت عشيرته بوباء الطاعون فمات معظم أفرادها فيما يروي المؤرخون. في هذه الفترة العصيبة، لم تقتصر محنته على السجن والنقل القسري، بل امتدت لتطال أحبائه وأسرته. فقد أقاربه الأعزاء، بما في ذلك ابنه محمد وعمه عبد الله بن محمود بن أقيت، مما عمق جراحه وأثقل قلبه بالمزيد من الحزن والأسى. كان لهذه الخسائر الفادحة أثر كبير على معنوياته، إذ فقد في ذات الوقت أقرب الناس إلى قلبه، إلى جانب مواجهته للظلم والإرهاق البدني والنفسي¹²⁸.

¹²⁷. السملالي، العباس بن إبراهيم. (1993). الإعلام بمن حل مراکش وأغمات من الأعلام. راجعه عبد الوهاب ابن منصور. ط: 2، المطبعة المالكية، الرباط، ص، 305-306. الناصري. الاستقصا. ج 5، ص: 130.
¹²⁸. التميمي. نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ص: 15.

ثالثاً: وصوله إلى مراکش

عند وصول أحمد بابا إلى مراکش، إذ بمجرد أن وطأت قدماه أرض مراکش، وُجه إلى السجن حيث تم احتجازه منذ أول رمضان عام 1002 هـ، حتى يوم الأحد الحادي عشر من رمضان عام 1004 هـ¹²⁹.

كان السجن الذي أودع فيه أحمد بابا، منطلقاً لمرحلة من العزلة القسرية والتفكير العميق. ففي هذا الوقت، فقد أحمد بابا مكتبة ضخمة من مؤلفاته القيمة، وهو ما شكل ضربة موجعة لموروثه العلمي. ورغم الوضع القاسي الذي فرض عليه، كانت فترة سجنه بمراكش، بحد ذاتها، مصدر إلهام وتحدي، إذ لم يثنه السجن عن مواصلة مسيرته العلمية، حيث واصل تأليف كتبه وإنتاج مؤلفات جديدة، مُظهرًا بذلك إرادته القوية وروحه المثابرة. كانت تلك الفترة بمثابة اختبار لقدرته على تحويل المحن إلى فرص، حيث ظل على تواصل مع العلم والبحث، وأثبت أن الروح العلمية يمكن أن تزدهر حتى في أحلك الظروف.

قال أحمد بابا في كتابه: «لما خرجنا من المحنة طلبوا مني الإقراء فجلست بعد الإباية بجامع الشرفاء بمراكش، من أنوه جوامعها، أقرئ مختصر خليل قراءة بحث وتدقيق، ونقل وتوجيه، وكذا تسهيل ابن مالك، وألفية العراقي، فختمت علي نحو عشر مرات، وتحفة الحكام لابن عاصم، وجمع الجوامع للسبكي، وحكم ابن عطاء الله، والجامع الصغير للجلال السيوطي قراءة تفهم مرارا، والصحيحين سماعا علي وإسماعا مرارا، ومختصريهما، وكذا الشفا والموطأ والمعجزات الكبرى للسيوطي، وشمائل الترمذي، والاكتفاء لأبي الربيع الكلاعي، وغيرها. وازدحم علي الخلق وأعيان طلبتها، ولازموني... وأفتيت فيها لفظا وكتبا بحيث لا توجه فيها الفتوى غالبا إلا إلي، وعينت لها مرارا فابتهلت إلى الله تعالى أن يصرفها عني، واشتهر اسمي في البلاد من سوس الأقصى إلى بجاية والجزائر وغيرها»¹³⁰.

129. التمكني. كفاية المحتاج، ص: 283.

130. نفسه، ص: 284-285.

عندما استقر أحمد بابا التمبكتي في مراکش وبدأ التدريس في جوامعها، وجد في جامع الشرفاء موطناً علمياً حاضناً لنشاطه العلمي. هذا الجامع، الذي كان من أبرز مراكز العلم والفكر في المدينة، وفر له منصة مميزة لتدريس علمه ومشاركة معرفته مع الطلاب. إضافة إلى دوره كمدرس، استفاد أحمد بابا التمبكتي بشكل كبير من مكتبة جامع الشرفاء الغنية. هذه المكتبة كانت ثرية بالمصادر والمراجع القيمة التي ساعدته في إثراء معرفته وتطوير أبحاثه. فبفضل ما توفر له من كتب نادرة ومرجعية، تمكن من تأليف عدة أعمال علمية مميزة، مما جعل منه واحداً من أبرز العلماء في زمنه. تميزت مؤلفاته بالعمق والتفصيل، وجمعت بين الأبحاث العقلية والنقلية، مؤكدة على إسهاماته الكبيرة في مجال الفقه والحديث والعلوم الإسلامية.

يقول محمد حجي: «مكتبة جامع الشرفاء بمراكش: هي أخت مكتبة ابن يوسف بمراكش، أسسها في نفس التاريخ تقريباً عام 965/1558 عبد الله الغالب عندما جدد المدرسة الكبرى المتصلة بجامع علي بن يوسف المرابطي، وأوقف عليها نفائس الكتب أكثر، وظل لأمرأ السعديون والمحسنون من العلماء والأثرياء يوقفون عليها من أمهات الكتب ما جعلها في الجنوب قرينة القرويين في الشمال. ومن هذه المكتبة كان أكثر استفادة أحمد بابا السوداني لتأليف كتبه الشهيرة في التراجم»¹³¹.

قال الناصري: «ولما سرح الشيخ أبو العباس تصدر لنشر العلم وأهرع الناس إليه للأخذ عنه، ولم يزل بمراكش إلى أن مات المنصور لأنه ما سرحهم حتى شرط عليهم السكنى بمراكش، ولما توفي أذن ابنه زيدان لآل أقيت في الرجوع إلى بلادهم بعن أن مات جماعة منهم بمراكش، وكان الشيخ أبو العباس يتشوق إلى رؤية بلده ويسكب العبرات عند ذكرها ولم ييأس من روح الله في العود إليها»¹³².

¹³¹حجي. الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين. ج:1، ص185.

¹³²الناصري. الاستقصا، ج5، ص:130-131.

ولما خرج من مراكش قاصدا بلده شيعه أعيان طلبتها فأخذ بعضهم بيده عند الوداع وقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾¹³³ [القصص: 85]، على ما جرت به العادة من قراءتها عند وداع المسافر فيرجع سالما، فانتزع الشيخ أبو العباس يده بسرعة وقال: «لا ردني الله إلى هذا المعاد ولا رجعي إلى هذه البلاد»، ثم لحق بتمبكتوو فاستقر بها إلى أن مات سنة ست وثلاثين وألف رحمه الله»¹³⁴.

وصفوة القول: إن عبارة «لا ردني الله إلى هذا المعاد ولا رجعي إلى هذه البلاد» تعكس الألم العميق والحزن الذي عانى منه الشيخ أبو العباس أحمد بابا التمبكتي جراء حرمانه من وطنه تمبكتو على مدى أربع عشرة سنة. إلا أن شعوره بالظلم والحزن إلى بلاده لم يثنه عن مواصلة مسيرته العلمية، بل دفعه إلى تحقيق إنجازات بارزة وإنتاج مؤلفات قيمة. فقد تمكن من تحويل معاناته إلى دافع للتفوق، مما أكسبه شهرة واسعة واعترافا علميا، وجعل من تلك الفترة الصعبة مرحلة محورية في تعزيز إرثه الثقافي والعلمي.

¹³³.القصص : 85.

¹³⁴.نفسه: ج5، ص: 131.

المبحث الثاني: استقرار أحمد بابا التمبكتي مراکش

تمثل فترة استقرار أحمد بابا التمبكتي في مراکش مرحلة حاسمة في مسيرته، حيث تمكن خلالها من تحديد نشاطه العلمي وإعادة بناء إرثه الفكري. كان لوجوده في جامع الشرفاء، أحد أبرز المراكز العلمية في المدينة، تأثير كبير على مسيرته العلمية، مما دفعه إلى توسيع دائرة تدريسه ومؤلفاته.

في هذا المبحث، سنقوم بتفصيل ثلاث جوانب أساسية تعكس تأثير استقرار أحمد بابا التمبكتي في مراکش على حياته العلمية والاجتماعية:

أولاً: تدريسه في جامع الشرفاء؛ حيث كان له دور كبير في نشر العلم وتعليم طلابه في هذا المعلم العلمي المرموق.

ثانياً: تلاميذه المغاربة والوافدون من الخارج؛ كيف جذب أحمد بابا العديد من الطلاب من المغرب ومنطقة الصحراء، الذين جاءوا للاستفادة من علمه.

ثالثاً: تأليفه في مراکش؛ حيث استغل مكتبة جامع الشرفاء وموارد المدينة في إنتاج أعمال علمية جديدة تعكس عمق فكره وثراء تجربته.

من خلال هذه الأقسام، سنستعرض كيف أثر استقرار أحمد بابا التمبكتي في مراکش على تعليمه وتأليفه، وكيف ساهم في تعزيز الفكر والعلم في المدينة وما حولها.

أولاً: تدريس أحمد بابا التمبكتي في جامع الشرفاء

عندما استقر أحمد بابا التمبكتي في مراکش، وجد في جامع الشرفاء منارة علمية حيوية وفرصة جديدة لإعادة تأكيد دوره كعالم بارز. يُعد جامع الشرفاء من أبرز المراكز التعليمية في المدينة، وقد اختار أحمد بابا هذا المكان ليواصل فيه رسالته العلمية بعد سنوات من الاضطهاد والظلم.

في رحاب هذا الجامع العريق، أسس أحمد بابا منهجاً تعليمياً متفرداً يجمع بين الأصالة والابتكار. قاد دروساً مكثفة في مختصر خليل، وتسهيل ابن مالك، وألفية العراقي، إلى جانب «تحفة الحكام» و«جمع الجوامع»، مما يعكس شمولية معارفه وتنوعها. وقد تميزت محاضراته بدقة منهجية، وعمق علمي، وتفاني في توضيح العلوم الشرعية من فقه وحديث ونحو.

كان أحمد بابا يُعرف بأسلوبه التعليمي الرصين، الذي جمع بين التفسير الدقيق والتحليل النقدي، مما جذب إليه طلاباً من مختلف الأرجاء. لقد منح طلابه فرصة نادرة للغوص في تفاصيل العلوم الشرعية بطرق غير مسبوقة، مما أكسبه احتراماً واسعاً في الأوساط العلمية. كان لجامع الشرفاء، بفضل ما أتاحه من موارد ومراجع علمية، دور محوري في دعم أحمد بابا وإثراء مسيرته العلمية، كما أنه ساهم في ترسيخ مكانته كعالم رفيع المستوى في مراکش.

ثانياً: تلاميذه المغاربة والوافدون من الخارج

جذب أحمد بابا التمبكتي خلال فترة إقامته في مراکش عدداً كبيراً من الطلاب والتلاميذ من مختلف الأقطار، وهذا يعكس مكانته العلمية الرفيعة.

من بين تلاميذه المغاربة الذين استفادوا من علمه، كان هناك عدد من العلماء البارزين الذين تركوا بصماتهم في المجال العلمي. هؤلاء الطلاب جاؤوا من

مدن مغربية متنوعة، مثل فاس ومكناس، لالتحاق بدروس أحمد بابا والتعلم من علومه الغزيرة. كانوا يسعون للاستفادة من منهجياته التعليمية المتطورة ورؤيته الفقهية العميقة، مما أضاف قيمة كبيرة إلى تعليمهم وأبحاثهم. بالإضافة إلى الطلاب المغاربة، أتى العديد من الوافدين من خارج المغرب للاستفادة من علم أحمد بابا. هؤلاء الوافدون جاؤوا من بلدان مثل الجزائر ومالي، حيث كانت سمعة أحمد بابا كعالم فقيه قد سبقت وصولهم. توافد هؤلاء الطلاب من مناطق نائية ليحظوا بفرصة التعلم من أحد أبرز علماء زمانهم، مما يدل على تأثيره الواسع والشهير في الأوساط العلمية الإسلامية. نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر¹³⁵:

- أبو القاسم بن أبي النعيم الغساني الأندلسي الغرناطي.
- أحمد بن محمد القاضي المكناسي.
- شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي العيش بن محمد المقرئ التلمساني.
- محمد يعقوب الأيسري.
- محمد بن عبد الله الرجراجي.

تجسد هذه الفئة من الطلاب والتلاميذ تنوع وعمق تأثير أحمد بابا التمبكتي، ويعكسون امتداد إرثه العلمي إلى ما وراء حدود مراكش، مما يعزز من دوره كحلقة وصل بين مختلف المدارس الفكرية والبيئات الثقافية في العالم الإسلامي.

¹³⁵ ولد أن، محمد الأمين، ومحمد بن محمد التلميذي. الحياة العالمية في الساحل والصحراء: حياة أحمد بابا التمبكتي نموذجاً. جامعة نواكشوط، موريتانيا، ص: 5.

ثالثاً: تأليفه في مراکش

خلال فترة إقامته في مراکش، تمكن أحمد بابا التمبكتي من تحويل محنته إلى فرصة ذهبية لتكريس نفسه كعالم مؤلف بارز، مما أضاف بُعداً جديداً لإرثه العلمي. كانت المدينة العريقة، بما توفره من بيئة علمية وثقافية، منبعاً لإنتاجه الفكري الغزير، حيث قام بتأليف مجموعة من الكتب التي تعد من أبرز المراجع في الفقه والحديث والعلم الشرعي.

استفاد أحمد بابا من مكتبة جامع الشرفاء ومرافقه العلمية، التي وفرت له مصادر غنية ومواد بحثية أضافت عمقاً إلى مؤلفاته. كان له طموح في إنتاج كتب تساهم في إثراء المعرفة الإسلامية وتقديم إضافات نوعية للمجال العلمي. من بين أعماله التي أنجزها في مراکش، نجد «نيل الابتهاج بتطريز الديباج» وهو ذيل على كتاب «الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب» لابن فرحون المالكي (ت799هـ)، و«كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج» الذي يعتبر اختصاراً لما جاء في «نيل الابتهاج»، بالإضافة إلى عدة مؤلفات أخرى تناولت موضوعات متعددة في الفقه والحديث، والتي غالباً ما تحضرها عبارات الأسى والأسف وهي عبارات لا توجد إلا في قاموس الأسرى والمسجونين، مثل قوله: «يوم الكائنة الكبرى» و«يوم الفتنة» و«يوم وقعت علينا المحنة»¹³⁶ ... مما يؤكد أنه ألفها في فترة محنته.

136. ايت عدي، مبارك. مغرب القرن السادس عشر من خلال كتابات العلامة أحمد باب الصنهاجي التمبكتي. مجلة أسيناك، العدد الثاني عشر، 2017، ص: 59-68.

تميّز أحمد بابا في تأليفه التي قدرت حوالي بقدرته على تقديم مسائل علمية بوضوح وبأسلوب مبتكر، يجمع بين التحليل العميق والقدرة على تبسيط المفاهيم المعقدة. كان يولي اهتماماً خاصاً للدقة في التوثيق والتنظيم، مما جعل كتبه مرجعاً هاماً للعلماء والطلاب على حد سواء. إضافة إلى ذلك، فقد كانت هذه المؤلفات نواة لتطوير الفكر الإسلامي وتعزيز المذهب المالكي، وهو ما أكسبه احتراماً كبيراً في الأوساط العلمية.

بفضل هذه النشاطات التأليفية، أصبحت مراكش محطة رئيسية لإنتاج الفكر الإسلامي، حيث ترك أحمد بابا بصمة واضحة على المجال العلمي من خلال أعماله التي تظل محط اهتمام وبحث حتى اليوم.

الخاتمة

في ختام هذا البحث، نستعرض أبرز النتائج التي تم التوصل إليها من دراسة حياة أحمد بابا التمبكتي واستقراره في مراكش، ونقدم التوصيات المستخلصة من هذا البحث:

- يتضح أن أحمد بابا التمبكتي، رغم محنته وصعوبات رحلته من تمبكتو إلى مراكش، قد تمكن من تحويل تجاربه الصعبة إلى فرصة للإبداع والتأثير. فقد شكلت فترة سجنه في مراكش لحظة محورية في حياته، حيث تمكن من استثمار الوقت في تأليف العديد من الكتب القيمة التي أثرت المكتبة الإسلامية بشكل كبير.

- تجسد تأثير أحمد بابا في مجال التعليم من خلال تلاميذه، الذين جاؤوا من مختلف المناطق لتلقي العلم على يديه. لقد أسس لنهج تعليمي متميز في جامع الشرفاء، مما ساهم في نشر المعرفة وإثراء الفكر الإسلامي، وأثبت أن علمه لم يقتصر على نطاق مراكش فقط، بل امتد ليصل إلى أرجاء واسعة من العالم الإسلامي.

- يبرز من خلال تأليفه في مراكش كيف أن أحمد بابا استغل موارد المدينة العلمية، مثل مكتبة جامع الشرفاء، ليقدم إسهامات علمية متميزة. لقد ساهمت أعماله في تعميق الفهم الفقهي وتوسيع الآفاق العلمية، مما عزز من مكانته كعالم بارز في التاريخ الإسلامي.

التوصيات

- تشجيع الدراسات المستقبلية: يُوصى بإجراء المزيد من الدراسات الأكاديمية حول مؤلفات أحمد بابا التمبكتي وتحليل تأثيرها على المذهب المالكي والفكر الإسلامي بشكل عام، لتسليط الضوء على جوانب إضافية من إسهاماته.
- ترميم الوثائق والمخطوطات: نظراً لأهمية أعمال أحمد بابا، من الضروري العمل على ترميم وحفظ المخطوطات القديمة التي تحتوي على مؤلفاته لضمان استمرار استفادة الأجيال القادمة منها.
- توسيع دائرة البحث: يُستحسن توسيع دائرة البحث لتشمل دراسة التأثيرات الثقافية والاجتماعية التي خلفتها فترة إقامته في مراكش على المجتمع المحلي والدور الذي لعبه في تعزيز التبادل الثقافي بين المغرب وبلاد السودان.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- آيت عدي، مبارك. (2017). مغرب القرن السادس عشر من خلال كتابات العلامة أحمد بابا الصنهاجي التمبكتي. مجلة أسيناك، العدد الثاني عشر، ص 59-68.
- التمنارتي، أبي زيد عبد الرحيم. (2007). الفوائد الجمّة في إسناد علوم الأمة. تحقيق اليزيد الراضي، تقديم محمد المنوني. ط: 1-2، دار الكتب العلمية، بيروت.
- التمبكتي، أحمد بابا. (2000). كفاية المحتاج لمعرفة ما ليس في الديباج. ج: 2. دراسة وتحقيق: محمد مطيع. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.
- التمبكتي، أحمد بابا. (2000). نيل الابتهاج بتطريز الديباج. عناية وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة. ط: 2، دار الكاتب، طرابلس.
- جعفري، خديجة، وسعدية عيشاوي. تمبكتو على عهد الباشوات المغاربة بين القرنين (13-10هـ/19-16م). مذكرة لنيل شهادة الماستر في التاريخ، جامعة العقيد أحمد دراية، أدرار، 2019-2020.
- حجي، محمد. (1976). الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين. ج: 2. منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، سلسلة التاريخ (2).
- الحراق، فاطمة. وجون هانويك. (2000). معراج الصعود أجوبة أحمد بابا حول الاسترقاق. ط: 1، معهد الدراسات الإفريقية، الرباط.
- زروق، محمد. (1991)، دراسات في تاريخ المغرب. ط: 1، أفريقيا الشرق.

- السعدي، عبد الرحمان بن عبد الله بن عمران بن عامر. (1981). تاريخ السودان. المدرسة الباريزية لتدريس الألسن الشرقية.
- السملالي، العباس بن إبراهيم. (1993). الإعلام بمن حل بمراكش وأغامت من الأعلام. راجعه عبد الوهاب ابن منصور. ط:2، المطبعة المالكية، الرباط.
- الطاهر، خالد. جهود أحمد بابا التمبكتي في خدمة المذهب المالكي وآثره على بلاد السودان والمغرب الإسلامي. المجلة التاريخية الجزائرية.
- المقرري، أحمد. (1983). روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس. ط:2، المطبعة المالكية، الرباط.
- الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد. (1997). الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى الدولة السعدية. ج:5. تحقيق وتعليق: جعفر الناصري ومحمد الناصري. دار الكتب، الدار البيضاء.
- الولاتي، البرقلملي. (1981). فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور. تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي. ط:2، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- ولد أن، محمد الأمين، ومحمدن محمد التلميذي. الحياة العالمية في الساحل والصحراء: حياة أحمد بابا التمبكتي نموذجاً. جامعة نواكشوط، موريتانيا.

مظاهر التواصل العلمي والحضاري بين المملكة المغربية وبلاد السودان الغربي

الدكتور عبد الرحيم الإسماعيلي

أستاذ التفسير وعلوم القرآن بكلية اللغة العربية بمراكش

ملخص المقال

يدور موضوع هذا العرض العلمي الذي نقدمه اليوم حول علم من أعلام الفقه والتفسير والحديث والعربية، ألا وهو العلامة المحقق الصوفي أحمد بابا التمبكتي رحمه الله. من خلال الإجابة عن سؤالين اثنين:

السؤال الأول: ماهي أبرز مظاهر التواصل العلمي والحضاري بين المملكة المغربية الشريفة، وبين بلاد السودان الغربي؟.

السؤال الثاني: كيف تشكلت تلكم المظاهر والتجليات في كتب التراجم والطبقات وخصوصا نيل الابتهاج بتطريز الديباج لصاحبنا العلامة أحمد بابا التمبكتي رحمه الله؟

للإجابة عن هذين السؤالين، قسمت البحث إلى مقدمة عامة ذكرت فيها بعضا من أخبار الإمام أحمد بابا التمبكتي رحمه الله، ثم انتقلت إلى المحور الأول الذي عرضت فيه جملة من مظاهر التواصل العلمي والحضاري في نيل الابتهاج، فذكرت الرحلة ودورها في إنشاء المعرفة وتلقيها وذلك في مستويين اثنين، في المستوى الأول الذي أفردته لتجليات التواصل العلمي والحضاري بين البلدين، ثم تحدثت عن رحلة علماء بلاد السودان إلى المغرب وأثر الحركة العلمية في مراكش يومئذ، مع الإشارة إلى بعض العلوم والمعارف التي تلقاها علماء السودان عن

علماء المغرب، ورحلة بعض علماء المغرب إلى بلاد السودان وذكرت نماذج من ذلك. بينما تولى المستوى الثاني اهتمام علماء السودان. مؤلفات المغاربة، وسجلت ملاحظة مهمة تتصل بقلة عدد العلماء الذين حجوا بلاد السودان الغربي، وخاتمة.

على سبيل التقديم

إن هذه المبادرة التي قام بها مركز الحوار الحضاري ورئاسة جامعة القاضي عياض من شأنها أن تقوي أواصر العلاقات الثقافية والعلمية والحضارية التي تجمع بين أقطار ضفتي الصحراء، وخاصة بين تمبكتو والرباط وفاس وغيرها من حواضر بلاد المغرب الإسلامي احتفاء واحتفالاً بمراكش عاصمة الثقافة في العالم الإسلامي وحق لها ذلك. في سياق يعرف انبعثاً قويا للبعد الديني في حسابات السياسة الخارجية للمملكة المغربية، المعروفة بإرثها التقليدي وثقل الرمزية الدينية في شرعيتها التاريخية، ودور إمارة المؤمنين في تصدير الوسطية لمقاومة التطرف في العالم عموماً وإفريقيا جنوب الصحراء خصوصاً. ولا تسعى الدبلوماسية الدينية إلى تصدير أو تنميط باقي أنماط التدين الإسلامي فقط، بل تسعى من خلال ربط التدين العملي إلى الانخراط في الحرب الكونية على التطرف والإرهاب كما هو معلوم.

ثم إن العلاقات العلمية والحضارية بين المغرب والسودان الغربي استمرت إلى فترات متأخرة من القرن الثامن عشر، إذ يوجد بإحدى خزائن تمبكتو بمالي رسائل محتومة بطابع السلطان العلوي عبد الرحمان بن هشام (1849-1860)، موجهة لعامله في الصحراء والسودان¹³⁷.

137. يحيى بولحية: «محددات السياسة الخارجية المغربية تجاه دول غرب إفريقيا وجنوب الصحراء»، مجلة سياسات عربية، عدد: 1، شتنبر 2014، ص: 84.

وتقديرا للروابط الدينية والثقافية المتأصلة بين الشعبين المغربي والسوداني (المالي) التي نسج خيوطها علماء أفذاذ لم يدخروا وسعا في نشر المعرفة العلمية، سيما علوم الشريعة من فقه وحديث وتفسير وتصوف وغيرها بهذه الربوع. فقد ارتأيت المشاركة بمدخلة علمية اخترت لها: تحليلات التواصل العلمي والحضاري بين بلاد المغرب وبلاد السودان الغربي من خلال مصدر في تراجم المالكية ألا وهو **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، بعد ترتيب المدارك للقاضي عياض، **والديباج المذهب لابن فرحون** فأقول:

تمثل كتب التراجم والطبقات منطلقا أساسيا لدراسة العلاقات العلمية بين مختلف الأقاليم الجغرافية إذ تساعد على فهم حجم تحليلات التواصل العلمي ومظاهره... ولأجله تهدف هذه المدخلة إلى العناية بالتراث الثقافي المغربي السوداني المشترك.

يعد **نيل الابتهاج بتطريز الديباج** وهو ذيل على كتاب **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب** لبدر الدين ابن فرحون المالكي (ت799هـ) الذي هو بدوره ذيل على **ترتيب المدارك للقاضي عياض**.

جمع فيه التمبكتي تراجم المالكية الذين لم يرد ذكرهم في **الديباج**، إذ رأى أن ما في الديباج من إتيان إلا أنه لا يخلو من استدراك وإضافة، فانبرى لسد الثغرات وإكمال الناقص، يقول أحمد بابا في مقدمة الكتاب: "فما زالت نفسي تحدثني من قديم الزمان، وفي كثير من ساعات الأوان، باستدراكي عليه ببعض ما فاتته أو جاء بعده من الأئمة الأعيان، فقيدت فيه بحسب الإمكان..."¹³⁸.

وكان ترتيب التمبكتي لكتابه على حروف المعجم، حيث يورد في التراجم المعلومات الأساسية للمترجم لهم، بذكر الاسم والكنية، واسم الشهرة، ثم ينتقل إلى تفصيل القول في رحلات المترجم له في طلب العلم، كما يشير إلى بعض المواقف العلمية إن وجدت، ويختتم بذكر مصنفات المترجم له، ثم سنة وفاته. وقد تراوحت تلكم التراجم بين الطول والقصر بحسب شهرة المترجم لهم وأثرهم.

¹³⁸. راجع: **نيل الابتهاج**، ص: 28.

اشتمل الكتاب على 802 ترجمة، من تراجم علماء المالكية الأعلام من المغاربة ومن غيرهم، نقلها من مصادر مختلفة ومتنوعة قاربت الأربعين مصدرا. منها مصادر شفهية عاصر أصحابها، فضلا عن كثير من الشخصيات المالكية التي سمع منها مباشرة¹³⁹.

وبعد سبع سنوات اختصره في كتاب سماه: **كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، انتهى من اختصاره عام: (ت1012هـ)**. بمراكش ترجم فيه ل704 عالم. مقتصرًا فيه على المشاهير وأولي التصانيف دون غيرهم غالبًا. وعمله في هذين الكتابين تنمة وتكملة لما قام به ابن فرحون في **الديباج المذهب**¹⁴⁰.

ويعد كتاب: **كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج لابن فرحون من أهم مصادر تراجم فقهاء المالكية، وهو تلخيص لمعظم ما جاء في نيل الابتهاج بتطريز الديباج** الذي جعله ذيلًا لكتاب الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب. جمع فيه بين التراجم والأدب والتصوف والتاريخ، واقتصر على مشاهير علماء المالكية أولي التصانيف، بالشرق والغرب الإسلاميين وبلاد السودان.

اعتبر أحد الباحثين الكبار وهو ليفي بروفنسال أن أحمد بابا التمبكتي وكتابه **نيل الابتهاج** من أهم مصادر تاريخ المغرب في القرن السادس عشر الميلادي. وهذا الرأي مال إليه المؤرخ التونسي عبد الجليل التميمي أن كتاب **نيل الابتهاج** يعد سجلا حافلا وموثوقا لتراجم الأعلام الأندلسيين والمغاربة والجزائريين والتونسيين والطرابلسيين¹⁴¹. **فنيل الابتهاج** ومختصره **كفاية المحتاج** من أنفس وأجود ما كتب في تاريخ الفقه المالكي في القرون المتأخرة، وهو تنمة لما قام به ابن فرحون في **الديباج المذهب**.

¹³⁹ ينظر: البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، لابن مريم المديوني، ص: 25.

¹⁴⁰ انظر: منهج أحمد بابا التمبكتي في كتب التراجم: كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج نموذجًا. للظاهر خالد، مجلة البحوث التاريخية، عدد: 01، جوان: 2023م، ص: 445-484.

¹⁴¹ راجع: مظاهر التواصل العلمي بين بلاد المغرب الإسلامي والسودان الغربي من خلال كتاب: نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التمبكتي (ت1036هـ) لعبدالقادر سليمان، مجلة المعيار، عدد: 03، بتاريخ: 15/04/2022م.

وفي بعض المصادر التاريخية إشارات لطيفة أنه كان دائم التردد على قبور الصالحين والأولياء وخصوصا قبر الولي الصالح أبي العباس السبتي الذي زاره أكثر من خمس مائة مرة، ويقال إنه كانت عنده بطاقة مختوم عليها، يأتي بها كل مرة ويضعها على القبر قائلا: "إني أسألك ما في هذه البراءة"¹⁴².

وقد تفاعل أحمد بابا مع البيئة المراكشية مما أثر على حياته العلمية، فقد عدها من ترجم له كالولاتي في فتح الشكور الذي اعتبر أن الفترة المراكشية من حياة الرجل كانت هي الأخصب في حياته العلمية على الإطلاق. وقد ظهر هناك تداخل وتشابك في طرق التحصيل العلمي ومناهج التدريس...

ساهم في ازدهار الثقافة العلمية المحلية بمراكش، سيما حين نال شرف التدريس بمسجد الكتبية وبقاى مساجد مراكش كجامع الشرفاء، وبقاى حواضر المغرب كفاس.

المستوى الأول: تجليات التواصل العلمي بين المغرب الإسلامي والسودان الغربي¹⁴³

لقد أبدع التمكن في كتابه نيل الابتهاج أشكالاً متعددة من مظاهر التواصل العلمي بين المغرب والسودان الغربي، ومن مظاهر ذلك ما تمثل في الرحلات العلمية المتبادلة بين الإقليمين، إضافة إلى العناية بالكتب والمصنفات الخاصة بالمغاربة أو العكس، وكذلك تبادل المراسلات بأنواعها العلمية، وهو ما يعرف بالإجازات، أو مراسلات الاستفتاء والسؤال، وسأعرض إلى تفصيل ذلك في نقط:

1. الرحلات المتبادلة¹⁴⁴

تعد الرحلات العلمية من أبرز طرق التحصيل العلمي عند المسلمين، سيما ما تعلق بالعلوم الشرعية كعلم القراءات والحديث والفقه. لهذا عد العلماء من لم يرحل في طلب الحديث واكتفى بالسماع في بلده من المقصرين، فكان من أهداف الرحلة تحصيل الأحاديث النبوية مباشرة من رواتها بالمساع، إضافة إلى هدف عزيز المنال وهو طلب علو الإسناد.

وبخصوص الرحلات العلمية من خلال كتاب نيل الابتهاج، فقد كانت في الغالب في اتجاه واحد من السودان إلى بلاد المغرب، على اعتبار الفارق الحضاري والعلمي الشاسع بين الإقليمين، فقد كانت بلاد المغرب مقصدا لأهل السودان، من أجل طلب الفقه، حيث إن أهل السودان كانوا مالكية، وكذلك أهل المغرب، بل إن المدرسة المالكية المغربية كانت أشد تأثيراً في السودان من أي تيار ديني أو معرفي آخر.

¹⁴³. اعتمدت في كتابة هذه المداخلة بالدرجة الأولى على المقال السابق.

¹⁴⁴. نفسه.

ومن مظاهر التواصل العلمي أيضا أن كتاب نيل الابتهاج حفل ببعض تراجم علماء من أهل المغرب، رحلوا إلى بلاد السودان الغربي، سواء كان ذلك للاشتغال بالتدريس، أو بالدعوة أو للقاء بعض الشيوخ المشهورين هناك.

1. الحافظ الفقيه إبراهيم بن هلال الفاسي السجلماسي (ت903هـ) الذي رحل إلى فاس بغرض السماع من شيوخها، فلقني الفقيه ابن أمال (ت856هـ) والإمام القوري (ت872هـ) مفتيها واشتغل عليهما، وقد جمع بين الفقه والحديث، إذ صنف كتابا في المناسك، كما اختصر شرح الحافظ ابن حجر (ت852هـ) لصحيح البخاري.

2. الحافظ مخلوف بن علي بن صالح البلبالي (ت940هـ) الذي تعلم أولا في بلاد ولاتن بالسودان، فأخذ عن شيوخ بلده هناك، ثم بعد ذلك رحل إلى المغرب فأدرك الشيخ ابن غازي المكناسي (ت919هـ)، عالم المغرب الأشهر، وأخذ عنه، ثم عاد إلى السودان، فدخل تمبكتو، وأقرأ أهلها كثيرا، حيث اشتهر بقوة الحفظ، فكان يحفظ صحيح البخاري عن ظهر قلب، وقد جرت له نوازل أفتى فيها مع علماء بلده، ثم عاد إلى المغرب ثانيا فدخل مراکش ودرّس فيها، ثم عاد إلى بلده فتوفاه الله هناك.

ومن مظاهر التواصل العلمي الذي عكسته الرحلة العلمية من مدن المغرب الإسلامي إلى بلاد السودان الغربي، أذكر:

1. الحافظ المؤرخ الفقيه عبد الله بن أحمد بن سعيد بن يحيى الزموري (ت888هـ)، وقد كان من الأعلام المشاهير، حيث جمع بين الفقه والحديث والتاريخ، وله مصنف على كتاب الشفا للقاضي عياض (ت544هـ)، سماه إيضاح اللبس والخفا عن ألفاظ الشفاء. ذكر التمبكتي أنه في مجلد كبير رآه بخط يد صاحبه، وقد كان الزموري ممن وصل إلى بلاد ولاتن المتصلة بالسودان، فأقرأ أهلها، ولقي فقهائها وتدارسوا معه وأثنوا عليه.

2. الشيخ الفقيه محمد بن عبدالكريم المغيلي التلمساني (ت909هـ)، وهو عالم مشهور محقق، أخذ عن عبدالرحمن الثعالبي (ت972هـ)، ومن أشهر مآثره وقعته مع يهود توات، وفتواه بإجلالهم منها، وما حدث بينه وبين فقهاء عصره من مجادلات ومراسلات بسبب ذلك.

ومما يتصل بموضوعنا، فقد كانت للمغيلي رحلة إلى السودان حيث دخل بلاد كنو وكشن من بلاد السودان، واجتماع بصاحب كنو واستفاد منه، وكتب له رسالة هامة في أمور السلطنة يحضه على اتباع الشرع، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقرر له أحكام الشرع وقواعده، فعرف عنه نبوغه في السياسة الشرعية. من مؤلفاته: البدر المنير في علوم التفسير، ومصباح الأرواح في أصول الفلاح، ومفتاح النظر في علم الحديث، وغيرها من المؤلفات الحسنة. وقد كانت له رحلة علمية إلى بلاد السودان، أخذ عن شيوخها وتصدر للتدريس هناك فصار رأساً في العلوم الشرعية والمنطق والتصوف.

3. المحدث الفقيه أبو محمد عبدالرحمن بن علي بن أحمد القصري ثم الفاسي السفيناني (ت956هـ)، أخذ عن جماعة منهم ابن غازي المكناسي، والشيخ أحمد زروق (ت899هـ)، ثم رحل إلى المشرق سنة (ت909هـ)، فأخذ علم الحديث بمصر عن أصحاب الحافظ ابن حجر، وقد تولى الخطابة بفاس، فأكب على رواية الحديث وإقرائه حتى توفي، وقد لازم في حياته إلقاء الموطأ مع رواية الكتب الستة والتفسير، وقد كانت له رحلة إلى بلاد السودان، حيث دخل بلاد كنو وغيرها. فلقني قبولا منقطع النظير عند أهلها، فأضافوه وأكرموا حتى عاد إلى بلاده بعد قضاء مدة من الزمن هناك.

المستوى الثاني: اهتمام أهل السودان بكتب المغاربة

ومن أجلّ وأوثق مظاهر التواصل العلمي ببلاد المغرب الإسلامي، وبلاد السودان الغربي، اهتمام علماء السودان بكتب أهل المغرب، الذي كانت تقف خلفه دوافع عديدة، منها:

1. الاشتراك مع أهل المغرب الإسلامي في مذهب مالك بن أنس في الفروع، وهو ما كان يجعل المصدر الأساس لكتب الفروع وشروحها وتفسيراتها ومسائلها الأساسية والفرعية هي بلاد المغرب، على اعتبار أن علماء المالكية الكبار الذين أصولوا للمذهب وخدموه هم من المغاربة أساساً.

ومن ثم فإن الثروة العلمية الكبيرة التي خلفوها منذ دخول المذهب إلى المغرب إلى غاية القرن 9 الهجري و10 وهما القرنان اللذان يغطيها كتاب نيل الابتهاج بالخصوص، قد شكلت معينا لا ينضب بالنسبة لأهل السودان.

ثم إن الصّلات الجغرافية المباشرة بين الإقليمين، والتي جعلت بلاد المغرب الإسلامي المدخل الأساس لمذهب مالك بن أنس إلى السودان الغربي قد استمرت في مد بلاد السودان بمختلف مصادر المذهب على مستوى الكتب والمصنفات، طوال تاريخه الطويل، وعلى هذا الأساس فقد ظل علماء المالكية في المغرب الإسلامي هم المرجعية الدينية والعلمية الرئيسية لأهل السودان الغربي.

ومن أجل ذلك كان اهتمام علماء السودان الغربي شديداً بالاطلاع على كتب المذهب المالكي التي صنفها أهل المغرب، وقد أخذ ذلك الاهتمام أشكالاً متعددة ومتنوعة في كتاب نيل الابتهاج لأحمد بابا التمبكتي ومنها:

1. الاعتماد عليها في التدريس والتلقين، أو شرحها والتذيل عليها، ومن أشهر تلك الكتب: كتاب الرسالة لابن أبي زيد القيرواني (ت386هـ)، والمدونة لسحنون (ت240هـ)، وكتاب الشفا للقاضي عياض (ت544هـ)، فمن الأمثلة عن قراءة الكتب وإقراءتها:

2. الحافظ الفقيه عبدالله بن عمر بن محمد أقيت الصنهاجي (ت929هـ) وهو شقيق جد المصنف، اشتهر بالزهد والورع والتوقي، إضافة إلى قوة الحفظ، وقد كان يدرس في مجلسه كتاب الرسالة.

ومن مظاهر التواصل العلمي ما ورد في **نشر المثاني** لمحمد بن الطيب القادري أن السمعة العلمية لأحمد بابا التمبكتي بلغت إلى بجاية وما جاورها فأثابه طلبتها للتلقي والأخذ عنه¹⁴⁵

145. راجع: نشر المثاني، 1/274.

الخاتمة

في ختام هذا البحث، نستعرض أبرز النتائج التي تم التوصل إليها من دراسة حياة أحمد بابا التمبكتي واستقراره في مراكش، ونقدم التوصيات المستخلصة من هذا البحث:

- يتضح أن أحمد بابا التمبكتي، رغم محنته وصعوبات رحلته من تمبكتو إلى مراكش، قد تمكن من تحويل تجاربه الصعبة إلى فرصة للإبداع والتأثير. فقد شكلت فترة سجنه في مراكش لحظة محورية في حياته، حيث تمكن من استثمار الوقت في تأليف العديد من الكتب القيمة التي أثرت
- ومن نتائج البحث أن المدرسة المالكية المغربية أثرت بشكل كبير على السودان، فبعض الناس مذهب مالك، وفضلوه على باقي التيارات الدينية التي كانت سائدة في المجتمع حينئذ.
- لقد كانت بلاد المغرب مقصدا مطلوبوا آمنة في حد ذاتها لطلب العلم، والاستقرار... وفي أحيان أخرى كانت ممرا يعبر منه أهل السودان الغربي إلى مصر أو المشرق أو الحجاز، سواء لطلب العلم أو للتجارة أو للحج... فكان هناك تواصل روحي وانسجام فكري وثقافي أدى إلى وجود طابع سياسي، ومن ثم نكون قد أقمنا الجسور الثقافية الخالدة بين المغرب وبين جنوب الصحراء.
- ومن نتائج البحث أن العلامة أحمد بابا التمبكتي تميز بالأمانة العلمية في النقل من المصادر العلمية، فقد حرص على توثيق أخبار المترجمين إما نقلا عن المؤلف نفسه، أو عن الثقة من الأعلام الذين عاصروه، أو عن طريق الرواية، أو لقاءه بهم أنفسهم وسماعه منهم. ويلاحظ أنه اطلع على حشد كبير من المصادر المتنوعة. فقد كان يزور قبور بعض العلماء بنفسه ويتبرك بهم.

المصادر والمراجع

- محددات السياسة الخارجية المغربية تجاه دول غرب إفريقيا وجنوب الصحراء، ليحيى بولحية، مجلة سياسات عربية، عدد: 1، شتنبر 2014م.
- نيل الابتهاج بتطريز الديباج، لأحمد بابا التمبكتي، تحقيق: عبد الحميد عبدالله الهرامة، نشر: دار الكاتب، طرابلس، ليبيا 1398هـ-1989م.
- كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، لأحمد بابا التمبكتي، تحقيق: محمد مطيع، نشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1421هـ، 2000م.
- البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، لابن مريم المديوني، تحقيق: عبدالقادر بوباية، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (ب.ت.).
- منهج أحمد بابا التمبكتي في كتب التراجم: كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج نموذجاً. للطاهر خالد، مجلة البحوث التاريخية، عدد: 01، جوان: 2023م.
- مظاهر التواصل العلمي بين بلاد المغرب الإسلامي والسودان الغربي من خلال كتاب: نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التمبكتي (ت1036هـ) لعبدالقادر سليمان، مجلة المعيار، عدد: 03، بتاريخ: 15/04/2022م.
- نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، لمحمد بن الطيب القادري، تحقيق: محمد حجي وأحمد التوفيق، نشر: دار المغرب للتأليف والنشر، الرباط، 1397هـ، 1977م.

البعد اللغوي في التواصل المغربي السوداني شرح أحمد بابا للآجرومية نموذجاً

إنجاز : الدكتوراة مليكة نعيم، أستاذة التعليم العالي بجامعة القاضي عياض
ذ. محمد الشكري، باحث بسلك الدكتوراه بجامعة القاضي عياض

تعلق المسلمون بالقرآن الكريم واتخذوه محجاً لهم منذ فجر الإسلام، ومن مظاهر هذا التعلق الرغبة في نيل شرف خدمته، كل من موقعه، فاضطلع بذلك الخاصة والعامة، وبحثوا عن السبل إلى بلوغ هذا المرام، فوجدوا اللغة العربية مرقاة إلى كتاب الله فأقبلوا على علومها؛ وعلى رأسها علم النحو دراسة وتدريساً وتأليفاً.

لم يقتصر اهتمام المسلمين بالنحو وعلوم العربية عموماً على زمن دون آخر، وعلى جهة من العالم الإسلامي دون أخرى، بل استبقوا الخيرات، وتنافسوا الشرف وتأثر بعضهم بعضاً معتبرين علوم اللغة العربية من الدين، وكل ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. ومن الجهات التي أسهمت في خدمة اللغة العربية واعنت بتأليف متون النحو وقامت بالشروح حولها ووضعت الحواشي والتقاريرات عليها شمال إفريقيا والسودان.

لقد ألف ابن آجروم مقدمة في النحوي جامعة مانعة، اختزل فيها أبواب النحو واقتصر على الأسس البانية لهذا العلم، وخلصها من كل المسائل الخلافية، محاولاً أن يخرج للمبتدئين ما ينفعهم دون أن ينفهم من اللغة العربية وقواعدها، فكتب الله لهذه المقدمة المباركة قبولاً لم تنله مقدمة نحوية أخرى، وأقبل الطلبة عليها متخذين أبوابها أول وجهة لهم بعد حفظ القرآن الكريم، كما أقبل عليها الأساتذة والمؤلفون فوضعوا لها شروحا وأعاريب ومنظومات منذ القرن الثامن إلى اليوم. ولا تخلو خزانة من مخطوطها أو مطبوعها في شرق الأرض ومغربها،

ومن العلماء الذين شرحوا هذه المقدمة المباركة الإمام العلامة أبو العباس أحمد بابا التمبكتي (ت1036هـ) نهاية القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر الهجري، إبان العصر السعدي بالمغرب.

- فما هي العناصر المؤطرة لشرح التمبكتي للآجرومية؟
- وما هي الخصائص المنهجية والأسلوبية لهذا الشرح؟

الفصل التأطيري لشرح أحمد بابا للآجرومية

1. الأوضاع الاجتماعية والثقافية في عهد الدولة السعدية

اختلف المؤرخون في أصل السعديين؛ فذهب بعضهم أنهم اشراف قدموا من الحجاز، وانهم من بني سعد بني بكر الذين تنتسب إليهم حليلة السعدية مرضع الرسول صلى الله عليه وسلم. وهناك من يرى أن تسمية السعديين من السعد، وهو اسم دال على تفاؤل الناس بحكمهم، والأمل في إسعادهم. وحسب ما جاء عند الناصري: «اعلم أن هؤلاء السعديين كانوا يقولون إن أصل سلفهم من ينبع النخل من أرض الحجاز، وإنهم أشراف..»¹⁴⁶

انطلق السعديون من درعة مع أبي عبد الله محمد القائم بأمر الله سنة خمس عشرة وتسع مائة للهجرة (915هـ)، ثم وصلوا إلى سوس بدعوة من أهلها لحماية الثغور. ويمكن التمييز في مراحل هذه الدولة بين ثلاث مراحل:

- مرحلة النشأة: 915هـ – 986هـ
- مرحلة القوة: 986هـ – 1012هـ
- مرحلة الانكفاء: 1012هـ – 1065هـ

¹⁴⁶الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد: الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، 1995م، 5/3.

إن ما يهم هذه الدراسة هو السياق الثقافي والاجتماعي في مرحلة القوة والاستواء للدولة السعدية ، وهي التي تؤطر شرح الآجرومية في العهد السعدي ، وبخاصة في ولاية أحمد المنصور الذهبي . فقد عرفت الدولة تطورا كبيرا على مستويات عدة أسهمت في ازدهار التعليم والعناية بالعلماء ، كما تم تشجيع الفن والثقافة عموما . ومن مظاهر قوة الدولة نذكر :

- القوة العسكرية للمغرب بعد معركة وادي المخازن .
- القوة الاقتصادية من احتياطات الدولة وعائدات وغنائم الحرب .
- التنظيم الإداري للدولة .
- التجارة الخارجية للدولة مع العالم .
- تشجيع الثقافة والتعليم والفنون .

لقد هيا السعديون الظروف للثقافة ومالوا إلى الأدب، بل وشاركوا في التأليف، مثل محمد الشيخ وحفيده محمد بن عبد القادر وعبد الملك المعتصم وأحمد المنصور، وغيرهم. وكان يحضر مجالسهم علماء مثل عبد الواحد الحسني المفتي، وعبد العزيز الفشتالي أبو فارس، وأحمد بن علي الهوزالي وسليمان بن إبراهيم التاملي ...¹⁴⁷

ولتشجيع المعرفة والاقبال عليها بنيت خزانة كبيرة وألحقت بضريح أبي العباس السبتي، وكلف المنصور عددا من المثقفين بإنتاج كتب ووضعها رهن إشارة الأساتذة والطلبة، ونسخ أخرى وجلب ما استطاعوا من الشرق . ومن هذه الكتب ألفية ابن مالك في النحو ، فقد كلف أحمد المنصور بوضع خلاصة عليها يستغنى بها عن بقية الشروح؛ لا سيما شرح ابن عقيل ، ومن الكتب التي ألقت في هذه المرحلة شرح رجز ابن زكري في المنطق لأحمد المنصور ، ثم مؤلفان في الطب لأبي القاسم الغساني ، فضلا عن شرح مقصورة المكودي لعبد الواحد الشريف ، وشرح المتنبى للهوزالي ، والهادي في حل مشكلة المرادي للقدمي في

¹⁴⁷ حركات إبراهيم: السياسة والمجتمع في العصر السعدي، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء ، المغرب، 1408هـ - 1987م، ص 376

أربعة مجلدات، وهو دراسة معمقة في النحو على هامش الألفية، وشرح درر السمط في فضائل السبب للمغوسي. مما جعل التأليف يعيش أكبر نشاط له إلى حدود القرن الحادي عشر، تناول كل الفنون المتداولة. ونالت مراکش حظا كبيرا من ذلك؛ إذ فيها ألف أحمد بابا السوداني معظم كتبه الشهيرة¹⁴⁸.

أما في علوم اللغة والنحو فقد استبدت الآجرومية والألفية وشروحهما، فكان الأساتذة والطلاب يتوسلون بهما إلى بقية العلوم الشرعية والأدبية، ومن علماء النحو واللغة في هذا العصر نذكر:

- قاضي شفشاون ابن عرضون
- يوسف التدغي
- السجلماسي أبو الحسن الزبير
- أبو عبدالله محمد الم رابط الدلائي المعروف بـسيويو المغرب وبخاتمة النحا¹⁴⁹.

2. التعريف بابن آجروم و مقدمته في النحو

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن داود الصنهاجي الفقيه المقرئ والعلامة الاستاذ المعروف بابن آجروم، وتعني باللغة الأمازيغية الفقير الصوفي، من قبيلة صنهاجة إحدى قبائل المغرب المشهورة، وهمزة «آجروم» بالمد، وقال ابن الحاج إنه وجد بخط المصنف بالهمزة لا المد¹⁵⁰.

أما الجيم فتنتطق مضمومة، أو تنطق بالكاف المصرية وفيها إثم، نقل السيوطي «أَكْرُوم» عن ابن مكتوم¹⁵¹.

¹⁴⁸المصدر نفسه: ص 385

¹⁴⁹حركات إبراهيم: المغرب عبر التاريخ، د. ط، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، 1432هـ - 2011م، 2 / 409 - 410

¹⁵⁰ابن الحاج، سيد أحمد بن محمد بن حمدون السلمي أبو العباس: العقد الجوهري من فتح الحي القيوم في حل شرح الأزهرى على مقدمة ابن آجروم، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، 1443هـ - 2021م، ص 17

¹⁵¹السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين (ت 911 هـ): بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، د. ط، المكتبة العصرية، صيدا-لبنان، د. ت، 1/238

ولد ابن آجروم بمدينة فاس، في السنة التي رحل فيها ابن مالك، سنة اثنتين وسبعين وستمائة للهجرة (672هـ) وينحدر من مدينة صفرو المغربية، ثم تلقى العلم على يد شيوخ فاس في زمانه، وبها درس علوم اللغة وعلوم القرآن...

شيوخه

- أبو حيان الغرناطي محمد بن يوسف أنير الدين (ت 745 هـ) لقيه في الرحلة إلى الديار المقدسة واستجازه فأجازه.
- أبو القاسم القيسي الضرير
- محمد بن القصاب..

تلامذته

- ابن العربي محمد بن علي بن يحيى الغساني (ت 748 هـ)
- ولداه منديل وعبد الله
- أحمد بن محمد بن شعيب الجنائي (ت 749 هـ)
- عبد الله بن عمر الوانغيلي الضرير
- محمد بن إبراهيم الحضرمي¹⁵²....

مكانته العلمية

يعرف ابن آجروم بألقاب تدل على منزلته العلمية، ومن هذه الألقاب الشيخ العالم العلامة والعالم البارز والإمام، ثم الفهامة الصالح والبركة، ثم المحقق المجود، فضلاً عن المقرئ ثم الاستاذ وفريد زمانه، وغيرها من أوصاف الشرف والعلم وألقابه¹⁵³.

¹⁵² العكبري، عبد الحفي بن أحمد بن محمد : شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط د، ط، دار ابن كثير، دمشق، 1406 هـ . 62/6 ، مقدمة الأجرومية، تحقيق: حايك النبهان، مقدمة فرائد

المعاني في شرح حرز الأمانى ووجه التهاني، تحقيق: عبد الرحيم بن عبد السلام نبولسي...

¹⁵³ المكودي عبد الرحمن بن علي بن صالح (ت 807 هـ): شرح المكودي على المقدمة الأجرومية، تقديم عبد الكريم قبول ، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، 1435 هـ 2014 م، ص 25 — بغية الوعاة 1/238 ...

والمقام هنا لا يسمح بالتفصيل في كل لقب ،ومعرفة مجاله، لذلك نتوقف عند لقب الاستاذ على سبيل المثال لا الحصر، فهو يطلق على الماهر الحاذق العالم بما يعلم، العارف له ؛أي بكيفية وطرق إيصال أحسن من غيره ،فالكلمة فارسية مقترضة، لكن معناها موجود حيث يوجد العلم والتعليم ، فأستاذية ابن أجروم في أخذه من علم النحو ما يلائم المبتدئين في تعلم اللغة العربية مقتصرًا على النحو الباني ،مبتعدًا عن كل ما ينفر التلميذ من النحو في البدايات ،بما في ذلك علم الصرف لصعوبته . يقول العلامة عبد الله كنون :«ابن أجروم ذلك الرجل الذي استطاع أن يخلد اسمه أبدا الدهر بوريقات لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة، لا تحتوي على تفكير عميق ولا على فلسفة جديدة ،إنما هي قواعد أولية... حتى أطلق الناس اسمه على النحو كأنما هو واضعه فقالوا الآجرومية وأرادوا النحو ،مما لم ينله سيويه نفسه... فبينما النحو خضع لقوانين المنطق، وأصبح دراسة عقلية عقيمة إذا طلع ابن أجروم بمقدمته التي يعرض بها أصول هذا العلم في سذاجة تشبه عقل الطفل، وترتيب يتوافق وآخر ما قررت البيداغوجيا الحديثة في أساليب التعليم. فلا جرم إذ علا اسمه وتمجدت ذكره...»¹⁵⁴

مؤلفاته

المقدمة الآجرومية في علم العربية ، مقدمة جامعة لمبادئ النحو الأساس للمبتدئين خضعت للنقل التعليمي وفقا لما يلائم فئة المتعلمين المبتدئين كما سبق عند العلامة عبد الله كنون ،واقترنت على التعريف بما هو أهم ؛ كذكر المرفوعات والمنصوبات والمخفوضات ،مع أمثلة بسيطة يسيرة مناسبة ، وهذا لب التخطيط في كيفية تدريس المواد في التعليم .وما دام أحمد بابا التمبكتي شارحا لها — والمناسبة شرط - فلا بأس في الوقوف قليلا على النقل التعليمي عند ابن أجروم

¹⁵⁴. كنون عبد الله :النبوغ المغربي في الأدب العربي ، ط 2، دار الكتب العلمية ،بيروت ،لبنان،1442هـ
1/196،م2021.

من النحو العالم إلى النحو التعليمي الذي يقصده كل متعلم بعد القرآن الكريم. لقد انتخب ابن آجروم من نحاة البصرة ومن نحاة الكوفة ومن غيرهما ما يناسب المبتدئ في علم النحو، فلم يتعصب لمذهب أو مدرسة أو زمان أو مكان... وإنما تعصب للأفيد، وهو الضالة التي يبحث عنها، والأقرب إلى تمثل تلامذته ومستوى عقولهم وإدراكهم... فجاءت أمثلته بسيطة لكنها مناسبة، وترك المسائل الخلافية بعيدا عن التلميذ. عكس ما ذهب إليه السيوطي على أنه كوفي المذهب. وهذه بعض اختياراته:

البصرة	الكوفة
• الفعل ماض أو مضارع أو أمر	• استعمال الخفض بدل الجر
• المبتدأ مرفوع بالابتداء	• استعمال النعت بدل الوصف
• استعمال المضمر بدل المكنى	• فعل الأمر معرب مجزوم بدل مبني
• «إنَّ» حرف نصب للاسم رافع للخبر	• واو «رُبَّ» هي الخافضة لا «رب» المقدر
• استعمال الظرف بدل المحل ...	• «حتى» هي الناصبة مباشرة للفعل المضارع لا «أنَّ» المضمرة وجوبا
	• «كيفما» جازم. ولم يترجم لعطف البيان...

وجدير بالذكر أن هذه المقدمة الأجرومية المباركة نالت من القبول ما لم تنله المقدمات الأخرى في النحو بل، نظمها وأعربها وشرحها وحشاها وعلق عليها العديد من العلماء، ومنهم الشيخ أحمد بابا التمبكتي، وليس هاهنا مقام التفصيل في الشروح العديدة.

- فرائد المعاني في شرح حرز الأمانى ووجه التهاني، من تحقيق الدكتور عبد الرحيم نبولسي
- البارع في قراءة نافع
- التبصير في نظم تيسير الإمام الداني
- الاستدراك على هداية المرتاب...

كانت وفاته رحمة الله عليه يوم الإثنين لعشر بقين من صفر عام ثلاثة وعشرين وسبع مائة للهجرة، بعد خدمة جليلة للقرآن ولغته وقراءاته، ودفن بمدينة فاس¹⁵⁵.

3. التعريف بأحمد بابا التمبكتي

أحمد بن أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحيى بن كدالة بن مكي.. الصنهاجي الماسني السوداني التكروري التمبكتي، نسبة إلى مدينة «تمبكتو» بالنون أو بالميم، وهي مدينة من حواضر السودان. وزعم البوسعيدي أنه من مسوفة الصنهاجية. كنيته أبو العباس ولقبه «بابا» بالتفخيم أو «باب» بالتخفيف، وهو من الذين تولوا الترجمة والتعريف لأنفسهم في مؤلفه: كفاية المحتاج بمعرفة من ليس في الديباج.

¹⁵⁵ يرجع في ترجمته الموسعة إلى شروح المقدمة الأجرومية والحواشي عليها/ بغية الوعاة 1/238 - شذرات الذهب 8/112 - الأعلام للزركلي 7/33 - تاريخ الأديبي العربي لبروكلمان 7/413...

أما ولادته فقد وجد بخط والده أنها كانت عام ثلاثة وستين وتسعمائة للهجرة ليلة الأحد الحادي والعشرين من ذي الحجة، ونشأ في بيت علم ورث ذلك خمسة قرون، وسط أعلام وعلماء ودعاة وقضاة¹⁵⁶...

شيوخه

تلقى أحمد بابا العلم ونهل من معين علماء عائلته، ومن غيرهم. ومن جملة أساتذته و معلميه نذكر:

- عمه النحوي أبو بكر بن أحمد بن عمر
- والده أحمد بن أحمد بن عمر التمبكتي
- بُغيغ، محمد بن محمد بن أبي بكر الونكري، لازمه أكثر من عقد.
- يحيى بن محمد الخطاب
- محمد بن محمد الفلاني¹⁵⁷

تلامذته

- أخذ عن أحمد بابا عدد كبير من الطلبة؛ ومن العلماء، ومنهم من يفوقونه سناً، سواء في بلده أو لما كان مدرساً بمراكش، ومن هؤلاء علماء مراكش وأعيانها، وغيرها من الحواضر المغربية. ومن هؤلاء على سبيل التمثيل لا الحصر:
- ابن القاضي أحمد بن محمد المكناسي.
- أحمد بن علي السوسي البوسعيدي الصنهاجي صاحب: «بذل المناصحة في فعل المصافحة».
- عبد الرحمن التمنارتي صاحب: «فهرست الفوائد الجمّة».
- عبد الكريم بن أحمد التواتي

¹⁵⁶ يرجع في ترجمة أحمد بابا إلى كفاية المحتاج - 513 نشر المثاني للقادري - 1/271 صفوة من انتشر للأفرائي مصطفى عكيلي: مقدمة مرآة التعريف - حسن جلاب: مقدمة الدر النضير...
¹⁵⁷ كفاية المحتاج: 212 - نيل الابتهاج: 93...

- أحمد بن أبي العافية
- عبد الرحمن السعدي، لازمه في تمبكتو، واعتمد عليه في تأليف كتابه: «تاريخ السودان»¹⁵⁸

مؤلفاته ومكانته العلمية

ذكر الدكتور حسن جلاب في كتاب أحمد بابا السوداني وكتابه الدار النضير، أن مؤلفاته ناهزت الستين كتاباً¹⁵⁹.

وفي مقدمة المحقق للكفاية: «وقد خلف مصنفات عديدة، ذكر منها إلى حد الآن أكثر من ستين، وما آثاره العلمية التي استغل وجوده بمراكش لإنتاج القسط الأهم منها إلى نتيجة النتائج لتوارث العلم في أسرته آل أقيت فترة طويلة.¹⁶⁰»

وفي مقدمة المحقق لـ «مرآة التعريف» أن محقق «تحفة الفضلاء ببعض فضائل العلماء» عدّ من مؤلفات أحمد بابا ثمانين عنواناً¹⁶¹

والملاحظ عموماً أن مؤلفاته تميل نحو الشروح كدأب أهل عصره.

جدير بالذكر أن مؤلفات أحمد بابا شملت مجالات علمية مختلفة، منها في النحو واللغة موضوع هذه المقالة، كما شملت العقيدة والتفسير، ثم الحديث والفقه، فضلاً عن السير والتراجم والتصوف. وهذه بعض أعماله، على أن التأليف النحوي سرجته إلى الفصل التطبيقي:

¹⁵⁸ جلاب حسن: أحمد بابا السوداني وكتابه الدار النضير مع نماذج من ادعيته وصلواته، ط1، د.م ن، 1992م، ص 11، / مقدمة المحقق لمرآة التعريف بفضل العلم الشريف...

¹⁵⁹ أحمد بابا: ص 12

¹⁶⁰ التمكن أحمد بابا: كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، تحقيق دراسة: محمد مطيع، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1421هـ = 2000م، ص 22.

¹⁶¹ مصطفى عكلي: ص 30

في التفسير والحديث

- تفسير سورة الفتح
- نشر العبير بمعاني آيات الصلاة على البشير النذير
- استطراد الظرفاء في شرح حديث الخلفاء
- إمتاع الأسماء بما قيل في إجراء ألفاظ رواة الحديث مجرى السماع
- غاية الأمل في تفضيل النية على العمل
- نيل الأمان في تفضيل النية على العمل...

في العقيدة والفقه

- شرح صغرى السنوسي
- شرح العقيدة البرهانية للسلالجي
- إفهام السامع بمعنى قول خليل في النكاح بالمنافع
- أنفس الأعلاق في فتح الاستغلاق من فهم كلام خليل في درك الصداق
- ترتيب جامع المعيار للونشريسي
- درر الوشاح بفوائد النكاح¹⁶²
- دفع الضير عن كلام ابن خير¹⁶³
- الكشف والبيان في حكم أصناف مجلوب السودان

في التصوف والتراجم والسير

- الإرشاد والإعلام بما قيل في المفاضلة بين الأولياء والعلماء الأعلام
- تحفة الفضلاء ببعض فضائل العلماء
- جلب النعمة ودفع النقمة بمجانبة الولاة الظلمة
- مرآة التعريف بفضل العلم الشريف
- درر السلوك بذكر الخلفاء وأفاضل الملوك

¹⁶² وشاح السيوطي

¹⁶³ رد على سؤال من الزاوية الدلائية

- الدر النضير في ألفاظ الصلاة على البشير النذير
- خمائل الزهر فيما ورد من كفيات الصلاة على سيد البشر
- كفاية المحتاج بمعرفة من ليس في الدياج
- نيل الابتهاج بتطريز الدياج¹⁶⁴

أما عن منزلته العلمية، فقد كان رحمه الله محل تقدير وثناء من معاصريه؛ علماء وطلبة، وبعد رحيله أيضا. كان موسوعي المعرفة إماما ومدرسا فصيحاً مصنفًا ناصحاً¹⁶⁵، لقي تقديرا كبيرا من الأوساط الشعبية والمثقفة على السواء، وكلها ألحت عليه ان ينفع بالتدريس لما كان بمراكش كي تستفيد من مواهبه الفكرية، ولما قبل ذلك اختار جامع الشرفاء فقصده الطلبة، وحتى من يكبرونه سنا من القضاة والمؤرخين والفقهاء ورجال الدولة وغيرهم¹⁶⁶.

وفاته

كانت وفاة أحمد بابا رحمة الله عليه في شهر شعبان سنة ست وثلاثين وألف للهجرة بعد حياة علمية مليئة بالعطاء بين بلاده السودان الغربية ومراكش بالمملكة المغربية¹⁶⁷.

¹⁶⁴.دياج ابن فرحون

¹⁶⁵.الحضيكى، محمد بن أحمد(ت1189هـ): طبقة الحضيكى ، تحقيق وتقديم: أحمد بومزكو، ط. 1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1427هـ -2006م، 1/45.

¹⁶⁶.حركات إبراهيم: السياسة والمجتمع في العصر السعدي ،د.ط، دار الرشاد الحديثة ،الدار البيضاء،المغرب 1408هـ - 1987م، ص 411.

¹⁶⁷.مرآة التعريف:ص ص 30 - 35/ أحمد باب السودانى وكتابه الدر النضير:12-13...

الفصل التطبيقي لشرح أحمد بابا للأجرومية

1. أحمد بابا وعنايته بشرح الأجرومية

اهتم أحمد بابا بالنحو تبعاً لاشتغاله على النص الديني، ولإمكانياته في كشف مقاصد النصوص ومعانيها، فلاشتغال على اللغة مرقاة إلى فهم النص الديني، سواء أكان قرآناً أم حديثاً، وإلى فهم النصوص التي يريد شرحها من المتون. يقول محمد بازي: « لا يخرج المعنى في مجال التاويلية العربية عن مسارين بارزين؛ أولهما: اشتغال الدوائر النصية الصغرى، ونقصد به مجموع العمليات القرائية التي تركز أساساً على مواد النص وأبنيته الداخلية، وكل ما هو دال فيه من كلمات وتراكيب نحوية وبلاغية، وعلامات سيميائية قابلة للفهم والتأويل. وثانيهما اشتغال الدوائر السياقية الكبرى التي تفتح بوابات متعددة لدخول كل ما يضيء جانباً معتماً أو غامضاً في النص موضوع القراءة¹⁶⁸. »

ويكون معظم مؤلفات التمبكتي شروحاتاً لغيره أخذت منه اللغة تعليماً وتعلماً وتأليفاً نصيباً مهماً، لكنه لم يخرج عن ما كان متداولاً في عصر الدولة السعدية من الإقبال على الألفية والأجرومية وشروحهما، لذلك صنف في النحو الأعمال الآتية:

- فتح المحيي في مسألة «حيي» من ألفية ابن مالك
- النكت الذكية بشرح الألفية
- النكت المستجدة في إلحاق الفاعل بالمبتدأ في شرط الإفادة
- النكت الوفية بشرح الألفية
- التحديث والتأنيس في الاحتجاج بابن إدريس
- الإبداء والإعادة في مساواة الفاعل للمبتدأ
- الفتوحات القيومية في شرح الأجرومية. وهو موضوع هذا المقال؛ من حيث منهجه وأسلوبه.

¹⁶⁸ بازي محمد: التأويلية العربية، نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، 1431هـ - 2010م، ص 189.

لقد كانت سمة الشرح هي الغالبة على انتاجات أحمد بابا ،والشرح لا يعني د رجة ثانية، وإنما هو بناء للنص وتتميم له وتعزيز لمعناه، وإيصال لرسائله، إن الشرح :«إعادة بناء النص بدراسة أفكاره ووسائله التعبيرية من وجهة نظر علوم مختلفة ،جسر التواصل بين النص والقراءة، من جهة، وبين النص والقارئ من جهة ثانية، وبين النص والنقد من جهة ثالثة.¹⁶⁹»

هكذا يرى أحمد بابا ألفية ابن مالك ومقدمة ابن أجيروم ، وستركز هذه الدراسة على شرح المقدمة الأجيرومية الموسومة بالفتوحات القيومية في شرح الأجيرومي.

2. الخيارات المنهجية في شرح أحمد بابا للأجيرومية

يعد المنهج خارطة طريق للوصول إلى الأهداف، فبه يهدي المؤلف في عمله لتبليغ رسائله وبلوغ غاياته، ولا يخرج أحمد بابا عن هذا الشأن ، ولم يشذ عن هذه القاعدة، فمعالم المنهج بادية في خيارات شرحه من خلال تسطير الأهداف وجمع المادة ووضع الآليات التنفيذية؛ والخلفية العلمية التعليمية؛ تتميم المتن والنفع بالشرح وإعلاء همم الطلبة والعلماء...لقد بنى أحمد بابا كتابه:« الفتوحات القيومية في شرح الأجيرومية بوعي منهجي»، إذ بدأ بالعنوان الناقد، ثم الاستهلال، فمقطع البداية ومتن العرض، بلوغاً إلى النهاية.

- **اختيار العنوان ودلالاته:** يعد العنوان أهم عتبة قرائية ؛ فهو ينم عن تصنيف المؤلف لعمله ضمن الأجناس والأنواع والأقسام... ، وعن تلخيصه وتكثيف معانيه ثم تقييمه..وما يفتحه من آفاق في مجال تخصصه .لذلك فانتقاء كلماته بالغ الأهمية لأنها تعكس دراية صاحبها ودُرْبته:

¹⁶⁹.ناعيم مليكة: مدرسة النقد النحوي في الأندلس ،بحث في الأسس النظرية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،1440هـ -2019م،ص 14.

• **الفتوح:** اسمٌ جمع جمع كثرة، ومن معانيه: النصر ونقيض الإغلاق، تقول: فتحه فانفتح وتفتح...

وفي حديث: «أوتيت مفاتيح الكلم» أي ما يتوصل به إلى استخراج المغلقات التي يتعذر الوصول إليها، وهو ما يسر الله له من البلاغة والفصاحة، والوصول إلى غوامض المعاني وبدائع الحكم، ومحاسن العبارات والألفاظ التي أغلقت على غيره، وتعذرت عليه. ومن كان لديه مفاتيح شيء مخزون سهل عليه الوصول إليه¹⁷⁰.

• **الفتح:** الطلب إلى الله والمسألة

• **الفتّاح:** الحاكم والقاضي (إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح) الآية. أي تستقضوا... والفتوحات مستمدة من الحقل الديني وانتشار الإسلام.

• **القيومية:** اسم منسوب إلى القيوم: من أبنية المبالغة ومعناها القيّام بالأمر، قال مجاهد: القيّوم: القائم على كل شيء.

من أسماء الله المعدودة: القائم بنفسه مطلقاً لا بغيره.

• **المدبر:** قال الزجاج: القيوم والقيّام في صفات الله تعالى القائم بتدبير أمر خلقه.

• **صورة القيوم من الفعل:** الفيْعول، وصورة القيّام: الفيْعَال، وهما مدح جميعاً، قال الفراء القيّم السائس للقوم وقيّم، الأمر مُقيّمه.

• **القوام:** العدل

• **القيام:** العزم والنهوض والاضطلاع...

• **القيام:** المحافظة والإصلاح¹⁷¹

¹⁷⁰ لسان العرب: مادة (ف.ت.ح)

¹⁷¹ لسان العرب: (مادة ق.و.م)

• قراءة في العنوان

انتقى أحمد بابا في عتبات العنوان من حيث اللغة والاشتقاق ما يراه مناسباً لعمله، وما يفوق به غيره، فدلالة الفتوحات بالجمع زيادة وغنى، فقد تضاعفت بالجمع الصفة، وهذا ثراء، وفيها أيضاً طلب العون من الله تعالى؛ عون الوصول إلى مستغلق الأجرومية الذي لم يبلغه غيره، وعجز عنه، كما أنه سيفصل ويقضي في الشروح التي تقدمته في متن الأجرومية. أما في «القيومية» فإن هذا القيد الوصفي قد اختار فيه المبالغة من اسم الفاعل، والدالة على التكثير والكافية والشفافية عن غيرها بعدلها وتدبيرها.

إن الدلالة في العنوان تكاملية بين الأصل اللغوي وما أضافته الصيغة الصرفية: «فُعُول + فَعُول / فُتُوْح + قِيُومِيَّة» فالصرف يسهم في توسيع الدوائر الدلالية الصغرى للكلمة، وبه يعرف الشارح والمفسر أبنية الكلام وموازينها وصيغها¹⁷².

أما شرح الأجرومية فقد سبقه إليه شراح كثير إلا أنه متميز عنهم وقادر على التفوق عليهم بما تحمله صيغة العنوان من قراءة نقدية وأفق رحب للتلقي كالفتوحات الإسلامية.

¹⁷²بازي محمد: التأويلية العربية، نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، ص 168

- جدير بالذكر أن صيغة «الفتوحات» بالجمع اقتبسها بعده كثير منهم:
- الشيخ محمد أمين بن عبد الله الإثيوبي الهرري (ت1441هـ): الفتوحات القيومية في حل وفك معاني ومباني متن الآجرومية.
 - ابن عجيبة أحمد بن محمد المهدي أبو عباس الحسني الإدريسي الفاسي (ت1224هـ): الفتوحات القدوسية في شرح المقدمة الآجرومية
 - إبراهيم سيد أحمد البليزي: الفتوحات الربانية في معرفة القواعد العربية على الآجرومية
 - محمد بن أحمد بن محمد عمير الخربتاوي البحيري (كان حيا 1217هـ): فتوحات رب البرية إلى ألفاظ الآجرومية
 - محمد بن عامر الحكيم النحوي (ت1073هـ): الفتوحات الإلهية في شرح ألفاظ الآجرومية

• اختيار البداية والاستهلال

- استهل أحمد بابا هذا المقطع من العمل بما يقتضيه من :
- البسملة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، حيث قال: (بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه)¹⁷³.
 - الحمدلة والبعدية : حمد الله تعالى على جميع الأحوال ، ثم فصل المقال للانتقال: (الحمد لله على جميع الأحوال وأشهد أن لا إله إلا الله... وبعد)¹⁷⁴

¹⁷³.الفتوحات: ص 7

¹⁷⁴.المصدر نفسه ص 7

• التوقيع :يوقع أحمد بابا مؤلفه وينسبه إليه، ويتحمل فيه كامل المسؤولية؛ ما له وما عليه ،مع الاعتراف مسبقا بالذنب والتقصير والافتقار ، كعادة أهل العلم في تواضعهم.(يقول العبد الفقير إلى رحمة ربه المقتدر أحمد ابن قاد بن أحمد بن أحمد...)175.

• تحديد الموضوع ودوافعه: يصرح بطبيعة الموضوع ومنتنه الاصلي ووسمه بالخاصية تواضعا، وأثنى على صاحبه بكل خير وامتحده على أخلاقه الصالحة، وما هو إلا حاشية عليه، وابن آجروم الأصل... (هذه حواش وضعتها على الآجرومية المباركة للشيخ أبي عبدالله العالم العلامة المبارك الاستاذ الصالح محمد بن محمد بن آجروم)176.واما عن دواعي التأليف فنجدتها في قوله:

• الإفادة والزيادة منها : لم أخلها من فوائد مهمة.

• الإضافة وسد الحاجة لدى الطالب : لم أخلها من تتمات يتشوق إليها عليُّ المهمة.

• اختيار مفاتيح الترميز

اعتمد أحمد بابا في شرح الآجرومية على مجموعة من الأعلام والكتب بكثرة واحترازا من إعادة أسمائهم أثناء المقارنة أو العرض أو الشرح أو الاستشهاد اختزل الأسماء بحرف مأخوذ من أسمائهم كمفاتيح يتم التعاقد عليها منذ مرحلة الاستهلال وهي كالآتي :

• ابن مالك : حرف الكاف

• ابن هشام : حرف الهاء

• السيوطي : حرف السين

• خالد الأزهرى : حرف الخاء

175.المصدر نفسه ص 7

176.المصدر نفسه

يقول أحمد بابا: وفيها من الرقوم: صورة «ك» لابن مالك، وصورة «هـ» لابن هشام، وصورة «س» للسيوطي، وصورة «خ» للشيخ خالد رحمهم الله أجمعين¹⁷⁷

• اختيار المقدمة التوجيهية

قدم أحمد بابا قوله شذرية يبرر بها توثيق شرحه للأجرومية، و سبب تاخير موضوعه، فهو المعتمد على غيره في بناء المعرفة، وعليه وجب التعريف بالمصدر وقيّمته. يقول: «ما كان معقولا فبرهانه في نفسه، وشاهده معه، فلذلك لا يُحتاج لمعرفة قائله... والمنقول موكول لأمانة ناقله، فلزم تعريفه والبحث عن حاله، لأن من يعتمد في نقله على من لا يعرف حاله كان كالبلاني على غير أساس في نقله¹⁷⁸».

لذلك عرف بصاحب المتن وعلم النحو وأهمية اللغة:

- التعريف بابن آجروم صاحب المتن، الاسم والكنية والخصال المعروفة عنه، ثم عرج على مذهبه النحوي: «هو محمد بن محمد بن داود الصنهاجي، أبو عبدالله عرف بابن آجروم... وصفه شراح مقدمته كالمكودي والراعي وغيرهما بالأمانة والبركة والصلاح وفي الإحاطة بالأستاذية»¹⁷⁹.

وفي مذهبه النحوي عارض أن يكون كوفيا بالأدلة: «لا ينهض هذا دليلا على أنه كوفي المذهب في النحو لأن وجدنا كثيرا في هذه المقدمة على مذهب البصريين وآرائها واصطلاحاتها»¹⁸⁰. ثم عرف بشيوخه وتاريخ ولادته ووفاته.

¹⁷⁷المصدر نفسه ص11

¹⁷⁸الفتوحات القيومية: ص 12

¹⁷⁹المصدر نفسه: ص13

¹⁸⁰المصدر نفسه

– التعريف باللغة والنحو وأهميتهما: عدّ اللغة أداة للتعبير، ومن الألفاظ حدوث الموضوعات بها عما في الضمير نقلا عن السبكي، وفائدتها أفضل من الإشارة والمثال وهي الألفاظ الدالة على المعاني.

اما النحو فتوقف في تعريفه مطولا ، من الأصل اللغوي إلى التعريف الإصطلاحي مروراً بعلاقته بالصرف والإعراب وعلم العربية، فضلا عن موضوعه وفائدته، ومسائله ومصنفاته وواضعه... مختتما بسبب تسميته نحوا¹⁸¹.

• اختيار القضايا والأبواب:

عرض أحمد بابا أبواب شرحه متأثرا بمقدمة ابن أجروم محتفظا على ترتيبها وهيكلها، لكنه يفتح في شرح الأبواب على بنيته تفسيرية وحجاجية واستدلالية تتفاوت حسب درجة حاجة المسألة إلى التوضيح، أو حسب ما تثيره المسألة أو الباب من خلاف في الأصل. لذلك نجده يبلغ حد الإطناب محاولا قتل المسألة بحثا حيناً، لكننا نجده منسلا بسرعة وبحسن تخلص أحيانا أخرى ممتطيا صهوة الاختصار. وقد ذكرنا سابقا توقفه عند النحو مطولا، لكنه ذكر أهمية اللغة في أربعة أسطر¹⁸².

181. المصدر نفسه: ص 19 - 38

182. الفتوحات القيومية: ص 18

فالنحو أخرج إلى التفصيل في رأيه ،لذلك شرح عناوينه في حوالي عشرين سطرا. وغني عن البيان أن ابن أجروم خلص النحو من شوائب المنطق والخلاف والعلل غير الملائمة، واختزل الأبواب مبتغيا تعليم المبتدئين ونفعهم، لذلك احتفظ فقط بالأبواب الآتية ، فتأثره أحمد بابا في ذلك بعد البسملة:

- الكلام
- باب الإعراب
- باب معرفة علامات الإعراب
- فصل العربات
- باب الأفعال
- باب مرفوعات الأسماء
- باب الفاعل
- باب المفعول به الذي لم يسم فاعله
- باب المبتدأ والخبر
- باب العوامل الداخلة على المبتدأ والخبر
- باب النعت
- باب العطف
- باب التوكيد
- باب البدل
- باب منصوبات الأسماء
- باب المفعول به
- باب المصدر
- باب ظرف الزمان وظرف المكان
- باب الحال
- باب التمييز
- باب الاستثناء
- باب «لا»
- باب المنادى
- باب المفعول لأجله
- باب المفعول معه
- باب مخفوضات الأسماء

• اختيار الخاتمة

أنهى أحمد بابا شرحه للأجرومية بالحمدلة والدعاء أسوة بغيره من الشراح، حامداً الله على التوفيق منه، وبذلك يكون قد وضع اللبنة الأخيرة في عمل متكامل الحلقات من بداية ووسط ونهاية، يقول: «الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد... ورضي الله تعالى عن أصحاب رسول الله أجمعين، وعن التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين»¹⁸³...

متوسلاً إلى الله كما منّ عليه بإتمام هذا العمل في الشهر الحرام أن يرحمه ويتجاوز عنه¹⁸⁴.

3. الخصائص الأسلوبية في شرح أحمد بابا للأجرومية:

اختار أحمد بابا في شرحه للمقدمة الأجرومية أسلوباً يناسب جنس الشرح؛ فهو سهل المأخذ واضح الأفكار تقريرياً للغة، وما دام قد صرح في دوافع التأليف أنه يريد التتميم والإفادة فإن هذا الفتح، وكما جاء في العنوان، مطيته التفسير والشرح والاستدلال وبلغة سهلة المأخذ واضحة العبارة تتغيا توسيع قاعدة المنتفعين لإعلاء همتهم في قواعد لغة القرآن، لذلك تعقب الأجرومية من بدايتها إلى نهايتها، محاولاً توضيح معانيها، مزيلاً مستغلقات متنها؛ بالتعريف وبالمثال حيناً، وبالتوسيع والاستدلال والقياس والاستشهاد حيناً آخر.

إن عالي المهمة الذي يريد المزيد كما في سبب التأليف راغب في توسيع أفق المعرفة في المصطلحات والمسائل والأبواب، بل وفي علم النحو واللغة، ومقاصدهما في اللغة العربية، وعلاقتهما بالنص الديني وغيره. هذا ما نجده في أسلوب أحمد بابا وستحاول الدراسة رصد هذه الوسائل التي اعتمدها لبلوغ أهدافه.

¹⁸³ الفتوحات القيومية: ص 319

¹⁸⁴ المصدر نفسه

خصائص البنية المصطلحية:

بنى أحمد بابا شرحه لمتن الأجرومية بمصطلحات تنتمي إلى حقلين متساندين ومتمايزين، فالأول مرتبط بالنحو وهو تأصيلي بنائي دال على التخصص، بينما الثاني تنظيمي منهجي شكلي يرتب المادة النحوية في فصول وأبواب ومسائل، وفي مقدمة وتوسيع وتنمية... فتدرك من هذه الثنائية دراية في الموضوع ودربة في المنهج التأليفي؛ عناية بالموضوع وتحكما في الشكل والتصميم. وفي هذا الجدول نماذج مصطلحية في بنية شرح التمبكتي للأجرومية:

مصطلحات توجيهية منهجية	مصطلحات مؤصلة بانية
باب - فصل - قسم - فرع	النحو - اللغة - الكلام الحذف
فائدة - قاعدة - قاعدة - مستملحة مقدمة	- الشاهد - المثال القياس - النادر
- خاتمة - تكملة - تنبيه ضبط -	- الشاذ
مسألة - تأصيل	القلة - الضرورة - الضعيف
بيان - إيضاح - بسط	المطرود - الاسم - الفعل الحرف -
تعقيب - تنمة - مهمة	النكرة - المعرفة الفاعل - المفعول
عود - توطئة - حكاية و مزيد	- التميز العطف
بيان - تذييل...	

قراءة في الجدول:

يبدو - من خلال الجدول - أن أحمد بابا في أسلوبه يجمع بين الربط المنطقي الذي يربط السبب بالنتيجة مروراً ببنية تفصيلية استدلالية، فيها ما هو دال على التعزيز والإضافة، وفيها ما هو دال على التعارض والتمحيص... وبين الربط التسلسلي الذي يراعي « كيف يقول ما يقول » قبل الحرص على « ما يقول ». لذلك حضرت هذه المصطلحات التسلسلية: مقدمة - توضيح

- بسط - تعقيب - تكملة - خاتمة . وقد وردت الخانة الأولى مقترنة ب«ال» ، بينما في الثانية جاءت غير مقترنة، إذ البناء بالمجهول والإخبار عنه لغو في النحو. لقد تجاوزت في أحمد بابا المعرفة النحوية في أبوابها المطروقة مع الوعي المنهجي والتربوي.

خصائص بنية التعريف والاستدلال:

تعد المصطلحات والألفاظ مادة لبناء المعنى، فالجمل والتراكيب والنصوص موادها الكلمات، ومن بنى على ما لا يعرف كمن شيد على غير أساس، لذلك فوسائل الشرح تبدأ بالوقوف على كل مستغلق أو مبهم أو مشترك قبل تداوله، وبناء المعنى اعتمادا عليه. وقد نص على ذلك الراغب الأصفهاني في حديثه عن أهمية ألفاظ القرآن قائلا: «إن أول ما يحتاج أن يُشتغل به من علوم القرآن العلوم اللفظية، ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفردة، فتحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوائل المعاون لمن يريد أن يدرك معانيه كتحصيل اللبن في كونه من أوائل المعاون في بناء ما يريد أن يبينه»¹⁸⁵.

وعلى هذا الأساس نجد أحمد بابا يقف عند هذه الكلمات لتقريبها، وينص على حركتها أحيانا، وعلى الاحتمالات التي ترد عليها، سواء أكانت أعلاما أم مصطلحات، وسواء أكانت اسما أم فعلا أم حرفا... وستقف الدراسة على سبيل المثال لا الحصر على بعض النماذج لغة واصطلاحا لبيان أسلوبه في التعريف:

¹⁸⁵الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد أبو القاسم: المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم - الدار الشامية، دمشق - بيروت، 1416هـ - ص54

- **آجروم**: بفتح الهزرة الممدودة وضم الجيم والراء المشددة معناها بلغة البربر: الفقير الصوفي¹⁸⁶

- **الاستاذ**: بالذال المعجمة وهمزة مضمومة، لفظة فارسية عربتها العرب، ومعناها عند الفرس العالم بالشيء الماهر فيه¹⁸⁷.

- **النحو**: لغة بمعنى القصد وبمعنى المثل وبمعنى القسم ...
واصطلاحاً: علم استخراج المتقدمون من استقراء كلام العرب.
علم بأقيسة تغير ذوات الكلمة وأواخرها بالنسبة إلى لسان العرب.
علم بأصول يعرف بها أحوال الكلم إعراباً وبناءً¹⁸⁸.

- **الفصل**: لغة : الحاجز بين الشيئين وقيل هو التمييز.
اصطلاحاً: هو ما يفصل بين أجناس المسائل وأنواعها وبين أنواع المسائل وأجناسها.
اسم لطائفة من المسائل تشترك في حكم¹⁸⁹.

- **اللفظ** : مصدر لفظت الشيء إذا أطرحته .
اصطلاحاً : اسم لصوت ذي مقاطع أو ما هو في قوة ذلك.
- **الفاعل** : لغة :من فعل الفعل .

اصطلاحاً: الاسم الصريح أو المؤول المرفوع المذكور قبله فعله¹⁹⁰

¹⁸⁶.الفتوح : ص12

¹⁸⁷.الفتوحات: ص 13

¹⁸⁸.الفتوحات :ص19

¹⁸⁹.الفتوحات :ص125

¹⁹⁰.م.ن:178

قراءة في التصنيف:

يبدو أن أحمد بابا يحيط بالمصطلح أو العلم أو اللفظ من ناحية اللغة أحيانا ، مع توسيع دائرة المعنى لفتح أفق للكلمة ووضعها في سياقها كي يربطها بالنحو خصوصا ، ثم بحمولتها اللغوية والصرفية كي تكتمل الصورة ، وعندما تختلف الآراء والمرجعيات في الاصطلاح مثلا ، يوردها درءا للانحياز وبغية الموضوعية . ثم إنه حينما يتطور الاصطلاح ويتجاوز التعاقد الإصلاحي المعروف ، ينبئ بذلك ويذكر السابق ثم يذكر اللاحق ، كما فعل مع تعريف النحو اصطلاحا ، فالتعريفان الأولان لما كان النحو يشمل الصرف والإعراب ، والثالث بعد ما استقل علم التصريف قسما برأسه غير داخل في علم النحو .

أما طرائق الاستدلال والتعليل في شرح الأجرومية لدى أحمد بابا فيتجاوز تقديم الكلمة بلغتها واصلاحها إلى بناء المعنى بها والاستدلال بذلك . وقد أخذ ذلك صورا مختلفة . منها:

الجمع بين المفهوم والمثال والنقل: يظهر ذلك حينما يتسلسل في بناء الرأي انطلاقا من التمثيل الذهني بلوغا إلى مثال يعزز الرأي من الواقع، مع مساندة بحجة نقلية موثوق بها . ومثال ذلك قوله: «الشاهد ما يذكر من كلام الله تعالى أو كلام نبيه صلى الله عليه وسلم أو من كلام العرب المحتج به، لأنه تثبت به تلك القاعدة الكلية، والمثال ما يذكر لإيضاح تلك القاعدة، والشاهد أحص مطلقا، ذكر ذلك الشهاب... ومنها إذا اختلفت الأقوال في علم النحو فبابه الفتوى هو ما ترجح بقوة حجته»¹⁹¹

191. الفتوحات: 36

- **التقسيم والتفريع** : أحيانا يعتمد الشارح إلى تشقيق الموضوع بذكر احتمالاته الممكنة موظفا التشجير في شرحه، وهي تقنية عقلية تحيط بالموضوع، وتقود إلى ربط أقسام الاصل بالعناصر الجزئية المكونة لها، ومن ذلك مثلا: الإعراب بالحركات وبالحروف، والبسملة، والكلام ومنصوبات الأسماء، والاستثناء... وهي تقنية تكاد لا تخلو منها الأبواب الأساس. ومنها:

- **علامات الإعراب** : هذه العلامات أربع عشرة؛ الأربع أصول، والعشر فروع، فالأصل رفع بضمة تنوب عنها الواو، والألف والنون. ونصب بفتحة تنوب عنها الألف، والكسرة والياء وحذف النون. وخفض بكسرة تنوب عنها الياء والفتحة. وجزم بسكون وناب عنه الحذف... هذه العلامات ثلاثة أقسام: مشترك بين الاسم والفعل وهو الضمة، ومختص بالاسم وهو الواو والألف، ومختص بالفعل وهو النون... فأما الضمة... وأما الواو¹⁹²...

- **مرفوعات الأسماء**: المرفوعات سبعة. وهي الفاعل والمفعول الذي لم يسم فاعله و المبتدأ وخبره، واسم كان وأخواتها، وخبر إن وأخواتها، والتابع للمرفوع وهي أربعة أشياء؛ النعت والعطف والتوكيد والبدل¹⁹³.

- **الضمير (المنفصل)**: اما مرفوع أو منصوب ولا يكون مجرورا، وكل من المرفوع والمنصوب إما متكلم أو لمخاطب أو لغائب، فالمرفوع للمتكلم... وللمخاطب... وللغائب... والمنصوب للمتكلم... وللمخاطب... وللغائب... فتبين بما ذكرنا أن عدد الضمائر كلها سبعة وستون ضميرا¹⁹⁴.

192. الفتوح: ص 89 - 92

193. الفتوحات: 176

194. م ن: 236- 237

من خلال هذا الجدول يبدو أن الشارح آخذ بزمام الموضوع ، مدرك لخطاطته الذهنية ، عالم بجزئياته ، قادر أن يربط الفرع بالأصل ، محيط بالممكنات الواردة تحته . صحيح أنه ملتزم شكلا بمتن الأجرومية ، لكنه حرٌّ في كيفية الإيصال ، وتلك الميزة لا يملكها إلا الأستاذ الماهر الحاذق ، فهي مقارنة تعليمية غايتها التبسيط والتيسير من جهة ، والإثراء وبناء التمثل الكلي والجزئي للموضوع من جهة أخرى .

خصائص الإعراب والإيجاز والإطناب:

ينتقي أحمد بابا في أسلوبه ما يراه أنسب للشرح ، لذلك نراه أحيانا يبين اعتمادا على إظهار المواقع الإعرابية ، ولا غرابة في ذلك فالإعراب في اللغة هو الإبانة والإفصاح والظهور والإيضاح . «قال أبو منصور الأزهري: الإعراب والتعريب معناهما واحد وهو الإبانة ويقال: أعربَ عمّا في ضميرك ، أي: أبّنْ، وفي الحديث : الشَّيْبُ يُعْرَبُ عنها لسانُها»¹⁹⁵

والشارح في بنائه لمعنى النص لا يتغيا غير الإبانة والإفصاح . ففي الوقوف على الحركة والعوامل وموقع الكلمة تخريج للمعنى ، وفي ممكنات الإعراب وتقليب الكلمة على وجوهها السياقية إحاطة بالمعنى من دائرة الإعراب ، وخدمة للشرح ، وفي ذلك تسانُدٌ للمعجم والصرف ... فالألقاب الإعرابية: فاعل - مفعول - حال ... معانٍ تضاف إلى المعنى اللغوي ، ولذلك سميت الكتب المصنفة في إعراب القرآن ب: معاني القرآن ، كما عند الزجاج وغيره.¹⁹⁶

¹⁹⁵الرعيض، عبد الكريم: ظاهرة الإعراب في العربية، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ،طرابلس، ليبيا، 1988م، ص: 101.

¹⁹⁶أحانة عدنان: المداخل اللغوية في فهم الخطاب القرآني ،مجلة فقه اللسان ،العدد الرابع ،الرابطة المحمدية للعلماء ومركز ابن أبي الربيع السبي للدراسات اللغوية والأدبية، المغرب ، 1441هـ - 2020 م، ص 35.

وهذه نماذج إعرابية للتمثيل:

• بسم الله الرحمن الرحيم: الباء للاستعانة، وقيل للمصاحبة والملازمة والجار والمجرور متعلق بمحذوف تقديره «ابتدائي» (أي المصدر لدى البصرة) أو تقديره «ابتدأت» (أي الفعل لدى الكوفة)، أو «أولف» (الزمخشري والبيضاوي)، لأن الذي يتلو التسمية هو المؤلف، والتقدير يكون حسب ما يأتي بعد البسملة، وهو يتغير... (السيوطي — الكافيجي — المحلي...) ¹⁹⁷

• لن: حرف نفى واستقبال ونصب وتأيد النفي لدى الزمخشري ¹⁹⁸
• لما: حرف جزم لنفي المضارع، وقلبه ماضيا ¹⁹⁹.
• لم: حرف جزم لنفي المضارع وقلبه ماضيا.
• الكلام: الألف واللام عوض عن مضاف إليه محذوف تقديره: كلام النحويين، والألف واللام لاستغراق الجنس.

هذا وقد أعرب متن الاجرومية عدد من النحويين، وتوقفوا عند تفاصيل الإعراب. منهم:

• إعراب الآجرومية لسعيد بن إبراهيم المعروف بقدورة (ت 1066هـ).
• إعراب الآجرومية لأحمد الخليلي الشامي (ت 1189هـ).
• إعراب الآجرومية للشيخ خالد بن عبد الله بن أبي بكر الجرجاوي الأزهرى، (ت 905هـ) وهو المشار إليه في الفتوح برمز الخاء ²⁰⁰.

أما من حيث الإيجاز فإن أحمد بابا يختصر إذا بدا له أن المعنى قد اكتملت معالمه، وأن الرسالة قد تمت، وأن المسألة لا تحتاج إلى تفصيل، فيمر إلى غيرها مخافة تشتيت الفهم بالإسهاب. وقد مر بنا في باب اللغة مثلاً؛ إذ حمد الله على نعمة اللغة وفضلها، ثم مر

¹⁹⁷ الفتوحات: 38

¹⁹⁸ الفتوحات: 145

¹⁹⁹ م ن: 163

²⁰⁰ الحبشي، عبد الله محمد: جامع الشروح والخواشي، ط 1، دار المنهاج، بيروت، لبنان، 1439هـ - 2017م. - 1/19

إلى تعريف النحو الذي توقف عنده مطولا، مفصلا عناوينه. ومن أمثلة الإيجاز الإشارة إلى موطن الشاهد فقط، سواء في الآية الكريمة أو البيت الشعري أو في غيرهما، أو الإشارة إلى ذلك، كقوله: «لو تتبعنا ما للناس فيه من المناظم واستقصينا في ذلك لأدى ذلك إلى التطويل، فتركنا ذلك خوف أن يورث الملل، والله تعالى المستعان»²⁰¹.

أما في إعراب البسملة وما فيها من وجوه فقد قال: «ولقوة هذا القول بصحة دليله واختيار هؤلاء الأشياخ وغيرهم له، اقتضت عليه في التقدير. انتهى»²⁰². كما اختزل وجوه حرف الجر «مِنْ» قائلا: «قال أبو حيان رحمه الله: وفي الاستفهام بالهمزة نظر... وقد نقله أيضا الشيخ أبو إسحاق الشاطبي عن ابن أبي الربيع وغيره، ومعاني «مِنْ» كثيرة تركت غالبها خشية الإطالة»²⁰³. وقد يدعو إلى قياس ما لم يُقَلَّ وهي صيغة ذكية في الإيجاز: «وقس على ذلك»²⁰⁴.

وأما من حيث الإطناب فقد يؤدي أحمد بابا المعنى بعبارة زائدة على المتعارف عليه لغاية تعليمية، ولفائدة تقوية المعنى وتوكيده. ومن هذه الأبواب التي أطل في شرحها: تعريف النحو²⁰⁵، علامات الإعراب (27 صفحة)، نواصب المضارع (13 صفحة)، باب العطف (15 صفحة).

لقد تبين أن تنوع الاختيارات سلطة تقديرية يستثمرها الشارح حسب الباب، وهذا الاجتهاد في استدعاء الأسلوب المناسب مهارة تأليفية تعليمية بين المعلم والمتعلم والمادة التعليمية في جزئيتها من جهة، وفي كليتها من جهة أخرى²⁰⁶.

201. الفتوحات: 26

202. المرجع نفسه: ص 40

203. المصدر نفسه: ص 65

204. م ن: ص 53

205. 19 صفحة

206. بودرع عبد الرحمن: من نحو القواعد إلى نحو المبادئ، مجلة فقه اللسان، العدد الثاني، الرابطة المحمدية للعلماء ومركز ابن أبي الربيع السبيتي للدراسات اللغوية والأدبية، المملكة المغربية، 1439هـ — 2017م، ص: 55

الخاتمة

- إن القراءة في مؤلف أحمد بابا التمبكتي « الفتوحات القيومية في شرح الأجرومية » على مستوى المضمون وعلى مستوى الشكل تهدي إلى كون صاحبه مهتما بالنحو، واسع الاطلاع عليه، وأن تفوقه في التفسير والحديث والعقيدة والتصوف وغيرها إنما مبعثه مُكنة لغوية، وخلفية نحوية، تعمقت في الأصل من خلال الموروث النحوي السابق لزمانه، واتصلت بعصره من خلال هيمنة شروح الأجرومية والفية ابن مالك.
- إن نجاح أحمد بابا على مستوى الشكل من خلال توازن العناصر البنائية وتصميمها، وتناسق المحاور والأقسام والأبواب... وتوازن المقدمة والخاتمة، والتوسع في العرض بالبنية التفسير الحجاجية في الشرح... كل ذلك ينم عن مهارة في صناعة التأليف، كيف لا وهو صاحب الستين عنوانا ويزيد، والمعروف بين أقرانه — كما أشار في كفاية المحتاج — بالصبر وبالمهارة على كلل وملل في الطلب.
- إن البنية الحجاجية في شرح الأجرومية لأحمد بابا التمبكتي تعكس قدرته على الحجاج والإقناع، ومهارة في التفكير، فقد استشهد بالقرآن الكريم بحوالي ثلاثين ومائتي آية، ووظف حوالي أربعين ومائة شاهد شعري، ناهيك عن المنظومات التعليمية والأحاديث النبوية والقراءات القرآنية، وغير ذلك.
- إن المهارة التعليمية لأحمد بابا تعكسها المنظومات الجامعة لرؤوس المسائل ورموزها، وهي محبرة الأستاذ، والمعول عليها في استحضار الشاهد، وترتيب المسائل. وقد استشهد بحوالي ثمانين شاهدا من المنظومات الشهيرة و النادرة لعلي بن أبي طالب والحريري وابن معطي وابن مالك والسيوطي، ثم المكودي والشاطبي وغيرهم.

- إن تناول الموضوعي لشرح الأجرومية لدى أحمد بابا يتجلى في عرض الآراء وتفصيل المذاهب بلا تحيز أو إقصاء ، فحضرت المدرستان الشهيرتان البصرة والكوفة جنبا إلى جنب، كما حضرت مدرسة المغرب والأندلس والشام ومصر، وآراء النحويين، كما في الإعراب الذي اختلف فيه : فقال ابن خروف والشلوبين وابن الحاجب أنه لفظي ، وقال سيويه والأعلم ومتأخرو المغاربة، ومنهم أثر الدين بأنه معنوي، فحضرت المدارس جنبا إلى جنب وهي خاصة تعليمية.

- إن جمالية الشرح لدى أحمد بابا في تساند التقرير والحوار والمستملحات، فأحيانا يفصل ويقسم، لكنه يعطي فرصة للحوار بافتراض النقاش والمحاورة والمناظرة معتمدا ما يدل على ذلك، ك:قلتُ وقلتُ، تأمل واعلم وتنبه...بل إنه يتمتع بمجموعة من المستملحات بقدر ما يحتاج الطعام من الملح.

- إن شرف العلم بشرف المعلوم ويكفي أحمد بابا أنه اشتغل على لغة القرآن، والوسيلة إليه، واستشهد بالقرآن الكريم وحديث الرسول الأمين، متجردا من خوارم العلم؛ فلم يكن متعصبا للبصريين ولا للكوفيين ولا للبغداديين...ولا لزمان أو لمكان ولا لفرقة أو تيار، ولكنه كان - كأستاذه بالواسطة ابن آجروم صاحب المتن - ينقل العلم نقلا تعليميا تربويا (ديداكتيكيا) فيعمد الى النحو العالم ويستمد منه ما ينفع المبتدئ وعالي المهمة، ويقدمه في أحسن صورة ممكنة، وهذا ما فتح له صرح النجاح من أبوابه الواسعة، كنموذج ناجح لتجربة مغربية سودانية في خدمة اللغة العربية والتراث الإسلامي والإنساني إلى اليوم.

المصادر والمراجع

- أجانة، عدنان: المداخل اللغوية في فهم الخطاب القرآني، مجلة فقه اللسان، العدد الرابع، الرابطة المحمدية للعلماء ومركز ابن أبي الربيع السبيتي للدراسات اللغوية والأدبية، المغرب، 1441هـ — 2020م.
- ابن آجروم، أبو عبدالله محمد بن محمد بن داود الصنهاجي (ت 723 هـ): الآجرومية، تحقيق: حاييف النبهان، ط2، دار الظاهرية للنشر والتوزيع، الكويت 2011م.
- ابن آجروم، أبو عبدالله محمد بن محمد بن داود الصنهاجي (ت 723 هـ): فرائد المعاني في شرح حرز الأمانى ووجه التهاني، تحقيق: عبد الرحيم بن عبد السلام نبولسي، رسالة لنيل درجة الدكتوراه، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1417هـ — 1997م.
- بازي، محمد: التأويلية العربية، نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، 1431هـ — 2010م.
- بودرع، عبد الرحمن: من نحو القواعد إلى نحو المبادئ، مجلة فقه اللسان، العدد الثاني، الرابطة المحمدية للعلماء ومركز ابن أبي الربيع السبيتي للدراسات اللغوية والأدبية المغرب، 1439هـ — 2017م.
- التمبكتي، أحمد بابا: الفتوحات القيومية في شرح الآجرومية، تحقيق محمد بن شماني، جامعة حسبية بن بوعلي، الجزائر، 2007م.
- التمبكتي أحمد بابا: كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، تحقيق ودراسة: محمد مطيع، د. ط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1421هـ — 2000م.

- التمكني، أحمد بابا : مرآة التعريف بفضل العلم الشريف، تقديم وتحقيق: مصطفى بن مبارك عملي التمكروتي، ط.1، مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، الرابطة المحمدية للعلماء، الرباط، المغرب، 1436هـ — 2015م.
- جلاب، حسن: أحمد بابا السوداني وكتابه الدر النضير، مع نماذج من أدعيته وصلواته، ط.1، د م ن، 1992م.
- ابن الحاج، سيد أحمد بن محمد بن حمدون السلمي، أبو العباس: العقد الجوهري من فتح الحي القيوم في حل شرح الأزهرى على مقدمة ابن آجروم، د.ط، دار الرشاد الحديثة، دار البيضاء، المغرب 1443هـ — 2021م.
- الحبشي، عبدالله محمد: جامع الشروح والخواشي ، ط1، دار المنهاج، بيروت ،لبنان، 1439هـ — 2017م.
- حركات، إبراهيم: السياسة والمجتمع في العصر السعدي ،د.ط، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، 1408هـ — 1987م.
- حركات، إبراهيم: المغرب عبر التاريخ، د.ط، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، 1432هـ — 2011م.
- الحضيكي، محمد بن أحمد (ت1189هـ): طبقات الحضيكي ،تحقيق وتقديم: أحمد بومزكو، ط.1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1427هـ — 2006م.
- الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد أبو القاسم: المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، ط.1، دار القلم — الدار الشامية، بيروت — دمشق 1416هـ .

- الرعيز، عبد الكريم: ظاهرة الإعراب في العربية، ط1، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، ليبيا، 1988م
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، د.ط، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، د.ت.
- العكبري، عبد الحي بن أحمد بن محمد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، د.ط، دار ابن كثير دمشق، 1406هـ.
- كنون، عبدالله: النبوغ المغربي في الأدب العربي، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1442هـ - 2021م.
- المكودي، عبد الرحمن بن علي بن صالح (ت 807هـ): شرح المكودي على المقدمة الآجرومية، تقديم عبد الكريم قبول، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب 1435هـ - 2014م.
- الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، د ط، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، 1995م.
- ابن منظور، جمال الدين بن مكرم :لسان العرب، ضبط نصه وعلق حواشيه: خالد رشيد القاضي ، ط.1، دار صبح واديسون بيروت - الدار البيضاء 1426هـ - 2006م.
- ناعيم، مليكة: مدرسة النقد النحوي في الأندلس، بحث في الأسس النظرية، ط.1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1440هـ - 2019م.

الجلسة الثانية

التواصل الحضاري بين المغاربة
وأفريقيا جنوب الصحراء
كما تعكس الرحلات والمراسلات العلمية



البعد الروحي والتواصل العلمي وأثرهما في تمتين العلاقات المغربية الإفريقية

أ.د. رضوان غنيمي

جامعة ابن زهر - الكلية متعددة التخصصات تارودانت

مقدمة

سعيد غاية السعادة وأنا أشارك في هذا الحدث العلمي الإشعاعي المتميز، كيف لا وقد جمع أطراف الشرف كلها، شرف الزمان ونحن نعيش طلائع النفحات النورانية. بمولد سيد الخلق وحبيب الحق صلى الله عليه وسلم، شرف المكان ونحن نتحدث عن أرض مراکش بعلمائها ورجالاتها وهي التي نالت شرف لقب عاصمة الثقافة للعالم الإسلامي لعام 2024، ثم شرف الموضوع وهو أثر الدبلوماسية الحضارية التي اضطلع بها العلماء، دبلوماسية ناعمة من شأنها أن تسهم في تمتين وتفعيل مقتضيات الروابط الجامعة بين المغرب وعمقه الإفريقي، وهو موضوع ذو طابع شمولي تدارس من خلاله العلاقات المغربية الإفريقية من حيث عمقها وجذورها وتاريخها ومجالاتها، في محاولة للوصول من خلال كل ذلك إلى ما يبرز أثر هذه الدينامية العلمية الأكاديمية والاقتصادية والروحية والمجالية والسياسية التي عاشتها العلاقات المغربية الإفريقية وما تزال، سواء من خلال المشاريع التنموية الرائدة التي أطلقها أمير المؤمنين محمد السادس، نصره الله، وانخرط فيها المستثمرون المغاربة، أو من خلال نموذج التدين المغربي الذي جدد الصلة بالجانب العلمي والروحي من خلال إحداث مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة، ومعهد محمد السادس للأئمة المرشدين والمرشدات، الذي نقل إلى إفريقيا، التجربة المغربية الناجحة في مجال إصلاح الحقل الديني

وتأهيل الأئمة والمرشدين، و لاشك أن إعادة طرق هذا الموضوع اليوم من لدن العلماء والباحثين والمفكرين والخبراء وأصحاب القرار، لا يعدو في الحقيقة كونه محاولة لإحياء تلك الجذوة القديمة التي ما فتئت ترسي قواعد التكامل المغربي الإفريقي باعتباره أحد أهم مكونات الهوية المغربية، بل أصبح الخوض في جزئياته يشكل ضرورة ملحة، وحاجة مجتمعية خادمة لهذا التكامل واعتباره قاطرة لتنمية الجانبين عموما.

أيها الحضور الكريم لا أراني مضطرا إلى التذكير بعمق الروابط والصلات التي طالما جمعت المغرب بإفريقيا عبر التاريخ، هذا التاريخ الذي حفظت لنا وثنائه ما يثبت هذه الحقيقة عبر جملة من الثوابت الدينية والثقافية والاجتماعية، والعوائد والأعراف المشتركة، التي نعدّها اليوم جزءا من ثوابت الشخصية المغربية، مالكية المذهب، وأشعرية العقيدة، وسنية السلوك، فضلا عن المشترك الاقتصادي والبشري و الطبيعي والحضاري الذي انخرط فيه المغرب فعليا في شكل شراكات واتفاقيات ثنائية مع العديد من دول إفريقيا، انطلاقا من مقصد انتمائه لهذه البلدان الإفريقية، وفي خضم ذلك وجد نفسه متفاعلا مع جل القضايا الإفريقية فجعلها أولوية من أولويات دبلوماسيته، كما جعل من سياسة التعاون بين الجانبين أمرا ملحا يخدم مصلحة الطرفين على مر العصور، علاقات لم يضعفها الاستعمار ولا محاولات إبعاد المغرب عن هذا العمق الإفريقي منذ القرن السادس عشر. بل بقيت مستمرة، كما كان الحال مع حكم المرابطين والموحدين والسعديين، وجسدته الأسرة العلوية من خلال العناية الخاصة لأُمير المؤمنين محمد السادس نصره الله.

موضوع مداخلتي كما هو معلن عنه «البعد الروحي والتواصل العلمي وأثرهما في قمتين العلاقات المغربية الإفريقية»

وهي مداخلته تأتي في إطار العناية بتاريخنا الثقافي والاجتماعي لتكشف عن بعض المظاهر والتحليلات المتعددة لضروب التلاقي والتآخي المؤسَّس على أصناف التواصل العلمي والروحي بين المغرب وعمقه الإفريقي، بغرض التأكيد والتذكير بالجدور المشتركة الجامعة في الأصل، والدين واللغة والتاريخ، بل وعلى مستوى الاختيارات المذهبية فقها وعقيدة وسلوكا والتي تعتبر من خصوصيات الأمم والحضارات.

وقد جاءت مفردات هذه المداخلته مقسمة على ثلاثة محاور

المحور الأول: حاولت من خلاله تسليط الضوء على دور المخطوطات المحفوظة في الخزانات الإفريقية من وجهين:

- باعتبارها شاهدة على أصالة هذه العلاقات وأن إثارته اليوم إنما هو من باب التذكير والتأكيد.

- باعتبارها مجسدة لحقيقة التواصل العلمي الذي طبع هذه العلاقات بين المغرب وإفريقيا، فنظرت إلى هذه المخطوطات أنها مصادر مشتركة للمعرفة، واتخذت لذلك نموذج التراث المخطوط بين المغرب ومالي انسجاما مع الإطار العام لهذه الندوة.

المحور الثاني: وحاولت من خلاله سبر أغوار العلاقات المغربية الإفريقية على مستوى تبادل الخبرات الأكاديمية بالجامعات ومراكز البحث، والنظر في التخصصات العلمية الأكاديمية التي من شأنها خدمة هذه العلاقات.

نتفق ولاشك جميعا أن العلاقات بين الدول تقوم عموما وتبنى ابتداء على المشترك بينها، وتتغذى هذه العلاقات بروافد كثيرة وبعوامل ثابتة ومتغيرة وتشمل تلك العلاقات في الغالب جميع أوجه التفاعلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وتتأثر سلباً وإيجاباً بالعوامل الاقتصادية والتاريخية والعسكرية فضلا عن

المكون الثقافي ويكون هذا التأثير إما بالضعف أو القوة. لكن تبقى -في تقديري- المؤسسات التعليمية والأكاديمية ومراكز البحث ونظيراتها المعنية بالتأطير والتنشئة الاجتماعية والثقافية للشباب الجهة المسؤولة رأسا عن بناء الوعي وتشكيله ومن ثمة تغذية هذه العلاقات وإمدادها بالحياة ليمكنها الاستمرار، لأجل هذا الاعتبار ومن هذا المنطلق كان اختيار هذا المحور لإبراز دور الدبلوماسية الأكاديمية في تمتين وتطوير العلاقات المغربية الإفريقية بل واعتبارها صمام أمان لاستمرار هذه العلاقات في الأجيال اللاحقة.

المحور الثالث: وحصرت الحديث فيه عن العلاقات المغربية السينغالية في مستوياتها الروحي والعقدي والسلوكي، من خلال إبراز دور الزوايا في تمتين هذه العلاقات عبر التاريخ، الطريقة المريدية نموذجا.

المحور الأول

تشكل المخطوطات تراثا علميا زاهرا يعكس ثقافة الدولة وحضارتها، ويؤرخ لمجدها وسؤدها على امتداد تاريخها، فضلا عن كونها تمثل ذاكرتها الحية، لكونها سجل أحداثها وتاريخها، وهي كذلك ديوان عبّر للشعوب، والشاهد العدل لها أو عليها.

بالإضافة إلى دورها في العمل على مد الجسور، وخلق التواصل الحضاري والثقافي والروحي بين الشعوب.

والناظر في ذخائر المخطوطات المغربية التي تزخر بها الخزائن والمكتبات العامة والخاصة بتمبكتو يدرك حجم العناية التي أولاهها ملوك وعلماء البلدين لتقوية هذه العلاقة والعمل على تمتينها والحرص على تغذيتها من خلال السعي إلى نشر الفكر والثقافة والعادات والأعراف والتقاليد وغيرها، وتيسير حركية التجار والعلماء وطلبة العلم بين البلدين، وقد انعكس ذلك جليا في توحيد المنهج الفقهي، والاختيار العقدي، بل حتى على مستوى الكتب التي كانت

تدرس في جميع المراحل التعليمية بمؤسسات المغرب وتمبكت، وهكذا تعززت العلاقة العلمية بين البلدين وكثرت الرحلات بين العلماء والتجار والأمرء، فحج عدد كبير من علماء تمبكتو إلى المغرب وتنقلوا بين حواضره وبواديه لاسيما مدينة فاس ومراكش كما ارتحل تجار وعلماء المغرب إلى تمبكت، وقد أكد عدد من المؤرخين هذه العلاقة القوية التي جعلت من تمبكتو من أهم الحواضر الإفريقية على مستوى الحركة العلمية منذ القرن الرابع عشر الميلادي إلى الثامن عشر الميلادي، نهضة علمية قادتها جامعة سانكوري في تمبكتو التي تعود جذورها إلى مسجد سنكور الذي تأسس عام 989م. وقد نص ابن خلدون على حضور التواصل المغربي التيمبوكتي في ذلك الوقت حيث يقول: حيث كان بناؤه على الطراز المغربي الإسلامي.²⁰⁷

وقد أشار ابن بطوطة إلى الحب الفائق للملك مانسا موسى للبيضان، وإحسانه إليهم، وذكر أنه أعطى لابن إسحاق الساحلي في يوم واحد 4000 أربعة آلاف مثقال.²⁰⁸

ويضيف قائلا: «إنه أقام في غاوو، وكان له مضيف باسم محمد بن عمر المكناسي، والذي توفي في غاوو، وكذلك محمد الوجدي التازي، وهو ممن دخل اليمن، وكذلك الفقيه محمد الفيلاي إمام مسجد البيضان»²⁰⁹.

ويتطرق ابن خلدون إلى العلاقة العلمية التي جمعت بين المغرب وتمبكتو قائلا: «إن أهل المغرب وشمال أفريقيا وبلاد البربر يقتصرون في تربية الناشئين على تحفيظ القرآن، ولا يخلطون معه شيئا آخر، ومن أجل ذلك كانوا أقوم من غيرهم من أهل البلاد الإسلامية على رسم القرآن وتحفيظه»²¹⁰.

²⁰⁷ عبد الرحمن بن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب - بيروت، لبنان، 1959م، ص 301.

²⁰⁸ رحلة ابن بطوطة، ص 682.

²⁰⁹ المصدر نفسه، ص 695.

²¹⁰ مقدمة ابن خلدون

فلا أحد ينكر عمق الدور الفعال الذي لعبته المخطوطات في تعزيز هذا التواصل العلمي بما حوته من ذخائر ما تزال شاهدة على عمق التلاقح والتواصل بجميع تجلياته، ويظهر ذلك جلياً من خلال نماذج المخطوطات التي توجد في تمبكتو في شتى العلوم:

أ. في علم الفقه، فإن أغلبها في المذهب المالكي، وفي مقدمتها: الموطأ للإمام مالك، ومدونة سحنون، ومختصر شيخ خليل.

ب. في علم الحديث أغلب الكتب التي كانت تقرأ في تمبكتو، مخطوطات تشهد أنها كانت حول سيرة ابن هشام، والشفاء للقاضي عياض، وهي التي كانت تدرس في المغرب آنذاك.

ج. في النحو: توجد مخطوطات لألفية ابن مالك، والأجرومية، وهي المقررات التي كانت تدرس آنذاك في مختلف أقطار المغرب العربي، وهي شاهدة بذلك على هذا التواصل العلمي القوي بين المغرب وتمبكتو من خلال المخطوطات.

د. في القراءات والرواية المعتمدة؛ توجد مخطوطات تثبت أن أغلب سكان تمبكتو كانوا يأخذون بقراءة نافع من رواية ورش، وهي المعتمدة في المغرب.

وقد تحدث عبد الرحمن السعدي عن محمد بابا التمبكتي قائلاً: «الذي أخذ روايتي ورش وقالون دراية عن حاملي لوائهما في زمانه سيدي ابن عبد الله المولى الجمال، وعن عبد الله بن الفقيه أحمد بري²¹¹»

وقد أشار ابن بطوطة إلى حضور النفس المغربي في جانب الإمامة لدى الملك مانسا موسى.

حيث يقول: «إنه أقام في غاوو، وكان له مضيف باسم محمد بن عمر المكناسي، والذي توفي في غاوو، وكذلك محمد الوجدي التازي، ... وكذلك الفقيه محمد الفيلاي إمام مسجد البيضان²¹²».

والفترة التي أمضاها أحمد بابا بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت التمبكتي الصنهاجي التكروري السوداني المالكي في مراکش خير شاهد على التواصل العلمي بين المغرب وتمبكت، حيث انعكس ذلك على انتاجه الفكري بصورة إيجابية؛ لأنه استطاع أن يؤلف في فترة إقامته بها ما يفوق نصف مؤلفاته، يأتي في مقدمتها كتابه: (نيل الابتهاج بتطريز الديباج) ولا يخفى عمق التأثير بالبيئة موطن الإقامة على الفكر وبناء القناعات

فقد أسس أكبر مكتبة للمخطوطات والمطبوعات في تمبكتو عام 1907م، ويذكر هو نفسه كيف تمكن من جمع الكتب والمخطوطات في مكتبته، حيث أنه تعرف على بعض العناوين من خلال مطالعته في بعض الكتب، فيرسل النساخ فوراً إلى الجهات التي توجد فيها تلك العناوين في القرى والبوادي، متحملاً نفقات البعثة.

وكان يفعل مثل ذلك في العناوين التي توجد داخل تمبكتو وغيرها من المدن، وكانت له علاقة مع كثير من المكتبات والأسر العلمية في مالي، والمغرب، وموريتانيا، والسينغال، والنيجر، ونيجيريا، وتونس، ولبنان، وسوريا و مصر، وغيرها من البلدان.

²¹² نفس المصدر، ص 695.

وبالاطلاع على بعض ما حوته بعض الخزانات والمكتبات من نفائس المخطوط
تبرز هذه العلاقات

• وجود نسخة من المصحف الشريف بمكتبة مما حيدرة للمخطوطات تحت
رقم (34117) منسوخة بالخط المغربي، وهي مزخرفة ومذهبة.

ومن صور هذا التلاقح والتواصل ما ذكره القلقشندي في قوله: « وكتابتهم
بالخط العربي على طريقة المغاربة، وقد ورد إلى السلطان الناصر كتاب كانكو
موسى بالخط المغربي»²¹³.

ويجمع المؤرخون إلى أن أغلب مؤلفات علماء المغرب كانت تدرس في تمبكت،
في قراها وبواديها وفي مدارسها، فكانوا يشرحونها ويعلقون عليها، إشارة إلى
التواصل العلمي بين البلدين.

ومن هذه المؤلفات:

- الإتيقان والإحكام في شرح تحفة الحكام.
- الدر الثمين في شرح المرشد المعين.
- فتح العليم الخلاق في شرح لامية الزقاق
- الأجوبة الناصرية في بعض مسائل البادية، للشيخ محمد بن محمد بن أحمد
بن ناصر الدين الدرعي التمغروفي، المتوفى عام 108/1674.
- الهدية المقبولة في حلل الطب المشمولة، للشيخ محمد بن محمد بن أحمد بن
ناصر الدين الدرعي التمغروفي، المتوفى عام 108/1674.

²¹³صحيح الأعشى ج 5 ص 398. Les grandes dates du mali AOK/ABK P19.

وفي العقائد:

نذكر فيها الكتب التي كانت أكثر تداولاً بين المغرب وتمبكتو في إطار التواصل العلمي، وهي من مؤلفات الشيخ أبي عبد الله محمد بن يوسف بن عمر بن سعيد الحسني السنوسي التلمساني، المتوفى عام 895/1490 م. منها:

- العقيدة الصغرى.
- العقيدة الوسطى.
- عقيدة صغرى الصغرى.
- أم البراهين.

فقد حظيت هذه المؤلفات بعناية فائقة النظير لدى علماء البلدين، حيث أنهم شرحوها ونظموها.

وفي السيرة النبوية:

- الشفاء بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض بن موسى بن عياض اليحصبي، فقد اشتهر هذا الكتاب في الأوساط العلمية بجميع مدن المغرب وتمبكتو، حيث أنه لا يزال يقرأ خلال شهر رمضان في المساجد والزوايا حتى في وقتنا الراهن.
- الشمائل النبوية والخصائص المصطفوية، لعلي بن أحمد الواحدي النيسابوري.
- قرة الأبصار في نظم سيرة المشفع المختار، لعبد العزيز بن عبد الواحد اللمطي المكناسي، المتوفى عام 964/1557 م.

وفي النحو:

- ألفية ابن مالك وشراحه.
- المقدمة الأجرومية وشراحه.
- البسط والتعريف في نظم ما جلى من التصريف وشراحه.

- شواهد العيني.
- الشافية الكافية.
- ملحة الإعراب للحريري.

وفي الفقه:

- رسالة ابن أبي زيد القيرواني التونسي. فقد شرحها كثير من علماء تمبكت.
- المرشد المعين على الضروري من علوم الدين، لعبد الواحد بن أحمد بن علي الأنصاري الفاسي، المعروف بابن عاشر، المتوفى عام 1040 / 1631م.
- كما تزرخر مكتبات تمبكتو بنسخ من المصاحف، وكتب الحديث، والسيرة النبوية، منسوخة بالخط المغربي، مما يدل على العلاقة العلمية بين البلدين.
- بالإضافة إلى كثير من نسخ المخطوطات القيمة في مكتبات تمبكتو لمؤلفين مغاربة، والتي يندر وجودها في المغرب وغيره، نذكر منها ما يأتي:
- مؤلفات الشيخ التمكروتي، وأرجوزته في الطب المسماة بالهدية المقبولة في حل ألفاظ الطب المشمولة. وتوجد هذه النسخة وكذلك شرحها المسمى بالدرر الحمولة في شرح الهدية المشمولة بمكتبة مما حيدرة في تمبكت.
- ومن المخطوطات القيمة والنادرة في مكتبات تمبكت، والتي لها مؤلفون مغاربة:
- الأرجوزة في الطب المسماة بهدية المقال في طب النساء والرجال، لأبي العباس أحمد بن سيد صالح بن إبراهيم عبد المؤمن الدرعي المراكشي، المتوفى 1147هـ، وتوجد نسخة من هذه المخطوطة في مكتبة مما حيدرة للمخطوطات بتمبكتو، وهي مسجلة تحت رقم (40213) ومكتوب على ظهرها هذه نسخة نسخت من النسخة الرابعة من هذه الهدية المنظومة المنقولة من خط الناظم بيده في النسخة الأولى، المقروءة على جملة من أهل العلم وبعض أشياخه، وطالعها بعد ذلك الشيخ العارف سيد أحمد الحبيب اللمطي السجلماسي،

واستحسنه غاية الاستحسان، وأشار إلى مؤلفها بوضع بعض ألفاظها من شرح ونحوه، وذلك لاجتماعه معه بسجلماسة أوائل شوال سنة أربع ومائة وألف، وكانت النسخة بيده إذ ذاك من مدينة فاس بتاريخه، تقبل الله منه، ورحمه وغفر له، وقال: « وعلى كاتب هذه المنظومة أن يكتب أسماء الأمراض باللون الأحمر ويغلف القلم لئلا يخلط الكلام ويصعب على طالب الدواء محله من التراجم، فمن لم يفعل ذلك فإثم المخالفة عليه، والصواب كما ترى، أي هذه النسخة، وبالله التوفيق²¹⁴.

- منها: المرآت في السبع القراءات للحسين بن عتيق بن الحسين بن رشيق أبي علي التغلبي، ت 676هـ/1281م.²¹⁵ وهذه المخطوطة في علوم القراءات، وربما توجد منها نسخة واحدة فقط في المغرب حسب علمي والثانية في مكتبة مما حيدره بتمبكتو
- ومنها: الأجوبة الناصرية في بعض مسائل أهل البادية، لمحمد بن محمد بن ناصر الدرعي، ت 1085هـ/1676م²¹⁶
- كتاب السلطان في تاريخ الشرفاء، لمحمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن البشير بن إبراهيم الحسيني الأجلبي.
- كنز الأخبار في معرفة السير والأخبار، للشريف إدريس بن علي بن عبد الله الحمزي، ت 714هـ/1214.
- تحفة الفلاح في آداب الجماع والنكاح، لأبي العباس بن أحمد بن صالح الدرعي، ت 1691م.
- المقنع في علم التوقيت وشهور العام وأيام السنين العربية والعجمية، لمحمد بن سعيد بن علي السوسي المرغتي، ت 1089هـ/1678م.

²¹⁴.عبد القادر حيدرة

²¹⁵.هدية العارفين، ص 312.

²¹⁶.الأعلام للزركلي، ج 7 ص 63.

- الفوائد الجليلة البهية على شمائل المحمدية، لمحمد بن القاسم بن محمد حبسوس الفاسي، ت 1182 / 1768.
 - فتح المغيـث في حكم اللحن في الحديث، لمحمد الصغير بن الحاج محمد بن عبد الله الإفرائي، المراكشي، المتوفى 1151هـ—
 - قرة الأبصار في سيرة المشفع المختار، لعبد العزيز بن عبد الواحد اللمطي المكناسي المدني، ت 964هـ / 1557م.
 - منهج الأصول ومهيع السالك للوصول، لعبد الله بن محمد مسعود الدرعي التمكروتي، ت 980هـ / 1572م.
 - الروض اليناع في أحكام التزويج والمجامع، لعلي بن محمد بن الحسين بن برى الرباطي البيسوي، ت 720هـ / 1220م.
 - الدرر اللوامع في أصل معرفة مقر الإمام نافع، لمحمد الصغير بن الحاج محمد بن عبد الله الإفرائي المراكشي، ت 1151هـ / 1738.
 - تأسيس القواعد والأصول وتحصيل الفوائد لذوي الأصول، لأحمد بن أحمد بن عيسى بن زروق البرنوسي الفاسي، ت 889هـ / 1483.
 - الفتوحات الشرعية في شرح التصليـة، لعبد الرحمن بن علي بن أحمد السفيناني القصري الفاسي، ت 956هـ / 1549م
 - الأحكام الشرعية الكبرى، لعبد الحق بن عبد الرحمن الأزدي الأشبيلي أبي محمد، ت 581هـ / 1185م. وغيرها من المخطوطات ذات البصمة المغربية.
- بعد هذا التجوال السريع بين رفوف مكتبات تمبكتو الشاهدة بمخطوطاتها على عمق العلاقات المغربية الإفريقية يمكن القول بأن هذه المؤلفات تكشف عن حقيقة التلاقي والتآخي، وضروب التواصل بين المغرب وتمبكتو، وتقيم الأدلة على الجذور المشتركة بينهما في الأصل، والدين واللغة والتاريخ المشترك.

المحور الثاني : العلاقات المغربية الإفريقية على المستوى الروحي

لا خلاف أن المغرب يعتبر منبعاً ومصدراً حقيقياً حضارياً ودينياً وثقافياً لبلدان غرب إفريقيا، بل لطالما كانت هذه الحقيقة مصدر إلهام استقى منها المفكرون والكتاب والتجار الأفارقة نمط حياة جديدة كما نص على ذلك غسر واحد من المؤرخين الذين سجلوا جملة من الوقائع التاريخية القديمة الشاهدة على عراقة العلاقات بين فأشاروا إلى الحملات الثقافية والدينية أو الروحية بين الكتلتين لنشر الدين والعلوم. يقول الكاتب الإفريقي السنغالي الشيخ أنتا ديوب (Cheick Anta Diop): «إن التجار الأفارقة قلدوا المغاربة في كثير من نمط حياتهم، وأنه أصبحت لهم سوق في كل مدينة بغرب إفريقيا يعقد في يوم معين أسبوعياً. ويذكر أن حكام تُنبكت وغيرها أخذوا عن المغاربة مبادئ المعاملات التجارية، فأقاموا القضاء الإسلامي حسب الشريعة الإسلامية إلى غير ذلك من التأثيرات الواضحة في حياتهم ومعاملاتهم»²¹⁷

وهكذا لعبت الحضارة المغربية دوراً هاماً في تغيير واقع بعض المجتمعات الإفريقية على المستويات الروحية والأخلاقية وحتى الاجتماعية، وقد ترك هذا التأثير البصمات الواضحة منذ بداية هذه الاتصالات إلى يومنا هذا، حيث نشعر بأن المغرب يعتبر ملتقى عدة تيارات حضارية، فهو يتقبل حضارة الشرق الإسلامي كما يتلقى مؤثرات البحر المتوسط، والمؤثرات الأوروبية بالإضافة إلى المؤثرات الإفريقية، وتبلورت كلها في النهضة التي بلغت ذروتها في بداية العصور الحديثة²¹⁸

²¹⁷. Diop, Anta, l'Afrique Noire Précoloniale, Paris 1952, 61.

²¹⁸. تاريخ السودان، عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران السعدي، طبعة هوداس، 1898، ص 51، 57.

التواصل العلمي والروحي بين المغرب والسنغال

لا يكتمل البناء العلمي السليم في الحديث عن التواصل العلمي والروحي بين المغرب وعمقه الإفريقي

دون استحضار ثوابت الطرفين الدينية عقيدة وفقها وسلوكا، وسأقصر الحديث في هذا المقام على ثابتي الفقه والسلوك،

1. الفقه المالكي

يعد مذهب إمام دار الهجرة - رحمه الله تعالى - من أقوى الروابط التي تربط بين المغرب وبين المجتمعات الإفريقية، فهو مذهب لقي رواجا وانتشارا واسعا في إفريقيا، وتبناه المسلمون في إفريقيا جنوب الصحراء، وذلك لأمرين اثنين:

• **الأول:** ملائمة أصول المالكية للبيئة السنغالية، وما يمتاز به المذهب من وسطية تتجلى في جمعه بين النقل والعقل، والربط بين الرواية والدراية، مع مراعاته لأوضاع الناس وأعرافهم، واعتبار المصالح ومقاصد الشريعة اعتبارا يرفع الإصر والحرص.

• **الثاني:** هو أن تجار العرب الذين حملوا مشاعل الدعوة الإسلامية إلى إفريقيا جنوب الصحراء في ذلك العهد كانوا على المذهب المالكي الذي دعا إليه المولى إدريس الثاني²¹⁹؛ فقد ندب إليه لحسم مسألة الخلاف المذهبي الذي نشب لهيبه بالمغرب الأقصى والأندلس، وأصدر الأمر بذلك إلى قضاته وولاته. وعمل على شاكلته من بعده ملوك دولة الأدارسة (788-859 هـ²²⁰)، حتى صارت المالكية مذهبا رسميا للمغرب الأقصى.

219. انظر مباحث في المذهب المالكي بالمغرب (ص 19)

220. الاستقصاء (1/261)

وقد انتشرت كتب المذهب المالكي في السنغال، وهي نفس الكتب التي تُعتمد في المغرب، ومنها:

- المدونة،
- الرسالة لابن أبي زيد القيرواني، بشروحها وحواشيها.
- ومختصر الشيخ خليل بشروحه وحواشيه،
- تحفة الأحكام في نكت العقود والأحكام، لأبي بكر بن عاصم الغرناطي (ت: 829هـ).
- المرشد المعين على الضروري من علوم الدين، المشهور بـ«منظومة ابن عاشر»، لأبي محمد عبد الواحد بن عاشر (ت: 1040هـ). مع شرحه «الدر الثمين والمورد المعين»، للعلامة الشيخ ميارة الفاسي (ت: 1072هـ).
- المدخل، لابن الحاج العبدري الفاسي (ت: 737هـ)
- ونجد أيضا أن العلماء السنغاليين قاموا بخدمة المذهب المالكي تعلما وتعلما وإفتاء وتأليفا؛ ومنهم:
- العلامة الشيخ الحاج موسى كمر (ت: 1945م) الذي شرح منظومة ابن عاشر، ووضع تقايد على مختصر الشيخ خليل.
- والعلامة الشيخ الخديم الذي نظم مختصر الشيخ عبد الرحمن الأخضري المشهور في الفقه المالكي.
- والشيخ مام ماجور سيبه (ت: 1907م) صاحب «هبة الكريم المالك في أحكام الطهارة والصلاة على مذهب الإمام مالك»²²¹.

²²¹ انظر: الأدب السنغالي العربي (1/136)

والحديث عن محورية المذهب المالكي في العلاقات المغربية الإفريقية عموما والسينغالية خصوصا يدفعنا بالضرورة إلى الحديث عن جهود المغاربة في خدمة هذا المذهب الذي يعد ثابتا من الثوابت الدينية المغربية الإفريقية، لأن خدمة المغاربة للمذهب المالكي قد تمت بالفعل منذ عرفوا هذا المذهب الأغر، وما تزال هذه الخدمة مستمرة إلى يوم الناس هذا من خلال مجموعة من الجوانب العلمية والأكاديمية، والحديث عن خدمة المغاربة للمذهب المالكي يمكن أن يقسم باعتبارات متعددة:

الأول: باعتبار جهود المؤسسات أو الأفراد.

الثاني: باعتبار الحقب التاريخية، وهنا قد نتحدث عن جهود المتقدمين منذ اختيار المغاربة المذهب المالكي مذهبا لهم، وباعتبار جهود المتأخرين والمعاصرين، وحيث إن المقام لا يتسع فإني آثرت أن أحصر هذه المداخلة في المعاصرين منهم.

الثالث: باعتبار الجنس: ونتحدث هنا عن جهود العلماء وجهود العالمات.

وطبعا قبل هذا وذاك لا يمكن الحديث عن جهود المغاربة دون الوقوف عند جهود ملوك الدولة العلوية وفقا لدستور المملكة الذي ينص على أن «الملك، أمير المؤمنين وحامي حمى الملة والدين، والضامن لحرية ممارسة الشؤون الدينية²²²».

إن الحديث عن جهود المغاربة في خدمة المذهب المالكي ينبغي أن ينظر إليه في سياقه العام الذي يجعل من خدمة المذهب، خدمة لما يحقق للبلد أمنه واستقراره دينيا وسياسيا واجتماعيا، ذلك أن خدمة المذهب في الحقيقة إنما هي خدمة لثابت قوي ودعامة أساسية من دعائم هذا البلد، لأجل ذلك لا غرابة إذا علمنا بأن

²²². الفصل 41 من دستور المملكة.

جميع مكونات النسق الثقافي والديني والفكري في المغرب تخدم المذهب المالكي ضمن باقي الثوابت الدينية والوطنية التي ارتضاها المغاربة منذ زمن بعيد وهي: المذهب المالكي، والعقيدة الأشعرية، والتصوف السني، وإمارة المؤمنين.

فقد وجد المغاربة في سعة أصول هذا المذهب، وعمق قواعده، عنصر التجدد والقدرة على استيعاب المستجدات، كما وجدوا في قيمه التربوية والحضارية، ما يحقق الوحدة والألفة، فصار بذلك المذهب المالكي جزءا لا يتجزأ من الشخصية المغربية إلى جانب باقي الثوابت الأخرى.

ولأجل ذلك لم يستقر مذهب فقهي في بلد كما استقر المذهب المالكي في المغرب، ولم يحظ مذهب فقهي بعناية خاصة وعامة أهل البلد كما حظي بذلك المذهب المالكي، حتى قال العلامة عبد الحي عمروي النحوي المؤقت: النساء في مدينة فاس كن يعرفن مسائل علمية وشرعية، فأذكر أن بعض النساء كن يعرفن علم الفرائض لأن أزواجهن وإخوانهن وأولادهن من أصحاب الصناعات المختلفة كانوا يجلسون في الحلقات الدراسية ثم ينقلون إلى عائلاتهم ما تعلموه في القرويين²²³.

- خدمة أمير المؤمنين - نصره الله - للمذهب المالكي

منذ قيام الدولة الإدريسية، استمر المغرب تحت قياداته الراشدة في تطوره التاريخي منسجما مع المرجعية الدينية للسلطة السياسية في البلاد، في صورة إمارة المؤمنين، بدلالاتها وحمولاتها العقدية ومقتضياتها الاجتماعية، إلى عهد الدولة العلوية الشريفة حيث ازدهر هذا المعنى العظيم وازداد قوة ورسوخا ووضوحا، وباعتلاء مولانا أمير المؤمنين محمد السادس - نصره الله - عرش أسلافه الأشراف بصفته رئيسا للمجلس العلمي الأعلى انطلقت مسيرة جديدة من البناء والإصلاح بشكل قاد المملكة المغربية بحق لتزفل في نعيم ونعمة الأمن والسلم ومن ذلك:

²²³ العلامة محمد الزروالي القاسمي ابن القرويين استمداد وامتداد ص 9

-تنظيم وتأطير الفتوى وحمائتها من عبث العابثين خاصة وقد عمت وانتشرت فوضى الإفتاء بين الناس بشكل يبعث على الخوف والقلق، - خصوصا حينما يتعلق الأمر بفتاوى ترتبط بمصير الأمة - ويفرض ضرورة تحصين المجتمع من تبعات هذه الفوضى، وقد أصبحت الأصوات تتعالى بضرورة إقرار الحرية في اتباع عموم المكلفين لأي مجتهد -دون اعتبار لمذهبه- ، بل الحق في اختيار الفتوى التي يراها ملائمة لوضعه وحاله الذي هو عليه، وأن على الفقيه والمفتي أن ييسط الأقوال الفقهية المتعددة في النازلة الواحدة ليبقى للمكلف -العامي- حق انتقاء ما يراه مناسبا وملائما له، دون اعتبار لمذهب البلد، ولا يخفى خطر هذا الأمر مما يستوجب ضرورة الوقوف عنده، خاصة عندما يتعلق باجتهادات فردية من خارج المذهب بل والبلد فيما له صلة بثوابت الأمة، ومن شأنه إثارة الفتنة والانقسام بين أفراد المجتمع، وغير ذلك من الأمور التي يتطلب النظر فيها الالتزام بالمذهب.

يقول أمير المؤمنين: «وتفعيلا لتوجيهاتنا السامية بشأن تحديد مرجعية للفتوى، التي هي منوطة بإمارة المؤمنين، أحدثنا هيئة علمية داخل المجلس العلمي»²²⁴

... ثم يعلل أمير المؤمنين هذا الاختيار فيقول:

«قطعا لدابر الفتنة والبلبل في الشؤون الدينية، وجعل الفتوى آلية للاجتهاد الديني، الذي تميز به المغرب على مر العصور في اعتماده على أصول المذهب المالكي، ولاسيما قاعدة المصالح المرسلة، وقيامه على المزاوجة الخلاقة بين الأنظار الفقهية، والخبرة الميدانية»²²⁵.

²²⁴ نص الخطاب الملكي السامي في افتتاح الدورة الأولى لأعمال المجلس العلمي الأعلى فاس يوم 08/07/2005

²²⁵ نص الخطاب الملكي السامي في افتتاح الدورة الأولى لأعمال المجلس العلمي الأعلى فاس يوم 08/07/2005

وقد تم في هذا الصدد إحداث الهيئة العلمية للإفتاء، وقد تصدّت حقيقة لعدد من القضايا المستجدة وأصدرت فيها فتاوى حسمت الخلاف وجعلت بعد ذلك قانونا يضمن للناس أمنهم اجتماعيا كما هو الحال في فتوى الجهاد، و فتوى القتل الرحيم، فتوى إخراج زكاة الفطر بالقيمة، وفتوى صلاة العيد في ظل تداعيات الحجر الصحي الذي فرضته جائحة كورونا، وإحداث اللجنة الشرعية للمالية التشاركية... وفي كل ذلك مواكبة لحركية المجتمع واشتغال وانشغال بما يعترضه، ولا يخفى ما في هذا التقنين من إعادة الاعتبار للفتوى، وخدمة للمذهب المالكي الذي يُرجع في الفتوى ابتداء دون سد الباب أمام الفقهاء للاستعانة بالمذاهب الأخرى طبعاً وليس ذلك خروجاً عن المذهب بل إعمالاً لأحد أصوله الذي ساهم في إبقاء هذا المذهب حياً مستجيباً لمستجدات العصر وهو مراعاة الخلاف، وهو أصل كفيل بإبراز تميز هذا المذهب وتفوقه.

كما ساهم هذا التقنين في تحديد مسؤوليات المفتي، وتحمله مسؤولية تصديده للتوقيع عن الله عز وجل خصوصا في ظل فوضى الإفتاء في العالم الإسلامي، التي تصل تداعياتها إلى مسّ مُهيج للناس وأمنهم وسائر حياتهم، فضلا عن كونها تسيء إلى الدين وتميّع الشريعة، جرأة على الرب عز وجل واستخفافاً بأمر الفتوى، قال سحنون: سمعت قائلًا يقول: أشقى الناس من باع آخرته بدنياه وأشقى منه من باع آخرته بدنياه غيره²²⁶.

قال ففكرت فيمن باع آخرته بدنياه غيره، فوجدته المفتي، يأتيه الرجل قد حنث في امرأته ورقيقه، فيقول له: لا شيء عليك، فيذهب الحانث، فيتمتع بامرأته ورقيقه، وقد باع المفتي دينه بدنياه هذا.

وقد نقل ابن عبد البر عن القاسم بن محمد بن أبي بكر « أنه جاءه رجل فسأله عن شيء، فقال القاسم : « لا أحسنه »، فجعل الرجل يقول: إني دُفعت إليك، لا أعرف غيرك؛ فقال القاسم: « لا تنظر إلى طول لحيتي، وكثرة الناس حولي، والله ما أحسنه²²⁷.

لأجل ذلك أقول إن الالتزام بالمذهب الواحد داخل البلد الواحد يعتبر صمام أمان في وجه الطائفية واللامذهبية، من جهة ووسيلة قوية لخدمة المذهب داخل البلد، وتفعيل آلية الاجتهاد فيه من جهة أخرى، من خلال تركيز الجهود في سبر أغوار المذهب والانكباب عليه تدريسا وتأليفا وتصنيفا، بل إن حقيقة الانتساب لمذهب معين لا يمكن أن تتحقق بمجرد الادعاء، بل لابد من مقومات الانتساب وهي:

أولاً: الانطلاق من روايات الإمام إفتاء وقضاء وتدريسا وتأليفا.

ثانياً: الرجوع إلى أقوال أئمة المذهب كابن القاسم وأصبغ وأشهب.

ثالثاً: الأخذ من الكتب الأمهات كالموطأ والمدونة والموازية والواضحة والتهذيب...

رابعاً: التزام منهج المالكية في الاستدلال.

1. إخراج ميثاق العلماء للواقع وهي طفرة كبيرة على مستوى الرفع من مستوى القائمين بالحقل الديني من خلال التنسيق بين وزارة الأوقاف والمجلس العلمي الأعلى، ويتضمن هذا الميثاق ثوابت البلد التي تعتبر طابعا للشخصية المغربية، ومن بينها المذهب المالكي.

2. إحداث معهد محمد السادس لتكوين الأئمة والمرشدين والمرشدات، وقد بلغ عدد المغاربة المتخرجين من المعهد لحد الآن 2100 من الأئمة المرشدين و900 من المرشدات، وبلغ عدد المتخرجين الأجانب 1534 من السنغال ومالي وغينيا وكوت ديفوار ونيجيريا واليابون والتشاد وفرنسا، والنيجر والتايلاند.

²²⁷. جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر 2/837

3. إحداث مديرية التعليم العتيق، وتأطيره بالظهائر والقوانين، أهمها: القانون رقم: 13.01، الصادر بتنفيذه الظهير الشريف رقم: 1.02.09، وتشرف عليه وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، وتنظمه المذكرات والقوانين الخاصة بالمناهج الدراسية والامتحانات، وقد بلغ عدد مؤسسات التعليم العتيق ما مجموعه 292 مدرسة يدرس بها 37113 متعلما من الإناث والذكور. أما بخصوص الكتاتيب القرآنية فقد بلغ عددها 10496 كتابا قرأها يدرس بها 298054 متعلما من الإناث والذكور من جميع الفئات العمرية، في حين بلغ عدد مراكز تحفيظ القرآن الكريم التي تشرف عليها المجالس العلمية المحلية 2447 مركزا يدرس بها 121831 متعلما إناثا وذكورا.

4. إحداث معهد القراءات والدراسات القرآنية.

5. إحداث قناة محمد السادس التي ما انفكت تطرق المذهب المالكي أصولا وفروعا وفتوى.

6. من خلال القرويين بعد إعادة إحياء دورها من طرف الحسن الثاني -رحمه الله- ثم في حلتها الجديدة بعد العناية الخاصة التي أولاها إياها أمير المؤمنين محمد السادس -نصره الله- بشكل جعلها تستجيب لمتطلبات العصر من خلال تمكين طلبتها من اللغات الأجنبية التي قد تمكنهم من نشر حقيقة المذهب بجميع اللغات.

ومن قنوات انتشار المذهب المالكي في إفريقيا انتساب الأفارقة إلى بعض الطرق الصوفية التي نشأت بالمغرب أو التي انتشرت في المغرب قادمة من المشرق والتي يرى الأفارقة أن التمسك بها أمر لازم لتصحيح السلوك كالطريقة القادرية، والشاذلية، والجزولية، والزروقية، والتيجانية وغيرها.

ومعظم أتباع هذه الطرق بإفريقيا هم على مذهب الإمام مالك رحمه الله، وكان أول من نشر القادرية في غرب إفريقيا، هو الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي ثم الشيوخ الكتّيون الذين عاش أسلافهم زمنا بمنطقة توات، ثم توغلوا في

قلب الصحراء ومناطق من السودان الغربي، ومنهم الشيخ أحمد البكاء الكنتي وابنه الشيخ عمر الذي قام بجهد بارز في نشر المذهب المالكي والتصوف السني في بلاد السودان الغربي. ثم سيتفرع عن الطريقة زمن الشيخ المختار بن أحمد الكنتي الكبير في أزواد فرع آخر للطريقة القادرية سُمي بالطريقة المختارية نسبة إلى الشيخ المختار هذا.

كما انطلقت الطريقة التيجانية -وهي طريقة كثيرة الأتباع، منتشرة في مختلف أصقاع إفريقيا- من مدينة فاس مثوى الشيخ أحمد التجاني ومقر زاويته، وامتد إلى مختلف الآفاق²²⁸.

فكانت هذه الطرق أيضا سببا في انتشار المذهب المالكي.

²²⁸. إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور ص(120)

2. التصوف الجنيدّي

ومن أهم ما يجسد هذا التلاقح الروحي والتفاعل السلوكي الزاوية التجانية التي أسسها الإمام العارف بالله الشيخ أحمد التجاني -قدس الله سره - (ت:1230هـ)، فقد وفدت إلى السنغال وإلى غيرها من بلدان السودان الغربي، وانخرط في سلوكها كثير من السنغاليين، ومن فروعها بالسنغال: زاوية الحاج عمر الفتويّ، وزاوية الشيخ الحاج مالك سه بتوان، وزاوية الشيخ عبد الله انياس بكولخ -رحمهم الله أجمعين-.
وخدم هؤلاء بكل تفان وإخلاص الطريقة التجانية وألفوا في فقهها، وكتبوا في مؤسستها، ومدحوها بقصائد خالدة لا تبلى أبد الدهر، ومنها:

- كاشف الإلباس في فيضة الختم أبي العباس، للشيخ إبراهيم انياس.
 - ورماح حزب الرحيم على نحر حزب الرحيم، للشيخ الحاج عمر الفتوي تال.
 - إفحام المنكر الجاني على طريقة سيدنا ووسيلتنا إلى ربنا أحمد بن محمد التجاني للحاج مالك سه.
 - الكبريت الأحمر في مدائح القطب الأكبر، للشيخ محمد الخليفة انياس.
- يعدّ البعد العلمي من أبرز أبعاد العلاقة بين البلدين، إذ يعدّ المغرب قديماً وحديثاً من ضمن البلاد العربية الإسلامية التي يفد إليها السنغاليون لأخذ العلم وتلقي المعرفة؛ وتخرج من جامعة القرويين جماعة من علماء السنغال ومشايخها، كما تستقبل الجامعات المغربية كلّ سنة مئات من الطلاب، يلتحقون بها للدراسة في مختلف التخصصات، وخصوصاً التخصصات الإسلامية كاللغة والشريعة وأصول الدين.

ومن تجليات البعد العلمي أيضاً أن كثيراً من التراث السنغالي طبع بالمطابع المغربية، فهناك عشرات من مؤلفات الطريقتين التجانية والمريديّة طبعت بها، مثل:

- ممن الباقي القديم في سيرة الشيخ الخديم، للشيخ محمد البشير امباكي.
- إرواء النديم من عذب حب الخديم، للشيخ محمد الأمين جوب الدغاني.
- ديوان الشيخ إبراهيم جوب المشعري.
- ديوان مُقَرَّب الأمانى لكشف أنوار المعاني، للشيخ عبد العزيز سه الدباغ أحد خلفاء الزاوية التجانية بتوان.
- أشهى العلوم وأطيب الخبر في سيرة الحاج عُمر، وأكثر الراغبين في الجهاد، وهما للحاج موسى كمر، وقام بنشرهما معهد الدراسات الإفريقية التابعة لجامعة محمد الخامس بالرباط، بتحقيق د. أحمد شكري ود. خديم امباكي
- ومن هذه الكتب أيضا: ديوان شعراء أهل الزوايا الموريتانيين في مدح الشيخ الخديم» مؤسس الطريقة المريدية التي قامت وزارة الأوقاف المغربية مشكورةً بطبعها ونشرها عام 2006م.

البعد الروحي:

يتجلى هذا البعد في الطريقة التجانية التي أسسها الإمام العارف بالله أبو العباس الشيخ أحمد التجاني - رحمه الله تعالى - المدفون بفاس، وينخرط أغلب السنغاليين في سلك هذه الطريقة، ولها فروع وزوايا بالسنغال منها: الزاوية العمرية، والزاوية التوانية، والزاوية الكولنية، وزاوية آتيانبة. كما أن جماعة من مشايخ هذه الزوايا أخذوا الإجازة من العلامة الشيخ سكيرج، منهم الشيخ محمد الخليفة انياس والشيخ إبراهيم انياس، والشيخ الحاج مالك سه.

وقد مَتَت هذه الزاوية العلاقة بين البلدين، ولعبت فيها دوراً كبيراً، فلا يرح السنغاليون يقدون إلى فاس للتبرك وزيارة ضريح الشيخ أحمد التجاني - رحمه الله تعالى -، ولا تزال البعثات المغربية أيضا تفد إلى السنغال بين الفينة والأخرى لشهود المناسبات الصوفية، وخصوصاً المولد النبوي الشريف، ومغال طوبى.

ومن تجليات البعد الروحيّ العناية التي حظيت بها نصوص السادة الصوفية المغاربة لدى السنغاليين، مثل: «دلائل الخيرات» للإمام الجُزُوليّ، و«كنوز الأسرار في الصلاة على النبي المختار وعلى آله الأبرار» للإمام عبد الله بن محمد الهاروشيّ الفاسيّ، والصلاة المشيشية لمولانا الشيخ عبد السلام بن مشيش -رحمهم الله أجمعين-، ويشيد بهذه النصوص الشيخ الخديم في منظومته «مسالك الجنان» بقوله:

لَكِنَّمَا «دَلَائِلُ الْخَيْرَاتِ» لَيْسَ يُملُّ مِنْهُ فِي الْأَوْقَاتِ
أَمَّا «الْكُنُوزُ» فَهَوَ خَيْرٌ مَا قَرَأَ عَبْدٌ يَرُومُ أَنْ يَنَالَ الظَّفَرَ
وَنُبْدَةُ الْقُطْبِ الْوَلِيَّ عَبْدِ السَّلَامِ أَفْضَلُ مَا الْفَتَى بِهِ رَامَ الْمَرَامَ

ويضاف إلى ذلك القصيدة الدالية بشرحها، والتي نظمها العلامة أبو عليّ الحسنّ اليوسيّ (ت: 1102هـ) في مدح شيخه أبي عبد الله محمد بن ناصر الدّرعيّ (ت: 1085هـ)؛ فهي من المتون الأدبية المقررة في المحاضر والمجالس العلمية بالسنغال.

التوصيات

- تمويل المشاريع البحثية المحلية لحقيقة المشترك بين المغرب وإفريقيا
- عقد لقاءات علمية لمدارسة الاجتهاد الفقهي في المنظومتين: المغربية والإفريقية وأوجه التشابه.
- التخصصات العلمية الأكاديمية الخادمة للانفتاح المغرب على إفريقيا.
- خلق مراكز بحثية خاصة بين المغرب وإفريقيا لإخراج نفائس المخطوطات
- تيسير سبل الترحال العلمي بين المغرب وإفريقيا
- الرسالة لابن أبي زيد القيرواني، بشروحها وحواشيها.

أثر نفي أحمد بابا التمبكتي في التواصل بين المغرب وأفريقيا جنوب الصحراء

الدكتور أحمد بن محمد عمّالك

أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، بجامعة مراكش

لا يجادل أحد في كون العلاقات التي وصلت المغرب بأفريقيا ترجع إلى فجر التاريخ، حتّى كان لازدهارهما معا اتّصال باستمرار الروابط بينهما وترسيخها، وتدهورهما رهين بضمور تلك الروابط أو انقطاعها.

ولم تكن العلاقات بين «ضفتي» الصحراء لتنشأ عنها الشحناء بين سكّان الجهتين، أو الصراع الصّراح أو التنافس القويّ بين حكامهما، قبل اعتلاء دولة السعديّين عرش المغرب. وغالبا ما تميّزت هذه الصلات بتبادل المصالح والمنافع، في ميادين التجارة والعلم ومدافعة الخصوم الخارجيين.

لكن لما امتدّت أيدي البرتغال وإسبانيا إلى الثغور الأفريقيّة²²⁹، وأصبح الحضور العسكري العثماني واقعا مفروضا في الشمال الأفريقي²³⁰ بدأنا نتحسّس ملامح التغير في تلك العلاقات. هذا السياق الجديد الذي أثار تحوّلاً يكاد يكون جذرياً في موازين القوى، في البحر المتوسط، كما في السودان الغربي.

²²⁹ معلوم أنّ الكنيسة الكاثوليكيّة قد قسمت الثغور الأفريقيّة بين إسبانيا والبرتغال. فجعلت الثغور الشماليّة من نصيب إسبانيا والثغور الغربيّة من نصيب البرتغال.

²³⁰ احتلّ العثمانيّون بلاد المغرب الأوسط، تلبيةً لمناشدة مجاهدي تلك البلاد لردّ العدوان الإسباني؛ لكنهم لما احتلّوا البلاد استمروا يسيطرون عليها، بل اتخذوها منطلقاً لسيطرتهم على كل الشمال الأفريقي، باستثناء المغرب الذي أفلت من تلك السيطرة، نتيجة تصدّي قوّة دولة السعديّين للأطماع العثمانيّة، ولما حدث من تقارب بين المغرب وإسبانيا.

وهنا يبدو من الضروري التذكير بملامح هذا السياق بالنسبة للمغرب وبلاد السودان، لأنه بدون استحضاره لا يمكن فهم كل الأحداث والوقائع التي سوف نعرض لها في هذا الموضوع.

أولاً: في بلاد المغرب

استطاع السعديون هزم البرتغال، في معركة وادي المخازن، يوم رابع غشت 1578؛ تلك الهزيمة التي كانت لها نتائج عميقة، ليس فقط على الصعيد العسكري، ولكن أيضاً على الصعيدين السياسي والاستراتيجي.

فأما على الصعيد السياسي فقد اختفت دولة البرتغال من خريطة شبه جزيرة إيبيريا طوال ستين سنة، بعد أن تم إلحاقها بالعرش الإسباني، من قبل الملك فيليب الثاني؛ وهو الأمر الذي حول إسبانيا وراثتها الثغور المغربية الشمالية التي كان البرتغاليون قد احتلوها²³¹. وبذلك دعمت إسبانيا حضورها في حوض البحر المتوسط الغربي، وزادت نديتها للعثمانيين، الذين كانوا قد ألحقوا بها الهزيمة في معركة حلق الوادي بتونس.

وأما على الصعيد الاستراتيجي، فقد بادر كل من الدولتين المتنافستين عن الهيمنة على البحر المتوسط (العثمانيون والإسبان) بخطبان ود المغرب، ويسعيان إلى كسب التحالف معه.

ولا بد من التذكير ببعض المعطيات التي أفتحت بلاد السودان في الحضور في العلاقات بين الدول الثلاث (المغرب وإسبانيا والدولة العثمانية).

²³¹. ركزت إسبانيا على الثغور الشمالية، ولا سيما مدينة سبتة، بسبب موقعها الاستراتيجي، وقربها النسبي من مدينة وهران التي احتلها الإسبان أيضاً.

أ. استقبل السلطان أحمد المنصور الذهبي سفارتي إسبانيا والدولة العثمانية، حسبما رشح من المصادر، بكلّ ما تقتضيه رسوم المجاملة الدبلوماسية، والعناية السياسية. ونشير عرضاً إلى أنّ التنافس بين إسبانيا وأنجلترة يومئذ، حول النفوذ في المغرب، كان على أشده، وقد استطاع العاهل المغربي أن يفيد منه لاتقاء الدسائس الإيبيرية²³².

ب. بعث هذا السلطان بهدية إلى ابن أخيه، الأمير إسماعيل بن عبد الملك المعتصم، والذي مكث مقيماً ببلاد المغرب الأوسط، بعد أن وجّه سفارة إلى إسطنبول مخبراً بالانتصار على البرتغال. كلّ ذلك محاولة منه لدرء التمدّد التركي، على الرغم من أنّ العثمانيين لم يعودوا يشكلون ذلك الخطر الذي لا يزال المغاربة يتوقعونه نتيجة ما كان هؤلاء يلاقونه من عنت في حروبهم على الجبهات الأوربية والصفوية.

ج. لكن على الرغم من ذلك فإنّ تهّم العثمانيين ببلاد السودان ومنافستهم للحضور المغربي في هذه البلاد، من جهة، وموقفهم من موالة المنصور لإسبانيا، من جهة أخرى، لم يكن بعيداً عن توتر العلاقات بينهم وبين السعديين.

وإذا كان المنصور قد استطاع تجاوز تهديد العثمانيين، ومناوأة الإسبان، ومكايد الأنجليز، وحالفه التوفيق دبلوماسياً، فإنّ مصالحه في بلاد السودان لم تكن بمنأى عن تهديد إسطنبول. وقد بدت أطماع العثمانيين حليّة في واحات توات وتكرارين، تمهيداً للاستحواذ على ذهب السودان²³³.

²³². نخل هنا على ما تضمّنه سلسلتا Les sources inédites de l'histoire du Maroc, séries Angleterre et Espagne, من معلومات حول التنافس بين الدولتين على النفوذ في بلاد المغرب، وبخاصّة أنجلترة التي

سعت إلى إبرام تحالف ضد أسبانيا، بعد انتصارها عليها في معركة الجيش الذي لا يقهر البحرية سنة 1588.

²³³. أبطول.. ص. 75.

وكان هذا الصراع الذي يبدو خفياً، يستلهم مشروعيته من التنافس حول الخلافة الإسلامية. فإذا كان الخليفة العثماني (سليم الأول) قد أصبح يلقب بـ «...سلطان العراقيين وخادم الحرمين الشريفين...»²³⁴، بعد سيطرته على بلاد الحجاز، فإن أحمد المنصور بعد بيعته، مافتئ يؤكد في مختلف مراسلاته على نسبه الشريف، وضرورة الجهاد والدفاع عن وحدة الأمة؛ وبالتالي أحقيته في زعامة العالم الإسلامي. وهذا ما يؤهل له الإمامة الكبرى، ويمنحه لقب أمير المؤمنين الذي درجت عليه مراسلاته.

علاوة على أنه لا ينبغي إغفال ما شكّله التغلغل الأوربي في سواحل أفريقيا الغربية، من مخاطر على مصالح المغرب. فضلاً عن مساعي إسبانيا «ورثة البرتغال»، باستمرار لـ «أسر» تجارة السودان النافقة، وما تدرّه منتجاتها من أموال في الأسواق العالمية، وبخاصة الذهب والعبود. فضلاً عن كونها سوقاً للبضائع الأوربية كالتياب والأسلحة...

وإذا كانت هذه المعطيات مجتمعة تمنح الفرصة لأحمد المنصور أن يتدخل في بلاد السودان، أو يفكر في ضمّها إلى النفوذ المغربي، فإن عاملين قد تضافوا لجعل هذا التدخل لا مفرّ منه.

لجوء علي بن داوود إلى بلاط المنصور، وهو المنافس لأخيه أسكيا إسحاق، وإلحاحه في طلب المساعدة لاسترجاع حقّه في عرش السودان²³⁵. وهذا ما دفع السلطان إلى انتهاز هذه الفرصة ليفاوض أسكيا في شأن معدن ملح تغازي²³⁶.

²³⁴ ابن إياس (محمد بن أحمد): بدائع الزهور في وقائع الدهور، المطبعة التجارية، مصر 1951، 3/56.
²³⁵ H. de Castries : la conquete du Soudan par El Mansour, Hespéris 1923. Et G. Paniel : les préliminaires de la conquete du Soudan, Hespéris, 1953, p. 186.
²³⁶ عبد العزيز الفشتالي: مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، تحقيق عبد الكريم كريم، ص. 120.

هذا المعدن الذي أضحي مثار نزاع بين المغرب ومملكة سنغاي، وكان المنصور يرى أنه أحقّ بعائداته من حكام السودان، لأنه «أمير المؤمنين». وبهذه الصّفة فإنّ عائدات الملح وما يُجْبَى عن مختلف البضائع السودانية قد يمكنّه من الإنفاق على متطلّبات الجهاد.

هذه إذاً بعض من الأسباب التي حملت المنصور على غزو بلاد السودان سنة 1591/ 999، والتي أفضت إلى الاستيلاء عليها، وحمل عالمها الفذّ أحمد بابا التمبكي أسيراً إلى مدينة مراكش، حيث قضى أربعة عشر عاماً.

ثانياً: على صعيد بلاد السودان

استنتجنا من ثنايا المصادر التي امتدّت إليها يدنا أنّ آيات الانحطاط قد أضحت بادية للعيان في سنغاي، على الأقل منذ سنة 1587، نتيجة الصراعات التي استشرت على الحكم من قبل أفراد الأسرة الحاكمة، فترتّب عن تدهور الوضع حروب أهليّة عصفت بما شاده آل إسكيا، واحتلّت الأحوال الاقتصادية والاجتماعيّة. يقول محمود كعّيت متحدّثاً عن الحرب الأهليّة التي شهدتها البلاد يومئذ: «وأمّا سبب الشرّ الواقع بين إسكيا داود وبين أخيه بلعم صادق، وذلك سبب فناء سنغي وفتح باب الشرّ بينهم، وسبب فساد ملكهم، وقطع سلك نظام دولتهم إلى أن نزلت محلّة أهل مراكش بهم، إلى هلمّ جرّاً»²³⁷. وبعد أن عدّد ما قام به هذا الحاكم من أسر وقتل وضرب وسجن وعزل، قال: «والم يبق بأرض برّ بلد لم يبلغه شرّه... وهذه الفتنة هي أول خسارتهم وهلاكهم وفنائهم، قبل مجيء جيش مولاي أحمد الذهبي»²³⁸.

²³⁷. محمود كعّيت: تاريخ الفّناش، طبعة هوداس الثانية 1964، ص. 126.

²³⁸. م. س. ص. 143.

ويصف السعدي، من جهته، جرائم أسكيا إسحاق: «وقتل من الناس أهل الجند خلقا كثيرا، وكان من سيرته إذا خال [كذا] من أحد أدنى شيء من التعرض للسلطنة لا بد أن يقتله، أو يخرج من أرضه، هذا دأبه وعادته»²³⁹.

ومن الطبيعي أن يعقب هذا الوضع تقلب في أحوال البلاد. لنستمع إلى ما سجله السعدي المذكور قائلا: «فتغير الجميع حينئذ، وصار الأمن خوفا، والنعمة عذابا وحسرة، والعافية بلاءً وشدة، ودخل الناس يأكل بعضهم بعضاً في جميع الأمكنة، طولا وعرضا، بالإغارة والحراقة على الأموال والنفوس والرقاب، فعم الفساد، وانتشر وبالع واشتهر...» إلى أن يقول: «ثم بدلوا نعمة الله كفراً، وما تركوا شيئا من معاصي الله تعالى إلا ارتكبوها جهراً»²⁴⁰.

وقد أفضى هذا الوضع إلى انقسام البلاد، وبخاصة بعد انفصال كثير من أطرافها، وهو الأمر الذي مهد لحملة المنصور على البلاد، ونفي الشيخ أحمد باب إلى مدينة مراكش سنة 999/ 1591.

239. عبد الرحمن السعدي: تاريخ السودان، طبعة هوداس الثانية 1964، ص. 95.

240. م. س. ص. 142 - 144.

ثالثاً: نفي أحمد بابا إلى مراكش وما ترتب عنه

1. نفي أحمد بابا إلى مراكش

من المعلوم أنّ التمبكتي قضى سنّي طفولته وشبابه في تمبكتو وهي تحت حكم دولة سُنغايّ التي كان للعلماء فيها يدٌ طولى ودالّة عريضة. وبهذه المدينة نال نصيبه من العلم.

ويرجع نسب أحمد باب إلى أسرة آل أُقيت التكروريين التمبكتيين، التي شهد لها كتاب التراجم بالتهمّم بالعلم ونشر الثقافة العربيّة في بلاد السودان. ولذلك فلا غرابة أن تتوارث رئاسة العلم، ويتخرّج منها العلماء والقضاة والأئمة، مدّة تقرب من مائتي سنة. فضلاً عن كون بني أُقيت «من أهل اليسار والسؤدد والدين، ولا يبالون بالسلطان فمن دونه». ويضيف المصدر نفسه عبارة في غاية الأهميّة فيقول: «وكانت أذنهم [أي أهل السودان] مع ذلك صاغية لآل أُقيت، فتخوّف المنصور منهم»²⁴¹.

إذاً لكلّ هذا لما احتلّ الجيش السعدي تمبكتو، وظهرت بعض ردود الفعل المحليّة، بدا وكأنّ أحمد باب ذلك «المتقف العضوي» الذي نهض لمواجهة الاحتلال، وأنّ له يداً في تحريض الأهالي، لاسيّما وأنّ هؤلاء كانوا مستعدّين للاستجابة لدعوته، وهو ما عبّر عنه الناصري بقوله: «وكانت أذنهم مع ذلك صاغية لآل أُقيت».

ودون التماذي في تتبّع تفاصيل ترحيل أحمد بابا إلى مراكش، وهو ما جعل منه بطلاً وطنياً، نرجع إلى النظر في تبعاتها، وهو صلب الموضوع.

²⁴¹الناصرى: الاستقصا، دار الكتاب، الدار البيضاء، 5/ 129. وفّر أحد العرفاء بالصنهاجيّة السودانيّة أنّ معنى أُقيت، وتنطق القاف جيما مصريّة، العمود الذي يحمل الخيمة. أي أنّ هذه الأسرة كان عليها مدار كلّ أمور البلد، وأنّها صاحبة العقد والحلّ.

لقد أثارت قضية نفي أحمد بابا ردود فعل متباينة من قِبَل الباحثين، حتّى أسالت كثيرا من الأمدّة والأخبار، ما بين مدافع ومنتصر ومنحاز، ليس من شأننا أن نعرض إليها في هذا المقام.

ومع ذلك نشير إلى أنّ كثيرا ممّا ألفه المغاربة، في ميادين التاريخ والطبقات والتراجم، بل حتّى في الفقه أحيانا، لا يكاد يخلو من ذكر الشيخ أحمد باب التمبكت؛ ممّا يدلّ على الأثر الذي خلّفه هذا الرجل.

وعلى الرغم ممّا ترتّب عن تلك المحنة من حزازات، والتي استمرّت بقيد الحياة حتّى يومنا هذا، وما نثّ عنها عبر بعض الدراسات، فإنّ ذلك لم يزدّ العلاقات الوديّة التي تصل المملكة المغربية ببلاد السودان الشقيقة إلّا قوّة.

وقد تجلّت هذه العلاقات في التمازج البشري والثقافي والاجتماعي بين البلدين. فما هي تجلّيات هذا التمازج وما نتائجه؟

2. بعض الآثار المترتبة عن نفي الشيخ أحمد بابا التمبكتي

أ. على الصعيد العلمي:

نذكر بأنّ السلطان المنصور، قبل أن يقدم على الأمر بترحيل أحمد باب إلى مراكش، كان قد كتب إلى قاضي تمبكتو الشيخ «أبي حفص عمر بن محمود بن عمر أقيت يأمره بحضّ الناس على الدخول في الطاعة ولزوم الجماعة»²⁴². وقد انتظر قائد الحملة المغربية ردود من وجه إليهم السلطان رسله مدّة سنتين، قبل أن يقدم على اعتقال أحمد باب. معنى هذا أنّ مفاوضات قد جرت بين الطرفين قبل اتّخاذ ذلك الإجراء. لكنّه حينما استيقن من موقف أحمد باب، الذي لم يأل جهدا في تأليب

²⁴² الإفرائي، محمّد الصغير: نزعة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تقديم وتحقيق عبد اللطيف الشادلي، 1998، ص. 166.

السكان على التمرد، وتخريضهم على مواجهة الجيش السعودي لم يتردد في اعتقاله، مع عدد من أفراد أسرته، في شهر محرم عام ألف واثنين/1594، قبل تغريهم إلى مدينة مراكش، يوم السبت 25 جمادى الثانية من السنة، والتي وصلوا إليها في أول رمضان. ولا شك في أن القائد السعودي، الذي أنيط به ترحيل التمبكت، لم يراع للشيخ قدراً، بل ربما أساء إليه، وهو ما أثار غضب المنصور، لما علم بالأمر من طريق مبعوثه القائد أحمد بن الحداد. قال المؤرخ عبد الرحمن السعودي: «فأخبر [القائد] السلطان مولاي أحمد بما فعل محمود من التعديّات حتّى قال: إنه لا يعرف إلا سيفه، وحتّى من نصر السلطان في نصرته يسّل شيئاً من سيفه يقول هذا، فغضب السلطان غضباً شديداً، فقال: رجعت لا أنصر في السودان إلا بسيف هذا الملعون»²⁴³. ونشير عرضاً إلى أن سلوك الشدة الذي سار عليه محمود زرقون كان سبباً في محنته، هو بدوره.

ومهما كان من أمر، فقد نزل أحمد بابا التمبكتي، وأسرته. مراكش، حيث أقاموا حوالي أربعة عشر سنة. وباستثناء الستين الأوليين من «إقامتهم الإلجباريّة»، حيث اختصّهم المخزن بدار محروسة، فقد استجاب السلطان لوساطة علماء المدينة، فأفرج عنهم يوم الأحد 21 رمضان عام 1004/1596، شريطة ألا يغادروا مدينة مراكش. على أنه ألغى حتّى هذا الشرط، فيما بعد، حيث أعلمتنا المصادر أن أحمد باب زار مدينة فاس وأغمات وغيرهما، والتقى بعدد من العلماء المغاربة، ممّا سوف نعود إلى بيانه.

وهذا دليل على أن محنة الشيخ السوداني لم تطل، وبخاصّة حينما تمّ إنزاله بأحد أحياء المدينة الراقية: حي المواسين (درب عبيد الله)، مجاوراً لأحد أفخر مساجد المدينة²⁴⁴، بين أعيان البلدة، من تجار ورجال الدولة.

²⁴³السعودي: تاريخ السودان، م. س. ص. 174.

²⁴⁴. وكانت إحدى خرائات السعديّين الكبرى ملحقه به.

وقد اغتبط أهل مراكش بالإفراج عنه؛ وهو ما عبّر عنه أحد الآخذين عنه من المغاربة، حين قال: «ففرحتُ بذلك قلوبُ المؤمنين»²⁴⁵. فلم يرح أن لزمه علماء المدينة وطلبُها، حتّى حرص بعض العلماء على مصاحبته حينما دعاه السلطان إلى قصره، حيث وقعت بينه وبين السلطان مقابلة انفرادي بنقلها²⁴⁶.

وعمجّر ما تمّ الإفراج عنه لم يفتأ علماء مراكش وطلبُها أن هُرِعوا للأخذ عنه، على الرغم من أنّ «لسانَه معقّد»، و«خلقته غريبة»، بالنسبة لأهل هذه المدينة²⁴⁷. وبذلك تّمت مؤانستُه، ومُدّت إليه أيادي هؤلاء الطلبة والعلماء تلبيةً لبعض متطلّباته العلميّة. وهذا ما اعترف به التمبكتي في مقدّمة كتابه حين قال: «وبعد، فيقول.. أحمد بن أحمد.. عرف بابا التمبكتي... لما قدّر الله تعالى دخول بلدة مراكش على الوجه الذي أَرادَه في الأزل وقضاه، وذلك أواخر اثنين وألف، وسهل لي مع ما أنا فيه من التّضييق والحبس الوقوف على جملة كتب غرائب لم أكن وقفت عليها لكثرة تردّد الطلبة إليّ في محبسي، وإتيانهم إليّ بالكتب لمحبّتهم في الغريب من أبناء جنسهم»²⁴⁸.

وهذا برهان قاطع على ما لقيه الشيخ السوداني من عناية من قبل أهل مراكش وعلمائها. وقد اعترف هو نفسه بهذا التقدير في مواطن مختلفة من مصنّفاته، ونوّه مرارا في كتابيه نيل الابتهاج وكفاية المحتاج بأحد أبناء

²⁴⁵ فهرسة يعقوبي، نقله محمّد بن الطيّب القادري: نشر المثنائي لأهل القرن الحادي عشر والثاني، 1/272.

²⁴⁶ الإفرائي: نزهة الحادي.. م. س. ص. 171 - 172.

²⁴⁷ نشر المثنائي، م. س. ن. ص. 274، ومحمّد حجي: الحركة الفكرية، 2/383.

²⁴⁸ نقله بنشريف في «بين أحمد بابا وأحمد المنصور»، ص. 65.

²⁴⁹ الإيسى بكسر الهزّة، مثلما ضبطها في الفوائد، نسبة إلى القبيلة الأمازيغيّة السوسية التي تتمدّد مواطنها جنوب شرقي تافراوت. عبد الرحمن التمنارتي: الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة، تحقيق اليزيد الراضي، 1420/1999، الدار البيضاء، ص. 474. ومحمّد بن أحمد الحضيكي: طبقات الحضيكي، تقديم وتحقيق أحمد بومزكو، الدار البيضاء، 1427/2006، 1/148، حاشية 2.

المدينة، وهو المؤرّخ الأديب محمّد بن يعقوب الإيسى المراكشي حيث أثنى عليه قائلاً: «لم ألقَ بالمغرب أثبت منه ولا أوثق، ولا أحقق ولا أعرف بطرق العلم منه رحمه الله»²⁵⁰.

ويذكر الأستاذ بنشريف أنّ أحمد بابَ كثيراً ما أحال على هذا الأديب الذي أعجب به، في مؤلّفه المذكورين بقوله: «كذا بخطّ صاحبنا المؤرّخ محمّد بن يعقوب الأديب»، و«قال صاحبنا المؤرّخ محمّد بن يعقوب»²⁵¹. وقد لزمه الإيسى المذكور طوال إقامته بمراكش، ولم يفارقه إلّا يوم رحل عائداً إلى بلاده.

هذا حينما تصدر أحمد بابَ للتدريس والإفتاء بمدينة مراكش، وقد أفاد من مكتباتها العامرة، ومنها مكتبة السعديين الملحقّة بمسجد المواسين، حيث مقرّ إقامته. وقد درّس، فضلاً عن الفقه المالكي الذي برّز فيه، النحو والبلاغة والعقيدة والحديث والسيرة النبوية.

واستطاع، وهو مقيم بمراكش، أن يجمع ما كان ضاع له من كتب، كما قال: «ولما جبر الله عليّ بعضها بعد دخولنا مراكش، أصبت منها ذلك التعليق».

كما زار مدينة فاس، ولقي بها، في إحدى زيارته، عدداً من علمائها، ذكر منهم أحمد ابن القاضي وأحمد المقرّي. وعلى إثرها زاره هذا في منزله بمدينة مراكش²⁵² ونوّه بخزانة كتبه قائلاً: «وأعازني جملة كتب من خزانته الفريدة، المبدّنة في اقتناء الغرائب المعيدة، وأجازني جميع تأليفه المفيدة، وكتب لي خطّه بذلك مراراً»²⁵³.

250. التمنارتي: الفوائد الجمّة.. م. س. ص. 134. ونقله القادري في نشر المغانبي.. م. س. ن. ص. 273.

251. بنشريف، م. س. ص. 66.

252. سكن أحمد بابَ بدرب عبّيد الله من حي المواسين، غير بعيد عن مسجد الشرفاء.

253. أحمد المقرّي: روضة الآس العاطرة الأنفاس... طبعة ثانية المطبعة الملكية 1403/1983، ص. 303.

وهنا لابدّ من التذكير بأنّ الصلة التي وصلت بين أحمد بابّ والمقرّي كانت سبباً في التعريف بالسوداني في بلاد المشرق، حيث أثنى عليه المقرّي كثيراً، وعرف بمؤلفاته في أثناء إقامته بالقاهرة؛ الأمر الذي أدّى إلى انتشارها في تلك البلاد²⁵⁴.

وبناءً على هذا يبدو أنّ «محنة» أحمد بابّا لم تدم طويلاً، ليصبح حرّاً طليقاً، يتجولّ في المدينة كيف ومتى يشاء، ويزور أغمات، ويسافر إلى فاس. بل إنّّه عاش حياة مريئة في مدينة مراكش، وإلاّ كيف استطاع أن يؤلّف في أثناء هذه الإقامة، حوالي نصف مصنّفاته؟ بل لقد أخرج أكبر مؤلّفين له في التراجم، وهما «نيل الابتهاج..» و«كفاية المحتاج..». ولعلّ هذا ما انتهى بالدكتور بنشريفّة إلى القول بأنّ: «حياة أحمد بابّ في مراكش كانت خاليّة من أي رقابة أو متابعة، بل إنّّه انتدب للتدريس والإفتاء بجامع الأشراف، وكان يتحرّك ويسافر»²⁵⁵.

ولم يتردّد الدكتور محمود زوبير، الذي انتصر لمحنة الشيخ أحمد بابّا، منتقداً حملة المنصور، في الاعتراف بـ«أنّ الفترة المغربيّة من حياة أحمد بابّا (1593-1607) تعدّ من أخصب مراحل حياته الثقافيّة؛ فقد ألّف خلال هذه الفترة القصيرة أزيد من نصف مؤلّفاته، أي تسعة وعشرون أو تزيد، من مجموع مؤلّفاته التي يبلغ عددها ستّة وخمسين»²⁵⁶.

²⁵⁴ أحمد المقرّي: أزهار الرياض في أخبار عيّاض، طبعة اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي، بين حكومة المملكة المغربيّة وحكومة دولة الإمارات العربيّة المتّحدة، 1978، 3/ 37 و 56 - 57، و 4/ 339.

²⁵⁵ بنشريفّة، م. س. ص. 67.

²⁵⁶ Mahmoud A. Zouber : Ahmad BABA de Tombouctou (1554 - 1627), sa vie et son œuvre, Maisonneuve et Larose, Paris 1977, 72 - 106.

وذهب أحد الباحثين المالئيين المعاصرين إلى أنّ ترحيل أحمد بابا إلى مراكش قد أفاده أكثر ممّا أضّره²⁵⁷. وقال آخر: لقد أفاد أحمد بابا من انتقاله إلى المغرب، وأفاد المغاربة من علمه، الأمر الذي زاد في توثيق الروابط بين العلماء المغاربة والسودانيين. وأنكر ثالث أن يكون غزو السعديين للسودان سببا رئيساً في تقهقر تمبكتو، مثلما حاول بعض المؤرّخين الأجانب أن يروّج لذلك²⁵⁸.

ومهما بذلنا من جهد للإتيان بالحجج الدامغة للتدليل على أنّ محنة التمكنّي كان في طيّها نعمة فلن نوفيّ بما أقرّ به هذا الشيخ نفسه، حينما اعترف قائلاً: «ولما خرجنا من المحنة طلبوني للإقراء، فجلست بعد الإباية بجامع الشرفاء بمراكش، من أنوه جوامعها، أقرئ مختصر خليل، قراءة بحث وتحقيق ونقل وتوجيه، وكذا تسهيل ابن مالك وألفيّة العراقي، فُخِمت عليّ نحو عشر مرّات، وتحفة الحكام لابن عاصم، وجمع الجوامع للسبكي، وحكم ابن عطاء الله، والجامع الصغير للجلال السيوطي قراءة تفهيم مراراً، والصحيحين سماعاً عليّ وإسماعاً مراراً، ومختصريهما، وكذا الشفا والموطأ، والمعجزات الكبرى للسيوطي، وشمائل الترمذي والاكتفا لأبي الربيع الكلاعي وغيرها. وازدحم عليّ الخلق وأعيان طلبتها ولازموني، بل قرأ عليّ قضاتها كلّها، كقاضي الجماعة بفاس أبي القاسم بن أبي النّعيم الغساني، وهو كبير ينّيف على السّتين، وكذا قاضي مكناسة الرّحلة المؤلّف صاحبنا أبو العبّاس ابن القاضي، وهو أسنّ منّي، ومفتي مراكش وإمامها أبو عبد الله [الرجراجي وغيرهم]²⁵⁹.

²⁵⁷ جاء ذلك ضمن وثائقي قدّمته إحدى قنوات جنوب أفريقيا التلفزيونيّة، كنت ضمن المشاركين فيه.

²⁵⁸ م. س. ن.

²⁵⁹ أحمد باب: كفاية المحتاج، م. س. 2/284 - 285، ونقله نشر المثاني للقادري، م. س. 1/273. والبرتلي الولاتي: أبو عبد الله الطالب بن أبي بكر الصّدّيق: فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التّكرور. تحقيق محمّد إبراهيم الكّثاني ومحمّد حجّي، دار الغرب الإسلامي 1401/1981، ص. 35.

وقد سبق أن نبّهنا على ما نهض به أحمد المقرّي حينما عرّف بالتمبكتي ومؤلفاته في أثناء إقامته بالقاهرة²⁶⁰. وأردف تنويهه به بإثبات نصّ إجازته له، بمراكش في 15 محرم عام 1010/12 يوليوز 1601. هذه الإجازة التي أفادتنا في معرفة عدد من مصنفاته²⁶¹.

ومن العلماء المغاربة الذين تعلّقوا بأذيال التمبكتي أبو زيد عبد الرحمن التمنارتي، وقد استجازه بالمراسلة، حين تعدّر عليه لقاءه فأجازه، وأثبت ذلك في فوائده²⁶².

وممن أخذ عنه أو استجازه أيضا: يحيى بن عبد الله الحاحي²⁶³، وأحمد بن علي البوسعيدي السوسي، و«صاحبه السيّد الأستاذ المتواضع الناظم النائر، ذو الأخلاق الطاهرة، والشيم الفاخرة، الحاجّ أحمد بن الحاجّ محمد فهدي التواتي ثمّ المراكشي»²⁶⁴، وعبد الرحمن الوقّاد التلمساني نزيل تارودانت²⁶⁵، وأحمد ابن أبي محلي²⁶⁶.

²⁶⁰المقرّي: أزهار الرياض، م. س. ن.

²⁶¹أثبت المقرّي نصّ الإجازة في كتابه روضة الآس، م. س. ص. 303 - 305.

²⁶²عبد الرحمن التمنارتي: الفوائد الجمّة في إسناد علوم الأئمة، م. س. ص. 133. قال التمنارتي: «فكتب إليّ بخطّ ولده، لعجزه عن الكتابة لفرط هرمه، ما نصّه: الحمد لله والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد، فقد أجزت لك أن تروي عنيّ جميع ما يجوز لي متلفظا بها بشرطه المعتبر عند أهلها، وكتبه محمد بن أحمد بابا بن أحمد بن أحمد بن محمد أفيت بإذن والده رضي الله عنه، انتهى... فهو شيخ الإجازة لا اللقاء.

²⁶³الفوائد الجمّة، م. س. ص. 61 و417.

²⁶⁴البرتلي الولاتي: فتح الشكور، م. س. ص. 33 - 34، ونقل إجازة أحمد بابّ للتواتي المذكور.

²⁶⁵م. س. ص. 230 - 249 و417.

²⁶⁶الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، م. س. 6/28.

كما عدّ زيدانُ بنُ أحمد المنصور أحمدَ بابا من بين شيوخه، وقد أفاد السوداني كثيرا من خزانة السلطان زيدان العامرة²⁶⁷، وهو ما أخبر به الأستاذ محمد بنشريفه، حيث وقف بدير الإيسكوبال، على أثر مطالعة أحمد بابَ لبعض كتب هذه الخزانة. منها على سبيل المثال مختصر الإحاطة لأحمد البقني الذي نقل عنه في نيل الابتهاج²⁶⁸.

بقي أن نذكر أنّ أحمد بابا قد اعتاد عقد مجالس للتدريس والإقراء؛ منها مجلسان: أحدهما للعامّة بمسجد الشرفاء، وثانيهما عبارة عن حلق علميّة عقدها في بيته، حضرها نخبة من أصدقائه وخيار أتباعه.

واتّفق كلّ من ترجمه من المغاربة على سعة علمه، ودقّة تحقيقاته وقوّة حافظته؛ ولذلك ليس من الغريب أن تصطكّ رُكْب الطلبة والعلماء في مجالسه وتزدحم على حضور حلّقه العلميّة.

وأفاد أحمد بابا بدوره، من خزائن الكتب بكلّ من فاس ومراكش وتامكروت العامّة والخاصّة. فمن الخزائن العموميّة التي قد يكون ارتادها خزانة القرويين بفاس، والخزانات الملحقة بمساجد مراكش، كابن يوسف والشرفاء والكتبيين والحرم العباسي وخزائن وادي درعة، وبخاصّة خزانة تامكروت.

ومن خزائن الخواصّ لا نشكّ في أنّه استعار كتباً من العلماء الذين زارهم أو زاروه، مثل المقرّي وابن القاضي والإيسي والجرجاني والتامكروتي.

²⁶⁷ هذه الخزانة التي انتهى مصيرها إلى دير إسكوبال بعد حادثة القرصنة المشهورة، ينيّف ما بقي منها اليوم بقيد الوجود على 1700 مجلد.

²⁶⁸ بنشريفه، م. س. ص. 70.

كانت هذه الصلات العلميّة والاتّصالات التي عقدها أحمد بابا بعلماء المغرب كفيلاً بإغناء رصيد الشيخ السوداني العلمي، وتوسيع مداركه، خاصّة وأنّه قدّم إلى مدينة مراكش، وهي ترفل في أوج عزّها، في عهد أحمد المنصور الذهبي.

ولعلّ ما عاشه هذا العالم في خضمّ الحركة العلميّة التي كانت مراكش تعجّ بها يومئذ، والاستقرار الذي نعم به المغرب عامّة، قبل وفاة المنصور، والتفرغ الذي تيسّر له، كانت كلّها عوامل مواتية ليعكف على التّأليف. وقد ذكر محمّد بن يعقوب الإيسى في فهرسته أنّه رأى عدداً من تلك المؤلّفات بخطّ مؤلفها التمبكتي، الشيء الذي أتاح له نقل ما ثبت بقيده بعض أختامها²⁶⁹.

علاوة على ذلك، فقد شرفته هذه المدينة بالتصدّر إلى الفتوى، حتّى قال مزهوا بنفسه: «وأفتيتُ فيها لفظاً وكتباً، بحيث لا تتوجّه الفتوى فيها غالباً إلّا إليّ، وعُيِّنَتْ لها مراراً فابتهلتُ إلى الله أن يصرفها عني»²⁷⁰.

هذه كلّها معطيات تؤكد أن أحمد بابا لم يعانِ كثيراً، في أثناء إقامته بمراكش، حيث عاش حرّاً طليقاً. والدليل على ذلك أنّه تردّد على بعض مزاراتها. فقد اعترف أنّه اختصّ سيّدي أبي العباس السبتي بالزيارة أيّام الجمعة، حيث زاره ما يزيد عن خمسمائة مرّة، وبات بضريحه أكثر من ثلاثين ليلة. ويذكر أحمد المقرّي أنّه صاحبه، مع جملة من الأعلام في أثناء «زيارة الصالحين بحضرة الإمامة»²⁷¹.

²⁶⁹.نشر الثاني.. م. س. ن. ص. 275.

²⁷⁰.نشر الثاني.. م. س. ن. فهم محمود زوير من كلام أحمد باب أنّه قبل الفتوى على مضض، محاولاً التنصل منها مخافة أن يُرغم على تبرير حملة المنصور على بلاد السودان. أحمد باب، م. س. ص. 30.

²⁷¹.أحمد المقرّي: زهرة الآس، م. س. ن.

أي أنّه كان محاطاً بثلة من الأصحاب يؤنسونه ويرافقونه في أثناء تجواله بالمدينة. ويغلب على الظن كذلك أنّه لم يشعر بالوحشة في مختلف تنقلاته بين أحواز مراكش، حتّى لما زار ضريح الشيخ الهزميري بأغمات، وقد تردّد عليه «مراراً». وفي ذلك يقول: «وتوسّلت عنده ولله الحمد»²⁷².

ولم يكن أهل فاس أقلّ عناية بالسوداني حين زارها، وتردّد مراراً على مشاهد بعض صلحائها، مثل درّاس بن إسماعيل وابن حرزهم²⁷³.

ساهم كلّ ذلك في فشوّ أمره بين الطلبة والعلماء، فسارت بذكره الركبان؛ وزها بنفسه حتّى أصابه بعض العُجب. وفي ذلك يقول: «واشتهر اسمي في البلاد من سوس الأقصى إلى بجاية والجزائر وغيرها، وقد قال لي بعض طلبة الجزائر، وقد قدم علينا من مراكش: [لا] نسمع في بلادنا إلا اسمك فقط، وإنّما ذلك كلّه مصداق قوله صلى الله عليه وسلّم: إنّ الله لا ينزع العلم.. الحديث، انتهى»²⁷⁴.

وعقد له القادري ترجمة وافية، ليثني عليه، فقال: «إنّ الشيخ أحمد بابا نفع الله به هذا القطر المغربي، وحُمل عنه علم غزير، واستُفيد ما عنده من التحقيق والتحرير، وقد اشتهر فيه اشتهاً أهله، وتحقّقت فيه مكانته وقدره وفضله، ومع ما أكرمه الله به من مضاعفة الأجور، وعلوّ الدرجات بمشاقّ الأمور، بسبب ما لحقه من الامتحان، الذي هو لأمثاله عنوان غاية الكرامة والرضوان»²⁷⁵.

²⁷² أحمد باب: كفاية المحتاج.. م. س. ص. 28.

²⁷³ م. س. ن.

²⁷⁴ م. س. ن. والبرتلي الولّاتي: فتح الشكور، م. س. ص. 35. مع بعض التغير في الصيغة بين المصدرين المذكورين.

²⁷⁵ القادري: نشر المثاني.. م. س. ن. ص. 275.

ومهما يكن من أمر، فقد ترتّب عن إقامة أحمد بابا بمراكش بلوغ صيته إلى المشرق، بل إلى بلاد اليمن، كما يفهم من رسالة بعث بها إليه صالح البلقيني المصري لما خاطبه قائلاً: «وبعد فقد وقفتُ على الكراسين المشتملين على ثلاثة أجزاء، تأليف مولانا الشيخ الفاضل، العالم محرّر القضايا والأحكام، محيي ما اندرس من اللغة العربيّة، الشيخ أحمد بابا.. نزيل محروسة مراكش، حماها الله من جميع الآفات، وصانها وحرسها في سائر الأوقات، أمين؛ وقد وقفت وأوقفتُ غالبية [كذا] طلبة العلم بالجامع الأزهر، وقيدوها بالكتابة والانتفاع، وسارت بذكرها الركبان إلى أشرف البقاع اليمنيّة، نفع الله بها... وكتبه العبد الفقير إلى الله صالح بن شهاب الدين البلقيني الشافعي.. وذلك عاشر شهر ربيع الثاني سنة 1015 من الهجرة النبويّة، والسلام»²⁷⁶.

وبعد حوالي أربع عشرة سنة من الإقامة بمراكش، استغرقها أحمد بابا في الدرس والتدريس والإفتاء والتأليف، وعقد اللقاءات مع العلماء وارتداد خزانات الكتب، شدّ الرحال عائداً إلى بلده تمبكتو، مليء الوطاب. وقد لخص عبد الرحمن السعدي هذا الحدث قائلاً: «وفي يوم الثلاثاء العاشر من ذي القعدة الحرام في العام السادس عشر بعد ألف ورد الشيخ العالم العلامة، فريد دهره وحيد عصره، الفقيه أحمد بابا بن الفقيه أحمد بن الحاج أحمد بن عمر مدينة تمبكتو، سرّحه إليها الأمير مولاي زيدان بوعد منه في حياة أبيه، متى منّ الله عليه بدار أبيه يطلقه أن يسير إلى دار أبيه؛ وبعدما وفّى له ذلك الوعد وانفصل عن المدينة ذاهباً ندم على ما صدر منه، لولا أنّ الله تعالى قدّر تربته في مسقط رأسه»²⁷⁷.

²⁷⁶. حسن الصادقي: مخطوطات أحمد بابا التميمكي في الخزائن المغربيّة، نشر معهد الدراسات الأفريقيّة، الرباط، 1996. ص. 40. توفي «في إحدى الجماديين سنة خمس عشرة بعد الألف». ترجمه المحيّي: خلاصة الأثر..

دار صادر بيروت، د. ت. 2/237.

²⁷⁷. ع. السعدي: تاريخ السودان، م. س. ص. 218 - 219.

ومن الطريف أنه عند مغادرته مدينة مراكش شيّعه عددٌ من أعيان طلبتها، فأخذ أحدهم بيده عند الوداع، وتلا قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ»، على ما جرت به عادتهم، من قراءتها عند وداع المسافر ليرجع سالماً، فنزع أحمد باب يده بسرعة، وقال: «لا ردّني الله إلى هذا المعاد، ولا رجّعي لهذه البلاد، وسلّم عليهم وذهب لبلاده بسلام وأمان»²⁷⁸.

نفيد من هذه الرواية أنّ أهل مراكش قد ألفوا وجود أحمد باباً بينهم وعيشه معهم، فصعّب عليهم فراقه، على الرغم ممّا أبدى من الجفاء، ونحن نلتمس له العذر، لأنّه مشتاق إلى تعفير وجهه بتراب بلده.

ب . على الصعيد السياسي والمعنوي

ومهما يكن من أمر محنة أحمد باباً، فإنّ هذه الحادثة لم تزد التواصل بين المغرب وبلاد السودان الغربي وتبادل التأثيرات إلّا رسوخاً. ومن تجلّيات التواصل بين الجانبين نذكر ما يتلو:

- استمرار الخطبة باسم السلاطين المغاربة، وتوارد الوفود حاملة للبيعة، كما وقع في عهد الرماة²⁷⁹. ومن هذه البيعات، تحديد البيعة لمولاي إسماعيل من قبل أهل تمبكتو. ذكر الرحالة عبد السلام الشباني، في سياق حديثه عن الشبانة، أنّ هؤلاء «كانوا أول من رافق مولاي أحمد الذهبي [بن مولاي إسماعيل] في مسيره إلى تمبكتو» [كذا]. كان ذلك حوالي 1727²⁸⁰.

²⁷⁸ الإفرائي: نزهة الحادي.. م. س. ص. 172، والناصري: الاستقصا.. م. س. ن. ص. 131.

²⁷⁹ Abitbol : Tombouctou et les Armas ; de la conquete Marocaine du Soudan Nigerien en 1591 à l'hégémonie de l'empire PLEUH du Macina en 1933, Maisneuve et Larose, Paris 1979, P. 224

²⁸⁰ عبد الهادي التازي: الوثائق الدبلوماسية للمغرب كمصدر لتاريخ أفريقيا، ندوة اليونسكو، المغرب الرباط 1987، و«من فاس إلى تمبكتو» رحلة الحاج عبد السلام الشباني إلى تمبكتو والهووسة، أملاها بالعربية الحاج عبد السلام الشباني، حرّرها بالإنجليزية: جيمس غراي جاكسون، ترجمها: محمد عبد الغني، إرث للنشر والترجمة، 1442/2020، ص. 19.

- كان السلطان سيدي محمد بن عبد الله يصرّح في مراسلاته والاتفاقيات المنعقدة مع الدول الأوربية بتبعية بلاد السودان لسلطته. جاء في ديباجة الاتفاقية المنعقدة بين إمارة البندقية والمغرب في 25 حجة 1173/15 يونيو 1765 أنه: «صار الصلح والمهادنة مع برنجبة متاع البننسيان وديوانهم مع سلطان الغرب وانبرادور دي مراكش وفاس ومكناسة وسوس وتافيلالت وتمبكتو وإقليم السودان...»²⁸¹. وفي رسالة إلى ملك الدنمرك (سنة 1191 / 1777) عبّر السلطان فيها على أنه «سلطان مراكش وفاس وسوس الأقصى وكاو وغينيا»²⁸². ولا نظنّ أنّ هذه العبارة صادرة عن فراغ، لو لم تكن دالة عن واقع.
- تبادل أمراء الهوسا مراسلات مع السلطان مولاي سليمان، في سياق «إحياء السنة وإماتة البدعة وجهاد أعداء الدين». كما تدلّ على محبتهم له، وتأنيده لهم، وللمبادرة نهوض عثمان بن فودي الفلاني بأعباء الجهاد²⁸³.
- بعث الشيخ المختار الخليفة بن محمد بن المختار الكبير (ت. 1268/1852) برسالة إلى مولاي عبد الرحمن بن هشام، مع الوفد الذي كان قد وجّهه السلطان إلى تمبكتو يطلب منه مؤلفات الشيخ الكنتي وابنه محمد، مع مؤلفات والده وجدّه؛ وطلب منه، بالمقابل، أن يرسل إليه مؤلفات أتت الرسالة على ذكرها.

²⁸¹ التازي: التاريخ الدبلوماسي، الجزء 9 ص. 60، نقله لقبايي، المغرب والعمق الأفريقي، م. س. ص. 115.

²⁸² بتّاني سيمرس: العلاقات المغربية السودانية في سياسة الأسر الحاكمة بالمغرب، من القرن السادس عشر إلى نهاية القرن التاسع عشر، مجلة كلية الآداب، فاس سايس، 1989، العدد الخامس، ص. 155. نقله لقبايي: المغرب والعمق الإفريقي، م. س. ص. 115. ومعلوم أنّ المغرب كان قد عقد معاهدة جديدة مع الدانمرك سنة 1181 / 1767، م. بوشعراء، معلمة المغرب، 12 / 3944.

²⁸³ محمد بلو: إنفاق الميسور في بلاد التكرور، تحقيق بهيجة الشاذلي، معهد الدراسات الإفريقية الرباط 1996. وقد أثبت المؤلف نصّ رسالتَي مولاي سليمان في الصفحات 293 - 296. ولقبايي: المغرب والعمق الأفريقي، م. س. 117 - 119.

وأوصى الشيخ السلطان خيرا بالتلاميذ المنتسبين إليه، الموجودين تحت كفالته²⁸⁴.

وُذِلَت الرسالة العجالة بمقطعة شعريّة من نظم الشاعر الوزير محمّداً بن إدريس العمروي، مدح بها الشيخ المختار الكنتي²⁸⁵.

ويذكر الأستاذ المتّوني رسالة أخرى، مطوّلة، أرسلها الشيخ أحمد البكاي بن محمّد بن الشيخ المختار الكنتي (ت. 1283 / 1867)²⁸⁶، من تمبكتو إلى أهل الغرب عموماً، وأهل فاس ومكناس، مع الأكابر من أهل مراكش خصوصاً، تندّب المخاطبين بها إلى الجهاد ضد التدخل الأجنبي، مع الدعوة إلى الرجوع إلى الكتاب والسنة.. استهلّها كاتبها ببيعته للسلطان مولاي عبد الرحمن²⁸⁷.

• وعلى الرغم من ضمور التواصل بين المغرب وبلاد السودان، مع التغلغل الأوروبي في القارّة الأفريقيّة، في غضون النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فإنّ أهل السودان ظلّوا متمسّكين بعلاقات البيعة لسلّاطين المغرب. من أجل ذلك كانوا يلحّون على التضامن معهم في أوقات الشدّة. وفي هذا المقام نذكر وصول رسالة أولى من أمير التكرور، أحمد الكبير بن الحاج عمر الفتوي إلى مولاي الحسن، بتاريخ 14 ذي القعدة 1310/1894 يستنجد به عند بلوغ الفرنسيّين مدينة تمبكتو سنة 1893.

²⁸⁴ بعث السلطان المغربي وفدا يطلب مؤلّفات الشيخ الكنتي، فردّ عليه الشيخ المذكور برسالة تنوّه بالسلطان وتوكّد على وشائج المحبة والولاء التي يكتنّها أهل هذه البلاد للسلطان المغربي. بهيعة الشاذلي: تمبكت، تطورها التاريخي وعلاقاتها بالمغرب، ص. 104. ولقبايي: المغرب والعمق الأفريقي.. م. س. ص. 119 - 120. والمؤلفات المنوّه بها هي: شرح اكتفاء الكلاعي لمحمد بن عبد السلام بناني وشرح ابن حجر على البخاري.

²⁸⁵ بهيعة الشاذلي: تمبكتو، م. س. ص. 105.

²⁸⁶ ننّه بالمناسبة إلى أنّ هذا الشخص هو الذي ذكره الأستاذ المنوني بهذا الاسم في المصادر العربيّة، 2/181، بينما ذكرت الأستاذة بهيعة الشاذلي الشيخ المختار الخليفة بن محمّد بن المختار الكبير (ت. 1268 / 1851)، تمبكتو: تطورها التاريخي وعلاقاتها بالمغرب، ص. 104، وفقاً أثرها الأستاذ لقبايي: المغرب والعمق الأفريقي، 119. فهل يتعلّق الأمر بشخصيتين أم بشخص واحد؟

²⁸⁷ المتّوني: المصادر العربيّة، م. س. ن. ونقلته الأستاذة بهيعة الشاذلي، تمبكتو، م. س. ن. ولقبايي: المغرب والعمق الأفريقي، م. س. ن.

فبعد أن شكّا للسلطان حروبه مع الوثنيين وتعاون هؤلاء مع الفرنسيين الذين اقترفوا أفعالا شنيعة في أثناء غزوهم للبلاد، توّسل إلى السلطان أن يتدخّل عاجلا لإغاثنهم²⁸⁸ فقال: «وتوغلوا في بلادك مسيرة شهر.. والآن الله الله الله يا خليفة الله في أرضه ورسوله وخليفة رسوله في أمّته، يا ابن سيّد المرسلين، دراك دراك دراك سريعا... وإنا منك وإليك، لا من غيرك، ولا ننتسب لأحد سواك. فإنّ كوننا من تلامذة أحمد التجاني.. في بيعة جدّكم المكرّم.. أمير المؤمنين مولانا سليمان، أظهر من نار على علم؛ فإذا كان الأمر كذلك فالله الله الله يا أمير المؤمنين، فانظر في هذا الأمر العظيم والخطب الجسيم، واجمع له خيلك ورجالك، وسُلّ له أسياف جدّك»²⁸⁹.

ومن رسالة ثانية (بتاريخ 16 محرّم 1311 / 1893) مشفوعة بهديّة، ومذيّلة بإمضاء أمير تمبكتو، يحيى بن الكاهي، عن إذن أعيان السكّان²⁹⁰، نقتطف هذه الفقرات: «إنّ أعداء الدين [أي الفرنسيين] كانوا قد قدموا إلينا وطلبوا منّا البيع والشراء والاستيطان في أرضنا، فامتنعنا منهم وأجبناهم أنّا في طاعتك وتحت بيعتك... وإنّ أتونا بكتابك أو أمرك قبلناه.. وكاتبناهم بما ذكرنا فأجابونا أنّهم علموا لمن هي».

288. محمد المتّوني: العلاقات المغربيّة الأفريقيّة من خلال مجموعة وثائق في خزانة علّال الفاسي، مجلّة كليّة الآداب،

الرباط، عدد 15، 1989 - 1990، ص. 36 - 38.

289. م. المتّوني: العلاقات المغربيّة الأفريقيّة، م. س. ص. 38.

290. م. المتّوني: العلاقات المغربيّة الأفريقيّة، م. س. ص. 35.

ثمّ أردف قائلاً، بعد أن ذكر أنّ الفرنسيّين اقتحموا مدينة جني، وعمدوا إلى القتل والنهب والسبي، حتّى شارفوا مدينة تمبكتو،: «وقد كتبنا إليك نشكو إلى الله وإليك حالنا وبما قد داهمنا ونزل بنا لتغيثنا، لأنّه لا ملجأ لنا ولا منجى إلّا الله ورسوله، ثمّ سيّدنا المنصور بالله»²⁹¹. وقد ذهب الأستاذ المتّوني إلى أنّ «تلخيص ما عليه المعولّ في أخبار منّ بالمغرب من الدول» لمؤلفه بّناي بن محمّد بن أحمد المراكشي من المؤلّفين القلائل الذين أشاروا لاستنجد سكان مالي بالسلطان الحسن الأوّل لما دهمهم الغزو الفرنسي عام 1894/1311. ومّا قال: «فوردت على حضرت هـ [مولاي الحسن] ها مكاتب أهل تمبكتو وما جاورها من بلاد السودان، باستغاثتهم على الفرنسيّين الذي أراد الاستيلاء على بلادهم، فكتب لعلماء فاس..»، ممّا سوف تقف عليه وشيكا²⁹².

وعلى الرغم من أنّ مبتغى الرّسالتين، كان دون تحقيقه خرط القتاد، لأنّ المغرب بدوره كان يجتاز ظروفًا عصيبة، بسبب التكالّب الأوربيّ، فإنّ فحواهما دليل قويّ على وثاقة العلاقات بين المغرب وبلدان أفريقيا الغربيّة.

²⁹¹ بهيجة الشاذلي: تمبكتو: تطوّرها التاريخي وعلاقتها بالمغرب، مقال ضمن «كتاب المغرب وأفريقيا» حصيلة وآفاق، أعمال مجموعة البحث حول المغرب وأفريقيا، مطبوعات كلية — عين الشقّ، الدار البيضاء، 2012، ص. 98 - 112.

²⁹² محمّد المتّوني: المصادر العربيّة لتاريخ المغرب، المحاضرة التاسعة عشرة، مجلّة كلية الآداب، الرباط، العدد 13، 1987، ص. 221. وهو نفسه: العلاقات المغربية الأفريقيّة، مجلّة كليّة الآداب، الرباط، م. س. ص. 38 - 39.

ومع ذلك فإنّ السلطان مولاي الحسن ظلّ متهمّاً بأمر ما كان يثور ببلاد السودان، لأنّه يقدر بيعاتهم التي في عنقه²⁹³، فوجّه رسالة بتاريخ 15 شعبان 1311/1894 إلى ثلاثة قضاة من فاس، وبطيّها «مكاتب أربعة وردت من عند كبراء السودان وتمبكتو...تضمّنت الإعلام بما دهمهم من صدمة العدو، وطلب الاستغاثة في إنقاذهم والدفاع عن بلادهم وأولادهم. فنأمركم أن تحضروا أنتم وعلماء فاس المحروسة عليها، وتتأملوا فيها بالإمعان والتدبّر، وما اقتضاه الشرع والطبع والمصلحة في ذلك أجيئوا به، وادفعوا الجواب لمولاي عمر ليوجّهه على يده»²⁹⁴.

ولم يفتأ قضاة فاس وعلماءها أن أصدروا أربعة عشر جواباً وجّهوها إلى السلطان، راعى معظمها واقع المغرب المتردّي، وبعد الشقة بين المغرب وبلاد السودان؛ فاستنكف معظمهم عن الفتوى بالتدخل العسكري، واكتفى بعضهم بالإشارة إلى التوسّط بطرق سلمية وسياسية.

- ومّا وثّق الصلات بين المغرب وبلاد السودان الغربي تنظيم ركب الحاج، وبخاصّة ركب شنكيط الذي كان كثيرٌ من أهل السودان ينخرطون فيه لأداء مناسك الحجّ. فكان هذا الركب يسلك الطريق الصحراوي الذي يسير محادياً للهوامش الواصلة بين الغابات المداريّة ومفازات الصحراء الكبرى، بدءاً من شنكيط.

²⁹³الحسن بن الطيّب بن اليماني بوعشرين: التنبيه المغرب عمّا عليه الآن حال المغرب، السفر الأوّل، تقديم وتصحيح محمّد المتّوني، الرباط 1415/ 1994، يقول: «فعند أواخر عمره وصلته البيعة من السودان، ورد عليه بها بعض أهل تنبكتو، واجتمع بهم بمراكش، ورأوه ورأهم، وكلموه وكلمهم، ورأيناهم نحن كذلك»، ص. 34. العلاقات المغربية الأفريقية، م. س. ص. 39.

²⁹⁴م. المتّوني: العلاقات المغربية الأفريقية، م. س. ص. 36.

وقد تلجئه ظروف الطقس، أو عدم أمن الطرق إلى اختيار مسالك الركاب المغربية، فكان بعضهم يصاحب الركب انطلاقاً من تافيلالت، وكان البعض الآخر يتجشّم المشقة ليلتحق بالركب الرسمي، انطلاقاً من فاس²⁹⁵.

وهذا قبل أن يستبدّ الركب البحري بنقل الحجاج، منذ مستهل القرن التاسع عشر، و«ينسخ سائر ركاب المغرب» البرية، ليحلّ محلّها²⁹⁶، حيث صار الحجاج يفضلون الطريق البحري. فكان حجاج بلاد السودان يسافرون إلى الحجّ، عبر بلدان الشمال الأفريقي، فينضمّ عددٌ منهم إلى الركب المغربي البحري انطلاقاً من مدينة فاس، ليبحروا من طنجة.

وفي الختام: فهذه بعض آثار نفي أحمد بابا التمبكتي إلى مراكش، قصرنا الحديث فيها عن جوانب من التواصل العلمي والسياسي والمعنوي، وهي قميّة بأن نتوقّف عندها، لاسيّما وأنّ خزانات الكتب المغربية لا تزال تحتجّن من آثاره العلميّة إثنتين وثلاثين عنواناً، في مائة نسخة²⁹⁷، وأنّ صدّى البيعات ورسائل الاستغاثة المتبادلة بين أعيان هذه البلاد وسلاطين وعلماء المغرب لا تزال المستندات الوفيرة ترجّعه، حتّى يوم الناس هذا.

²⁹⁵ وبخاصّة الركب المراكشي والركب السجلماسي، زمن السعديّين، والركب الناصري فيما بعد. العياشي: الرحلة، الناصري، أحمد ابن ناصر: الرحلة، ابن عبد السلام: الرحلة الكبرى. وقد كان حجاج السودان يعانون كثيراً في أثناء الطريق، حتّى كان الحاجّ العائد بسلام من الحجّ كأنّما ولد من جديد. ويبدو أنّ ابن عبد السلام كأنّما كان ينصح الحاجّ بالسفر بجرا، نظراً للمشاق التي كانت الركاب تتعرّض إلى في الطريق، مثل كثرة المضاريّف، والسرقة وعدوى الأوبئة وطول مدّة السفر. الرحلة الصغرى له على وجه الخصوص.

²⁹⁶ العبارة لأستاذنا سيدي محمّد المتّوني رحمه الله. من حديث الركب المغربي. تطوان 1953. ص. 41. وقد أصبح الركب المغربي البرّي متعذّراً بعد احتلال فرنسا لبلاد المغرب الأوسط. م. المنصور وف. الحزّاق: مصلح فولاني في بلاد المغرب، نصيحة أحمد ابن القاضي التنبكي إلى أولي الأمر بتونس والمغرب، معهد الدراسات الأفريقيّة، الرباط، 2000، ص. 17 - 18.

²⁹⁷ تتبّعنا مصنفات أحمد باب المخطوطة الموزعة على الخزانات المغربية فوجدنا في خزانة تامكروت 22 وفي

الخزانة الحسنيّة 20 وفي الخزانة الوطنيّة بالرباط 21 وفي الخزانة الصبيحيّة بسلا 06 وفي مؤسسة علاّ الفاسي

بالرباط 04 وفي خزانة إبراهيم الكتّاني 02 وفي خزانة عبد الله كُتُون بطنجة 01.

كما أنّ الحركات الإصلاحية التي بلغ صداها إلى بلاد المغرب، وبخاصّة بعد حملة نابوليون على مصر، لم تكن مجهولة لدى أهل السودان. فقد ذكرنا نماذج من المراسلات المتبادلة بين سلاطين المغرب وأهل السودان. ومن هؤلاء من تقدّم ناصحا لبعض أولي الأمر؛ وكمثال على ذلك نصيحة أحمد ابن القاضي التمبكتي إلى أولي الأمر بتونس والمغرب؛ وهي تستحقّ وقفة؛ لكنّ الوقت لا يسمح²⁹⁸.

ولعلّ أبرز آثار محنة أحمد بابا تتجلى في فتح أبواب البلدين أمام التنقّلات البشرية من الجهتين، فكما وفد عددٌ من السودانيين إلى المغرب، واستقروا بفاس ومراكش، فقد رحل كثير من المغاربة إلى تمبكتو، ومنهم من أقام بها²⁹⁹، مثل بعض التجّار والعلماء والمتصوّفة، حتّى ارتبط بعضهم بالسكان المحليين عن طريق المصاهرة.

وذكر القنصل جيمس غراي جاكسون أنّ «نحو عشرة آلاف من أهل فاس ومراكش»؛ أي ربع سكّان تمبكتو، يقصدونها للتجارة³⁰⁰ ولا شكّ في أنّ هؤلاء المغاربة قد نقلوا بعض عاداتهم وتقاليدهم إلى تلك البلاد، في ميادين اللباس والغذاء والتديّن وغيرها. بل أنّ اللسان المغربي الدارج قد احترق الأدبيات السودانية العربية. ولنتمعن، مثلا، في لغة كتاب «تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان» للمجهول³⁰¹.

²⁹⁸ م. المنصور وف. الحرّاق: مصلح فولاني في بلاد المغرب، م. س. ن.

²⁹⁹ علمنا من المقدّمة التي صدر بها محمّد عبد الغني تعريه لرحلة الحاج عبد السلام الشيباني أنّ هذا الرحالة قد مكث هو ووالده، وكنا تاجرين، في كلّ من تمبكتو والهوسا حوالي خمس سنوات. من فاس إلى تمبكتو. ص. 10 - 11.

³⁰⁰ من فاس إلى تمبكتو: رحلة الحاج عبد السلام الشيباني إلى تمبكتو، أملاها الحاج عبد السلام الشيباني، حرّرها بالإنجليزية جيمس غراي جاكسون، ترجمها محمّد عبد الغني، إرث للنشر والترجمة، 1442/ 2020، ص. 31.

³⁰¹ مجهول: تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان، زليخة بنرمضان، دار أبي رقرق، الرباط، ص. على سبيل المثال: 13 و 55 - 56 و 97 و 98 و 113 و 123 و 124 و 128 و 132 - 133 و 136 - 137 ...

وحمل السودانيون من جهتهم، إلى المدن الكبرى، كمراكش وفاس وتارودانت، بعض تقاليدهم وأعرافهم التي استمرت مصاحبة لهم طوال وجودهم في بلاد المغرب، كما تجلّى ذلك في جانب من التراث اللامادي، مثل أهازيج الدقة في كلّ من مراكش وتارودانت وكناوة في الصويرة، وانتقال عشبة التبغ وتعاطي التدخين.

علاوة على أنّ اتّخاذ جند من السودان كان سببا في نقل عدد كبير منهم إلى بلاد المغرب، ولاسيّما في عهد السعديين والعلويين. وبذلك ارتقى عدد منهم إلى مصافّ رجال الدولة، في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر: أسرة باحماد مثلا. وأصبحت فئة السودان تحظى بتقدير معيّن في المجتمع؛ فأطلق الناس على العبد لقب الوصيف، والأمة الوصيفة، واتخذوا منهم أمناء السرّ والمريّات (قضيّة الدادة)؛ بل إنّ كثيرا من المغاربة ارتبطوا بالزواج مع نساء سودانيّات³⁰²، ممّا يدل على نوع من الاندماج في المجتمع. ولذلك فلا نستغرب إذا رأينا كثيرا من المغاربة سود البشرة، وبخاصّة في المدن الكبرى³⁰³.

وهكذا فإذا كانت الاعتبارات السياسيّة قد أملت امتحان الشيخ أحمد بابا، فإنّ السلطات السعديّة، في المقابل، رفعت من شأنه العلمي، حين أتاح له من الوسائل، ما لم يكن متيسّرا له ببلده الأصلي، فتفرّغ للتأليف وتصدّر للتدريس والفتوى.. وهذا ما جعل أكثر من باحث يردّد بحقّ هذه المقالة: «[وفي] أيّام إقامته بالمغرب أنتج جلّ مؤلّفاته، ممّا يدلّ على مدى التكامل الثقافي بين المغرب وأفريقيا الغربيّة»³⁰⁴.

³⁰². رحلة عبد السلام الشباني، م. س. ن. قال المؤلّف: «وكّل الأجانب تقريبا يتزوّجون من نساء المدينة [تمبكتو]، اللاتي يجتّهنّ المسافرون من النظرة الأولى لفرط جمالهنّ».

³⁰³. من فاس إلى تمبكتو، م. س. ن.

³⁰⁴. جون هنريك: العلاقات الفكرية بين المغرب وأفريقيا، ص. 44 - 45.

وأخيرا لا يفوتنا أن نشير إلى أنّ أحمد بابا، رغم تكرار حديثه عن محتته، فقد اعترف بفضل المغرب عليه، حين قال: «بوصولي إلى منبع العلم في الديار المغربية، حضرة الإمامة العلية والمولوية الهاشمية الأحمدية المنصورية.. بادرت إلى كتب ذلك الذيل³⁰⁵.. أهديته، وإن كنت في صنعي، كجالب تمر إلى هجر..».

وما إقدامه على إهداء نسخ من مؤلفاته إلى السلطان أحمد المنصور إلّا أحد الأدلة على أنّه لقي من القبول في المغرب ما لا مزيد عليه، وأنّ أثر نفيه الإيجابي إلى مراكش لم يمحُ الزمن الطويل، لأنّ جذور الصلات بين المغرب وبلاد السودان كانت أعمق من أن تجتثها تلك الحادثة العابرة.

³⁰⁵ يقصد كتابه «نيل الابتهاج بتطريز الديباج»، الذي ذيل به «الديباج المذهب في معرفة علماء المذهب» لابن فرحون. م. س.

أحمد بابا: إسهام استثنائي في الصلات الحضارية بين السودان الغربي وبلاد المغرب

الدكتور سعد الدين العثماني
رئيس الحكومة المغربية سابقا، ورئيس مركز الدكتور عبد الكريم
الخطيب للبحوث والدراسات

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى.

إن الكتابة في موضوع دور أحمد بابا التمبكتي في التفاعل الحضاري بين
السودان الغربي وبلاد المغرب ليست سهلة ولا ميسورة، وذلك لغزارة ما
كتب سواء حول العلاقات الغنية والممتدة بين السودان الغربي وبلاد المغرب،
أو حول شخصية أحمد بابا التمبكتي.

ونهدف في هذا العرض إلى إبراز أن إسهام أحمد بابا في العلاقات الحضارية
بين ضفتي الصحراء، استثنائية، وشكل إضافة نوعية وتحولا إيجابيا فيها.

أولا : تهافت الأطروحة الاستعمارية: الإسلام الأسود

لقد أحسنت منظمة الإيسيسكو باختيار موضوع الصلات الحضارية بين
غرب إفريقيا وشمالها، لأن الأطروحة الاستعمارية كانت منذ برزت الأطماع
الاستعمارية في المنطقة تعمل على الفصل بين إسلام شمال منطقة الصحراء
وإسلام جنوبها. وأبدعوا لذلك مصطلح «الإسلام الأسود».

وكان أول ظهور لهذا المفهوم على الراجح في كتابات ألفريد لو شاتيليه³⁰⁶ عام 1899، فأشار في كتاب له سنة 1888م إلى الانقسام العقائدي بين إسلام أسوي وإسلام إفريقي³⁰⁷. ثم استخدم بشكل متكرر عبارة الإسلام السوداني سنة 1899م في كتابه «الإسلام في أفريقيا الغربية»³⁰⁸. ثم عنون الفصل الأخير من كتابه: «مستقبل الإسلام السوداني»، ولخص فيه أفكاره حول ما يسمى «السياسة الإسلامية للسلطات الاستعمارية الفرنسية».

ثم استعمل المصطلح سنة 1910 من قبل آلان كيليان، وهو موظف مدني في وزارة المستعمرات الفرنسية، وأعطاه لوناً عنصرياً صريحاً، يقول: «يتمتع الإسلام السوداني بميزة فقدان تعصبه مع تزايد اللون الأسود؛ لا يستمر التعصب إلا بين هؤلاء السود المختلطين نتيجة لاتحاد العرب والفلولاني»³⁰⁹. ويعتبر كتاب كيليان هو أول نص يشرح السياسة الفرنسية بأفريقيا الغربية في الفترة الاستعمارية تجاه الإسلام والمسلمين. وارتبطت نظرية الإسلام الأسود بالتسلسل الهرمي للحضارات في تصور الدراسات الاستعمارية، والتي تصنف السود في أدنى الترتيب، كما تصنف المسلمين السود فوق الوثنيين السود.

وتهدف نظرية «الإسلام الأسود» إلى قطع إسلام جنوب الصحراء الكبرى عن باقي الدول الإسلامية، وخصوصاً منها الدول العربية ودول شمال إفريقيا.

³⁰⁶. ضابط فرنسي اشتغل بالدراسات الاجتماعية في «كوليج دو فرانس»، توفي سنة 1929م.

³⁰⁷. L'Islam au XIXe siècle, p 184.

³⁰⁸. L'Islam dans l'Afrique Occidentale, p 13, 139, 144, 279, 299, 316.

³⁰⁹. La politique musulmane dans l'Afrique occidentale française, p 172.

وتبني الأطروحة الاستعمارية على أمرين بالخصوص:

أولا : كون ذوي البشرة السوداء أقل ذكاء من ذوي البشرة البيضاء. فيصف ألفريد لوشاتولي A. LE CHATELIER الزواج بأن «تطورهم الفكري والاجتماعي متدن جدا» مقارنة مع شعوب «يهودا واليونان وإيطاليا والغال وشمال إفريقيا. ويعزو إقبال الوثنيين الأفارقة على الإسلام إلى «ذكائهم المحدود»³¹⁰ مع اعترافه ببساطة الإسلام وسهولة فهمه مقارنة بالمسيحية.

ثانيا : كون الإسلام في جنوب الصحراء مختلفا عن الإسلام في شمالها، لأنه متلبس بمعتقدات وممارسات دينية، لها بنية تحتية ذات أصل إحيائي، يعتقد بأن كل كائن توجد به أرواح بما فيه الجمادات والنباتات والظواهر الطبيعية. يقول ألان كليان: «الإسلام السوداني (...) ما هو إلا إسلام سطحي، إسلام الواجهة، الممارسات الوثنية تخترقه بقوة أكثر من الأحكام الإسلامية الصارمة، السود يعرفون فقط قول السلام، ويجهلون الباقي»³¹¹.

وأوصت الوثيقة المسماة : «السياسة الإسلامية في إفريقيا الغربية الفرنسية» بإبعاد «الإسلام الأسود» عن تأثيرات باقي العالم الإسلامي، حتى يقبل بالاستعمار الفرنسي. وهي تأثيرات يصفونها بأنها «معادية للحضارة ومعادية لفرنسا»³¹².

³¹⁰. L'Islam dans l'Afrique Occidentale, p 351.

³¹¹. Ibid, p 172 et 174.

³¹². Ibid, p 174.

وفي مواجهة تلك الأطروحة العنصرية والانقسامية، توالى الجهد الفكري والعلمي الذي يربط أمة الإسلام بعضها ببعض، ويبنى ثقافية مشتركة على ضفتي الصحراء. وتناول موضوع العلاقات الحضارية بين السودان الغربية وبلاد المغرب هو رد قوي على هذه الأطروحة الاستعمارية. كما أن سيرة أحمد بابا التمبكتي والعمل العلمي الذي أنجزه، لهُو رد عملي عليها، وتقنيد لتشويهات السلطات الاستعمارية لإسلام هذه الشعوب التي دخلت الإسلام وأحبته وبشرت به وأسهمت في نشره. وهذا ما يظهر جليا في التمعن في إنتاج هذا العالم الاستثنائي.

ثانيا : أحمد بابا شخصية استثنائية في العلاقات السودانية المغربية

تستمد شخصية أحمد بابا استثنائيتها من مستويات مختلفة تجمعت فأنتجت عبقرية خاصة. ونحمل تلك المستويات فيما يلي.

1. سياق عام: التفاعل المغربي السوداني متجذر ومستمر

يقصد المؤرخون عادة بالسودان الغربي المنطقة التي تحدها من الشمال الصحراء الكبرى، ومن الجنوب الغابات الاستوائية، ومن الشرق منحني نهر النيجر، ومن الغرب المحيط الأطلسي.

والتفاعل الحضاري بين بلاد المغرب وبلاد السودان الغربي، تفاعل قديم، وهو أيضا تفاعل قوي ومتنوع ومستمر عبر التاريخ. فالصلات التجارية والثقافية بين هذه المناطق عبر الصحراء وجدت منذ وجد الإنسان³¹³.

³¹³. دراسات في تاريخ شرق إفريقيا وجنوب الصحراء، ص 322

وتعززت بعد دخول الإسلام إلى شمال إفريقيا، ثم إلى غربها. وهو الدخول الذي بدأ بالهجرات من شمال الصحراء لأسباب مختلفة، والاستقرار في المناطق الشاسعة للسودان الأوسط والغربي³¹⁴.

وتميز دخول شعوب السودان إلى الإسلام بميزات ذات أبعاد حضارية واضحة، وخصوصاً³¹⁵:

أ. الطريقة السلمية التي وقع بها التحول نحو الإسلام، فأوائل الذين أوصلوا الإسلام لشعوب المنطقة هم التجار والدعاة من الفقهاء وقراء القرآن والمرين والصوفية،

ب. عملية التحول كانت متدرجة سلسلة في الغالب الأعم، وهو ما يتميز به الإسلام من بين الأديان الأخرى،

ت. مراعاة خصوصية الشعوب الإفريقية، والحفاظ على الهوية الإفريقية الزنجية فيما لا يخالف ثوابت الدين الإسلامي. لذلك فإن اللغات الإفريقية بقيت حاضرة محترمة، إلى جانب اللغة العربية لغة القرآن والدين.

وهكذا استقطبت الحواضر الناشئة في مختلف مناطق السودان الغربي علماء وقراء ودعاة من مناطق مختلفة من العالم الإسلامي، وخصوصاً من بلاد المغرب. كما تولى عدد من أولئك العلماء الإمامة والخطابة والفتوى والقضاء في تلك الحواضر. وتسلسلت فيها على مدى قرون أسر علمية عريقة مثل أسرة أقيت التي من أبنائها المشهورين العلامة أحمد بابا التمبكتي.

314. نفسه، ص 210 و 244

315. أطال كثير من الكتاب الغربيين في الفترة الاستعمارية في تعداد الأسباب التي أدت إلى إقبال الأفارقة على الإسلام وتشبههم به: انظر مثلاً:

وأدى هذا الاختلاط السكاني إلى ولادة ثقافة مخضرمة، يمكن وصفها بـ«الثقافة الزنجية العربية الأمازيغية»³¹⁶.

وبالمقابل وفد على المراكز العلمية المغربية مثل فاس ومراكش علماء وطلبة من السودان الغربي، يتعلمون ويعلمون³¹⁷.

وهذا التأثير وقف عنده المؤرخون كثيرا. فالقلقشندي (ت 821هـ) عند حديثه عن مملكة مالي في القرن الثامن الهجري: يقول بأن «كتابتهم على طريقة المغاربة»³¹⁸. كما أشار إلى أنهم في تقاليدهم في حياتهم اليومية مثل المغاربة. فهم «يتشبهون بأهل الغرب» و«لبسهم شبيه بلبس المغاربة: جلباب ودراريع بلا تفريج»³¹⁹.

وعندما يتحدث المؤرخ عبد الرحمان السعدي (ت بعد 1065هـ / 1655م) عن تطور العمارة في تمبكتو، أكد بأنها لم تأت «إلا من المغرب لا في الديانات ولا في المعاملات»³²⁰.

كما كانت طرق التدريس ومناهجه في مدارس ومساجد السودان الغربي شبيهة بما هو موجود في مدارس ومساجد المغرب.

والمصنفات المتداولة هي في أغلبها ما هو متداول في مدارس العلم المغربية، وخصوصا كتب المالكية، وكتب المغاربة منهم بالخصوص. فتجدهم يدرسون الشفا للقاضي عياض وكتب سحنون وشروح ابن القاسم ومختصر خليل وكتاب الونشريسي، وتحفة الحكام. فهذه كتب المغاربة أو كتب يعتني بها المغاربة أكثر، وتدرس في مدارسهم³²¹.

³¹⁶ قارن ب: زوليخة بزمضان، ص 287 - 288.

³¹⁷ انظر أمثلة منهم في: تاريخ السودان، ص 39، 51، 57، 322 وفتح الشكور، ص 176.

³¹⁸ صبح الأعشى، 5/ 298.

³¹⁹ نفسه، 5/ 299.

³²⁰ تاريخ السودان، ص 21.

³²¹ أغلب هذه المصنفات هي الأكثر تواترا في: فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، انظر فيه: فهرس الكتب، ص 277 وما بعدها. وانظر: تاريخ السودان، ص 29، 37، 38، 40، 43، 45، 46.

هذا التمازج الممتد يشكل أرضية مواتية لبروز علماء ومفكرين مثل أحمد بابا يشكلون صلة وصل بين ضفتي الصحراء.

2. سياق خاص: التألق العلمي لمدينة تمبكتو

في هذا السياق العام، تأسست مدينة تمبكتو حوالي 1100م، وكان أبناؤها يفخرون بكونها مدينة إسلامية منذ تأسيسها، كما يقول عنها المؤرخ عبد الرحمان السعدي: «مسقط رأسي وبغية نفسي، ما دنستها عبادة أوثان ولا سجد على أديمها قط لغير الرحمان، مأوى العلماء والعابدين، ومألف الأولياء والزاهدين، وملتقى الفلك والسيار»، ثم سرعان ما أضحت مركزا تجاريا، ثم مركزا ثقافيا. يقول السعدي: «سكن فيها الأخيار من العلماء والصالحين وذوي الأموال من كل قبيلة ومن كل بلد من أهل مصر ووجل وفزان وغدامس وتوات ودرعة وتفلالت وفاس وسوس وبيط إلى غير ذلك»³²². وتطورت تدريجيا لتعرف في القرن السادس عشر الميلادي، مستويات علمية وثقافية وحضارية متقدمة، تستمتع بعصر ذهبي، وتصبح مركز إشعاع علمي وفكري في السودان الغربي³²³.

ونقرأ في تاريخ الفتاش: «فتمبكتو يومئذ لا نظير لها في البلدان من بلاد السودان إلى أقصى بلاد المغرب من بلاد مل، مروءة وحرية وتعففا وصيانة وحفظ العرض ورأفة ورحمة بالمساكين والغرباء، وتلطفا بطلبة العلم وإعانتهم»³²⁴.

³²² تاريخ السودان، ص 20 - 21

³²³ انظر تفصيل مكانة تمبكتو هذه: الحركة العلمية والثقافية والإصلاحية في السودان الغربي، ص 52 - 65.

³²⁴ تاريخ الفتاش (1913)، ص 179.

وكان علماؤها يتمتعون بمكانة محترمة، فقد كانت جامعة سانكوري، في هذه الفترة، العاصمة التعليمية لغرب أفريقيا. استقطبت آلاف الطلاب من جميع أنحاء، ونشرت العلوم والثقافة الإسلامية بين سكانه. كما أصبحت قبلة للعلماء الوافدين من المراكز العلمية بمختلف المناطق الإسلامية، وجلسوا للتدريس بمدارسها. وقد ذكر محمد الكعت التمبكتي أن مدارس تعليم القرآن للصبيان بلغ عددها مئة وخمسين إلى مئة وثمانين مدرسة حتى نهاية القرن العاشر الهجري³²⁵.

وكانت لتمبكتو صلات علمية قوية بالحوضر العلمية في بلاد المغرب مثل مراكش وفاس وسجلماسة، وكان علماء المغرب دائي الرحلة إلى تمبكتو، كما كان علماء المدينة كثيراً ما يقيمون بمراكش أو فاس يعلمون ويتعلمون، وقد أورد السعدي باباً مطولاً عن العلماء والصلحاء الذين سكنوا مدينة تمبكتو، وخدموا العلم والمعارف بها.

ويمثل علماء المغرب العنصر الأساسي والغالب في هذه الحركة العلمية، فما فتى علماء المغرب يقصدون تمبكت، إما للإقامة بها نهائياً أو مؤقتاً، ولا تزال سلالة بعضهم ساكنة في بعض مدن السودان كتتمبكتو وجني إلى يومنا هذا³²⁶.

كما أن المستكشف الفرنسي فيليكس دوبوا (ت 1945م) صاحب كتاب «تمبكتو الغامضة»، لا يخفي إعجابه الشديد - على غرار عدد من المؤرخين والمستكشفين الغربيين - بالمكانة الفكرية لتمبكتو إلى حدود القرن السادس عشر الميلادي، ويقدم لنا الوصف التالي لهذه الفترة: «كانت المدينة المركز الديني والعلمي والأدبي لحوض نهر النيجر، كانت العقل المفكر للسودان»، ثم يقول: «لم تكن تمبكتو فقط أعظم مركز فكري في السودان، أي لدى الزنوج، بل كانت أيضاً أحد المراكز العلمية الكبرى في الإسلام كله. وكانت جامعتها الشقيقة الصغرى لجامعات القاهرة وقرطبة وفاس ودمشق»³²⁷.

³²⁵. تاريخ الفتاش (1913)، ص 180

³²⁶. الحركة الفقهية ورجالها في السودان الغربي من القرن 8 إلى القرن 13 الهجري، ص 7

³²⁷. Tombouctou la Mystérieuse, p 314.

في هذا العصر الذهبي وفي هذا الجو العلمي والحضاري المتميز نشأ أحمد بابا وتعلم، ثم على كعبه في التدريس وإنتاج المعرفة.

3. سياق أخص: تميز أسرة أقيت التمبكتية

ينتسب أحمد بابا إلى أسرة آل أقيت الشهيرة بالعلم والصلاح في السودان بعامة وفي تمبكتو على وجه الخصوص. وقد توطنوا تمبكتو، بعد نزوحهم من بيرو (ولادة حاليا). وهي أسرة توارث فيها العلم والصلاح طويلا، وتولى عدد من أبنائها خططي الإمامة والقضاء، وأسهموا بفعالية في البناء الحضاري لتمبكتو وللسودان الغربي عامة. يقول المؤرخ أحمد بن خالد الناصري بأن «لهم الواجهة الكبيرة والرياسة الشهيرة في بلاد السودان ديناً ودنيا، بحيث تعددت فيهم العلماء والأئمة والقضاة وتوارثوا رئاسة العلم مدة طويلة تقرب من مئتي سنة»³²⁸.

وبذلك كانت أسرة أقيت أهم وأشهر الأسر التمبكتية قاطبة، بالنظر للعدد الكبير من الأئمة والقضاة المنحدرين منها، وخصوصا خلال القرن العاشر الهجري (16م)³²⁹.

ونجد ابن تمبكتو محمد كعت في تاريخه يصف حال المدينة بعد إجلاء آل أقيت إلى مراکش بأنها صارت «جسما بلا روح، وانعكس أمورهما، وتغير حالها، وتبدل عوائدها، ورجع أسفلها أعلاها وأعلاها أسفلها، وساد أرذالها على عظمائها، وباعوا الدين بالدنيا³³⁰...». قد يكون في كلام هذا المؤرخ بعض المبالغة بسبب الصدمة التي أحدثتها نفى كم مهم من العلماء عن المدينة، لكنه يعكس تلك المكانة المتميزة لأسرة أقيت بين أهلها.

³²⁸ الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى، 5/ 129، أما القول بتوارث العلم فيهم لخمسة سنة والذي حكاه القادري في نشر المثاني، 1/ 275، ونقله عنه كثيرون، فلا دليل عليه، وهو يخالف قول أحمد بابا نفسه بأن أول من خدم العلم من أجداده - فيما يعلم - جد جده لأمه الفقيه محمود أندغمحمد الذي تولى القضاء في أواسط القرن التاسع، انظر: كفاية المحتاج، 2/ 281.

³²⁹ المجتمع والدين والسلطة في إفريقيا الغربية ما بين القرنين 5 و9هـ/ 11 و16م، ص 287 - 288.

³³⁰ تاريخ الفتاش (1913)، 175.

في هذا الجو المملوء: علما ووجاهة وأدبا نشأ أحمد بابا، واستفاد من أسرته وأقاربه سواء من جهة الأب أو من جهة الأم. وقد كان أول من أخذ عنهم العلم: أبوه أحمد بن الحاج أحمد بن عمر بن محمد أقيت (ت 991هـ)³³¹، وعمه أبو بكر بن أحمد بن عمر أقيت³³²، قبل أن يأخذه عن شيوخ تمبكتو الآخرين، وخصوصا عن العلامة محمد محمود الونكمري التمبكتي المعروف ب: بغيغ (ت 1002هـ)³³³.

4. شخصية أحمد بابا التمبكتي: علم وذكاء وإبداع³³⁴

إن استثنائية شخصية أحمد بابا في سياقنا المرتبط بالعلاقات السودانية المغربية تنبؤا مكانة خاصة، بالنظر لجوانب العبقرية التي يتمتع بها، مما جعله يتجاوز الصعاب والضغوط التي عاشها. فلا السفر الإجباري المتعب مقيدا إلى مراكش، ولا الثقاف أو الإقامة الإجبارية لستين، ولا الحجز في مراكش لاثنتي عشرة سنة أخرى، منعه من أن ينتج ويعلم ويفيد، ويبدع في كل ذلك. وهذا يجعلنا ندرك أننا لسنا أمام شخصية عادية، بل أمام شخصية استثنائية.

وُلد أحمد بابا في قرية قريبة من تمبكتو ليلة الأحد الحادي والعشرين من ذي الحجة (963 هـ / 1556م)، وتلقى العلم بداية عن والده، ثم درس على شيوخه وبرع في علوم التفسير والحديث، والفقه والأصول، وعلوم العربية والبيان، والتصوف، والمنطق وغيرها من العلوم الرائجة في ذلك العصر³³⁵.

³³¹. ترجمته في: نيل الابتهاج، ص 141، فتح الشكور، 29 - 30.

³³². ترجمته في: نيل الابتهاج، ص 151.

³³³. ترجمته في: نيل الابتهاج، ص 600 - 603.

³³⁴. عرف بنفسه في: كفاية المحتاج، 2/ 281 - 285، وورد التعريف به في: نشر المغانبي، 1/ 271 - 276، روضة الآس، ص 303 - 315، خلاصة الأثر، 1/ 170، صفوة من انتشر، ص 114، تاريخ السودان، 35، 218، 244، الفوائد الجملة، ص 133 - 136. وانظر كذلك: معلمة المغرب، 1/ 165 - 169.

³³⁵. أحمد بابا: كفاية المحتاج، 2/ 281 وما بعدها.

وفي محرم من عام 1002هـ، أُلقي عليه القبض مع أفراد من عائلته - وهو في التاسعة والثلاثين من عمره - وحملوا إلى مراكش بأمر من أحمد المنصور الذهبي، فوصلها في رمضان 1002هـ / ماي 1594م. حيث مكث «في حكم التقاف» (وهو صنو الإقامة الإجبارية) لمدة سنتين. وأُفرج عنه في رمضان 1004هـ، على ألا يغادر مراكش.

فبقي يدرس وينشر العلم ويفتي حوالي اثني عشر سنة. وكان يتشوف لرؤية تمبكتو، ويسكب العبرات عند ذكرها، وله في ذلك شعر منشور. وبعد تولي مولاي زيدان الحكم أذن له في الرجوع إليها. فوصلها في جمادى الأولى 1016هـ / فبراير 1608م.

وبعد رجوعه إلى تمبكتو تفرغ للتدريس والتأليف، معتكفا للعبادة، ساعيا للخير والصلاح، فأخذ عنه كثيرون، منهم علماء وأدباء من المنطقة. وتوفي في شعبان 1036هـ / أبريل 1627م.

ومن عبقرية أحمد بابا أنه أسر شيوخه وتلامذته وقراءه عبر القرون فحظي بتقديرهم، وأجزلوا له الشاء. لذلك قال تلميذه وصاحبه محمد بن يعقوب الإيسى المراكشي (ت 1010هـ / 1601م) أنه لما سمح له بالخروج من «التقاف» «فرحت قلوب المؤمنين بذلك»³³⁶.

وقال عنه ابن يعقوب أيضا: «كان أخونا أحمد بابا من أهل العلم والفهم والإدراك التام والحسن، كامل الحظ من العلوم فقها وحديثا وعربية أصولا وتاريخا، مليح الاهتداء لمقاصد الناس (...) وكان من أوعية العلم»³³⁷.

336. كفاية المحتاج، 2 / 283.

337. نفسه، 2 / 282 - 284.

وقال عنه المؤرخ محمد بن الطيب القادري (ت 1187هـ / 1773م): «العالم الوحيد القدر، العلي الذكر، الذي يقل وجود مثله في الدهر»³³⁸.

وقال عنه تلميذه وصاحبه الحاج أحمد بن محمد فهدي التواتي: «عالم الدنيا ومعلمها، حامل لواء الأحاديث ومفهمها، رافع راية مذهب الإمام مالك ومقدمها، العالم العلامة المقبول، الفاضل، الفهامة»³³⁹.

أما أحمد المقرئ أحد علماء العصر السعدي (ت 1041هـ) فقد وصفه بـ: «الشيخ المؤلف الكبير، العالم، الطائر الصيت (...) له يد طولى في نوازل الفقه والتاريخ لا يجارى في ذلك، وكذا في علوم الحديث مع المشاركة التامة في غيره»³⁴⁰.

وقال عنه تلميذه عبد الرحمان السعدي (ت بعد 1065هـ / 1655م): «الفقيه، العلامة، فريد دهره ووحيد عصره، البارع في كل فن من فنون العلم... برع على جميع معاصريه وفاق عليهم جدا، ولا يناظر في العلم إلا أشياخه... في الغرب اشتهر أمره وانتشر ذكره، وسلم له علماء الأمصار في الفتوى»³⁴¹.

هذه عينة من تلك التحليلات التي تبين أنهم أجمعوا على أنه من أهل العلم والفهم والبراعة والإدراك، ولا يشذ أحد من معاصريه ومترجميه عن ذلك.

³³⁸. نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر، 2/ 304.

³³⁹. فتح الشكوك، م س، ص: 33.

³⁴⁰. روض الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراکش وفاس: 303 - 315.

³⁴¹. تاريخ السودان، ص 35، وانظر أيضا ص 218.

ثالثا : وسائل إسهام أحمد بابا في التواصل الحضاري بين الضفتين

امتد إشعاع العلامة أحمد بابا عبر أدوات ومجالات عدة، أغنت كلها التواصل العلمي والثقافي بين الضفتين. وهذه أهمها:

1. التدريس

درس أحمد بابا طيلة حياته العلمية عددا كبيرا من الطلبة، سواء في تمبكتو قبل رحيله إلى مراکش، أو في مراکش أثناء مقامه الإجماري فيها، أو بعد عودته إلى تمبكتو³⁴².

وهكذا جلس للتدريس في مرحلة الشباب، وشيوخه متوافرون بتمبكتو³⁴²، خصوصا أنه تفوق منذ تلك الفترة على جميع معاصريه، و«لا يناظر في العلم إلا أشياخه»³⁴³. وبقي في مجال التعليم والبحث في مدارس تمبكتو الى غاية 999هـ / 1590م.

وفي مراکش بمجرد ما سمح لأحمد بابا بالخروج من مكان إقامته، وبمجرد بدء إلقائه الدروس العلمية حتى ازدحم عليه طلبة العلم، بل وأقبل عليه شيوخ وقضاة. وهذا يدل على المستوى العالي للدروس التي يلقاها. وكان مشهد المرور من الإقامة الإجمارية إلى حلقات العلم (أو من السجن إلى الإقراء)، مشهدا مؤثرا وملهما، تعجب منه الكثيرون. فهذا معاصره أبو زيد عبد الرحمان التمنارتي (ت 1060هـ / 1650م) يقول: «ومن العجب أنه لما تصدر للإقراء بجامع الشرفاء بمراكش، ورد على مجلسه لسماع الحديث وأخذ الرواية عنه أكابر فضلاء مراکش وصدور العلماء»³⁴⁴.

³⁴². انظر مثالا لمن أخذ عنه في هذه الفترة: تاريخ السودان، ص 238.

³⁴³. تاريخ السودان، ص 35.

³⁴⁴. الفوائد الجمّة، ص 134.

كما قد وقف أحد الكتاب الغربيين أمام هذا المشهد منبهرًا ومندهشًا، إنه المستشرق الفرنسي أوغوست شاربونو (ت 1882م)، يقول: «ها هو هذا الزنجي، الذي غادر بالكاد الأسر الغامض، والذي اكتشف فيه حراسه خزانًا من المعرفة، محاط بمثقفي المدينة؛ يتضرعون ويتوسلون إليه أن يكشف عن علمه الثمين. يا لهيبة العلم! ومن السجن، يتم اصطحابه كما لو كان منتصرًا إلى جامع الشرفاء، وهو المسجد الرئيسي للمدينة، ويهرع حشد غير عادي من الطلبة المتميزين إلى دروسه»³⁴⁵.

لقد كان الإقبال كبيرًا فعلا، وكان من المقبلين على الاستفادة من تعليمه علماء وشيوخ وقضاة، حتى قال أحمد بابا عن نفسه: «وازدحم علي الخلق وأعيان طلبتها (أي طلبة مراکش) ولازموني، بل قرأ علي قضاتها»³⁴⁶.

وهذه لحظة توقف عندها مترجمو أحمد بابا كثيرا، وهم يصورون ذلك الازدحام عليه. فهذا محمد بن أحمد الحضيكي (ت 1189هـ / 1775م) يقول في تعريفه: «فلما سرح منه (أي من السجن) تصدر للتدريس وازدحم الناس عليه وتنافسوا في الأخذ عنه»³⁴⁷.

كما عبر عنها القادري بعبارات غاية في القوة، يقول: «وحمل عنه علم غزير، واستفيد بما عنده من التحقيق والتحرير، وقد اشتهر فيه اشتهار أهله، وتحققت فيه مكانة قدره وفضله»³⁴⁸.

³⁴⁵. Un instituteur nègre à Tombouctou, p. 287 – 276.

³⁴⁶. كفاية المحتاج، ص 284.

³⁴⁷. طبقات الحضيكي، 1 / 45.

³⁴⁸. نشر الثاني 1 / 274.

وقد يتساءل الباحث عن هذا الإقبال الكبير على دروس أحمد بابا بمراكش، هل هو ناتج عن غزارة المادة العلمية التي يقدمها وتمكنه منها؟ أم عن عنصر الجودة في مضامينها؟ أم عن طريقة الإلقاء والعرض؟ ليس عرضنا هذا مجالا للإجابة عن هذه الأسئلة، لكن المهم أن هذا التدريس تميز بأمور ذات أهمية بالغة، منها:

أ . أن أحمد بابا طلب منه التدريس، فأبى في البداية، ثم قبل بعد الإلحاح عليه، يقول هو نفسه: «ولما خرجنا من المحنة طلبوا مني الإقراء، فجلست بعد الإيابة بجامع الشرفاء بمراكش»،

ب . أن أحمد بابا نال شرف التدريس بأهم مساجد مراكش في عهد السعديين، وهو مسجد الشرفاء³⁴⁹،

ج . أن أحمد بابا - الذي جاء من السودان الغربي - قد لقي إقبالا منقطع النظير في عاصمة بلاد المغرب السياسية والعلمية، ونفع الله به علماء من مراكش ومن مناطق أخرى من المغرب ومن خارجه، وساهم بذلك في ازدهار الثقافة الإسلامية بالمغرب. يقول محمد بن الطيب القادري: «ونفع الله به هذا القطر المغربي، وحمل منه علم غزير، واستفيد ما عنده من التحقيق والتقرير، وقد اشتهر فيه اشتهار أهله، وتحققت فيه مكانة أهله وقدره»³⁵⁰.

د . أن الإقبال على دروس أحمد بابا كان من عليية القوم، حتى إن عدد العلماء والقضاة وكبار رجال الدولة في مجلسه لا يقل عن عدد الطلبة العاديين³⁵¹، وكان منهم من هو أسن منه، مثل قاضي مكناسة الرحالة المؤلف أبو العباس أحمد ابن أبي العافية الشهير بابن القاضي المزداد في 960هـ، والمتوفى سنة 1025هـ.

349. يسمى أيضا «جامع المواسين»، بناه السلطان عبد الله الغالب السعدي بين سنتي 970 و980هـ، ويوجد بالمدينة القديمة بمراكش، ومكتبته قرينة مكتبة جامع القرويين، ومنها كان أكثر استفادة أحمد بابا لتأليف كتبه، وخصوصا في تراجم فقهاء المالكية. انظر: الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، 1/ 185.

350. نشر المثاني، 275

351. الحركة الفكرية في عهد السعديين، 2/ 383

هـ. أن هذا التدريس أعطى لأحمد بابا صيتا وذكرنا حسنا، فاكتمت شهرته شمال إفريقيا إضافة إلى شهرته في السودان الغربي، يقول عن نفسه: «واشتهر اسمي في البلاد من سوس الأقصى إلى بجاية والجزائر وغيرها، وقد قال لي بعض طلبة الجزائر ممن قدم علينا إلى مراکش: لا نسمع في بلادنا إلا باسمك فقط»³⁵².

و. أن هذا الاندماج السريع لأحمد بابا في البيئة المراكشية بصفته مدرسا يأخذ عنه شيوخ العلم قبل طلبته، دليل على تمكنه من العلوم التي يدرسها من فقه وحديث نبوي ولغة وغيرها، ودليل على عبقريته التي تحددت الغربية والحننة بنجاح. وهي أيضا دليل على المستوى العلمي العالي في السودان الغربي، وفي مدينة تمبكتو على وجه الخصوص.

ز. بمراجعة المتون والمصنفات التي يعتمد عليها أحمد بابا في التدريس، نجد نفس المتون المعتمدة في بلاد المغرب، مما يدل على ذلك التمازج العلمي والتواصل الفكري بين ضفتي الصحراء. يقول أحمد بابا عن برنامج التعليمي: «أقرئ مختصر خليل قراءة بحث وتدقيق، ونقل وتوجيه وكذا تسهيل ابن مالك وألفية العراقي، فحتمت علي نحو عشر مرات، وتحفة الحكام لابن عاصم، وجمع الجوامع للسبكي، وحكم ابن عطاء الله، والجامع الصغير للجلال السيوطي قراءة تفهم مرارا والصحيحين سماعا علي وإسماعا مرارا ومختصرهما، وكذا الشفا والموطأ والمعجزات الكبرى للسيوطي، وشمائل الترمذي والاكتفاء لأبي الربيع الكلاعي وغيرها»³⁵³.

ح. يصعب تقصي كل من أخذ عن العلامة أحمد بابا، إلا أنه يمكن التأكيد على أنهم كانوا من الفضلاء: المغربي والمغاربي من جهة، والسوداني من جهة أخرى. ومنهم من أخذ عنه بتمبكتو قبل مجيئه مراکش، ثم

³⁵². كفاية المحتاج، 2/ 285

³⁵³. نفسه، 2/ 284.

حضر مجالسه بعد رجوعه منها، وذلك مثل ابن شيخه الذي لازمه كثيرا: المصطفي بن أحمد بن محمود بغيع (ت 1025هـ / 1616 م)، والذي تولى الإمامة والخطابة في تمبكتو إلى أن توفي. وقد قرأ عن أحمد بابا قبل ذهاب هذا الأخير إلى مراکش، ثم حضر مجالسه بعد عودته³⁵⁴.

إن مجمل هذه المقدمات، يضاف إليها نوعية القامات في العلم والفتوى والتأليف والتربية والقضاء الذين أخذوا عن أحمد بابا، يدل على الحجم الكبير للتأثير العلمي والفكري الذي طبع به المرحلة، وعلى دوره المهم في تمتين العلاقات العلمية والثقافية بين الفضاءين المغربي والسوداني.

2. الإجازة العلمية³⁵⁵

الإجازة في الثقافة الإسلامية هي إذن العالم أو الشيخ لتلميذ من تلاميذه برواية مسموعاته أو مؤلفاته. وقد اهتم بها العلماء وتسبقوا على نيلها وتحصيلها، وروايتها لمن يأتي بعده.

وهي وإن كانت وسيلة لنقل المعرفة بطريقة موثوقة، فإنها شكلت أيضا عبر التاريخ طريقة مهمة للتواصل العلمي والفكري.

وقد منح أحمد بابا العديد من الإجازات لعلماء وطلاب سودانيين ومغاربة، مما ساهم في توطيد العلاقات العلمية والثقافية بين الفضاءين. فهذه الإجازات لم تكن مجرد شهادات علمية تحمل الإذن بالرواية عن الشيخ، بل كانت أيضا تعبيرًا عن معاني الأخوة والمودة، وعن روابط ثقافية وعلمية وتربوية متينة بين العلماء.

³⁵⁴ تاريخ السودان، ص 238 - 239

³⁵⁵ فصل في الموضوع: عبد الرحمان محمد ميغا: الإجازة العلمية ودورها في التواصل العلمي بين علماء المغرب والسودان الغربي، إجازات أحمد بابا التمبكتي أنموذجا، موقع مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة.

وقد كانت الإجازات العلمية التي منحها أحمد بابا لعدد من العلماء المغاربة مبعث اعتزاز وفخر لهم، فحرصوا على تثنيتها والتعريف بها، وأضحت إرثا مشتركا ووسيلة كبيرة من وسائل تثنين العلاقة بين الفضائيين.

فهذا محمد بن أحمد الحضيكي (ت 1189هـ / 1775م) في تعريف أحمد بابا يقول: «وبقي هو يدرس الفقه والحديث وغيرهما، وأخذ عنه خلق كثير، وأجازهم بأسانيده»³⁵⁶.

ومن الذين أجازهم: أحمد بن محمد المقرئ أجازة طويلة مفصلة، أوردها هذا الأخير بتمامها في كتابه روضة الآس³⁵⁷، وذلك بعد أن حلى شيخه أحمد بابا بقوله: «الشيخ المؤلف الكبير المصنف العلم الطائر الصيت».

ومنهم كذلك تلميذه الفقيه أحمد بن الحاج محمد فهدي بن أبي فهدي التواتي ثم المراكشي الذي يقول بعد أن استعرض العلوم والمصنفات التي تلقى عنه: «وأجازني جميع ذلك إجازة مطلقة من غير تقييد رحمه الله تعالى»³⁵⁸.

ومنهم كذلك أبو زيد عبد الرحمن بن محمد التلمساني، خطيب الجامع الأعظم بتارودانت. أخذ عن أحمد بابا في مراكش صحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن الترمذي وسنن أبي داود والشفاء وغيرها من كتب الحديث والفقه، وأجازه فيها إجازة عامة مطلقة³⁵⁹.

ومن أجازهم أيضا الإمام المحدث أبو الفضل يحيى بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحي.³⁶⁰

³⁵⁶. طبقات الحضيكي، 1/ 45

³⁵⁷. روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، ص 305 - 312.

³⁵⁸. فتح الشكور، ص 34.

³⁵⁹. أورد نصها كاملا في: الفوائد الجمّة، 417 - 421.

³⁶⁰. نفسه، ص 417.

ومما يعكس مكانة أحمد بابا في الأوساط العلمية المغربية حرص بعضهم على الحصول على إجازته ولو بالمراسلة، كما فعل أبو زيد عبد الرحمان التمنارتي إذ راسل أحمد بابا يطلب منه أن يميزه الرواية عنه بأسانيده، فأملى هذا الأخير على ولده محمد إجازة عامة للتمنارتي³⁶¹. وقد منح أحمد بابا هذه الإجازة في آخر أيام حياته عام 1035 هـ / 1626 قبيل وفاته بعام واحد، وهو في مدينة تمبكت، ولم يلتق أحمد بابا بالتمنارتي، ولكنه كان يسمع عن نشاطه العلمي عندما كان في مراکش.

3. التأليف

كان أحمد بابا غزير التأليف، أثرى المكتبة المغربية والسودانية بمصنفات ورسائل في علوم عدة. واختلف في إحصائها بسبب فقدان كثير منها³⁶². وقد أورد البرتلي الولاتي في كتابه «فتح الشكور» منها تسعة وثلاثين عنوانا³⁶³، وأوصلها الدكتور محمد مطيع إلى واحد وستين عنوانا³⁶⁴. لكن الراجح أنها تفوق هذا العدد بغير قليل³⁶⁵.

³⁶¹ الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة، ص 133.

³⁶² انظر نقاشا في الموضوع عند: شوقي عطا الله الجمل: أحمد بابا التمكني السوداني في ضوء بعض مخطوطاته بدار الوثائق بالرباط، ص 144 - 177.

³⁶³ فتح الشكور، 35 - 36.

³⁶⁴ أحمد باب السودان التمكني، مادة في: معلمة المغرب، 164 / 1 - 165.

³⁶⁵ لم يورد الدكتور مطيع في لائحته مثلاً كتاب أحمد بابا: «المنح الحميدة في شرح الفريدة» الذي سنشير إليه في مكان آخر من هذا العرض. ولم يورث كذلك شرح أحمد بابا على منظومة أبي زيد عبد الرحمن السوسي الرقعي لمقدمة ابن رشد القرطبي في الفقه المالكي، توجد نسخة منها بالمكتبة الوطنية بالرباط، انظر: فهرس المخطوطات العربية بالمكتبة الوطنية للمملكة المغربية، 143 / 8.

وقد ركز مترجموه على هذه الخصلة التي تميزه عن كثير من العلماء والفقهاء الآخرين، الذين قلت كتاباتهم. فهذا المقرئ يقول بأن له «يد طولى في نوازل الفقه والتاريخ لا يجارى في ذلك، وكذلك في علوم الحديث»³⁶⁶. ووصفه صاحبه وتلميذه ابن يعقوب الإيسى بأنه كان «مليح الاهتمام لمقاصد الناس، ساهرا على التقييد والمطالعة، مطبوعا على التأليف»³⁶⁷. أما العباس بن إبراهيم المراكشي فقد وصفه بأنه «كان رحمه الله دؤوبا على نشر العلم، معتنيا بالمطالعة حريصا على التأليف»³⁶⁸.

ويظهر من استعراض إرثه المكتوب جملة أمور منها:

- أ. أن أحمد بابا كتب في مواضيع وعلوم مختلفة، من الفقه والحديث والسيره والعقائد والتصوف، إلى التاريخ والتراجم وعلوم العربية ومواضيع اجتماعية مختلفة. وهكذا فإن تنوع هذه المواضيع وغزارتها يدل على شغفه بالتأليف، وعلى باعه الواسع في مختلف هذه العلوم.
- ب. أن أحمد بابا أنتج حوالي نصف تلك المؤلفات في فترة إقامته بمراكش، ولذلك ذهب بعض الباحثين إلى هذه الفترة كانت فترة إنتاج خصب له، استفاد منها كثيرا، «وترك آثارا فكرية وعلمية لا تحصى»³⁶⁹. وكانت مكتبة جامع الشرفاء التي تحوي نفائس المخطوطات، التي أوقفها السلطان السعدي عبد الله الغالب (ت 1574م) بعد بنائه الجامع. وذكر أحمد بابا مرارا أنه استفاد من كتب أو مجاميع بها³⁷⁰،

³⁶⁶. روض الآس، ص 318.

³⁶⁷. كفاية المحتاج، 2/ 282.

³⁶⁸. الإعلام بمن حل بمراكش وأغامت من الأعلام، 2/ 305.

³⁶⁹. شوقي عطا الله الجمل: أحمد بابا التميمي السوداني في ضوء بعض مخطوطاته بدار الوثائق بالرباط، ص 161.

³⁷⁰. نيل الانتهاج، ص 57، 306، 447.

ج. أن أحمد بابا تحلى بدرجات عالية من الصبر والمثابرة، جعلته ينجز كتباً موسوعية في التراجم والفقه واللغة، على الرغم من المحن الصعبة والتحديات الكبيرة التي مرت به،

د. أن قيمة مصنفاته تظهر من خلال ثناء العلماء والمؤرخين عليها، وعلى قيمتها العلمية، وقد استحسناها شيخه محمد بغيغ، وقرظها، كما أثنى عليها كبار علماء مراكش، وتلقوها بالقبول كما يقول صاحب «فتح الشكور»³⁷¹.

هـ. أن العلماء والمصنفين بعده أكثروا الاعتماد والإحالة على مصنفات، سواء في التراجم أو كتب الفقه والنوازل.

4. التربية والتزكية

لقد كانت علاقة أحمد بابا بالتلاميذ الذين أخذوا عنه تتجاوز البعد العلمي أو الفقهي من حيث هو دراسة متون وحفظها، إلى علاقة تربية على الإيمان والصلاح والأدب والخلق القويم. وهذا ما تعلمه هو أيضاً عن شيوخه. فهو عندما يتحدث عن عمه أبو بكر بن محمد أقيت يقول: «عمي الرجل الصالح الزاهد الورع التقي الأواه الولي المبارك»³⁷². ويتحدث عن أستاذه وشيخه محمد بن محمود بغيغ فيقول: «شيخنا وبركتنا، الفقيه المتفن، الصالح العابد الناسك المفتي، من خيار عباد الله الصالحين (...)»³⁷³.

³⁷¹. فتح الشكور، ص 31، 37.

³⁷². نيل الابتهاج، ص 151.

³⁷³. نيل الابتهاج، ص 600.

لذلك كان يدرس في جامع الشرفاء إلى جانب كتب الحديث والفقه، كتباً في التزكية، مثل حكم ابن عطاء الله السكندري وشفا القاضي عياض. وتأثر طلبته بذلك، فنفع فيهم روح المحبة والاستقامة والصلاح. وهذا يظهر في ترجماتهم له.

وأكتفي هنا بتحلية طويلة كتبها تلميذه أحمد بن الحاج محمد فهدي بن أبي فهدي التواتي المراكشي (ت 1061هـ)، يمكنها أن تكون نموذجاً لذلك. يقول: «لما فتح الله علي بملاقة عالم الدنيا ومعلمها، حامل لواء الأحاديث ومفهمها، رافع رواية مذهب الإمام مالك ومقدمها، العالم العلامة، المقبول الفاضل الفهامة، سيدي وبغيي وهداي، ومسرجي ومثوأي، ومهجتي وإيأي، أبا العباس سيدي أحمد بابا، جعل الله تعالى أيامه للخير أسباباً، وفتح الله به إلى العلوم أبواباً، تلقيت منه ما فتح الله لي بالقبول، وألفيته علقه الوصول، فلازمت بابه المبارك ليالي وأياماً، وشهوراً وأعواماً، وتضلعت من زمزمه بما فيه مقنع، وكنت معه كالذي يأكل ولا يشبع...»³⁷⁴. ففي هذه الكلمات يشع التأثير الإيماني والمعنوي إلى جانب التأثير العلمي والفكري. ولا شك أن هذه الروح لها تأثير كبير في التواصل بين العلماء وطلبة العلم من الضفتين.

5. الفتوى والرسائل العلمية

إلى جانب التدريس، تصدر أحمد بابا الفتوى في مراكش، وأسندت إليه عملياً على الرغم من رفضه لها رسمياً. لذلك يقول عن نفسه بعد تسريحه من السماح له بالخروج من مكان الإقامة الإجبارية وتكليفه بالدروس في جامع الشرفاء: «وأفتيت فيها لفظاً وكتباً بحيث لا توجه فيها الفتوى غالباً إلا إلي، وعينت

³⁷⁴. فتح الشكور، ص 33.

لها مرارا فابتهلت إلى الله تعالى أن يصرفها عني، واشتهر اسمي في البلاد من سوس الأقصى إلى بجاية والجزائر وغيرها، وقد قال لي بعض طلبة الجزائر وقد قدم علينا مراکش: لا نسمع في بلادنا إلا باسمك فقط»³⁷⁵.

ويقول المؤرخ عبد الرحمان السعدي: «وفي الغرب اشتهر أمره وانتشر ذكره، وسلم له علماء الأمصار في الفتوى»³⁷⁶.

وهكذا استفتي في مسائل ومواضيع متعددة، وكانت أجوبته محترمة في المغرب وباقي بلدان الشمال الإفريقي، وفي مناطق السودان الغربي. وذلك مثل فتواه حول الأعراف السوسية، وأجوبته في موضوع استزقاق السود، وسنعود إلى دراستها بعد قليل. وهي تظهر تفاعله مع حاجات البيئة المغربية وظروفها الاجتماعية والسياسية. وهذا كما هو واضح، من أكبر وسائل التواصل الفكري والتلاقح الحضاري.

وبالإضافة للفتاوى والأجوبة بالمعنى الفقهي والعلمي، هنا التواصل بالمراسلات مع العديد من العلماء في المنطقة، لإبداء الرأي وتوجيه النصح والتنبيه لأمر في الدين. ومن أمثلته أن الحضيكي لما ترجم في طبقاته لسعيد بن علي الهوزالي قاضي الجماعة بسوس في وقته (ت 1001هـ) قال: «وجرت بينه وبين الشيخ أحمد بابا السوداني مراجعات في مسائل»³⁷⁷.

³⁷⁵. كفاية المحتاج، 285.

³⁷⁶. تاريخ السودان، ص 35.

³⁷⁷. طبقات الحضيكي، 2/ 586.

رابعاً : تأثيرات أحمد بابا العلمية والحضارية

أسهم أحمد بابا بقوة في حركة الأفكار والاجتهادات والقيم بين السودان الغربي وبلاد المغرب، وهي تأثيرات أغنت التواصل الحضاري بين ضفتي الصحراء. ونجملها في أربع قضايا.

1. نشر معرفة سودانية مغربية مشتركة

فقد استفاد أحمد بابا من مكوته في مراکش وأخذ عن كثير من علمائها وأدبائها، وتأثر بجوها العلمي، فأضاف إلى تألفه العلمي الذي أتى به من تمبكتو، تألقاً آخر استفاده بمراكش.

ويذكر أحمد بابا كثيراً تنويهه وإعجابه بعلماء وأدباء لقيهم بمراكش. فيذكر مثلاً محمد بن يعقوب الأيسري (ت قبل 1010هـ / 1601م) بكثير من الإشادة فيقول: «لم ألق بالمغرب أثبت ولا أوثق ولا أحقق ولا أعرف بطرق العلم منه»³⁷⁸. وقد استفاد منه في كتابيه التاريخيين: كفاية المحتاج ونيل الابتهاج، ونص في مواضع كثيرة على أنه نقل عنه. فيقول مثلاً: «كذا بخط صاحبنا المؤرخ محمد بن يعقوب الأديب»³⁷⁹.

وقد رأينا أنه استفاد من إقامته بمراكش، فاطلع على مكتباتها وناقش علماءها وطلبتها، فانعكس ذلك بصورة إيجابية على إشعاعه العلمي، فأنتج أو أكمل في فترة الإقامة بها أهم مؤلفاته.

³⁷⁸. نيل الابتهاج،

³⁷⁹. نيل الابتهاج، ص 139، وانظر الصفحات: 67، 92، 136، 146، 230، 231، 235، 314، 419، 388، 482، 493، 494، 495، 558.

وبهذا استطاع أحمد بابا دمج الثقافتين المغربية والسودانية في كتاباته، كما كرس بعمله وجهوده تميز الفضاء الواسع والمشارك لغرب إفريقيا وبلاد المغرب بوحدة دينية تنبني على المذهب المالكي والتصوف السني العملي، وتشابهت فيها التقاليد الاجتماعية والعلمية، مما عزز تبادل المعرفة والخبرات في التدريس والإفتاء.

ثم قام بنقل المعرفة والثقافة من المغرب إلى تمبكت، كما نقلهما قبل ذلك من تمبكتو إلى مراکش، وهذا لعمري وسيلة ناجعة في التواصل الحضاري. والراجح أنه أخذ عنه خلق كثير من علماء السودان الغربي. ومن ذلك أن تلميذه عبد الرحمان السعدي صاحب كتاب «تاريخ السودان» أورد عن أحد شيوخه «الفقيه الإمام محمد كورد بن الفقيه القاضي محمد ساج الفلاني» أنه «حضر مجلس العلامة الفقيه أحمد بابا بعد مجيئه من مراکش فحصل عدة فنون من العلم كالفقه والحديث والأصول والبيان والنحو والمنطق والعروض والحساب وغيرهم»³⁸⁰. وهناك من أخذ عنه العلم قبل ذهابه إلى مراکش، ثم حضر مجالسه العلمية بعد رجوعه منها، مثل الفقيه الإمام المصطفى بن أحمد بن محمود بن أبي بكر بغيغ (ت 1025هـ / 1616م)³⁸¹.

وبهذا يكون أحمد بابا قد شكل نشازا من بين العلماء السودانيين الذي عرفوا وأثروا في السودان والمغرب معا.

كذلك لم يحفظ لنا التاريخ من أسماء وتراجم الفقهاء السودانيين واسعي التأثير إلا النزر اليسير. ولم يتغير ذلك كثيرا طيلة قرون طويلة. وكان أقوى من كسر هذه القاعدة، وأسمع صوت العلماء السودانيين هو أحمد بابا، وشكل هو نفسه نموذج العالم الذي تحدى الظروف الصعبة المحبطة، ليوصل علمه وينافح عن أفكاره.

³⁸⁰. تاريخ السودان، ص 322.

³⁸¹. تاريخ السودان، ص 238 - 239.

وكانت المؤلفات الغزيرة التي كتبها أحمد بابا، وخصوصا تلك التي كتبها في المغرب، في تفاعل مع قضايا مغربية، ومع علماء مغاربة، ثم انتشرت في السودان الغربية بناء لثقافة مشتركة لهذا الفضاء الواسع، وخصوصا أن كثيرا منها تروم الإصلاح الديني والاجتماعي، على الرغم من تنوع المجالات التي تنتمي إليها، مثل الفقه والتربية واللغة والتراجم. وكان لتلك المؤلفات أثر مهم على مستوى ضفتي الصحراء الكبرى، على العلماء والمصلحين في عهده وعلى الأجيال من بعده.

وقد لقيت مؤلفاته صدى واسعا في المغرب، يدل على ذلك كثرة نسخها المخطوطة في المكتبات المغربية العامة والخاصة³⁸²، وأيضاً يتجلى ذلك في اعتماد كثير منها مراجع من قبل المؤلفين المغاربة.

كما أن نسخ مخطوطاته منتشرة في عدد من المكتبات الخاصة في موريتانيا والصحراء وفي السودان الغربي³⁸³. وبقي بعضها مراجع معتمدة في التدريس والتأليف. ويقول الباحث البريطاني جون هانويك في مقال نشره سنة 1962م³⁸⁴، إن واحدا من أعماله على الأقل لا يزال يُدرس في شمال نيجيريا، وهو تعليق طويل على كتاب السيوطي «الفريدة في النحو والتصريف والخط»، سماه «المنح الحميدة في شرح الفريدة»³⁸⁵.

382. انظر: مخطوطات أحمد بابا التميمي في الخزائن المغربية، 1996م.

383. انظر مثلاً لائحة مخطوطات عدد من المكتبات الموريتانية الخاصة على موقع المعهد الموريتاني للبحث والتكوين في مجال التراث والثقافة على الرابط: <https://makrim.org/manuscripts.cfm>

AHMAD BĀBĀ AND THE MOROCCAN INVASION OF THE SUDAN (1591 p. 384 311-328.

385. توجد نسخة منه بالمكتبة الوطنية بباريس، قسم المخطوطات العربية، رقم 5467. وأشار هانويك إلى وجود نسخة في مكتبة جامعة إبادان بنيجيريا، انظر مرجعه المذكور سابقاً.

2. إنتاج سوداني لمعرفة فقهية مالكية

من تأثيرات المغرب على بلاد السودان أن كان المذهب المعتمد فيها هو المذهب المالكي بدون منازع. وكانت المصنفات المعتمدة في التدريس والفتيا والقضاء هي المصنفات المالكية، وفي مقدمتها المصنفات المغربية.

والجديد مع أحمد بابا أن أصبح لمصنفات فقهية وأخرى في تاريخ المذهب المالكي لعالم من السودان، تأثير كبير في بلاد المغرب، وفي مناطق أخرى من العالم الإسلامي. وهذا أمر قليل جدا.

وبهذا أنتج أحمد بابا معرفة فقهية مالكية سودانية المنشأ، تعزز الفضاء الحضاري المشترك. ولو لم يكن له في المذهب المالكي وتاريخ أعلامه إلا كتبه الأربعة: «نيل الابتهاج»، و«كفاية المحتاج»، و«المقصد الكفيل بحل مقفل خليل»، و«منن الرب الجليل ببيان مهمات تحرير خليل» لكفته فخرا؛ لأن هذه الكتب وجدت إقبالا كبيرا لدى دارسي المذهب المالكي بعده. قال صاحب «فتح الشكور» عن الكتابين الأخيرين: «ينقل عنهما الأجهوري في شرح المختصر». والأجهوري هو نور الدين علي بن زين العابدين شيخ المالكية في عصره (ت 1066هـ)³⁸⁶.

وارتقى أحمد بابا في دراسته للفقهاء المالكي، إلى التوسع في دراسة مصنفاته، والتجديد في فقهه. فنجده - مع ثرائه على مختصر خليل - يعتبر اقتصارا المغاربة عليه وقلة عنايتهم بمصنفات مثل مختصر ابن الحاجب والمدونة، «علامة دروس الفقه وذهابه»³⁸⁷.

³⁸⁶. انظر ترجمته في: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، 3/ 157 - 158.

³⁸⁷. نيل الابتهاج، ص 171.

ولذلك نجد في فتاواه وكتاباتة الفقهية يرجع إلى «المدونة» للإمام مالك كثيرا وينقل عنها مباشرة، كما ينقل عن فقهاء مالكيين مشهورين مثل أبي الأصبغ عيسى بن سهل قاضي غرناطة (ت 486هـ) صاحب «الإعلام بنوازل الأحكام»، وابن الحاجب (ت 646هـ) صاحب المختصر في الفقه، المسمى «الجامع بين الأمهات في الفقه».

وقد خصص كثيرا من رسائله لتدقيق كلام مختصر خليل أو فتح مغاليقه أو الاستدراك عليه، مثل الرسائل الأربع: «إرشاد الواقف لمعنى (وخصصت نية الخالف)» و«إفهام السامع بمعنى قول الشيخ خليل في النكاح بالمنافع» و«أنفس الأعلام في فتح الاستغلاق من فهم كلام خليل في درك الصداق» و«فتح الرزاق في مسألة الشك في الطلاق». ولأهميتها انتشرت مخطوطاتها في المغرب والسودان، كما طبعت مجموعة بالمطبعة الحجرية بفاس في عام 1307هـ/1890م.

3. الوعي بالتاريخ والاهتمام بالتاريخ المشترك السوداني المغربي

أ . زيادة في كتابة تراجم علماء السودان

يجب أن نعترف لأحمد بابا بكونه أعطانا أول الكتابات التاريخية السودانية عن السودان ومحيطه الإسلامي. فكتابه التاريخيان: «نبيل الابتهاج بتطريز الديباج» و«كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج» كانا أول محاولة وصلتنا لإسهام شخص ولد وعاش في السودان الغربي في كتابة تاريخ المنطقة وتاريخ العلاقة بينها وبين بلاد المغرب، من خلال التأريخ لكثير من أعلام المذهب المالكي من الضفتين.

فمن جهة أولى يعد ما كتبه أحمد بابا إضافة نوعية في باب تراجم فقهاء المالكية، ليس في أفريقيا الغربية والمغرب فحسب، بل على مستوى العالم الإسلامي كله.

ومن جهة ثانية يبقى كتابا أحمد بابا «نيل الابتهاج» و«كفاية المحتاج» المصدر الأول لمعرفة حياة الشخصيات السودانية الواردة فيهما وإنتاجها العلمي.

ومن جهة ثالثة فإن أحمد بابا يرسم في الكتابين الرائدتين سيرة عدد من العلماء الذين كرسوا حياتهم للتدريس وتنشيط الحركة العلمية والفكرية في السودان وفي المغرب والأندلس، بالطريقة التي تجعل وحدة الفضاء الديني والفكري بين هذه الفضاءات أمرا مسلما به.

ومن جهة رابعة يقف أحمد بابا عند عطاءات ومصنفات تلك الشخصيات ليس فقط في الفقه والعلوم الدينية، ولكن أيضا في المنطق والفلك والطب وغيرها من العلوم المتداولة في عصره.

وإذا عرفنا أن الديباج المذهب لابن فرحون يشتمل على ترجمة لـ 630 من علماء المذهب المالكي، فإن «نيل الابتهاج» بتطريز الديباج، يشتمل على أكثر من 800 ترجمة، وهو بذلك أوسع موسوعة تعريفية لعلماء المذهب.

وبسبب هذه الريادة، اعتبر المستكشف الفرنسي أوغوست شاربونو (ت 1882م)، عندما اطلع على «نيل الابتهاج» في أواسط القرن التاسع عشر، أن ذلك كان اكتشافا مذهلا، وكتب قائلا: «كشف فريد وغير متوقع عن حركة أدبية في قلب أفريقيا، وهي الحركة التي كان ينظر إليها على أنها ضعيفة بسبب الوثنية. لقد كانت لدينا وثائق عن إنتاج الأرض وعن التجارة في هذا البلد الذي يكاد يكون غامضا؛ وكانت لدينا معلومات عن الممارسات والعادات الدينية للسكان الأصليين؛ لكن لم تصل إلينا إلا بالكاد بعض المعلومات البسيطة عن حياتهم الفكرية (...). كل ما نشر من قبل كان ناقصا لولا أننا اكتشفنا كتاب أحمد بابا التمبكتي»³⁸⁸.

388. Un instituteur nègre à Tombouctou, p 277.

ب. أول معرف بالتراث الحضاري للسودان الغربي

قد يكون أحمد بابا أول عالم سوداني يصف النشاط العلمي والثقافي السوداني في مختلف جوانبه. فهو لم يركز فقط على الجوانب العلمية والدينية من حياة علماء المنطقة، ولكنه قدم كذلك لمحات عن الحياة السياسية والاجتماعية لكثير من مترجميه، ولمحات عن الظروف العامة التي عاشوا فيها.

وكان من نتائج هذا السبق، أن المستكشف الألماني بارث هينريتش عندما وقف في القرن التاسع عشر على مخطوطة من كتاب «تاريخ السودان»، نسبها ببساطة إلى أحمد بابا. وكان أول من دحض هذه النسبة، الصحفي الفرنسي فيليكس دوبوا عام 1897 في كتابه «تبكتو الغامضة»³⁸⁹. وتلك النسبة المتسرعة من قبل المستكشف بارت لا يرجع فقط - حسب ما قال هوداس في تقديمه للترجمة الفرنسية لـ«تاريخ السودان» - إلى حقيقة أن أحمد بابا كان الكاتب الأكثر شهرة من المنطقة، وربما المؤرخ السوداني الوحيد المعروف في تلك الفترة، ولكن يرجع كذلك إلى وجود تشابه في طريقة الكتابة بين كتاب «تاريخ السودان» وبعض مؤلفات أحمد بابا³⁹⁰.

وقد تبين بعد ذلك أن «تاريخ السودان» كتبه عالم آخر من المنطقة هو عبد الرحمان السعدي.

³⁸⁹. Tombocou la Mystérieuse, p 419.

³⁹⁰. Tarikh Es-Soudan, p X.

والراجح أن عمل أحمد بابا كان بداية الشرارة للاهتمام بتاريخ المنطقة. تأثير في عدد من اثنين من تلامذته الذين كتبوا أول وأهم مصدرين سودانيين عن تاريخ السودان الغربي وصلا إلينا، وهما تاريخ الفتاش لمحمود كعت التمبكي، وتاريخ السودان لعبد الرحمان السعدي.

فمحمود كعت التمبكي يرجع في كتابه³⁹¹ الذي يوصف بأنه «أول سجل تاريخي عن بلاد السودان الغربي يصل إلينا»³⁹²، في تدقيق معلوماته التاريخية كثيرا إلى أحمد بابا³⁹³، ويكنيه أحيانا بقوله «سيدي أبو العباس» أو «سيدنا أبو العباس». والراجح أن محرر الكتاب هو ابن المختار سبط محمود كعت حفيد محمود كعت الجد، وقد ولد ابن المختار بعد رجوع أحمد بابا من مراكش، لذلك استفاد منه كثيرا كما رأينا.

أما عبد الرحمان بن عبد الله السعدي (ت بعد 1065هـ / 1655م) فقد حضر دروس أحمد بابا بعد رجوعه من مراكش وسمع منه³⁹⁴، واستفاد من كتبه، وخصوصا كتابه «نيل الابتهاج»³⁹⁵.

وقد تبين في مقدمة السعدي لكتابه «تاريخ السودان» أن الاهتمام بالتاريخ كان ضامرا في عهده، فلم يصل إليه مؤلف مستقل كتبه سوداني أو شخص سكن السودان قبله. يقول: «ولما رأيت انقراض ذلك العلم ودروسه وذهاب ديناره وفلوسه، وأنه كبير الفوائد كثير الفرائد لما فيه من معرفة المرء بأخبار وطنه وأسلافه وطبقاتهم وتواريخهم ووفياتهم، فاستعنت بالله سبحانه في كتب ما رويت من ذكر ملوك السودان أهل

391. راجع الملاحظات حول دور كل من حفيد محمود كعت وسميه، وكذلك سبطه ابن المختار في إتمام الكتاب في: تاريخ الفتاش (2014)، ص 19 وما بعدها.

392. تاريخ الفتاش (2014)، ص 15.

393. تاريخ الفتاش (1913)، ص 52، 85، 93، 115، 121، 178.

394. تاريخ السودان، ص 35.

395. انظر مثلا: تاريخ السودان، ص 37، 64، 70، 173.

سغي وقصصهم وأخبارهم وسيرهم وغزواتهم، وذكر تمبكتو ونشأتهم ومن ملكها من الملوك، وذكر بعض العلماء والصالحين الذين توطنوا فيها وغير ذلك إلى آخر الدولة الأحمدية الهاشمية العباسية سلطان مدينة حمراء مراکش».

ج. التأريخ جسر للتواصل

إن هذا العمل التاريخي هو في حد ذاته صلة وصل، فهو يعرف المغاربة بعلماء السودان، ويعرف السودانيون بعلماء المغرب. وخصوصا أن التراجم التي كتبها أحمد بابا □ كما أشرنا إلى ذلك من قبل - ليست مجرد تعريف بارد بشخصيات المذهب المالكي، بل يركز كثيرا على ظروفها وتأثيراتها في محيطها، ويقوم أحيانا بإبداء رأيه، مما أضفى على كتابته الكثير من الجدة والحيوية.

ولذلك فإن كتابي أحمد بابا إذ يعتبران مرجعا أساسيا لسيرة عشرات الشخصيات من الفقهاء والقضاة الذين ينحدرون من تمبكتو أو استقروا فيها أو مروا من مناطق من السودان الغربي، فإن الكتابين هما أيضا مصدران أساسيان لمعرفة الشخصيات المغاربية والأندلسية الواردة فيهما. لذلك اعتبر ليفي بروفنصال «نيل الابتهاج» من أهم المصادر المتعلقة بتراجم المالكية المغاربة فقال: «إن أحمد بابا التمبكتي جدير بأن يسجل اسمه ضمن المؤرخين غير المباشرين للمغرب أواخر القرن السادس عشر الميلادي» □□□.

يقول ليفي بروفنصال: «أحمد بابا سوداني الأصل، معتر بالانتساب لبلاده لا يبغي بها بديلا، إلا أن المغاربة يعدونه من علماء المغرب الأقصى نظرا لمتانة الوشائج التي تربطه بهذه البلاد» □□□

396. مؤرخو الشرفاء، ص 176.

397. مؤرخو الشرفاء، ص 176.

وعلى الرغم من أهمية اهتمام أحمد بابا بالتراجم، فهي على كل حال من أبرز أنواع الكتابة التاريخية، إلا أن أحمد بابا كان كذلك يستحضر الحس التاريخي ويوظف التاريخ في مؤلفات فقهية أخرى. وكان فيها متسلحا بالوعي بقيمة التاريخ، وكان يوظفه للدفاع عن آرائه ومواقفه الإصلاحية.

ففي كتابه «معراج الصعود إلى نيل مجلوب السود»، يستعمل المعلومات التاريخية والجغرافية البشرية للدفاع عن رأيه الرافض للتمييز على أساس العرق أو اللون، والمؤكد على حق الإنسان في الحرية. فعزز فتواه في هذا المجال بمعلومات دقيقة عن بلاد السودان، وظروف انتشار الإسلام في مختلف مناطقها، مستدلا بأقوال المؤرخين وخصوصا ابن خلدون. وكأنه يضع تحت تصرف أولي الأمر والمفتين والقضاة المعلومات الضرورية لمواجهة أو تجنب الخروقات والتجاوزات.

4. مواجهة استرقاق الأحرار

من البصمات التي تركها أحمد بابا في الفكر الإسلامي على ضفتي الصحراء، ونافح عنها بقوة، قضية المساواة بين البشر ورفض استرقاق السود بسبب لونهم.

لقد عاش أحمد في مراحل كانت فيها تجارة العبيد منتشرة، فدفعته شهرته الكبيرة في عام 1613م، العلماء في «توات» إلى مكاتبته للتشاور معه حول الوضع القانوني للسودانيين المستعبدين. فكتب رسالته: «معراج الصعود إلى نيل حكم مجلوب السود» أو «الكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان». كما وردت أحمد بابا أسئلة أخرى في الموضوع من يوسف بن إبراهيم بن عمرو الإيسوي السوسي، ونشرت إجابة أحمد بابا المقتضبة عليها في آخر «معراج الصعود».

وقد دافع فيهما أحمد بابا عن أفكار وقيم واضحة، منها:

- أن جميع البشر يولدون أحرارًا، وأن العبودية هي حالة ناتجة عن ظروف خاصة مرتبطة بالحروب والأسر، وليست حالة طبيعية أو دائمة، ولا يجوز استرقاق المسلم ولا الذمي ولا المعاهد (وهو غير المسلم الذي تربطه معاهدات بالمسلمين) (ص 53). ويؤدي هذا التدقيق المهم إلى وعي أحمد بابا بأن الرق لم يكن مرتبطًا بالكفر أو بالاختلاف في الدين، وإنما بالحرب.
- رفض التمييز بين بني البشر على أساس العرق أو اللون، فلا فرق في الدين بين السود والبيض، فقبائل السودان الغربي «مسلمون أحرار لا يجوز تملكهم بوجه» (ص 57)، وهنا دحض أحمد بابا بقوة ما تروجه بعض الكتابات - الإسلامية وغير الإسلامية على السواء في تلك الفترة - من لعنة تنسب لنوح عليه السلام على العرق الأسود، وبين أن هذا يتنافى مع المبادئ الإسلامية الصريحة والقاطعة.
- الحث على اعتماد «الاحتياط والورع» والإحجام عن الاسترقاق إذا تعذر التمييز بين المباح والمحظور (ص 90)،
- التأكيد على ضرورة التعامل مع الأسرى والعبيد بطريقة إنسانية وفق تعاليم الشريعة الإسلامية، التي تأمر باحترام كرامتهم وحقوقهم الإنسانية، وتنهى عن استغلالهم بطرق غير شرعية وغير إنسانية، لأن «الجميع من ولد آدم» (ص 65)،
- التحفظ من حيث العموم على الاسترقاق بقوله: «مجرد الملكية يكسر القلوب غالبًا لما فيه من القهر والاستيلاء، سيما مع التغرب عن الوطن» (ص 65).

ومن المهم التأكيد هنا على أن هذا الموقف متقدم جدا مقارنة مع الكثير من الأفكار والممارسات السائدة في عصره، والتي تنافي قيم الإسلام وتنافي فتاوى

الفقهاء، كما تنافي بشدة ممارسات سادت لمدة قرنين على الأقل بعد ذلك في أوروبا وأمريكا.

فخلال القرن الخامس عشر، بدأت أوروبا تتفوق على مناطق العالم الأخرى في تجارة العبيد من أفريقيا إلى الأمريكيتين ومناطق أخرى تسيطر عليها القوى الغربية. وعلى مدى قرنين ونصف القرن تعرض حوالي أربعون مليون إفريقي للاسترقاق بهذه الطريقة. ورافق ذلك معاملات فظيعة ليس لها حدود في الإيذاء والهمجية، مثل التجويع والضرب والتكديس والتعريض للأمراض، وفي كثير من الأحيان يلقي المرضى والذين لا يمكن الاستفادة منهم للحيتان في البحر دون أي رحمة³⁹⁸. ولم تصبح تجارة الرقيق الدولية غير قانونية، في الدنمارك إلا في عام 1804؛ تلتها بريطانيا في عام 1807 والولايات المتحدة الأمريكية في عام 1808.

وقد استدل أحمد بابا في تقاريره بالعديد من فتاوى فقهاء المالكية في المغرب والأندلس. وكان يبحث - كما أكدت على ذلك محققة «معراج الصعود»³⁹⁹ - في كيفية تقليص الهوة بين مقتضيات الخطاب الشرعي والقيم الإسلامية في موضوع الاسترقاق من جهة، وواقع الممارسة بما يشوبها من خروقات وتجاوزات من جهة أخرى.

إن هذا الموقف المناهض للعنصرية وجد صدى إيجابيا كبيرا لدى عدد من العلماء والمؤلفين المسلمين.

³⁹⁸. Traite des noirs : précis historique, Paris, 1830.

³⁹⁹. معراج الصعود، ص 23.

فعلى الرغم من أن الإشارة إلى الموضوع بنفس الرؤية أو قريب منها متداول في الكتابات الفقهية، وإن بعبارات مقتضبة أحيانا. وذلك مثل أجوبة محمد بن عبد الكريم المغيلي (ت 909هـ / 1503م) التي أكدت على عدم جواز استرقاق الأحرار من السود⁴⁰⁰، وفتوى عامة ومقتضبة جدا لجلال الدين السيوطي (ت 1505م) ضمن جوابه على أسئلة واردة من التكرور سنة 893هـ⁴⁰¹، وجواب أبي العباس الونشريسي (ت 914هـ / 1509م) عن سؤال في الموضوع⁴⁰²، إلا أن عمل أحمد بابا قد يكون أول رسالة خاصة بموضوع العبيد المجلوبين من السودان. وقد لقيت الاهتمام الكبير في المغرب وفي غرب إفريقيا. يدل على ذلك كثرة نسخها المخطوطة في المكتبات المغربية. فلها عدة نسخ في المكتبة الوطنية (الخزانة العامة بالرباط)، وعدة نسخ في الخزانة الملكية، ونسخ في عدة مكتبات خاصة مثل خزانة عبد الله كنون وخزانة علال الفاسي وغيرهما⁴⁰³. كما انتشرت نسخها المخطوطة في المكتبات الخاصة في السودان الغربي وشمال إفريقيا.

وفي عهد السلطان العلوي مولاي إسماعيل (ت 1139هـ / 1727م) عرف المغرب نقاشا قويا أثناء تأسيس «جيش البخاري»، إذ عارض عدد من العلماء بعض إجراءات تكوينه. منهم العلامة الحسن من مسعود اليوسي (ت 1102هـ / 1691م)⁴⁰⁴ وأبي حامد محمد العربي بردلة (ت 1133هـ / 1720م)⁴⁰⁵، الذي استند في كتابه إلى السلطان على قواعد واضحة منها أن «الحرية حق من حقوق الله تعالى» و«تشوف الشارع للعتق وحثه عليه»، وعبد السلام بن حمدون جسوس (ت 1121هـ / 1708م)⁴⁰⁶.

⁴⁰⁰. أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، ص 40 - 41.

⁴⁰¹. الحاوي للفتاوي،

⁴⁰². المعيار المغرب والجامع المغرب في فتاوى أهل إفريقيا والأندلس والمغرب، 9/ 239 - 240.

⁴⁰³. انظر تفصيل تلك النسخ في مقدمة تحقيق «معراج الصعود»، ص 26 - 33.

⁴⁰⁴. انظر رسالته إلى مولاي إسماعيل في: نشر المثاني، 3/ 32 - 37.

⁴⁰⁵. ورد كتابه إلى السلطان في الموضوع في: نوازل العلمي، 1/ 277 - 285.

⁴⁰⁶. الاستقصا، 7/ 94 - 96، وانظر آراء في الموضوع مثلا في: الاستقصا، 7/ 88، الجيش العرمم الخماسي، 1/ 143.

ومن الصعب على الباحث التأكد من اطلاع هؤلاء العلماء على رسالة أحمد بابا وتأثرهم بها، فالمبادئ التي استندوا إليها متداولة في كتب الفقه عموماً، وكتب الفقه المالكي على وجه الخصوص. لكن ثبت لدينا أن هناك من العلماء والمصلحين من استفاد من أحمد بابا واستند إلى تحقيقاته في السودان وفي المغرب.

فقد استفاد منها العالم الإفريقي المجدد والمصلح عثمان بن فوديو (ت 1232هـ / 1817م) وأورد بعضاً من كلام أحمد بابا في الموضوع في كتابه «بيان وجوب الحجرة على العباد»⁴⁰⁷. كذلك ناقش بعضاً من كلامه محمد بلو بن عثمان بن فودي (ت 1252هـ / 1837م) في كتابه «إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور».

أما في المغرب فنجد من الذين ساندوا ما دافع عنه أحمد بابا، الفقيه والمؤرخ المغربي أحمد بن خالد الناصري (ت 1315هـ / 1897م)، فقد أشار في كتابه الاستقصاء إلى رسالة «معراج الصعود»، وأورد بعضاً من كلام أحمد بابا، كما انتقد كثيراً ممارسات الاسترقاق التي كانت تمارس في عهده. فبعد أن أثنى على ما كان عليه أهل السودان «من الأخذ بدين الإسلام من قديم، وأنهم من أحسن الأمم إسلاماً وأقومهم ديناً، وأكثرهم للعلم وأهله تحصيلاً ومحبة»، استثنى «ما عمت به البلوى ببلاد المغرب من لدن قديم من استرقاق أهل السودان مطلقاً»، حتى صار «كثير من العامة يفهمون أن موجب الاسترقاق شرعاً هو اسوداد اللون وكونه مجلوباً من تلك الناحية. وهذا لعمر الله من أفحش المناكر وأعظمها في الدين، إذ أهل السودان قوم مسلمون فلهم ما لنا وعليهم ما علينا»⁴⁰⁸.

⁴⁰⁷. بيان وجوب الحجرة على العباد، ص 95 - 96.

⁴⁰⁸. الاستقصاء، 5/ 131 - 134.

وفي رؤية إنسانية متقدمة دافع الناصري عن إنهاء بيع العبيد في الأسواق مستندا إلى نصوص من القرآن والسنة وأقوال الفقهاء وفي مقدمتهم الإمام مالك بن أنس، وصرح بأن سبب الاسترقاق الشرعي الذي كان في عهد النبي صلى الله عليه وسلم مفقود اليوم، وإلى قاعدة مهمة وهي أن «الأصل في نوع الإنسان هو الحرية والخلو عن موجب الاسترقاق، ومدعي خلاف الحرية مدعٍ لخلاف الأصل»

ومما يدل على الاهتمام الواسع بمواجهة هذه الظاهرة ورود استنكار لها في الرسالة التي بعثها السلطان الحسن الأول (ت 1311 هـ / 1894) على رأس القرن الرابع عشر إلى عموم المغاربة. فنقرأ فيها: «ومن المنكر الذي لا يسع التغافل عنه والتساهل في أمره: هذا الخطب النازل الوقي الذي هو المجاهرة باستعباد الأحرار، واسترقاقهم بدون وجه شرعي»⁴⁰⁹

409. ابن زيدان، إنحاف أعلام الناس، 2/ 270

في الختام

حاولنا في هذا العرض التدليل على أن إسهام أحمد بابا في تمتين جسور التواصل المغربي السوداني، الذي كان موجودا أصلا، كان استثنائيا، وإبداعيا، وأنه استند في ذلك على مبادئ وقيم وموجهات ذات أفق إيماني وإسلامي وإنساني.

وهو وإن سلك في ذلك الوسائل المتعارف عليها في عصره من التدريس والإجازة العلمية والتأليف والتربية والفتوى والمراسلات العلمية، إلا أنه نفخ روحا قوية في الصلات الحضارية المغربية السودانية بقيت آثارها شاهدة ومؤثرة على مدى القرون. وهو ما جعل أعماله وإنتاجاته تحظى بالخطوة والتقدير على ضفتي الصحراء، وفي مناطق أخرى من العالم الإسلامي. واستلهم العديد من العلماء والفقهاء من أفكاره وأعماله وسعوا إلى تطويرها والبناء عليها.

وقد أعطى استقرار أحمد بابا التمكن بمراكش بعدا خاصا لذلك التواصل الحضاري بسبب شخصيته القوية والمبدعة، وقدرته على التكيف مع الظروف الصعبة التي عاشها في محنته، وتحويل كل ذلك إلى نقاط قوة، مكنته من أن يكون جسرا للعلم والتدين والثقافة الإيجابية والقيم السليمة، وشكل قيمة مضافة للتراث الإفريقي/السوداني المغربي المشترك.

فأسهم بالتالي في التلاقح الثقافي وحركة الأفكار وترشيد الفعل الاجتماعي ومواجهة عدد من الانحرافات في الفكر والممارسة، وتقوية اللحمة الدينية والحضارية بين شعوب الفضاء السوداني المغربي.

المصادر والمراجع

المراجع العربية

- إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، ابن زيدان عبد الرحمن بن محمد السجلماسي، تحقيق الدكتور علي عمر، ط 1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1429هـ / 2008م
- الإجازة العلمية ودورها في التواصل العلمي بين علماء المغرب والسودان الغربي، إجازات أحمد بابا التمبكتي أنموذجاً، لعبد الرحمان محمد ميغا، موقع مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة؛ <https://fm6oa.org/revue/article/الإجازة-العلمية-ودورها-في-التواصل-الع>
- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، أحمد بن خالد الناصري؛ حققه ولدا المؤلف أ. جعفر الناصري و أ. محمد الناصري، 1997م
- أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، محمد عبد الكريم المغيلي؛ تقديم وتحقيق عبد القادر زبايدية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974م.
- بيان وجوب الهجرة على العباد، عثمان بن فودي، تقديم فتحي حسن المصري، نشر دار جامعة الخرطوم ودار جامعة أكسفورد للنشر، 1977م.
- تاريخ السودان، عبد الرحمن السعدي، وقف على طبعه من غير تغيير نصه السيد هوداس مدرس اللغة العربية، باريز، 1898.
- تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور (2014)، محمود كعت التمبكتي، دراسة وتعليق آدم بمبا، الطبعة الأولى: 2014م، بنشرة مؤسسة الرسالة الناشر.

- الحاوي للفتاوي، جلال الدين السيوطي، ط 1، 1421هـ / 2000م، دار المتب العلمية - بيروت.
- الحركة العلمية والثقافية والإصلاحية في السودان الغربي، أبو بكر إسماعيل ميقا، مكتبة التوبة، الطبعة الأولى 1417هـ / 1997م الرياض، المملكة العربية السعودية.
- الحركة الفقهية ورجالها في السودان الغربي من القرن 8 إلى القرن 13 الهجري، عبد الرحمن محمد ميغا، منشورات وزارة الشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، مطبعة البيضاوي، 1423هـ / 2011م
- الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، محمد حجي، منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1396هـ / 1976م.
- الحضارة الإسلامية العربية في غرب أفريقيا سماتها ودور المغرب فيها، شوقي عطا الله الحمل، مجلة المناهل المغربية، عدد 7 السنة الثالثة، ذو القعدة 1396هـ / نوفمبر 1976.
- دراسات في تاريخ شرق إفريقيا وجنوب الصحراء، منشورات جامعة قان يونس، بنغازي؛ للدكتور مخزوم الفيتوري عطية؛ الطبعة الأولى 1998م، منشورات جامعة قان يونس بنغازي.
- روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراکش وفاس، أحمد ابن محمد المقري، الطبعة الثانية 1403هـ / 1983م، المطبعة الملكية - الرباط.
- صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، محمد بن الحاج بن محمد بن عبد الله الصغير الإفرائي، تحقيق عبد المجيد خيالي، المركز التراث الثقافي المغربي، الطبعة الأولى 1425هـ.

- طبقات الحضيكي، محمد بن أحمد الحضيكي، ط 1، 1427هـ / 2006م، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.
- فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، محمد بن أبي الصديق البرتلي الولاتي، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي؛ دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1401هـ / 1981م.
- الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة، أبي زيد عبد الرحمن التمانرتي، تحقيق اليزيد الراضي، الطبعة الأولى 2007م مطبوعات السنتيسي = الدار البيضاء.
- كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، أحمد بابا التمبكتي، دراسة وتحقيق الأستاذ محمد مطيع، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1421هـ / 200م،
- المجتمع والدين والسلطة في إفريقيا الغربية ما بين القرنين 5 و 10 هـ / 11 و 16م، زليخة بنرمضان، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1438هـ / 2015م
- معراج الصعود أجوبة أحمد بابا حول الاسترقاق، منشورات معهد الدراسات الإفريقية 2000م.
- معلمة المغرب، معلمة المغرب الأقصى، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، 1410 - 1989
- المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقيا والأندلس والمغرب، أبو العباس الونشريسي، تحقيق بإشراف الدكتور محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1401هـ / 1981م.

- مؤرخو الشرفاء، ليفي بروفنصال، تعريب عبد القادر الخلادي، 1397هـ / 1977م.
- نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، محمد بن الطيب القادري، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، دار المغرب التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الأولى، 1977م إلى 1986م،
- نوازل العلمي، عيسى بن الحسيني العلمي، تحقيق المجلس العلمي بفاس، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1403هـ / 1983م،
- نيل الإبتهاج بتطريز الديباج، أحمد بابا التمبكتي، الطبعة الأولى 1398هـ / 1989م، منشورات كلية الدعوة الإسلامية طرابلس.

المراجع الأجنبية

- AHMAD BĀBĀ and the Moroccan Invasion of the SUDAN (1591), Hunwick. J. O. Journal of the Historical Society of (Nigeria, Vol. 2, No. 3 (December 1962
- La politique musulmane dans l'Afrique occidentale française, par Quellien A., Paris, 1910
- L'Islam dans l'Afrique occidentale, A. le Chatelier. Paris, 1899
- Tarikh Essoudan, Abderrahmane Essaadi, traduit de l'Arabe par O. HOUDAS, Ernest Leroux Editeur, Paris, 1900
- Tomboctou la Mystérieuse, Felix Dubois, Paris, 1897
- Un professeur nègre à Tombouctou, Cherbonneau Auguste, In: La revue pédagogique, tome 7, Janvier-Juin, Paris, 1881

التكامل الحضاري بين المغرب ودول غرب إفريقيا الخلفيات التاريخية والآفاق المستقبلية

الدكتور وسام شهير
أستاذ التعليم العالي بجامعة محمد الأول بوجدة

مقدمة

شهدت السياسة الخارجية المغربية في السنوات الأخيرة انفتاحاً ملحوظاً تجاه دول العالم، ولا سيما دول إفريقيا، وخاصةً تلك الواقعة جنوب الصحراء. ويرتبط هذا الانفتاح بجذور المغرب الإفريقية التاريخية، كما عبّر عن ذلك المغفور له الحسن الثاني قدس الله ثراه بقوله: «المغرب شجرة جذورها في إفريقيا وأغصانها في أوروبا».

تجلت مظاهر هذا الانفتاح بشكل أعمق في دستور 2011، الذي أكد الهوية الإفريقية للمغرب. كما ساهم نجاح المغرب في تغيير مواقف بعض الدول الإفريقية تجاه قضايا السيادة في تحسين العلاقات المغربية مع هذه الدول بشكل عام. وقد توج المغرب جهوده في سياسته الخارجية بالعودة إلى الاتحاد الإفريقي، وتولى دوراً ريادياً في تجمع إقليمي يضم دول الساحل، مع سعيه لتوسيع نطاق التعاون ليشمل باقي الدول الإفريقية شرقاً وجنوباً. وعلى الرغم من أن الريادة الدينية للمغرب شهدت فترات من الفتور بسبب عوامل خارجية، إلا أنها بدأت تستعيد مكانتها بفضل العديد من المبادرات المغربية الرائدة في هذا المجال، مع الأخذ في الاعتبار الجوانب الإنسانية والاقتصادية.

تأتي هذه الدراسة في سياق التأكيد على أهمية الموقع الاستراتيجي للمغرب الأقصى، ودور الدول الحاكمة في الاستفادة من هذه المزايا عبر التاريخ. ومن

منطلق أهمية استثمار المنجزات الحضارية، تبرز ضرورة العمل وتضافر الجهود لضمان استمرار المغرب في أدائه للدور الريادي في الانفتاح والتواصل الإيجابي المستمر مع محيطه. ويتجاوز هذا الانفتاح مفهوم التواصل الحضاري ليصل إلى مفهوم التكامل الحضاري، نظرًا لقوة التلاقح والاندماج الذي ميز الفعل الحضاري المغربي عبر التاريخ، سواءً في الأندلس أو العمق الإفريقي.

إن التكامل الحضاري يعد من أساسيات الإبداع، حيث إن الإمكانيات الحضارية، سواء كانت فكرية، أو نفسية، أو مادية، أو ثقافية، أو روحية، ليست مقتصرة على أمة معينة، بل هي ضرورية للحضارة الإنسانية بصورة عامة، ولا يمكن تحقيق ذلك إلا من خلال التكامل الحضاري. ومن هنا، فإن ما شهدته منطقة الغرب الإسلامي، وخاصة المغرب بأبعاده الأندلسية والإفريقية، يمثل دليلاً واضحاً على ملامح التكامل الحضاري التي ينبغي دراستها والاستفادة منها.

المحور الأول: أهم المصطلحات الهيكلية للموضوع

الحضارة

يعدُّ مفهوم الحضارة من أكثر المفاهيم إثارة للجدل، ويكفي أن نشير في هذا الخصوص إلى انشغال الكثير من المفكرين والفلاسفة به لأكثر من ثلاثة قرون، أي منذ القرن الثامن عشر وحتى يومنا هذا.

فهو في اللغة العربية مصطلح أصيل، قال ابن فارس: «الحاء والضاد والراء إيراد الشيء ووروده ومشاهدته. فالحضر خلاف البدو، وسكون الحضر الحضارة... قالها أبو زيد بالكسر وقال الأصمعي هي الحضارة بالفتح»⁴¹⁰.

⁴¹⁰ ابن فارس، أبو الحسن بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1979، كتاب الحاء باب الحاء والضاد وما يثلثهما، مادة حضر.

فتلخص من ذلك: أن الحضارة تفاعل مع الأشياء، وهو مؤدى كلام ابن فارس: إيراد، وورود، ومشاهدة. والمتفاعل هنا هو الإنسان، والأشياء هي: الأرض ومشتمالاتها الظاهرية والباطنية، أو بصفة عامة الطبيعة بعالمها العلوي والسفلي. ذلك التفاعل الذي يحول البداوة إلى حضارة وتمدن، ويستعمل مفهوم الحضارة في الخطاب التداولي الحديث بمعنيين: الأول وصفني، والثاني تقويمي. فالأول يعني: التعبير عن واقع أمة، ذلك الواقع الذي يستدمج كثيرا من التقاليد والتاريخ واللغة والدين، وما أنتجته هذه الأمة من لوازم العمران... بغض النظر عن قيمة كيانها بين الأمم. أما الثاني فيعني: تميز أمة عن باقي الأمم بجانب من جوانب المعرفة النظرية أو التجريبية، تميزا يعطيها حق التلبس بمفهوم الحضارة⁴¹¹. فباعتبار المفهوم الأول تكون لكل أمة حضارة، مهما كانت غارقة في التخلف، بينما يقيم المفهوم الثاني درجة الفاعلية لدى الأمة، فيجوز نعت أمة بكونها متحضرة أو متخلفة عن ركب الحضارة⁴¹².

فالفكر العربي أخذ كلمة الحضارة من التحضر الناجم عن الإقامة في مكان ما، وما ينجم عنه من تمدن، وبهذا المعنى تحدث ابن خلدون عن العمران المدني، كنقيض للبداوة، التي تشير إلى الارتحال والتنقل وعدم الاستقرار. الحضارة بهذا التحديد تبرز مع الاهتمام بالعمران وتشكيل المجتمع المدني المستقر المترابط والمتمدن⁴¹³، وهو يرى أنها تركز بصورة أساسية على الدين؛ لأنه يتضمن الجانب الروحي الذي يكفل الالتزام الأخلاقي الذاتي، ويوفر الترابط بين الأفراد

⁴¹¹. قسطنطين زريق، في معركة الحضارة، دار الملايين، بيروت، ط3، 1977، ص 17-18.

⁴¹². عبد الحليم زوير، حوار الحضارات: الضرورات والرهانات، مركز فاطمة الفهرية للأبحاث والدراسات، ط1، 1444/2023، ص 10.

⁴¹³. ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ط2، 1988، بيروت: دار الفكر، ج1 ص 216.

وتلاحمهم، وتحفيزهم على ضرورة الالتزام بالمبادئ، التي تساعدكم على تطوير حياتهم كالعدل والمساواة والتسامح والتعاون والرحمة، والابتعاد عن الجرائم، التي تهدد حياتهم كالغش والظلم والسرقة والقتل وغيرها⁴¹⁴. ومن هنا نستنتج أن الحضارة تضم نوعين من البنى، إحداهما عمرانية والأخرى اجتماعية⁴¹⁵:

أما الفكر الغربي فقد عرف مدرستين تعبر كل منهما بطريقتها الخاصة عن معنى الحضارة. الأولى تستخدم لفظ الحضارة Civilization بمعنى المدنية، بينما تلجأ الثانية إلى مصطلح الثقافة Culture. وما بين المدرستين طبعاً جدل طويل في هذا الخصوص⁴¹⁶.

إذن هناك في الغرب من لا يرى في الحضارة الغربية سوى مظهرها التقني، باعتبارها نتاج جهد بشري تراكمي في هذا المجال. صحيح أنها ارتكزت بداية على قيم الديانة المسيحية إلا أنها ابتعدت عنها بعد التصاقها بالدولة⁴¹⁷، وأضحت مع مبالغتها في الاهتمام بالجانب المادي تعيش حالة من الفراغ الروحي.

ولعل أهم تعريف، في نظري، هو ما ذهب إليه مالك بن نبي في مختلف كتاباته، أن الحضارة حضور وأثر؛ فهو يرى أن مفهوم الحضارة يتكوّن من عدة محاور ترتكز على انسجام الجهود الإنسانية وتكاملها مع قوانين التّهوض المادي والمعنوي، وجملة الشروط الخاصّة بالنموّ والازدهار في شتّى المجالات الفكرية والروحية والاقتصادية والمادية في الواقع المعاش⁴¹⁸؛ إذ الغاية من تاريخ الإنسان

⁴¹⁴. سعيد محمد السقا، فلسفة الحضارة وحوار الحضارات، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2010، ص 63 - 64؛

⁴¹⁵. عطا محمد حسن زهرة، تكامل الحضارات بين الإشكاليات والإمكانات، كتاب الأمة، العدد 161، 1435 / 2014، ص 26.

⁴¹⁶. F.S.C, Northrop, The taming if nations, the McMillan Company, New York, 1952, p 10.

⁴¹⁷. Ibid, p 118.

⁴¹⁸. جيلالي بوبكر، البناء الحضاري عند مالك بن نبي، دار المعرفة، الجزائر، 2010، ص 38.

السّير بركب التّقدّم إلى أفضل أشكال الحياة الرّاقية⁴¹⁹؛ ومن ثمّ تتطلّب عمليّة بناء الحضارة أسساً فكريّة معيّنة وجهوداً في عالمي الأشخاص والأشياء، ولكنّ ذلك لا يتم إلّا في صورة برنامج تربويّ يهدف لتغيير الإنسان من الداخل وفق شروط معيّنة، حتّى يتمكن من أداء وظيفته الاجتماعيّة ويحقّق بناء المجتمع المتحضّر⁴²⁰.

التواصل الحضاري

بخصوص التعريف اللغوي للتواصل، فإنه مصدر فعل تواصل يتواصل تواصلاً، على وزن تفاعل يتفاعل تفاعلاً ويعني المشاركة، أي تبادل التواصل بين طرفين أو عدة أطراف، والتواصل ضد التصارم⁴²¹، والتصارم: التقاطع⁴²²، يقال: تواصل القوم إذا اجتمعوا واتفقوا، وتواصلت الأشياء إذا تتابعت ولم تنقطع، ومنه تواصلت الدروس في الجامعة⁴²³. كما يفيد التعارف والتشارك وتمتين أواصر المحبة والتفاهم والتعاون، وعكسه هو الانفصال والتباعد وعدم التفاهم. أما اصطلاحاً، فهو يعني نقل الأفكار والتجارب وتبادل الخبرات والمعارف والمشاعر، وقد يكون التواصل ذاتياً بين الإنسان نفسه، أو بين الأفراد، أو بين الجماعات.

إن التواصل الحضاري وسيلة استيعاب منجزات الآخرين، والتعرف على ثرواتهم المعرفية وإمكاناتهم الثقافية، وبدونه تتحول الاختلافات الثقافية إلى يؤر للتوتر والصراع. ولا بد أن ندرك في هذا الصدد أن التواصل الحضاري

⁴¹⁹. مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، الجزائر، ودار الفكر، دمشق، ط3، 1986، ص 18.

⁴²⁰. محمد عبد السلام الجفائري، مشكلات الحضارة عند مالك بن نبي، الدار العربية للكتاب، تونس، 1984، ص 125.

⁴²¹. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط 1، - باب اللام فصل الواو.

⁴²². إبراهيم أنيس، وآخرون، المعجم الوسيط، المكتبة الإسلامية، إستانبول، تركيا ط 2، 1972م، حرف الصاد مع الراء.

⁴²³. أحمد العايد، وآخرون، المعجم العربي الأساسي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 1988م، حرف الواو مع الصاد.

لا يستهدف الوصول إلى حالة من المطابقة بين الثقافات ولا حتى التكامل الحضاري، وإنما يستهدف بالدرجة الأولى الحوار واستيعاب الآخر والتعرف على مختلف الثقافات بما تحتويه من قيم إنسانية وحضارية.

إن التواصل الحضاري هو تبادل الثقافات الرئيسة أو فروعها وأنساقها، الاتصال ببعضها البعض تحاورا وتعارفا وتلاقحا، وهذا التواصل قد يكون تواسلا أفقيا يتم بين ثقافات مترامنة أو بين أقاليم ثقافية معينة، وقد يكون تواسلا رأسيا يتم بين الأجيال المتعاقبة لثقافة ما أو بين فئاتها أو طبقاتها المترتبة اجتماعيا.

ولعل حقيقة التواصل تتمثل في تقاطع حاجات ومصالح الناس، والتي يرغبون في تحقيقها، فينشأ عن هذا التفاعل ثقافة جديدة تتناسب مع أهداف التواصل مثل المعرفة بالموجودات واستجلاء صور الاستقرار والسلام⁴²⁴.

ويتحقق التواصل الحضاري بعدة عوامل، أهمها: التعارف والحوار والتعاون؛ والاحتلاط والتعايش؛ والتنقلات والرحلات؛ والتبادل التجاري...

التكامل الحضاري

يشير مصطلح التكامل إلى مستوى معين من التفاعل بين جماعات متعددة، وذات خلفيات حضارية متباينة، ويفترض أن يتعد بها عن الصراعات والحروب، ليرسخ بدلا من ذلك حالة السلام، الأمر الذي يمكن تلك الجماعات من مواجهة ما يعترضها من مشكلاتها بكفاءة واقتدار، وتحقيق ما تصبو إليه من تطور وتقدم إنساني عام. التكامل بهذا التحديد عملية تطويرية تراكمية تنهي مرحلة معينة من حياة الجماعات البشرية لتبدأ مرحلة أخرى مختلفة في ظل حالة من الاستقرار⁴²⁵.

⁴²⁴. المرجع نفسه، ص 69 - 70.

⁴²⁵. Walter Mattli, The Logic of regional integration, Cambridge university press, Cam-

bridge, 1999, p 21

وقد برز الاهتمام بالتكامل بداية في مجال العلاقات الدولية؛ حيث عكف عدد من المفكرين على دراسته، فالاتحاديون يرون أن نهاية عملية التكامل تتمثل في نمو اتحاد فيدرالي بين الدول المكونة له، و«أرنست هاس Ernst Haas»، مثلاً، رأى فيه عملية خلق تجمعات سياسية محددة بتعبيرات مؤسسية وسلوكية⁴²⁶. ونادى به «روجي غارودي Roger Garaudy» انطلاقاً من نظرة الإنسان إلى الآخر على أنه جزء من ذاته، يكمل كل واحد منهما الآخر ويكشف له عما يعوزه⁴²⁷.

ولقد استخدم الغرب مصطلح التكامل الدولي بمعنى الاندماج «Integration»، في إطار الحضارة الواحدة، أي دخول عدة عناصر أو وحدات في بوتقة واحدة؛ بحيث تراجع الخصائص المميزة لها دون أن تختفي كما يحدث في حالة الوحدة «Unity». وتقترب دلالة المصطلح الأول من هذا المعنى في الجانب السياسي مع بروز واحدة أو أكثر من القوى السياسية، في سياق دور متميز تقوم به وفقاً لقدراتها وإمكاناتها، والاتحاد الأوروبي يقدم المثال على ذلك.

ولكن فيما يتعلق بالعلاقة بين الأمم جرى التركيز على الحوار بين الحضارات، كمدخل للقضاء على الخصوصيات الذاتية، وتشكيل ثقافة تطغى على غيرها من الثقافات الأخرى. وفي ضوء ذلك شهدت العقود الأخيرة من القرن العشرين حالة من التمدد الثقافي الغربي، ومحاولة التأثير في مواقع الثقافات الأخرى؛ بحيث تبدو الثقافة الغربية، وكأنها هي الوحيدة الحية والفاعلة⁴²⁸.

426. Ernst B. haas,, The study of regional integration, Cambridge university press, Cam-bridge, 1971, pp 6-7

427. روجيه غارودي، في سبيل حوار الحضارات، ترجمة عادل العوا، منشورات عويدات، بيروت، ط4، 1999، ص 186.

428. محمد جلاء ادريس، العلاقات الحضارية، دار القلم، دمشق، ط2، 2010، ص 277-49-41.

وهذا ما ذهب إليه مجموعة من رواد هذا الفكر كصامويل هنتنغتون وفرنسيس فوكوياما...

أما الأفارقة فلم يعرفوا هذا المصطلح في علاقاتهم مع بعضهم البعض في بداية الأمر، وكان الحديث يجري خلال القرن الماضي عن الوحدة الإفريقية، ثم ما لبث أن تراجع لتحل محله تعبيرات تشير إلى درجة من التعاون في إطار ما سمي بالاتحاد الإفريقي الذي أسس في 9 يوليو 2002 خلفاً لمنظمة الوحدة الأفريقية. تُتخذ أهم قراراته في اجتماع نصف سنوي لرؤساء الدول، وممثلي حكومات الدول الأعضاء من خلال ما يسمى بالجمعية العامة للاتحاد الإفريقي. يقع مقر الأمانة العامة ولجنة الاتحاد الإفريقي في أديس أبابا، أثيوبيا. ومن بين من بين أهداف مؤسسات الاتحاد الإفريقي الأساسية تسريع وتسهيل الاندماج السياسي والاجتماعي والاقتصادي للقارة.

ثم طرح مصطلح التكامل الحضاري بشكل محدود للغاية، للإشارة إلى مستوى رفيع من التفاعل الإيجابي بين أكثر من حضارة واحدة؛ بحيث تقوم كل منها بدورها في تقدم البشرية دون أي إقصاء. وفي هذا السياق يمكن البحث في مجالات التفاهم أو التعاون دون أن يكون هناك مجال للحديث عن الصدام؛ إذ لا مجال للتفاعل السلبي، الذي يجد تعبيراته في الصراع. وهذا ما نلمسه في علاقة المغرب بدول غرب إفريقيا؛ بحيث رغم أنهم دانوا بدين الإسلام وفق المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية، ورغم أنهم اتخذوا اللغة العربية لغة رسمية لأنها لغة القرآن... إلا أنهم لم يلغوا خصوصياتهم الثقافية...

المحور الثاني: أبرز مظاهر التكامل الحضاري بين المغرب ودول غرب إفريقيا؛

عرفت العلاقات المغربية الإفريقية عموماً، والغرب إفريقية خاصة، تواصلاً دينياً وثقافياً وحضارياً وفكرياً مستمراً منذ دخول أغلب شعوب هذه المنطقة في الإسلام وصل إلى حد الوحدة والتكامل، سواء كان ذلك في إطار الدولة الواحدة، أم في إطار دول وممالك إسلامية متجاورة ومتعاونة، واستمر هذا الوضع إلى حدود دخول الاستعمار الأوروبي إلى المنطقة، كما يتجلى ذلك في التراث العربي الإفريقي المشترك. لكن بمجرد ما وطئت أقدام الفرنسيين، خاصة، أرض إفريقيا الغربية انقطعت كل صلة بين المنطقتين طبقاً لاستراتيجية محددة الهدف منها فصل المغرب عن جذوره الإفريقية. وقد حاول المغاربة بجهودهم الذاتية إحياء هذه الصلاة، لكن ظلت هذه المجهودات محدودة ولا ترقى إلى مستوى ما تبذله فرنسا لطمس الحضارة العربية الإسلامية بإفريقيا، أو على الأقل تشويهها.

هذا التكامل الحضاري طيلة الفترة قبل دخول الاحتلال الأوروبي، كان عبر مؤسسات وطرق متنوعة ومتعددة، نذكر أدوار أهمها في ما يأتي:

1. دور المساجد والمدارس

إن انتشار الإسلام في إفريقيا الغربية كان البادرة الأولى في نشوء المدن الإفريقية التي تقع على طريق القوافل، وكان للمدن الإفريقية الإسلامية طابع خاص؛ بحيث كان لكل مدينة مسجدها الكبير، على غرار ما هو موجود المغرب والأندلس، يجتمع فيه الناس للصلاة وحفظ القرآن الكريم وسماع الدروس والتفقه في الدين، والتعارف والتآلف، وقد نظمت المدن الإسلامية في دول غرب إفريقيا من حيث تخطيطها لتلائم حياة الفئات الاجتماعية وفقاً للأغراض الاقتصادية، من ذلك تنظيم المحازن والمتاجر والحوانيت التي

بنيت طول المسجد والتي تبيع المسابح والعتور والكتب ثم تستدير الأبنية الأخرى حول المسجد لتقوم فيها أعمال التجارة والصناعة، ويأتي في نهاية هذه الأبنية حوانيت الحدادين... يقول المؤرخ الغيني جبريل فيان: وإن تقدم الإسلام في القرن الثالث عشر قد دعا السلاطين إلى بناء المساجد للجماهير المؤمنة بالدين الجديد، وقد نقل هذا المؤرخ من المؤرخ الإفريقي محمود كعت التمكنكي صاحب «تاريخ الفتاش»⁴²⁹، إن السلطان موسى صاحب مالي (1308/ 1332) قد أنشأ أثناء سفره إلى الحج في كل مدينة مر بها مسجدا، ولما عاد من الأراضي المقدسة اصطحب معه المهندس الشاعر إبراهيم الساحلي، فأشرف على بناء مسجد في تومبوكو، ومسجد في غاؤ، ومسجد في نياني عاصمة مالي، وقد بنى في العاصمة أيضا مجلسا للسلطان به قاعدة كبيرة وفي القرن الرابع عشر عمل مهندس مراكشي على بناء مسجد جند المشهور وهو نموذج للتمازج الفني المغربي الإفريقي، وفي القرن الخامس عشر قام المعماري الإفريقي محمد قاوي الذي يقيم في المغرب ببناء مسجد الجامع في تومبوكو، وقد خرب هذا المسجد بعد ذلك وأعيد بناؤه.

أم فيما يخص المدارس، فإن المدرسة الكتبية، تعد نموذجا للتفاعل العلمي والروحي والثقافي بين المغرب والدول الإفريقية في العصر الحديث، وفي هذا الشأن تشير إحدى الدراسات إلى رسالتين وجهتا إلى أمير المؤمنين عبد الرحمن بن هشام العلوي ملك المغرب مع الوفد الذي بعثه السلطان إليهم برئاسة بابا أحمد بن عبدالرحمن، يطلب تأليف جده الشيخ المختار الكنتي.

وقد وصف الشيخ المختار (الحفيد) السلطان في رسالته بأنه «أمير المؤمنين، وإمام الأئمة، والخليفة المستخلف، وظل الله في أرضه»، وأثنى على المولى سليمان، ونصح السلطان بمجالسة العلماء وصحبهم.

⁴²⁹. محمود كعت التمكنكي، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكبر الناس، وذكر وقائع التكرور، وعظائم الأمور، وتفريق أنساب العبيد من الأحرار، مؤسسة الرسالة ناشرون، ط1، 1435/2014.

وتتضمن الخزانة الحسنية بالرباط رسالة ثانية تشهد على عمق الروابط والصلات العلمية والصوفية والثقافية بين المغرب وإفريقيا، وهي رسالة من الشيخ أحمد البكاي، الذي تولى أمر الزاوية الكتبية بعد وفاة أخيه المختار (الخليفة) بن محمد المختار الكنتي إلى أمير المؤمنين عبد الرحمن بن هشام العلوي ملك المغرب، وقد افتتحها بحمد الله والصلاة والسلام على رسوله وعلى صحبه وخلفائه وعلى آله وذريته، «وعلى خليفة عصرنا... مولانا عبد الرحمن... بارك الله عليه وعلى بنيه»، ثم يحمد الله «الذي أكرمنا بنبيه، وفضلنا به على جميع الأمم، ثم وفقنا لاتباع سنته وخصنا باتباع عترته، فنحن يبيعهم في بيعته»⁴³⁰.

إن المدرسة الكتبية وشيخها المختار الكنتي، امتازت بغزارة إنتاجاتها، فقد خلف هذا الشيخ تصانيف شتى تدل على موسوعيته وعلمه الوفير، مما جعله يؤلف في الفقه، والنحو، والحديث، والتفسير، والتصوف، وغيرها، وهي تأليف لم تخرج في منهجها ومضامينها عما أنتجه العلماء المغاربة على مستوى وحدة العقيدة الأشعرية والمذهب المالكي والتصوف السني، ولا بد من التنبيه على ضوء الدراسة التي تناولت الشيخ الكنتي أن المجال الروحي كان طاغيا على عمله⁴³¹.

وإلى جانب مكانة هذه المدرسة في إغناء التواصل الفكري والعلمي بين المجال المغربي والإفريقي، فإننا نجد بعض الشخصيات، التي كان لها وقع إيجابي على استمرار التواصل الفكري والعلمي والروحي.

⁴³⁰. انظر هامش صفحة 263، التراث الصوفي المغربي، دراسة في بعض قضاياها ومعالها وأعلامه، أعمال الندوة الوطنية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس-فاس، منشورات مؤسسة مولاي عبد الله الشريف للدراسات والأبحاث العلمية، سلسلة فكر وذكر، 2019م.
⁴³¹. نفسه.

2. دور المذهب المالكي

إذا كانت الدولة الإدريسية قد أسهمت في ظهور المذهب المالكي بالمغرب الأقصى، ونشره في مختلف أرجائه، بل جعلته مذهباً رسمياً لها⁴³²؛ إذ ينسب للإمام دراس بن إسماعيل مع جبر الله بن قاسم إدخال المذهب المالكي إلى المغرب الأقصى، وإن كانت القرائن تؤكد وجوده به قبلهما، بسبب الدور الذي لعبه الوفود القادمة من إفريقية والأندلس؛ حيث كان منهم علماء وفقهاء أسهموا في نشر المذهب المالكي بالمغرب الأقصى. فإنه بمحجى الدولة المرابطية تعمم المذهب المالكي أكثر، ويتجلى ذلك في المراكز العلمية والأسر العلمية التي انتشرت لتشمل مختلف المدن المغربية، وبرز فقهاء كبار كأبي عمران الفاسي، ووجاج بن زلو اللمطي، وعبد الله بن ياسين. فقد كان هؤلاء الفقهاء والمراكز العلمية، وكذا الأسر العلمية دور هام في انتشار المذهب المالكي في مختلف المدن المغربية خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين/التاسع والعاشر الميلاديين.

ومن أهم وسائل انتشار المذهب المالكي ومن خلاله انتشار الإسلام، في غرب إفريقيا، نذكر ما يأتي:

القوافل التجارية: من أشهر الطرق التجارية، التي عن طريقها انتشر الإسلام في إفريقيا عبر المغرب، نجد الطريق الذي كان يمتد من مصر عبر برقة إلى المغرب، ومنه إلى مصب نهر السنغال، وكذلك طرق القوافل التي كانت تمتد من بلاد المغرب الأقصى إلى بلاد السودان، سواء تعلق الأمر بالطرق الساحلية أم بالطرق الداخلية المعروفة.

⁴³². اختلفت الروايات حول الفترة التي دخل فيها المذهب المالكي إلى المغرب الأقصى، فتذهب الرواية الأولى إلى أنه دخل في بداية تأسيس الدولة الإدريسية أي في أواسط القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي، في حين تذهب الرواية الثانية إلى أنه دخل في أواخر عصر الأدارسة، أي أواسط القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي.

الرحلات الحجية ورحلات طلب العلم، يذكر ابن بطوطة في رحلته أنه لما كان في «إيولاتن» في طريقه إلى مالي، فكر في أن يسافر مع حجاجها، ثم تراجع بعد أن ظهر له أن يتوجه لمشاهدة حضرة ملكهم، فبقي هناك نحو خمسين يوما في ضيافة أهلها، منهم قاضي ولاته محمد بن عبد الله بن ينومر، كان «من الفقهاء الحجاج» وأخوه الفقيه المدرس يحيى⁴³³. ولما وصل إلى مدينة مالي لقي القاضي بها عبد الرحمن من السودان، وصفه بأنه: «حاج فاضل له مكارم أخلاق»⁴³⁴. وقال العمري في سياق أحداث عام 724هـ، إنه قدم فيه للحج ملك التكرور موسى بن أبي بكر في جمع كثير ووصف الملك المذكور بأنه فقيه مالكي⁴³⁵، وفي صبح الأعشى أن أخ موسى بهذا وخلفه منسا سليمان بن أبي بكر «جلب إلى بلاده الفقهاء من مذهب الإمام مالك رضي الله عنه وتفقه في الدين»⁴³⁶.

وفي أنس الساري والسارب⁴³⁷ لأبي عبد الله القيسي الشهير بالسراج الملقب بابن ملبح (كان حيا عام 1045هـ) معلومات جد مفيدة عن رحلته إلى الحج، انطلاقا من مدينة مراكش ضمن الركب الحجازي؛ حيث تحدث عن مراحل الرحلة من مدينة مراكش إلى المدينة النبوية، وذكر فيها أشياء مهمة كتعاطي البيع والشراء، والالتقاء بالركب الفاسي في الطريق والوقوف على مشهد الشيخ خليل المالكي... وصولا إلى المدينة والوقوف على قبر إمام المذهب مالك بن أنس، كما ذكر الالتقاء بالركب التونسي بالإضافة إلى كلام على مخاطر الطريق وصعوبتها.

⁴³³. ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق عبد الهادي التازي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة التراث، ج1 ص 255 - 256.

⁴³⁴. نفسه، ص 259.

⁴³⁵. ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2010، ج 27 ص 345.

⁴³⁶. القلقشندي، أبو العباس أحمد، صبح الأعشى، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1922، ج5 ص 297.

⁴³⁷. القيسي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، أنس الساري والسارب، حققه وقدم له وعلق عليه، محمد الفاسي، فاس، 1968.

يقول الأستاذ محمد الفاسي في تقديم الكتاب: «تعتبر هذه الرحلة فريدة من نوعها؛ لأن صاحبها قصد الحجاز على طريق الصحراء مخترقاً بلاد درعة وتوات وتديكلت في أيام الوليد السعدي سنة (1040هـ - 1630م) وهو يصف المراحل التي قطعها في الصحراء المغربية إلى أن وصل الفزان ثم تابع السير قاطعاً البلاد الطرابلسية إلى أن دخل القطر المصري، ولا شك أن قوافل الحجاج كانت تتبع هذه الطريق قبل القرن العاشر، ولكن لم تصلنا رحلة واحدة تحدثنا عن البلاد الصحراوية وترسم لنا بهذه الدقة المنازل والعيون والمناهل»⁴³⁸

أما فيما يتعلق بالرحلات العلمية، تفيد كتب التراجم والطبقات والتاريخ والرحلات، أنه كان لكثير من العلماء المغاربة أثر حميد في نشر المذهب المالكي عن طريق الرحلة العلمية، وقد قامت عدة رحلات عبر التاريخ الوسيط والحديث بين المغرب وبلاد السودان لطلب العلم أو التدريس.

ففي رحلة ابن بطوطة ذكر عدد من العلماء والقضاة والأئمة والطلبة، منهم القاضي أبو العباس الدكالي⁴³⁹، والإمام الفقيه محمد الفيلاي⁴⁴⁰، ومحمد بن الفقيه الجزولي وصهره عبد الواحد المقرئ، وعلي الزودي المراكشي من الطلبة⁴⁴¹ ممن كانوا بتمبكتوو يُدرّسون أو يدرّسون ويتقاضون من الملك رواتب حسنة⁴⁴² ولعل من التجار: محمد بن عمر من مكناسة والحاج محمد الوجدي التازي⁴⁴³.

⁴³⁸. المرجع السابق، ص 1.

⁴³⁹. رحلة ابن بطوطة (2018)، ص 699.

⁴⁴⁰. نفسه، ص 702.

⁴⁴¹. نفسه 691.

⁴⁴². الوزان، وصف إفريقيا، ص 541.

⁴⁴³. رحلة ابن بطوطة (2018)، ص 702.

ومن العلماء الجامعين بين الحقيقة والشرعية الذين رحلوا من بلادهم المغرب إلى بلاد السودان، الشيخ الفقيه محمد بن عبد الكريم المغيلي (ق10هـ)، «كان له ستة ممالك من السودان كلهم يحفظون مدونة البرادعي عن ظواهر قلوبهم وكلهم فقهاء»⁴⁴⁴، وكان قد هاجر إلى الصحراء، واستقر ببلاد توات ونشر العلم هنالك، وبلغت دعوته إلى بلاد السودان، فأسلم على يده أهل عمل سلطان تمبكتو وحسن إسلامهم»، وقيل: «أسلم على يده السلطان المذكور نفسه»⁴⁴⁵، توفي المغيلي ببلاد توات وكان له عقب هنالك»⁴⁴⁶، وفي رسالته الجوابية على أسئلة السلطان أسكيا ما يعكس الدور الكبير الذي قام به العلماء في تثبيت الثوابت الدينية وترسيخها في النفوس، كقوله فيما يتعلق بالعقيدة رافضا تكفير الناس: «لا يُكْفَرُ أحد بذنب من أهل القبلة»، وكاستشهاده في المسائل الفقهية بأقوال أئمة المذهب كابن القاسم وابن رشد و أبي القاسم البرزلي، وتوسله في الدعاء بجاه سيدنا محمد (ص).

وفي مقابل الرحالة من المغرب إلى بلاد السودان نجد الوافدين منها إليه كالعلامة أحمد باب التمبكتي وعمر بن محمد أقيت المتوفى بمراكش وأحمد بن اندغ محمد السوداني قاضي تمبكتو وإمامها زمنا، الذي مكث في إيليج واشتهر بشرحه الآجرومية.

ويعيد التاريخ نفسه، وتتجدد الرحلات العلمية وتتم اللقاءات بين علماء إفريقيا من خلال هذه المؤسسة العلمية المتفردة، وتسترجع جامعة القرويين بفاس دورها الإشعاعي بتوافد الطلبة والأئمة والمرشدين عليها من شتى الأمصار.

⁴⁴⁴. الشفشاوني، محمد بن عسكر الحسني، دوحة الناشر لخاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ص 130.
⁴⁴⁵. في الهامش: تحريف لتمبكتو وفي الواقع لم يسلم سلطان تمبكتو على يد المغيلي بل كان هو وأجداده مسلمين وإنما اتصل المغيلي بآسكيا محمد الكبير حوالي عام 908هـ / 1502م بعد أن قتل اليهود ابنه في توات.
⁴⁴⁶. دوحة الناشر، ص 130.

وفي المغرب اليوم آلاف الطلاب، القادمين من مختلف الدول الإفريقية، تنفيذاً لتوجيهات سامية في مجال التعاون العلمي والثقافي، وفي مجال تكوين الأطر والنخب الإفريقية. ومنهم بمعهد محمد السادس لتكوين الأئمة المرشدين والمرشدات عدد كبير، بل لا تخلو جامعة من الجامعات المغربية ومؤسسات التكوين المهني وتكوين الطر المدنية والعسكرية من طلبة أفارقة...

3. دور الدبلوماسية الدينية

وبما أن المذهب المالكي يعتبر إحدى أهم ركائز التكامل الحضاري والمشارك الإنساني القيمي بين الحكام المغاربة وحكام وشعوب غرب إفريقيا، فلقد أسهم الشرفاء الأدارسة خلال القرن 2هـ / 8م في إنشاء روابط قوية مع بلاد السودان الغربي، مما أفضى إلى نشر الإسلام بها عن طريق الدعاة، الأمر الذي دفع ملوك غانه، وكانم إلى ادعاء النسب العلوي، وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على متانة هذه العلاقات واستمراريتها.

ولقد توطد الأمر أكثر مع المرابطين الذين نشروا الإسلام بمملكة غانه؛ إذ أصبح بينهما تعاون واتفاق، وتبادل المراسلات؛ من ذلك قيام ملك غانه بإرسال رسالة إلى يوسف بن تاشفين وقد لقبه فيها بأمر أعما⁴⁴⁷.

وكذا الأمر مع الموحدين؛ إذ رغم كبير اهتمامهم بتوطيد علاقتهم التجارية مع بلاد السودان، فالروابط الروحية الدينية لم تنقطع على عهدهم ولا من بعدهم، بل نمت بقوة في العصر المريني. فهذا منسا موسى يحرص على إيجاد الطريقة المثلى التي تمكنه من توطيد علاقاته مع المرينيين⁴⁴⁸.

⁴⁴⁷. محمد شعبان أيوب، بلاد التكرور وغانه.. كيف انتشر الإسلام في غرب أفريقيا؟، مقالة نشرت بموقع الجزيرة/ميدان بتاريخ 29/10/2021.

⁴⁴⁸. نفسه.

بالفعل، فقد بلغت هذه العلاقات أوجها خلال عهد أبي الحسن المريني؛ حيث تكونت بينهما علاقة صداقة ومودة، وذلك بسبب خصائصها المتقاربة والمتشابهة، فكلاهما يتصف بالتدين والورع وحب الفقهاء والعلماء وتكريمهم والاعتناء بهم، بالإضافة إلى قوة وعظمة دولة كل واحد منهما، وفي هذا يقول العمري عن السلطان منسا موسى: «وجلب إلى بلاده الفقهاء من مذهب مالك رضي الله عنه»، ثم إن نفس السلطان أثناء أدائه فريضة الحج، اشترى مجموعة من كتب فقه المالكية⁴⁴⁹.

علما أن هذه العلاقات تطورت لاحقا بين منسى سليمان وأبي الحسن المريني حيث تبادلوا الهدايا والسفارات، حتى إنه حينما توفي السلطان أبو الحسن المريني أقام له منسا سليمان مراسم العزاء، واستدعى الأمراء والفقهاء والقاضي والخطيب، وصادف ذلك وجود ابن بطوطة بمالي فحضر معهم، وختموا القرآن وقاموا بالدعاء لأبي الحسن، وكذا منسا سليمان⁴⁵⁰.

وكان من نتيجة ذلك انتشار المذهب المالكي وتمدده في بلاد غرب إفريقيا ليرسخ بذلك جذوره بها، ويصبح المذهب الرسمي لها، خاصة في عهدي منسا موسى ومنسا سليمان من ملوك مملكة مالي، الذين كانا من أكبر الدعاة للمذهب المالكي.

449. العمري، مسالك الأبصار في مملك الأمصار، ج4، ص 49..

450. ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج 2، تحقيق علي المنتصر الكتاني، بدون

تاريخ، ص: 690.

4. دور التصوف والزوايا

لابد من الإشارة إلى أن تأسيس الطرق/ الزوايا بالمغرب قد أسهم في تحديد مساره التاريخي، وبخاصة في القرن 10 هـ/16م، فكانت مساهمة المتصوفة / الصلحاء، حاضرة لتسيير شؤون الدولة، سواء ما كان بالبوادي أو بالحوضر.

وإذا كان الأمر على هذا الحال بالمغرب، فقد انعكس تأثيره على ما والاه جنوبا؛ حيث شكلت هذه الطرق الصوفية إحدى حلقات التواصل المهمة التي انتقلت عبرها العقيدة الإسلامية والمؤثرات الروحية بين طرفي الصحراء الكبرى⁴⁵¹، ولاسيما بعد أن تعززت قوتها وأصبحت تضطلع بمهام كانت تقوم بها جهات أخرى في الأصل⁴⁵²، ويمكن أن نذكر بعض الطرق الكبرى والأكثر تأثيرا كالقادرية والشاذلية والجزولية الكنتية وغيرها... الشيء الذي يظهر التأثير الكبير لهذا المشترك الحضاري ذي الصبغة الدينية على الكثير من أوجه الحياة العامة بمناطق غرب إفريقيا⁴⁵³، ذلك أن الخطاب الصوفي الموجه إلى إفريقيا جنوب الصحراء غلب عليه الطابع الروحي، ونهج السلوك القويم يطبعه التسامح والوفاء، وهو ما يذكره العالم والمؤرخ النيجري الشيخ آدم الإلوري عندما يقول: «وأهم الطرق الصوفية التي لعبت دورا هاما في غرب إفريقيا ثلاث، وهي: القادرية، والتجانية، والسنوسية»⁴⁵⁴.

⁴⁵¹ bitbol, (Michel), Tombouctou et les Arma de la conquête Marocaine du Soudan Nigérien en 1591 à l'hégémonie de l'Empire Peul du Macina en 1833, p 12.

⁴⁵² عماري الحسين، المغرب والتجارة العابرة للصحراء من القرن 15م إلى القرن 18م، إسهام في دراسة تاريخ المغرب وعلاقاته التجارية مع السودان الغربي في العصر الحديث، أطروحة الدكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ج1، ص: 183.

⁴⁵³ عادل مساوي، علاقات المغرب بإفريقيا جنوب الصحراء بعد انتهاء القطبية الثنائية، أطروحة الدكتوراه في القانون العام، جامعة محمد الخامس، أكادال، كلية العلوم الاقتصادية والاجتماعية، الرباط، السنة الجامعية 2002 / 2003، ص: 78.

⁴⁵⁴ آدم عبد الله الإلوري، الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فوديو، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط1، 2014، ص 62.

ونظرا للأدوار التي قامت بها الطرق والزوايا الصوفية المغربية، فقد باتت من الأمور التي لا يمكن تجاوزها ولا إغفالها في تاريخ علاقات المغرب الروحية بإفريقيا جنوب الصحراء؛ حيث نشأت كمراكز علمية ودينية انتشرت عبر ربوع إفريقيا لهدف روحي تعليمي تربوي للمريدين، وكملاجئ للمحرومين وأبناء السبيل، ومنتدى للعلماء والفقهاء والطلبة، ومواقع تبصر فكري وديني كذلك وكان مؤسسو الزوايا من المشايخ الذين نالوا احترام الناس وتقديرهم لورعهم⁴⁵⁵.

وجدير بالذكر أن «مؤسسة الزوايا» بالمجال الصحراوي اضطلعت بالمهمة التعليمية الدينية، فهم «حملة العلم والدين في هذه البلاد قاطبة قديما وحديثا، لا ينازعهم ذلك طائفة من طوائفها ولا تقاربهم»⁴⁵⁶. وقد ذكر بابا ولد الشيخ سيديا أنهم «سموا بالزوايا لملازمتهم للزوايا جمع زاوية، وهي أيضا موضع للعبادة»⁴⁵⁷ فأمام ممارسة هذه الوظيفة على المستوى المحلي كان من المفروض أن تقوم قبائل الزوايا بهذا الدور في امتداده الإفريقي⁴⁵⁸. ونذكر في ما يأتي أشهر الزوايا الصحراوية المؤثرة في غرب إفريقيا:

- **زاوية الشيخ سيدي أحمد العروسي:** أسس الشيخ سيدي أحمد العروسي بعد انتقاله من مراكش إلى أرض الساقية الحمراء، حوالي سنة 958 هـ/1549م، أسس الزاوية بالساقية الحمراء، وذاع صيتها، وشُدَّت إليها الرِّحال. وكمثال على ذلك ما أورده الفقيه يوسف بن عابد الإدريسي الحسني الفاسي المغربي (984هـ/1036هـ) في كتابه «ملتقط الرحلة من المغرب إلى حضرموت»،

⁴⁵⁵. عادل مساوي، م س، ص 78.

⁴⁵⁶. الخليل النحوي، بلاد شقيط النار والرباط، عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد الديني، من خلال الجامعات البدوية (المحاضر)، منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس 1987، ص 34-35.

⁴⁵⁷. نفسه، ص 228.

⁴⁵⁸. ماجدة كرمي، إسهامات علماء الحضرة بالصحراء المغربية في توطيد دعائم الثوابت الدينية المشتركة بين المغرب وعمقه الإفريقي - شذرات من الماضي -، مجلة العلماء الأفارقة، العدد 1، السنة 1، شهر صفر 1441هـ، أكتوبر، 2019. ص 283 - 296.

و مما جاء في كتابه ما نصه: «... فجاء خُطَّار⁴⁵⁹ من الرمال التي مثل المفاوز يريدون البدو الذين أنا أريدهم لزيارة الشيخ أحمد بن عمر المذكور... فسار بي واحد من الحي المذكور حتى دخلت على الشيخ أحمد المذكور آخر النهار، وفرح بوصولي إليه كثيرا، و أردت أقبل قدمه فأبى و قال: لو تركنا قدمنا يقبلها مثلك ما جاءت إلينا الأقدام، يشير بذلك الى التواضع مع الله تعالى، و ينزل الناس منازلهم، و لكل مقابلة مع المشائخ الوافدين عليه على قدر أحوالهم و ما تقتضيه المراتب، لقوله عليه السلام: «أنزلوا الناس منازلهم»، فأقمت عنده نحو خمسة عشر يوما في أطيب حال و أنعم بال..... وكانت بيني و بينه منازلات ومطارحات و مكاشفات ...»⁴⁶⁰

تقع زاوية الشيخ سيدي أحمد لعروسي بوادي الساقية الحمراء، على بعد حوالي 14 كلم من صخرة الطويلة الشهيرة، و 30 كلم من مدينة السمارة. وقد كان الشيخ يتعبد فيها ويدرس العلم الشرعي لساكنة المنطقة. ويقطن الآن قرب الزاوية بصفة شبه دائمة عدد مهم من أفراد قبيلة العروسيين تيمنا بجدهم؛ حيث أقيمت هناك بناية حديثة للزاوية بدل الزاوية القديمة⁴⁶¹.

• زاوية الشيخ سيدي أحمد الرقيبي⁴⁶²: وقد ارتكز نفوذها في المنطقة على ثلاثة أسس وهي:

شرف الأصل: فشييوخها يتصلون بالرسول صلى الله عليه وسلم عن طريق مولاي عبد السلام بن مشيش دفين جبل العلم بإقليم الشاون بالمغرب، الجدل الأعلى للسيد أحمد الرقيبي، وهم يحتفظون بشجرة نسب ثابتة تؤكد هذا الأصل، وتنفي عنه شكوك الطاعنين. ومن أهم أدوارها في المنطقة:

⁴⁵⁹ الخطار بضم الخاء، الرجل أو المسافرين.

⁴⁶⁰ الحسيني الفاسي المغربي، الشريف يوسف بن عابد بن محمد، رحلة ابن عابد الفاسي من المغرب إلى حضرموت، تحقيق إبراهيم السامرائي وعبد الله محمد الحبشي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1993، ص 67-69.

⁴⁶¹ منتديات الأشراف العروسيين، <https://laroussine.yoo7.com/t21-topic>

⁴⁶² محمد سالم بن لحبيب بن الحسين بن عبد الحي، جوامع المهمات في أمور الرقيبات، تحقيق، مصطفى ناعمي، المعهد الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1412هـ/1992م.

بث الإشعاع الديني والعلمي في المنطقة: جمعت هذه الزاوية إلى جانب الشرف الطيني، شرف الإيمان والعلم والصلاح، فلم تتوان في نشر العلم والمعرفة وإقامة الحد على الطغاة والظلمة، فقصدها الطلبة من مختلف الآفاق، وتخرج من مدارسها ومحاضرها عدد من الشيوخ والعلماء⁴⁶³.

الجهاد وحماية الثغور: فقد ظلت الرسالة التي استشهد من أجلها قطب هذه الزاوية، وملهم أسرارها الشيخ مولاي عبد السلام بن مشيش. فأقام شيوخها الرباطات والزوايا على الشواطئ والثغور، وعمروها بالمجاهدين، وعبّئوها بما تحتاجه من عدة فكانت حصنا منيعا للإسلام بالجنوب.

- **زاوية أسا:** وقد ارتبطت في نشأتها بالعمليات الجهادية المقاومة التي قادها صلحاء صنهاجة وركراكة وبني دغدوغ خلال القرنين 15م و16م لطرد الإسبان والبرتغاليين من الثغور الجنوبية للمغرب، إذ تم تأسيسها في مجال 'تكنة' على ضفاف أحد روافد درعة حوالي القرن 11هـ من طرف سيدي محمد الشبكي لتخليد بطولات المجاهدين الذين شاركوا في هذه العمليات⁴⁶⁴.

- **زاوية الحكونية:** وهي ترتبط بشرفاء فيلاله في الصحراء، وقد تم تأسيسها من طرف سيدي بوبكر أحد شرفاء تافيلالت، غير بعيد عن باقي المراكز الصوفية المتناثرة على ضفاف روافد الساقية الحمراء⁴⁶⁵. فشكلت منذ تأسيسها مدرسة متنقلة يأوي إليها سكان المنطقة للانتفاع ببركتها، والاعتراف من علم شيوخها.

⁴⁶³ محمد الظريف، الحركة الصوفية وأثرها في آداب الصحراء المغربية (1800 - 1956)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية، 2000، ص187.

⁴⁶⁴ قساوة الظروف الطبيعية المحيطة بها، وظهور بعض المدارس والزوايا غير بعيد عنها، قلص من دورها الإشعاعي في هذه المنطقة، فغادرها كثير من العلماء إلى المناطق المجاورة، واقتصرت نشاطها على إحياء ذكريات صلحائها في موسمها السنوي الذي يقام خلال الأيام الأخيرة من شهر صفر الخير قبيل عيد المولد النبوي بخمسة أيام. (محمد الظريف، الحركة الصوفية وأثرها في آداب الصحراء المغربية (1800 - 1956)، ص 190)

⁴⁶⁵ محمد الغربي، الساقية الحمراء ووادي الذهب، دار الكتاب، الدار البيضاء، ج 1، 1965، ص 130.

• **زاوية الشيخ ماء العينين:** اتخذت هذه الزاوية من الساقية الحمراء ووادي الذهب وما خلفهما من أقاليم منطلقاً لنشاطها، فتمكنت عن طريق حيوية مبادئها وموسوعية علمائها، وقربها من مراكز السلطة السياسية في مراكش وفاس، من اكتساب النفوذ واستقطاب عدد كبير من الأتباع والمريدين داخل الصحراء وخارجها، فامتد نفوذها شمالاً عبر الأطلس الصغير والمتوسط والكبير إلى بلاد الريف، وجنوباً إلى حدود نهر السنغال، وأخذ أورادها وأذكارها وأسرارها مجموعة من العلماء والأدباء⁴⁶⁶.

وأسهّم الشيخ ماء العينين بدور مهم في ترسيخ التصوف السني، لما قامت عليه حركته من أسس إصلاحية كمحاربة البدع، وقد تجلّت رغبته في توحيد الطرق الصوفية من خلال السعي إلى القضاء على أسباب الخلاف التي تحول دون وحدة هذه الطرق، فكانت دعوته صريحة لتوحيدها على اعتبار أن الطرق وإن تعددت واختلفت فمرجعها كلها لأمر واحد، هو الفناء في مشاهدة الله والنظر إليه عن كل ما سواه⁴⁶⁷.

وقد اشتهرت هذه الزاوية برصيدها الثقافي الكبير بفضل علمائها وأدبائها الذين استقطبهم من جميع الأقاليم؛ إذ قصدها الطلبة والمريدون من مختلف الآفاق، فصارت مركزاً بارزاً من مراكز الثقافة الإسلامية في منطقة شمال الصحراء وغرب إفريقيا⁴⁶⁸؛ حيث تعد امتداداً لما سبقها من طرق التصوف⁴⁶⁹.

⁴⁶⁶. الشيخ أحمد بن الشمس، **النفحة الأحمديّة**، المطبعة الجمالية مصر، 1330هـ/1912م، ص 118.

⁴⁶⁷. الشيخ ماء العينين، **مفيد الراوي على أني مخاوي**، تحقيق محمد الظريف، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ط1، 1999، ص 44.

⁴⁶⁸. محمد الظريف، م.س، ص 143.

⁴⁶⁹. حديم محمد سعيد امباكي، **التصوف والطرق الصوفية في السنغال**، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، 2002، ص 39.

أما أشهر الطرق الصوفية الصحراوية المؤثرة في غرب إفريقيا، فنذكر منها:

- **الطريقة الشاذلية**⁴⁷⁰: كما تنقل المعطيات المصدرية، فقد كان هناك وجود تأثير مهم للطريقة الشاذلية الناصرية بالصحراء⁴⁷¹، خاصة في أوساط قبيلة أهل برك الله في تيرس⁴⁷²، وقد حافظت زاوية تامكروت الناصرية على استمرارية انتشار التصوف الشاذلي بالصحراء، هذا ونشير إلى أن انتشار الشاذلية عرف أوجه مع شيوخ الطريقة الناصرية الدرعية، خاصة مع محمد بن ناصر الدرعي⁴⁷³ الذي أخذ عنه عدد كبير من الشناقطة.
- وتعتبر الشاذلية أول الطرق الصوفية التي وصلت إلى الصحراء، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الإشارة الفريدة التي تتحدث عن الانتماء الصوفي للشيخ سيد أحمد لعروسي الذي كان شاذليا زروقي السند⁴⁷⁴، فقد أخذ الطريقة عن الشيخ أحمد بن يوسف الملياني.

-
470. علي حسين السائح، **نحات من التصوف وتاريخه**، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، ط 2، 1997م، ص 333-331.
471. محمد عبد الله بن البخاري الفلاي، **الحياة العمرانية لأهل برك الله**، مخطوط في الخزانة الخاصة للمامون البخاري، ص 45-94، نقلا عن مقالة العلامة الشيخ محمد المامي الباركي وصلاته بالغرب الإفريقي، لأحمد يزيد برك الله بمؤسسة دار الحديث الحسنية
472. أحمد بن عمالك، **جوانب من تاريخ الزاوية الناصرية من النشأة إلى وفاة الشيخ محمد الحنفي** (1052هـ/1325هـ-1642م/1907)، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط 1، الرباط، 2006، ج 3، ص 371.
473. محمد لمين ولد سيد أحمد، **السلطة والفقهاء في إمارة التارزة خلال القرن التاسع عشر**، مطبعة المنار موريتانيا، 2003، ص 75.
474. أحمد الوارث، **سيد أحمد لعروسي: الشريف المتصوف، تاريخ الشرفاء العروسيين كمظهر من مظاهر الوحدة الوطنية**، ط 1، إصدار مركز الشيخ سيد أحمد لعروسي للدراسات والأبحاث، مطبعة بني يزناسن، الرباط، 2004.
- عبد المجيد الصغير، **إشكالية إصلاح الفكر الصوفي في القرنين 18-19**، ج 1، منشورات دار الآفاق الجديدة، الرباط، 1988.
- عبد اللطيف الشاذلي، **التصوف والمجتمع، نماذج من القرن العاشر الهجري**، منشورات جامعة الحسن الثاني، مطابع سلا 1988.
- بوشعيب منصر، **الفكر الصوفي والزوايا في مراكش**، مطبعة إفريقيا الشرق، 2015.

• **الطريقة القادرية**⁴⁷⁵: وقد عرفت عددا من الشيوخ البارزين، ساهموا بدور فعال في إقامة صرح القادرية في المنطقة، وترسيخ مبادئها بين القبائل الصحراوية والإفريقية، مثل سيدي اعمر، تلميذ المغيلي وغيره⁴⁷⁶.

• **الطريقة الكنتية - البكائية**: تشتهر الكنتية بمسميات أخرى من قبيل البكائية أو المختارية، أو الأزوادية ... وهي تنتسب إلى قبيلة كنتة⁴⁷⁷ التي ينحدر منها الشيوخ الذين أسهموا في شرح أدبيات الطريقة ووضع أسسها مثل محمد المختار الكنتي. ولقد انتشرت هذه الطريقة انتشارا واسعا، مستندة إلى قاعدة قبلية متينة دعمت نفوذها، ويعود كذلك إلى المكانة الاجتماعية والدينية التي حظي بها رجالها⁴⁷⁸.

ويقول عنها المستشرق الفرنسي بول مارتي Paul Marty: «ولقد تقمص كنتة القادرية، مثلما تقمصتهم هي وأصبح اسمهم مرادفا لها وغالبا ما تكنى القادرية السودانية بالبكائية نسبة إلى «الشيخ سيدي أحمد البكاي (بودمعة) أو المختارية نسبة إلى: الشيخ سيدي المختار الكبير، الذي كان المصلح الديني»⁴⁷⁹.

وقد ظهرت البكائية في الصحراء الكبرى والساحل السوداني في نهاية ق15م على يد الشيخ سيدي اعمر بن الشيخ سيدي أحمد البكاي، الذي تنتسب إليه الطائفة.

⁴⁷⁵. عبد الحي القادري، الزاوية القادرية عبر التاريخ والعصور، ط 1، تطوان، 1986.

⁴⁷⁶. محمد الكنتي، الطوائف والتلائد في كرامات الشيخين الوالدة والوالد، مخطوط خم، 690 في الرباط، من الورقة 55 إلى الورقة 96.

⁴⁷⁷. مريم بنت عبد الله، التأثير الثقافي للبيضان في منطقة السودان الغربي خلال القرنين 19 و20، (مالي والسنغال) نموذجاً، رسالة دبلوم الدراسات العليا المعمقة، كلية الآداب - ظهر المهرز -، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، 2006/2007، ص 79.

⁴⁷⁸. عبد الله موما، الكنتيون وعلاقتهم بالسلطة السياسية بالسودان الغربي خلال القرن 19، رسالة دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس، 2007، ص 124.

⁴⁷⁹. Paul Marty, Etudes sur l'Islam et les tribus du Soudan, les Kounta de l'Est et les Brabich, les Iguellad, T1, Editions Ernest Leroux, Paris, 1920, p 27.

بعد وفاة المغيلي الذي يعتبر مؤسس الطريقة القادرية وباعثها إلى بلاد السودان الغربي، أصبح سيدي اعمر الرئيس الأعلى للقادرية في بلاد التكرور بالصحراء الكبرى. واتسعت دائرة انتشار هذه الطريقة على يد أبناء الشيخ وأحفاده الذين تنافسوا في نشرها بين شعوب إفريقيا جنوب الصحراء، فحققت بفضلهم نجاحا كبيرا وانتشرت مبادئها في سائر الأصقاع، وقد بلغت هذه الطريقة أوج ازدهارها مع الشيخ المختار الكبير فقد أعاد لها أمجادها التاريخية في هذا الركن المنزوي من العالم الإسلامي بما حرره من أبحاث، وصدره من مريدين، ورسخه من آداب وتقاليد صوفية. وقد استمرت هذه التأثيرات إلى فترات متأخرة ولا أدل على ذلك ما ذكره الشيخ ماء العينين ابن الشيخ سيدي محمد فاضل بن مامين في مرحلة متقدمة بعد ذلك، وكان من أتباع الطريقة القادرية: «أن الورد القادري من أجل الأوراد قدرا وأوفرها ذخرا وأعلها ذكرا». ودخلت هذه الطريقة إلى إفريقيا جنوب الصحراء في ق 15م⁴⁸⁰. وعلى حد قوله: «الخليفة ورث الحرب والإقدام، والفقيه ورث الشرع والأحكام، والمتصوف ورث الكرامة والسمت والمقام والعلوم الدينية والفتح والإلهام»⁴⁸¹.

ويلخص لنا سيدي محمد الكنتي مدى اتساع نفوذ الطريقة القادرية الكنتية بقوله: «...حتى لم يبق موضع من برنو... فإن العادل محمد الباقر أمير برنو وما والاها كاتب الشيخ «سيدي المختار الكنتي» وأهدى إليه ودخل تحت طاعته، وكذلك أمراء الفلان وعلمائوها عموما، وخصوصا العلامة القائم بالدعوة إلى الله... وسائر متغلي الطوارق.. ثم رؤساء السودان والبنبرة وفلان الرماة...» يتبين لنا مما قاله نجل سيد المختار الكنتي مدى اتساع نفوذ الطريقة القادرية⁴⁸².

⁴⁸⁰. نزهة بن سعدون، الطريقة القادرية ودورها الديني والاجتماعي والوطني في إفريقيا جنوب الصحراء، (التصوف ودوره في إرساء الروابط والعلاقات بين المغرب وإفريقيا...)، أعمال ملتقى تيزنيت الولي للثقافات الإفريقية الدورة 3، 2017، ص: 261.

⁴⁸¹. المختار الكنتي، فتح الوهاب على هداية الطلاب، مخطوط، زاوية الشيخ سيد المختار الكنتي بانواكشوط. ص 25.

⁴⁸². عبد الله موما، م، س، ص 131.

5. دور التجارة والتجار

عمدتنا في حديثنا بهذا المحور ما أورده الرحالة يان بوتو تسكي في كتابه رحلة في إمبراطورية المغرب⁴⁸³:

«...المكان الذي توجد الملح المعدنية يسمى «تودني»، وهي تمثل حدود الولايات المغربية. في تومبوكتو ما زال الناس يرفعون الدعاء للإمبراطور، مع أن البلد مستقل. كان مولاي اسماعيل قد قام بفتحها وأعطاهم للبرابيش؛ وهي قبيلة عربية. وقد تمكنت البلاد، تدريجياً من التحلل من كل ضريبة... وليس ثمة عائلة كبيرة أو قبيلة في فاس، إلا وكان لها بعض الأفراد في تومبوكتو. تتحرك القوافل كل سنة من فاس، نهاية فصل الشتاء، وتقضي شهرين في الطريق. طريق تافيلالت آمنة، أما طريق سيكاسو فهي موضوع كثير من الشكاوى... كل هذه الوقائع أكدها لي سيدي التودي بوهلال، وهو الذي رافقني من جبل طارق إلى تطوان أبوه من أوائل تجار فاس، ولأنه كان يملك ثلاثين ابناً حياً، فيهم ثمانية عشر ذكراً، فقد تحتم على هؤلاء السفر إلى بلدان عدة، حيث يمارسون التجارة، ويتراسلون مع الأب. وقد كان اثنان منهم متزوجين في تومبوكتو، وواحد آخر في أسودا؛ وهي مدينة تنتمي لإمبراطورية كاشنا Caschna. هذا الأخير، كان قد قطع الطريق من تومبوكتو إلى القاهرة. وأراد أن يواصل من هناك إلى مكة، لكنه تعرض للنهب من قبل البدو، ففقد كل ماله. وقد تزوجت إحدى أخوات هؤلاء من الإمبراطور، مما دفع التودي إلى العودة...»⁴⁸⁴.

⁴⁸³هو كتاب دون فيه صاحبه، الكونت يان بوتوتسكي 1761-1815 «Jan Potocki» يوميات سفره إلى المغرب بين 2 يوليوز و 6 شتنبر من سنة 1791.

⁴⁸⁴يان بوتوتسكي، رحلة في إمبراطورية المغرب، ترجمة وتقديم عبد الله باعلي، مطابع الرباط نت، الرباط 2014، ص 37-39.

ساهمت التجارة في تعزيز ارتباط المغرب بعمقه الإفريقي على مختلف المستويات، حيث كان للتجار الدور البارز في نشر الثقافة المغربية⁴⁸⁵، إضافة إلى تعزيز العلاقات السياسية بين المجالين⁴⁸⁶، دون اغفال دورهم في نشر الدين الإسلامي ببلاد السودان⁴⁸⁷.

⁴⁸⁵ ساهمت المصاهرة بين المغاربة وقبائل بلاد السودان بشكل أساسي في نشر الثقافة المغربية، حيث كان التجار المغاربة يتزوجون من نساء تلك المناطق نتيجة بقائهم مدة طويلة هناك؛ فحدث تقارب ثقافي اجتماعي أدى إلى نشر الثقافة والقيم المغربية...
⁴⁸⁶ شكل التجار طبقة قريبة من البلاط الملكي أو النظام الحاكم، فتمتعوا بحرية الإقامة، واتخذهم الملوك والسلاطين مستشارين...
انظر: إبراهيم على طرخان، *دراسات في تاريخ إفريقيا الإسلامية*، مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض، 1981، ص2.

⁴⁸⁷ وبالرجوع إلى مختلف المصادر نجد أن التجارة عبر الصحراء هي أهم السبل الذي انتقل عبرها الإسلام إلى جنوب الصحراء؛ بحيث كان التجار خلال عملهم يعرفون السودان بالإسلام بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، مما أسهم في انتشار الإسلام على الخط التجاري الرابط بين غانده وصولاً إلى السنغال، فكان ذلك الانتشار سلمياً بعيداً عن أي نوع من أنواع العنف والقتال ولم تستخدم خلاله أي قوة عسكرية تحمي التجار الذي ينتمي معظمهم إلى قبيلة صنهاجة.

المحور الثالث: آفاق المشروع التكاملي

بعد الحركات التحررية في بداية القرن العشرين، بدأت الدول الإفريقية التفكير في الوحدة الإفريقية في فترة الستينات، رغم الجروح الغائرة وحالة التشرذم التي عمل الاستعمار الأوروبي في ترسيخها من خلال المسخ الثقافي، والتغيير الديني واللغوي... وفي ضوء هذه المعطيات وهذه الرغبة الجماعية، لم يتأخر المغرب عن دعم هذا المطمح، وإيجاد آليات لتنزيله إلى أرض الواقع مستندا في ذلك على إرث تاريخي استمد قوته من تعاقب القرون، ومركزا على توطيد أواصر الأخوة مع العديد من أشقائه الأفارقة وخاصة دول غرب إفريقيا.

كان الاهتمام بالعلاقات الدينية والروحية المشتركة أحد الأولويات في هذه الفترة، وهذا ما تجسد على عهد الملك الحسن الثاني -رحمه الله- عبر إنشاء مجموعة من المؤسسات تعنى بالشأن الديني والروحي للمغرب وبامتداداته بدول إفريقيا جنوب الصحراء... فقد كان لتأسيس رابطة علماء المغرب والسنغال للصدقة والتعاون 1985⁴⁸⁸ أثر إيجابي بخصوص التنسيق في مجال الدعوة الإسلامية، ناهيك عن الاهتمام بالطريقة التيجانية. وتبقى للدروس الحسنية الرمضانية التي كانت انطلاقتها سنة 1963 المكانة المتميزة في مجال رعاية العلم الإسلامي ونشر فكره وقيمه، لذا سهر أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس على ضمان استمراريتها وتطويرها بالإضافة إليها حسب ما تقتضيه مجريات العصر.

ولقد عمل المغرب على بناء وترميم بعض المساجد في عدة دول إفريقية، وكذا تنظيم دورات تكوينية لفائدة الخطباء القادمين من بعض الدول الإفريقية، وتوجيه دعوات لعلمائها من أجل المشاركة في الندوات واللقاءات العلمية، هذا دون أن ننسى المنح الدراسية المقدمة للطلبة الأفارقة وذلك لمتابعة تكوينهم بمختلف الجامعات المغربية.

488. المؤتمر الأول لرابطة علماء المغرب والسنغال، مجلة دعوة الحق، العدد 262، ماي 1988.

وفي هذا الصدد تم تدشين معهد محمد السادس لتكوين الأئمة المرشدين والمرشدات بالعاصمة الرباط في 27 مارس 2015⁴⁸⁹، وهي لا تكتفي بتكوين الأئمة المرشدين والمرشدات المغاربة فقط، وإنما يشمل هذا التكوين أئمة أجانب خاصة من دول إفريقية وأوربية وغيرها.

كل هذه المبادرات وغيرها، تأتي باستحضار الخطاب الملكي السامي الذي جاء فيه: «إفريقيا بالنسبة للمغرب، أكثر من مجرد انتماء جغرافي، وارتباط تاريخي، فهي مشاعر صادقة، من المحبة والتقدير وروابط إنسانية وروحية عميقة، وعلاقات تعاون مثمر وملمس، إنها الامتداد الطبيعي، والعمق الاستراتيجي للمغرب»⁴⁹⁰، تتضح لنا بجلاء مدى أهمية المشترك الإنساني والثوابت الدينية المشتركة والعميقة في العلاقات المغربية الإفريقية.

وهذا ليس بجديد على المغرب، ذلك أن جميع دساتيرها منذ أول دستور سنة 1962 وخاصة دستور 2011 تحرص بشدة على هذا التوجه الإفريقي للمملكة المغربية الشريفة. فكلها تقرر على أنها بصفتها دولة إفريقية، تجعل من بين أهدافها تنمية القارة الإفريقية لتتبوأ المكانة التي تليق بها ضمن منظومة المجتمع الدولي، ذلك أن الانتماء الإفريقي للمغرب يقيم ثابتاً من ثوابت المملكة.

وكما هو معلوم، فلقد أطلق جلالة الملك محمد السادس رؤية استراتيجية واعدة للتعاون مع الدول الإفريقية، تركز على خمسة أبعاد: البعد المرتبط بتحقيق الأمن والسلم الاستقرار ومحاربة الإرهاب، والبعد المتعلق بسياسة الهجرة واللجوء، والبعد المتعلق بالتعاون الاقتصادي والتجاري والثقافي، والبعد الروحي والديني، بالإضافة إلى البعد الإنساني والتضامني.

489. للمزيد من المعلومات يرجى الرجوع إلى الموقع الرسمي للمؤسسة على الرابط: <https://im6.ma>

490. الخطاب الملكي، بمناسبة الذكر 63 لثورة الملك والشعب، الذي ألقاه جلالة الملك محمد السادس نصره الله، يوم السبت 20 غشت 2016.

وبناء، عليه، وحتى يعود المغرب إلى دوره الريادي، في إطار التكامل والوحدة، باعتبار قاعدة رابح-رابح، وجب، إضافة إلى هذه المكتسبات، القيام بما يأتي:

- ضمان استمرارية المشاريع البنائية والمهيكلية الحالية، مع الحرص على تطويرها وتحديد آلياتها لتحقيق الأهداف المرجوة، والتي يأتي على رأسها إعادة إنشاء التكتل التاريخي المغرب-غرب إفريقيا؛

- تكثيف الجهود الدبلوماسية. بمختلف صيغها (الدينية والثقافية والعلمية والاقتصادية والاجتماعية والرياضية...) قصد إبرام المزيد من الاتفاقيات والشراكات في إطار تحقيق الأهداف المشتركة.

- ضرورة التفكير في مشاريع ضخمة ذات البعد الاستراتيجي تضمن استقرار الإنسان الإفريقي في قارته، وذلك بجلب الاستثمارات إلى إفريقيا، والتحكم في الموارد التي تتميز بها القارة، وذلك بتغيير قاعدة هجرة الإنسان من إفريقيا إلى أوروبا بتوفير سبل العيش والكرامة في بلاده، لأنه لا يمكن بناء حضارة إلا بإنسان ينعم بالكرامة والأمن والاستقرار في بلده وموطنه.

- ضرورة مواكبة هذه التحولات على مستوى المناهج والبرامج التعليمية والثقافية... حتى ننشئ جيلا مستوعبا لتاريخه التليد، ومتطلعا لمستقبل المنشود، وهذا لن يتم إلا بالتموقع الجيد والتخطيط المتقن لتحقيق الهدف الأسمى ألا وهو أن إفريقيا جديدة بأبنائها لبناء مستقبل أفضل.

خاتمة

حاولنا في هذه المقالة أن نسلط الضوء على ثانيا موضوع، تم تناوله كثيرا من زوايا مختلفة، خصوصا في العقود الأخيرة، في إطار تلك الرغبة الجامعة والملحة في العودة إلى الذات الحضارية، ولذلك أحببت أن أعنونه بالتكامل الحضاري بين المغرب ودول غرب إفريقيا، وليس التواصل الحضاري، لأن التكامل هي حالة حضارية عاشتها المغرب مع عمقه الإفريقي، خاصة الغرب منه، في فترة زمنية لا تقل عن السبعة قرون، وما خبا نورها وخفت وهجها إلا بعد دخول الإمبريالية الأوروبية المشبعة بروح الحقد وحب استئصال المغرب من جذوره الإفريقية التي جعلته في فترة زمنية قوة عالمية لا يستهان بها، نظرا لموقعه الجغرافي، ووحدته الدينية وهويته الجامعة التي بنيت منذ البدايات الأولى على ركائز ومقومات إنسانية تمت صياغتها بروح الإسلام الذي جاء لتحرير الإنسان من كل عبودية إلا لله عز وجل، فنشأت قوة إقليمية لا يستهان بها.

وبالرجوع إلى الخلفيات التاريخية للفعل الحضاري الذي ترعّمته الدولة المركزية في المغرب الأقصى، نجد أن البناء الحضاري والثقافي والإنساني والاجتماعي والاقتصادي بني على أسس متينة منذ البدايات الأولى، وذلك بما يمكن أن نسميه بوحدة المشروع الحضاري وتعدد الثقافات والهويات الفرعية، مع احترام تام للخصوصيات الثقافية وكرامة الإنسان، ولقد قامت الدعوة إلى الله من خلال المساجد والمدارس والزوايا والرباطات، إضافة إلى التجارة والرحلات... كل هذه الوسائل وغيرها قامت بدور فعال لنشر الإسلام واستتباب الأمن الإنساني واستمرار الاستقرار.

ولما جاءت أوروبا، وخاصة فرنسا إلى المنطقة عاثت في الأرض الفساد وسعت إلى تخريب كل يمكن أن يكون أساسا للحضارة الجامعة، وعلى رأس ما قامت بتخريبه، ليخلو لها الجو، هو ما يجمع المغاربة بأشقائهم الأفارقة هو الدين واللغة العربية والمبادلات التجارية، فقامت بتخريب المدارس وقطع الطرق

التجارية والاستيلاء على أهم الحواضر الفاعلة ولم تكتف بهذا الأمر، بل قامت قبل مغادرة المنطقة بإعادة تقسيم الدول، هذا التقسيم الذي كان أقرب إلى المسخ والتمزيق...

وبعد حصول على الاستقلال عادت هذه الدول إلى التفكير في ضرورة الوحدة وإنشاء تكتلات أمنية واقتصادية... ولم يتأخر المغرب في الانضمام إلى هذه المبادرات رغم المناورات التي ما زالت قائمة إلى اليوم...

وخلاصة القول، يجب على المغرب بكل مكوناته، أن يقوم بدوره الحضاري لتحقيق التكامل الحضاري بالمنطقة، فيكون في ذلك نفع عميم له ولحيطة.

المصادر والمراجع

مصادر ومراجع باللغة العربية

- إبراهيم أنيس، وآخرون، المعجم الوسيط، المكتبة الإسلامية، إستانبول، تركيا ط 2، 1972م، حرف الصاد مع الراء.
- إبراهيم على طرخان، دراسات في تاريخ إفريقيا الإسلامية، مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض، 1981.
- ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق عبد الهادي التازي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة التراث.
- ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار إحياء العلوم بيروت، 2018م.
- ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر، ط 2، 1988.
- ابن فارس، أبو الحسن بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1979، كتاب الحاء باب الحاء والضاد وما يثلاثهما، مادة حضر.
- ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 2010.
- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط 1، بدون تاريخ.
- أحمد العايد، وآخرون، المعجم العربي الأساسي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 1988م.
- أحمد الوارث، سيد أحمد لعروسي: الشريف المتصوف، تاريخ الشرفاء العروسيين كمظهر من مظاهر الوحدة الوطنية، ط 1، إصدار مركز الشيخ سيد أحمد لعروسي للدراسات والأبحاث، مطبعة بني يزناسن، الرباط، 2004.

- أحمد بن عمالك، جوانب من تاريخ الزاوية الناصرية من النشأة إلى وفاة الشيخ محمد الحنفي (1052هـ / 1325هـ - 1642م / 1907)، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط 1، الرباط، 2006.
- آدم عبد الله الإلوري، الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فوديو، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط 1، 2014.
- بوشعيب منصر، الفكر الصوفي والزوايا في مراکش، مطبعة إفريقيا الشرق، 2015.
- التراث الصوفي المغربي، دراسة في بعض قضاياها ومعالها وأعلامه، أعمال الندوة الوطنية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس-فاس، منشورات مؤسسة مولاي عبد الله الشريف للدراسات والأبحاث العلمية، سلسلة فكر وذكور، 2019م.
- جيلالي بوبكر، البناء الحضاري عند مالك بن نبي، دار المعرفة، الجزائر، 2010.
- الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف إفريقيا، ترجمة عن الفرنسية: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ط 2، 1982م.
- الحسيني الفاسي المغربي، الشريف يوسف بن عابد بن محمد، رحلة ابن عابد الفاسي من المغرب إلى حضرموت، تحقيق إبراهيم السامرائي وعبد الله محمد الحبشي، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1993.
- خديم محمد سعيد امباكي، التصوف والطرق الصوفية في السنغال، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، 2002.
- الخليل النحوي، بلاد شنقيط المنارة والرباط، عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد الديني، من خلال الجامعات البدوية (الحاضر)، منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس 1987.
- روجيه غارودي، في سبيل حوار الحضارات، ترجمة عادل العوا، منشورات عويدات، بيروت، ط 4، 1999.
- سعيد محمد السقا، فلسفة الحضارة وحوار الحضارات، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2010.

- الشفشاوني، محمد بن عسكر الحسني، دوحة الناشر لحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط.
- الشيخ أحمد بن الشمس، النفحة الأحمديّة، المطبعة الجمالية مصر، 1330هـ/1912م.
- الشيخ ماء العينين، مفيد الراوي على أني مخاوي، تحقيق محمد الطريف، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ط1، 1999.
- عادل مساوي، علاقات المغرب بإفريقيا جنوب الصحراء بعد انتهاء القطبية الثنائية، أطروحة الدكتوراه في القانون العام، جامعة محمد الخامس، أكادال، كلية العلوم الاقتصادية والاجتماعية، الرباط، السنة الجامعية 2002/2003.
- عبد الحليم زويير، حوار الحضارات: الضرورات والرهانات، مركز مفاد، ط1، 1444/2023.
- عبد الحي القادري، الزاوية القادرية عبر التاريخ والعصور، ط1، تطوان، 1986.
- عبد اللطيف الشاذلي، التصوف والمجتمع، نماذج من القرن العاشر الهجري، منشورات جامعة الحسن الثاني، مطابع سلا 1988.
- عبد الله موما، الكنتيون وعلاقتهم بالسلطة السياسية بالسودان الغربي خلال القرن 19، رسالة دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس، 2007.
- عبد المجيد الصغير، إشكالية إصلاح الفكر الصوفي في القرنين 18 - 19، ج1، منشورات دار الآفاق الجديدة، الرباط، 1988.
- عطا محمد حسن زهرة، تكامل الحضارات بين الإشكاليات والإمكانات، كتاب الأمة، العدد 161، 1435/2014.
- علي حسين السائح، لمحات من التصوف وتاريخه، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، ط2، 1997م.
- عماري الحسين، المغرب والتجارة العابرة للصحراء من القرن 15م إلى القرن 18م، إسهام في دراسة تاريخ المغرب وعلاقاته التجارية مع

السودان الغربي في العصر الحديث، أطروحة الدكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط.

- قسطنطين زريق، في معركة الحضارة، دار الملايين، بيروت، ط3، 1977.
- القلقشندي، أبو العباس أحمد، صبح الأعشى، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1922.
- القيسي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، أنس الساري والسارب، حققه وقدم له وعلق عليه، محمد الفاسي، فاس، 1968.
- ماجدة كريمة، إسهامات علماء الحضرة بالصحراء المغربية في توطيد دعائم الثوابت الدينية المشتركة بين المغرب وعمقه الإفريقي - شذرات من الماضي -، مجلة العلماء الأفارقة، ع 1، س 1، شهر صفر 1441هـ، أكتوبر، 2019.
- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، الجزائر، ودار الفكر، دمشق، ط3، 1986.
- محمد الظريف، الحركة الصوفية وأثرها في آداب الصحراء المغربية (1800 - 1956)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالحمدية، 2000.
- محمد الغربي، الساقية الحمراء ووادي الذهب، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1965.
- محمد الكنتي، الطوائف والتلائد في كرامات الشيخين الوالدة والوالد، مخطوط خم، 690 في الرباط، من الورقة 55 إلى الورقة 96 (المخطوط موجود كذلك على موقع المكتبة الوطنية الفرنسية الفكر القرآني | الطوائف والتلائد في كرامات الشيخين الوالدة والوالد - [btv1b9065400 \(quranicthought.com\)](http://btv1b9065400.quranicthought.com)).
- محمد جلاء ادريس، العلاقات الحضارية، دار القلم، دمشق، ط2، 2010.
- محمد سالم بن حبيب بن الحسين بن عبد الحفي، جوامع المهمات في أمور الرقيبات، تحقيق، مصطفى ناعمي، المعهد الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1412هـ/1992م.

- محمد شعبان أيوب، بلاد التكرور وغانه.. كيف انتشر الإسلام في غرب أفريقيا؟، مقالة نشرت بموقع الجزيرة/ميدان بتاريخ 29/10/2021.
- محمد عبد السلام الجفائري، مشكلات الحضارة عند مالك بن نبي، الدار العربية للكتاب، تونس، 1984.
- محمد أمين ولد سيد أحمد، السلطة والفقهاء في إمارة الترازو خلال القرن التاسع عشر، مطبعة المنار موريتانيا، 2003.
- محمود كعت التمبكتي، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيش وأكبر الناس، وذكر وقائع التكرور، وعظائم الأمور، وتفريق أنساب العبيد من الأحرار، مؤسسة الرسالة ناشرون، ط1، 1435/2014.
- المختار الكنتي، فتح الوهاب على هداية الطلاب، مخطوط، زاوية الشيخ سيد المختار الكنتي بانواكشوط.
- مريم بنت عبد الله، التأثير الثقافي للبيضان في منطقة السودان الغربي خلال القرنين 19 و20، (مالي والسنغال) نموذجاً، رسالة دبلوم الدراسات العليا المعمقة، كلية الآداب -ظهر المهرارز-، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، 2006/2007.
- نزهة بن سعدون، الطريقة القادرية ودورها الديني والاجتماعي والوطني في إفريقيا جنوب الصحراء، (التصوف ودوره في إرساء الروابط والعلاقات بين المغرب وإفريقيا...)، أعمال ملتقى تيزنيت الولي للثقافات الإفريقية الدورة 3، 2017.
- يان بوتوتسكي، رحلة في إمبراطورية المغرب، ترجمة وتقديم عبد الله باعلي، مطابع الرباط نت، الرباط 2014

مصادر ومراجع باللغة الأجنبية

- bitbol, (Michel), Tombouctou et les Arma de la conquête Marocaine du Soudan Nigérien en 1591 à l'hégémonie de l'Empire Peul du Macina en 1833.
- Ernst B. haas, The study of regional integration, Cambridge university press, Cambridge, 1971
- F.S.C, Northrop, The taming if nations, the McMillan Company, New York, 1952.
- Paul Marty, Etudes sur l'Islam et les tribus du Soudan, les Kounta de l'Est et les Brabich, les Iguellad, T1, Editions Ernest Leroux, Paris, 1920.
- Walter Mattli, The Logic of regional integration, Cambridge university press, Cambridge, 1999.



الجلسة الثالثة

التواصل الثقافي والاجتماعي
بين شمال أفريقيا وجنوبها



من نواذر خزانة المواسين «منجم التمبكتي» - كما تدلّ عليه خرومها -

الدكتور محمد الطبراني
أستاذ التعليم العالي بجامعة القاضي عياض،
وعضو المجلس العلمي الأعلى

مقدمة

كان من فوائد اغتراب التمبكتي (ت 1036 هـ) -أو «محنة الفقيه السوداني»- أنه سيقَ وهو في أوان أشده إلى بلدة عالمية حيزت لها مواصفات المناخ العلمي الباعث على الإنتاج والإبداع، فألفى في مراكش عوامل التّرقّي النّوعيّ الذي ما كان ليصل إليه لو بقي حبيس الدّار⁴⁹¹، وبيئة مسعفة بالتلقّي والتّلاقح، وصُحبة تفهّم عنه وتعيّنه -ذكرَ منهم الأديب المؤرّخ المراكشي محمد ابن يعقوب-⁴⁹²، ورُفداً غنياً من أصول العلم وكنائش العلماء -فوق ما جلب معه من آل أُقيت إن كان فعل-، دلّ على خطورتها أن سُمّي أعضاضاً من عُيونها بذيّل كتابه نيّل الابتهاج، وهو الذي «وافق فراغه من جمعه... عام خمسة وألف بمدينة مراكش من المغرب الأقصى»⁴⁹³، وأفاد من محفوظاتها في تواليّفه، ذكر ذلك في رسم إبراهيم بن فائد بن موسى الزواوي القسطنطيني: «ورأيت في خزانة جامع الشرفاء بمراكش السفر الأول من شرح آخر له على خليل، قدر الثلث إلى الجهاد، سماه «تحفة المشتاق في شرح مختصر خليل بن إسحاق»،

⁴⁹¹ يدلّ له أن صيته خفت للغاية بعد أوبته إلى تمبكتو عام 1016 هـ، بعد إذن زيدان بن المنصور السعدي له بذلك.

⁴⁹² نيّل الابتهاج (عناية د. عبد الحميد الهرامة، ط 2، دار الكاتب، ليبيا، 2000 م): 641. وقد أفاد منه وذكره مرارا في تضاعيف الكتاب.

⁴⁹³ نيّل الابتهاج: 641.

مجلد ضخيم»⁴⁹⁴. وقال في ترجمة عمر بن عبد الله الباجي التونسي: «توفي سنة ثمان وأربعين وثمان مئة؛ هكذا ذكره الونشريسي في وفياته، وهو أصح مما رأيته في بعض المجاميع بخزانة جامع الشرفاء. بمراكش أن وفاته سنة اثنين وأربعين....»⁴⁹⁵ وقال أيضا في ترجمة محمد بن أحمد بن عبد الملك الفشتالي: «...هكذا أصبت الترجمة في بعض المجاميع بخزانة جامع الشرفاء. بمراكش»⁴⁹⁶.

وإذ لا يَجْمَلُ أن نسوق لائحة التمبكي التي باهى بها بنصّها في هذا المساق، فلا أقلّ من أن أقرّر أنّ هاته الخاتمة التي ذكرها كَرَّةً أخرى بذيل كفاية المحتاج⁴⁹⁷، درأتني منذ عقدين أن أتتبع منها بعض الأعلام في خزانة ابن يوسف؛ إذ كانت وريثة جامع الأشراف بالمؤاسين مؤثّل أحمد بابا ومحرا به الذي تبتّل فيه للعلم، لكنّها خلّت منها، وبقيت أرنو إلى أن يُظفرني الله بشيء منها كصلة الصلة لابن الزبير العاصمي الغرناطي، وفهرست أبي عبد الله الحضرمي بخطّه، وفهرس أبي الوليد ابن الأحمر النصريّ الأمير، والكوكب الوقاد فيمن دفن بسبته من العلماء والزهاد... فلما توليت رَأْب ما انصدع من أشتات خروم خزانة المؤاسين، وقد تفنّنت صروف الدهر في العبث بها، كان الطمع القديم ممّا حدا بي إلى ركوب ثبج المغامرة، لكنني لم أجد شيئا مما سميت أنفاً، ففتّ ذلك في عضدي، ولما فاوضت أستاذنا العالم القدير أحمد التوفيق في هذا الأمر، حَزَمَ أن الشيخ التكروري صحب معه عيون كتبه لما قفل إلى بلده، فعسى أن تكون لها في ذلك الصقع الحبيب بقية باقية، فإن فيه آلاف المخطوطات، والأيّام كواشف.

494. نيل الابتهاج: 57.

495. نيل الابتهاج: 306.

496. نيل الابتهاج: 447.

497. 286/2 (تحقيق: محمد مطيع؛ ط 1، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1421 هـ/ 2000 م)

وقد أفضى التَّبْعُ الحثيثُ للخُروم المذكورة وكشفُ حقيقة ما انفرطَ من عُقود مجلداتها إلى رفعِ السِّترِ عن أنارةٍ غيرِ هيَّنةٍ من أصولٍ ونسخٍ وأمّاتٍ عُتِقَتْ كانت تكتنفُها الخزانةُ المراكشِيَّةُ، ذهبَ عَظْمُها، واستُنْقِذَ غيرُه في اليوسُفِيَّةِ، وذهبَ السَّوَى أدراجَ الرياحِ.

وإذْ بلغتْ ملفاتُ التَّصْنِيفِ أَكْثَرَ مِنْ ثمانِ مئةِ ملفٍ، فلَكَ أَنْ تُعْتَبَرَ بهذا الدَّشْتِ الذي لا يُؤْبَهُ به إلى وقتٍ قريبٍ، غِنَى المكتبةِ الأصلِ، وخطورةُ ما كانتْ تُحتويه من أسفارِ العلمِ، ومقدارَ ما حظي به التَّمبُكِيُّ من الثَّراءِ المُصدِرِيِّ عندَ عكوفِهِ على تأليفِ أوضاعِهِ.

وستقدِّمُ هذه الورقةُ نماذجَ من هاته الخُرومِ المنتخبة، مُصدِّرةً برقمِها في الدَّلِيلِ الذي صنَّعناه لها⁴⁹⁸، من غيرِ مدِّ حبلِ الكلامِ إلى الحديثِ عن معيارِ الاختيارِ، ومَنَاطِ الفِراةِ والنُّدرةِ، فهذا مضمائرٌ فسيحٌ يحتاجُ إلى أَكْثَرِ مِنْ هاته العُجالةِ:

1. التنبيهات المستنبطة على الكتب المدونة والمختلطة، لأبي الفضل عياض بن موسى بن عياض السبتي القاضي (ت 544 هـ): 154 و.

6. مسائل في الرياضيات على طريق المعاينة والافتراض: 43 و.



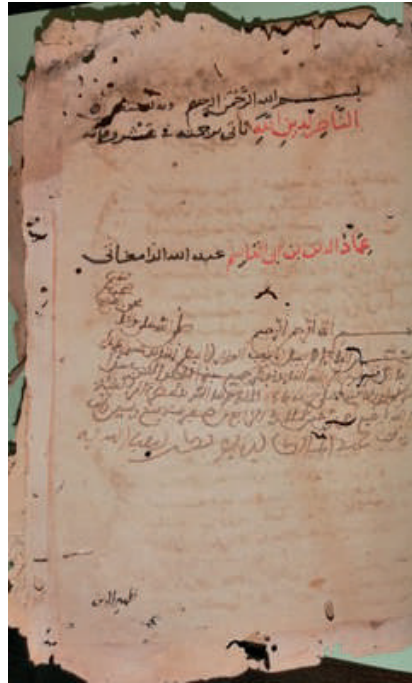
9. الموطأ؛ من رواية يحيى بن يحيى الليثي المصمودي (ت 234 هـ): 9 رقيات.

10. المدونة، من رواية سحنون التنوخي، عن ابن القاسم العتقي: 19 رقية.

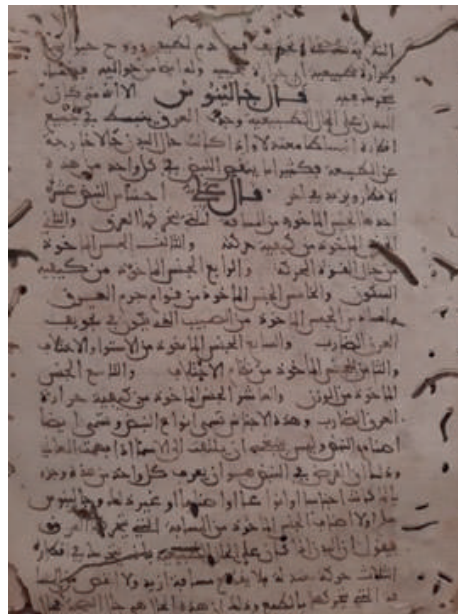
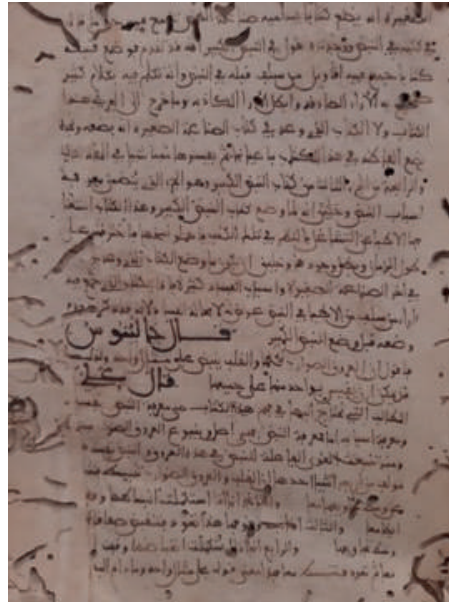
12. البيان والتحصيل لابن رشد القرطبي الجد (ت 520 هـ): 128 و.

23. تراجم المشاركة المتوفين في العشر الخمسين من القرن الثامن: 24 و.

ناسخها هو محمد بن القاسم النويري الإسكندري المألقي الأصل (ت بعد 775 هـ)، ولعله هو المؤلف.



24. كتاب النبض لجالينوس؛ ترجمة حنين بن إسحاق (في الغالب): 60 و.



وهذه وثيقة تحببسه:

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على مولانا محمد وآله وسلم

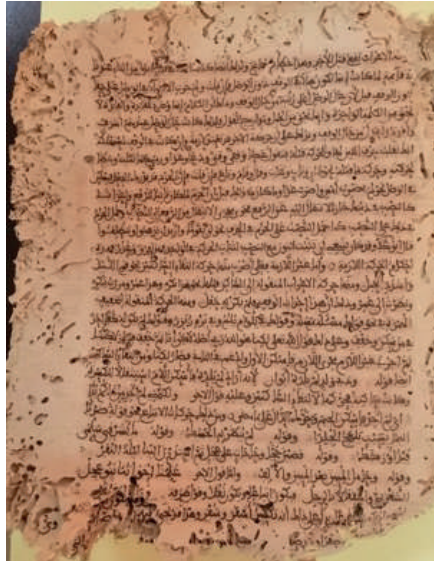
حبست الحرة الجليلة، الأصلية المثيلة الأثيلة، الحسبية المومنة العابدة الخاشعة الصالحة، الغادية في مرضاة الرب والرائحة، أم القرب والحسنات، وكاشفة الكرب المرميات، ثمال ضَعْفَ المومنين، وكافلة البنات والبنين، السيدة الطاهرة [...] المسعودة ابنت الشيخ الأصيل، الجليل المثل، الكبير الخطير الشهير، أبي العباس أحمد بن عبد الله الوزكيّ الورزازي، والدة مولانا المنصور الإمام الخليفة أمير المومنين، أبى الله بركتها وأجرى على الخير والصلاح -وقد فعل- سكونها وحركتها، جميع هذا الكتاب المنسوب لجالينوس، المكتوب هذا على أول ورقة منه، بخزانة المسجد الجامع المبارك الأعظم الذي شيدت أبقاها الله ونفعها آثاره، ورفعتُ للعلم والعمل مناره، بالحضرة العلية مراکش المحروسة، عمّره الله بدوام ذكره، وطرّز صحيفة أعمالها الصالحة بثوابه وأجره، على طالبي العلم ومُبتغيه، وقاطفي زهره النديّ ومُجْتبيه، وعلى ألا يُخْرِجَ به ولا بشيء منه من الجامع المذكور، تحببسا مؤبدا، ووقفاً ماضياً سرمداً، لا يتعقّبه فسّخ، ولا يتناولُ آيةُ المحكماتِ نسخ، ابتغاء وجه الله العظيم، ورجاء ثوابه الجسيم، والله لا يضيع بمَنه أجر من أحسن عملاً، وكتب خطّ يديهما الكريمة بصحة ذلك عنها، في شهر رمضان المعظم من عام خمسة وتسعين وتسع مئة، فرعاً الخلافة الباسقان، ودُرّيّاً الإمامة المشرقان، الأمير الأصيل الجليل، وساحبُ ذيل العزّ والعناية العريض الطويل، بدر الهالة، ودُرّي [...] والهامم الكريّم الشيمة، الطيّب العريكة، المولى أبو فارس عبد الله بن أمير المومنين، والمولى الأجل [...] هاشم بن أمير المومنين، أبقاهم الله وسماؤ الخلافة تترين بكواكبهم، وتجمّل السبع الأراضى بجمال مواكبهم؛ آمين.

صحيح ذلك؛ وكتب عبد الله بن أمير المؤمنين، خار الله له بمناه. وهاشم بن أمير المؤمنين خار الله له بمناه. وكتب عبد الله تعالى أبو فارس بن أمير المؤمنين أحمد المنصور بن أمير المؤمنين محمد الشيخ بن الإمام [القائم بأمر الله].

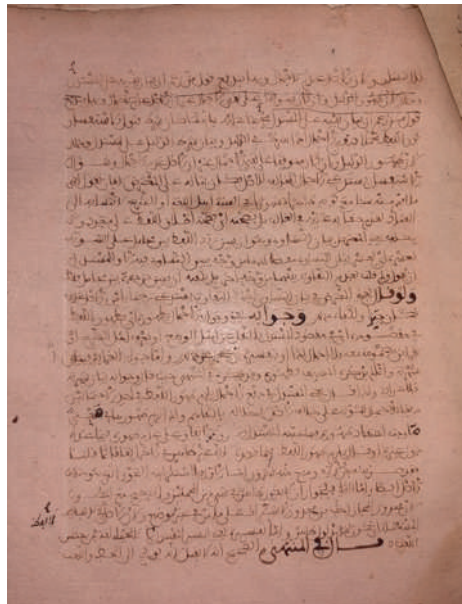


صورة خطي الأميرين أبي فارس وهاشم ابني أحمد المنصور السعدي، بالإشهاد على تحبيس والدتهما لكتاب النبض

32. الخصائص، لأبي الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت 392 هـ): 91.



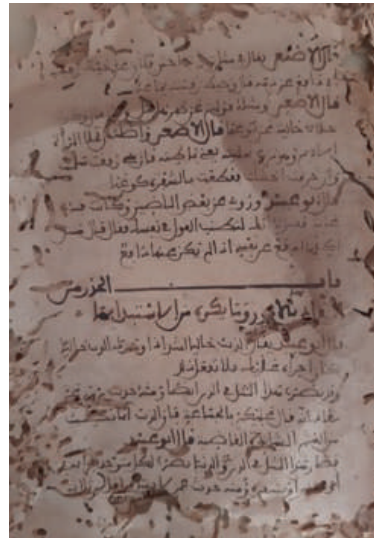
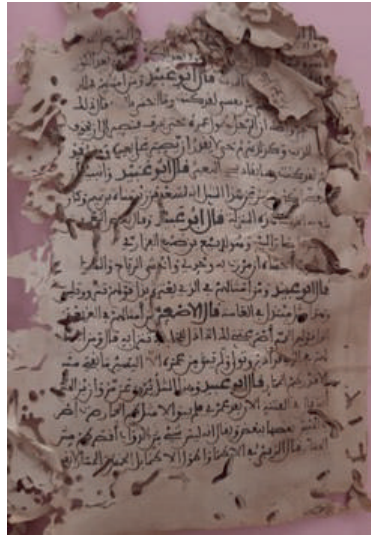
33. شرح في أصول الفقه - نسخة في ورق ثخين يتخلله ورق شاطبي-: 43 و.





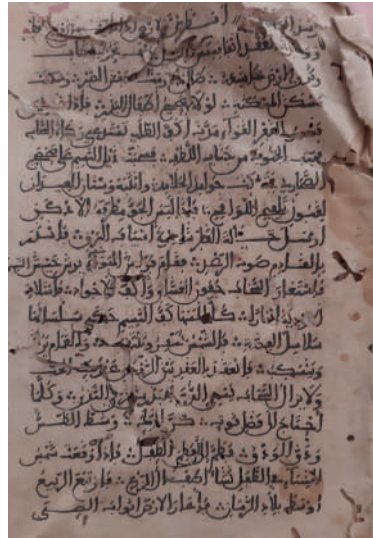
85. الروض الأنف للسهيلي (ت 581 هـ): 68 و؛ بخط أندلسي متقن.
86. الجمل في النحو للزجاجي (ت 340 هـ): 34 و؛ بخط أندلسي بديع.

88 و 402 كتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي البغدادي (ت 224 هـ): 27 و/20 و؛ بخط أندلسي.



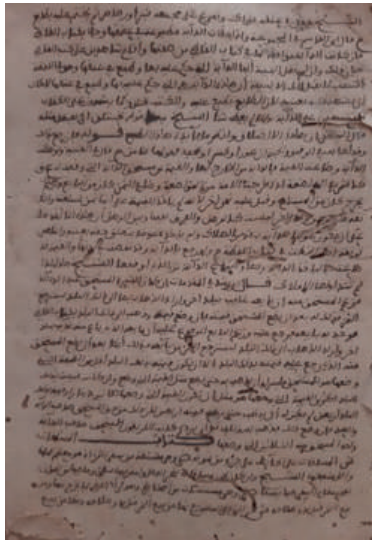
96. المدونة، من رواية سحنون التنوخي، عن ابن القاسم العتقي: 26 رقية بخط أندلسي.

97. اللطائف لأبي الفرج ابن الجوزي (ت 597 هـ): 27 و.

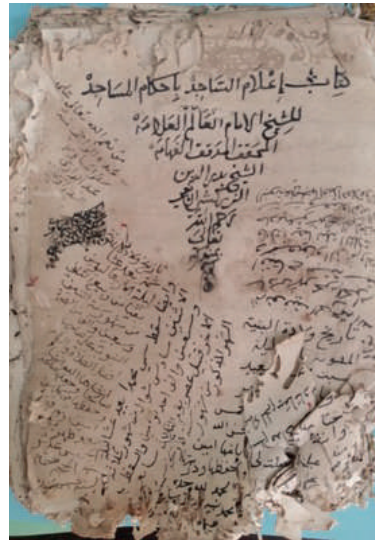
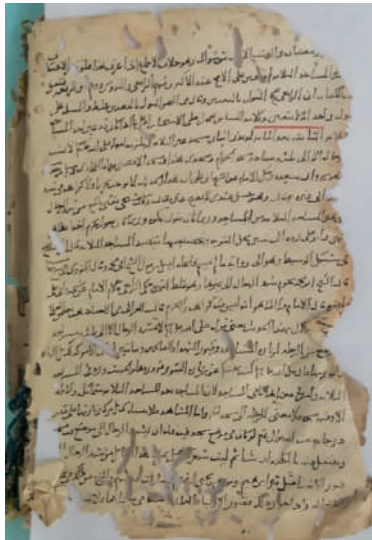


98. كتاب تحرير المقال في موازنة الأعمال، لعقيل بن عطية القضاعي الطروشي
ثم المراكشي (ت 608 هـ): 63 و.

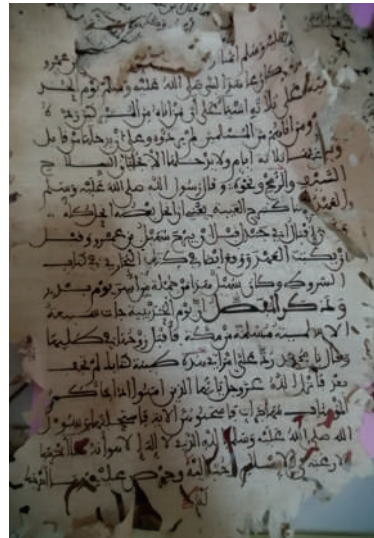
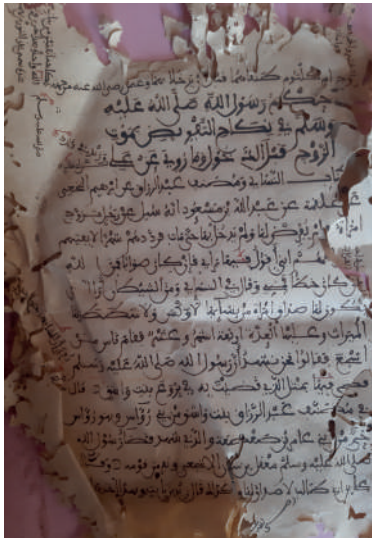
104. شرح على المدونة؛ كأنه للشيخ أبي محمد صالح الماجري الأسفي (ت 631 هـ)،
فإلا يكنه، فهو من مناقل الكتاب؛ لكثرة ما تردد اسمه في ثناياه: 39
و بخط أندلسي.



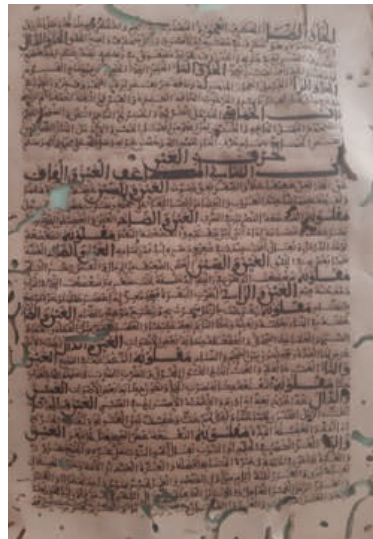
116. كتاب إعلام الساجد بأحكام المساجد، لأبي عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي الشافعي (ت 794 هـ): 87.



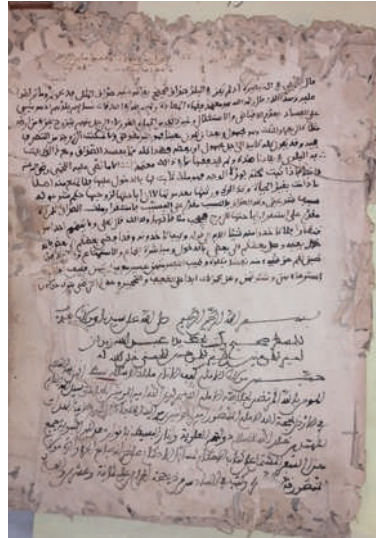
120؛ 334 أقضية النبي صلى الله عليه وسلم، لأبي عبد الله محمد بن الفرج،
ابن الطلاع القرطبي المالكي (ت497هـ): 77 و 6 و؛ بخط أندلسي مبسوط
متقن من نسخة خزائنية.



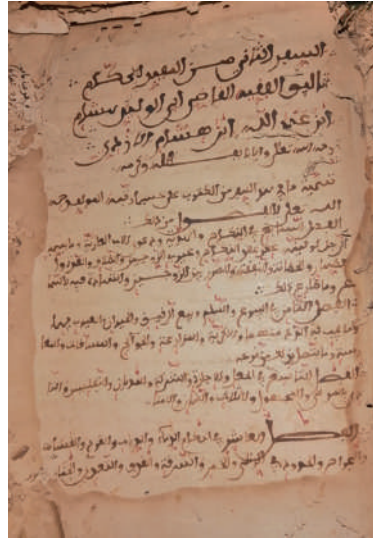
184. معجم يعني بالتقاليب اللغوية: 25 و؛ بخط أندلسي مشكول.



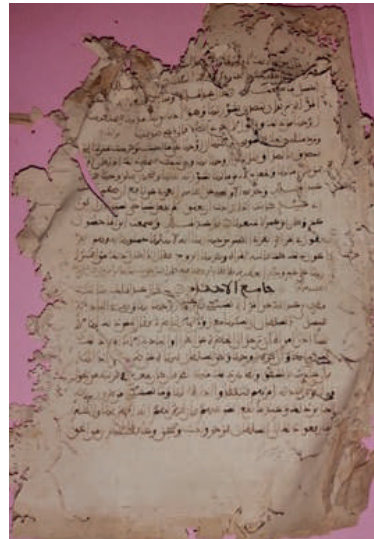
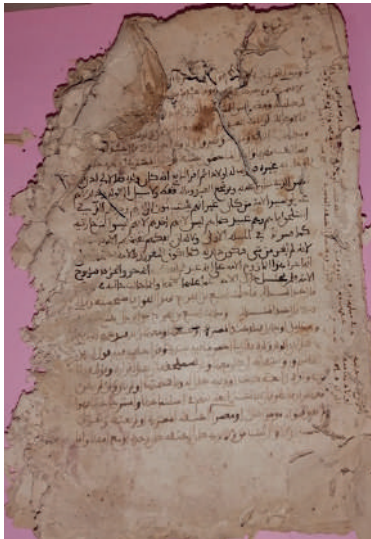
205. مجموع في 37 و؛ ضمنه «الإحكام لمسائل الأحكام»، لأبي عمران المصمودي الجزولي.



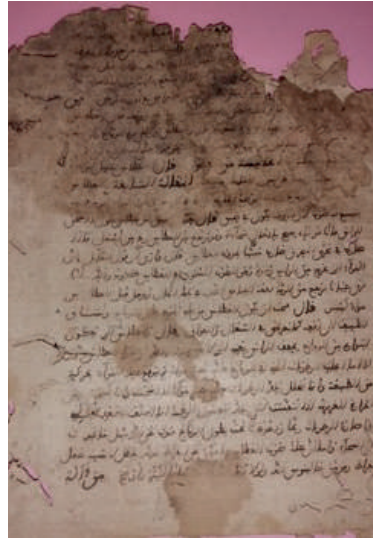
227. كتاب المفيد للحكام، لأبي الوليد هشام بن عبد الله بن هشام الأزدي القرطبي (ت 606 هـ): 196 و.



313. كتاب الأحكام، لعبد الملك بن حبيب السلمي القرطبي (ت 238 هـ): 39 و، بخط أندلسي.



317. لعله «اختصار كتاب الحاوي في الطب للرازي»، لأبي الحسن هبة الله بن صاعد، ابن التلميذ البغدادى النصراني (ت 560 هـ): 04 و.



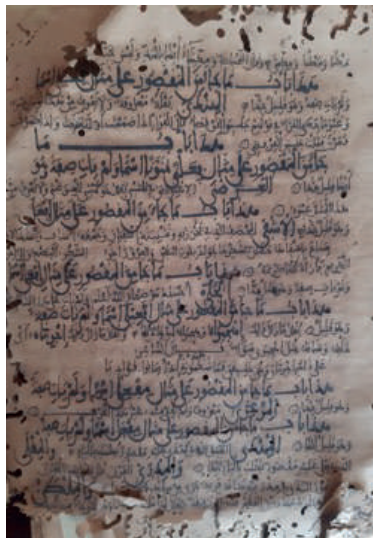
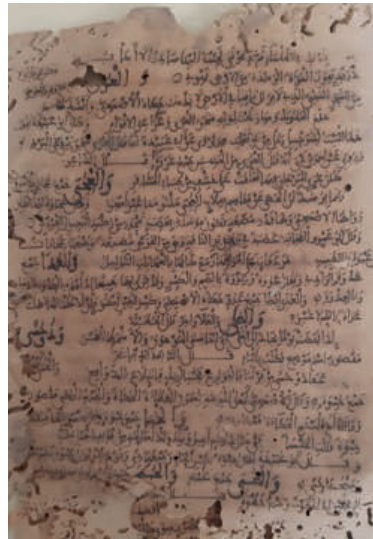
322. مختصر من «مناقب الإمام أحمد» - كأنه جرد الأخبار المسندة فحسب-، لأبي الفرج ابن الجوزي (ت 597 هـ): 14 و.



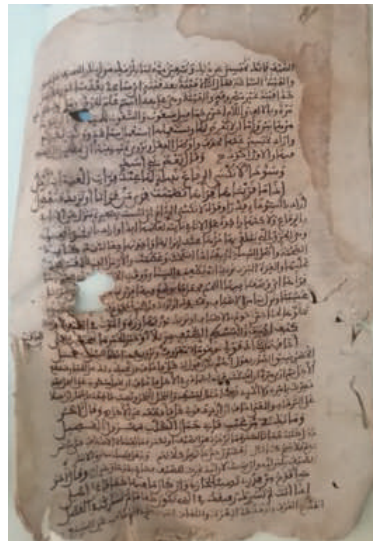
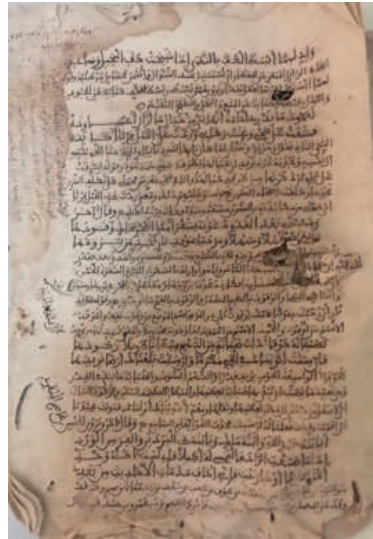
325. اللطائف، لأبي الفرج ابن الجوزي (ت 597 هـ): 14 و؛ بخط أندلسي.



357. المقصور والممدود، لأبي علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي (ت 356 هـ): 24 و؛ قطعة من نسخة نفيسة صحيحة، ترجع تقديراً إلى القرن الخامس.



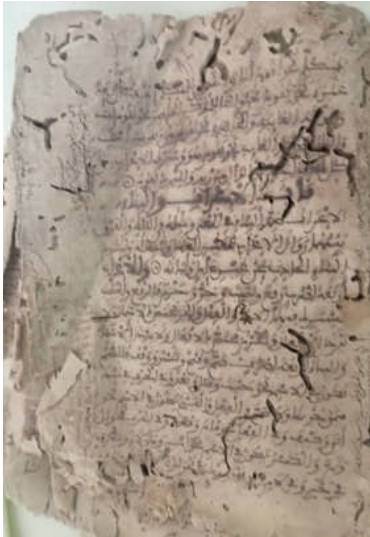
373. شرح على ديوان الحماسة: 15 و؛ بخط أندلسي متقن.



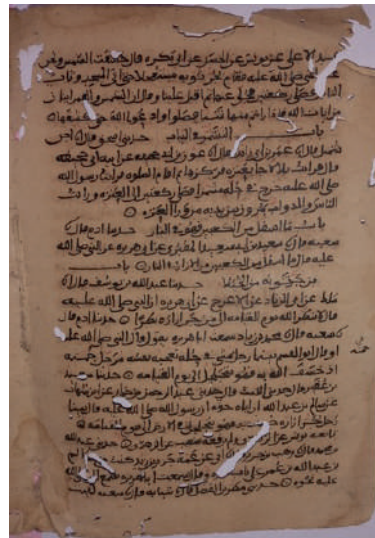
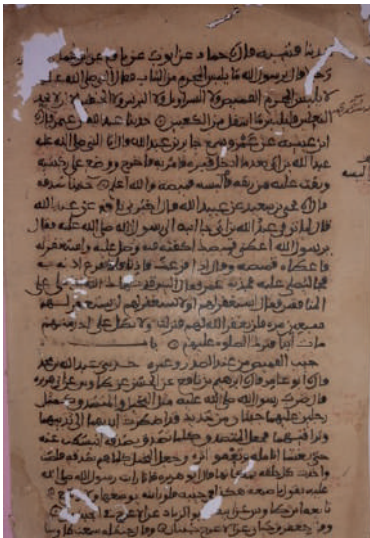
376. لعله اختصار كتاب الحاوي في الطب للرازي، لأبي الحسن هبة الله بن صاعد، ابن التلميذ البغدادي النصراني (ت 560 هـ): 24 و.



378. اللمع في العربية، لأبي الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت 392 هـ): 16
و بخط أندلسي عتيق.



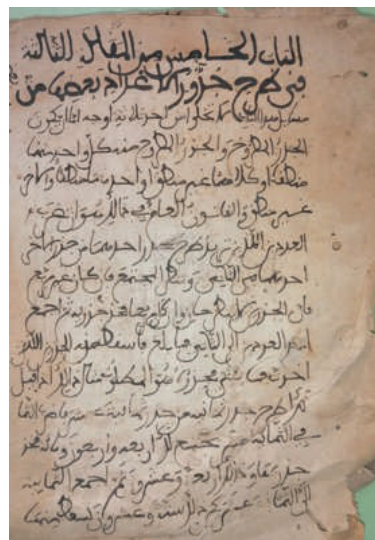
391. الجامع المسند الصحيح، لأبي عبد الله البخاري الإمام (ت 256 هـ): 6
و؛ بخط أندلسي متمشرق عتيق غاية.



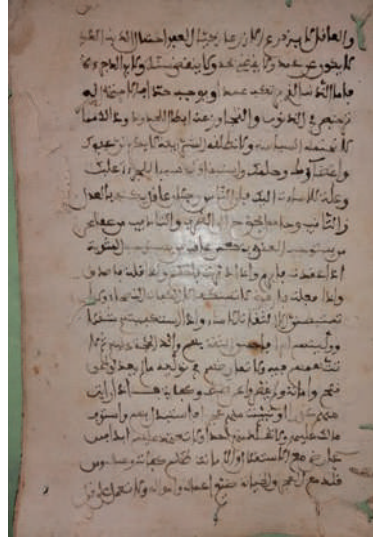
521. شرح على حماسة أبي تمام: 4 و، بخط أندلسي.



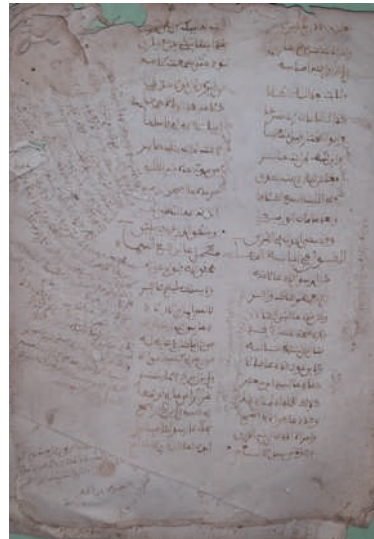
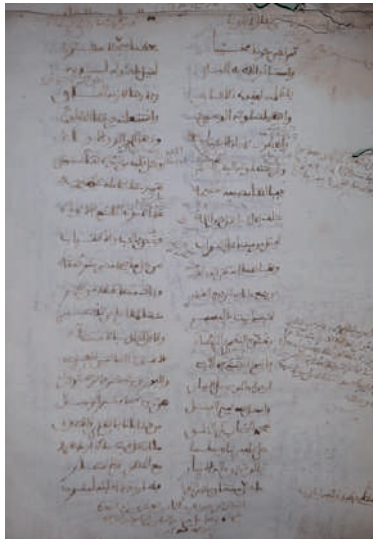
544. كتاب في الرياضيات - لعله كتاب الكامل في العدد-، لأبي بكر محمد بن عبد الله بن عياش، ابن الحصار: 08 و.



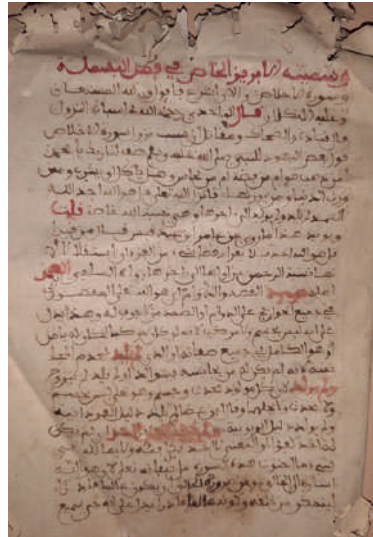
545. كتاب في الأدب - كأنه نسخة معدلة من «لباب الآداب»، لأبي المظفر أسامة بن مرشد بن علي بن منقذ الكنانني الكلبي الشيرزي (ت 584 هـ): 08 و.



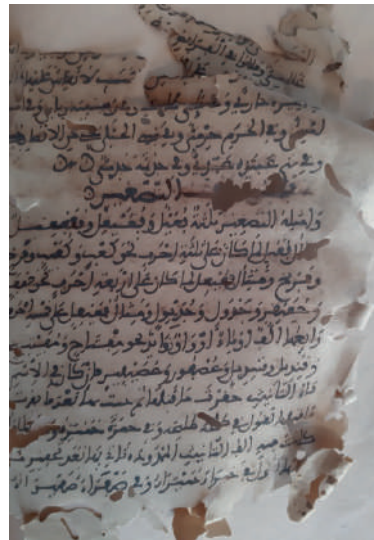
462. أرجوزة في آيات النبي صلى الله عليه وسلم: 15 و، نسخها بخطه ولعلها من نظمه، أبو زيد عبد الرحمن بن القاسم ابن القاضي المكناسي ثم الفاسي (ت 1082 هـ)، بتاريخ 21 ذي القعدة 1056 هـ.



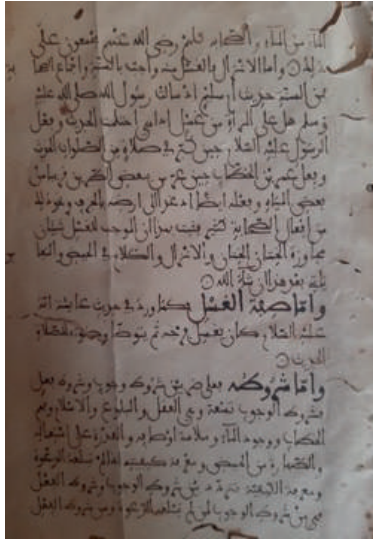
650. الإبريز الخاص، في فضل البسملة والإخلاص، لمحمد بن محمد العمري، زين العابدين سبط المرصفي (ت 966 هـ): 08 و.



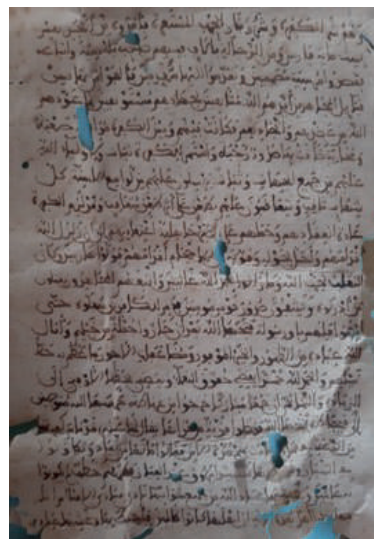
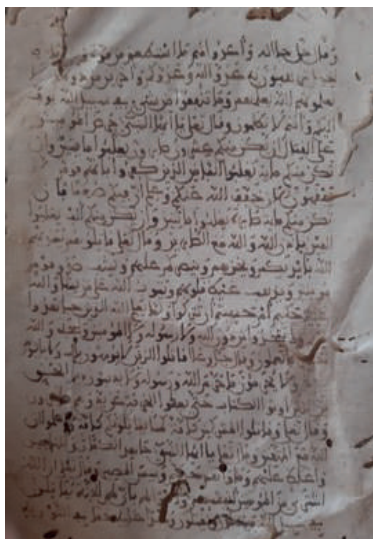
689. اللمع في العربية، لأبي الفتح عثمان بن جني المؤصلي (ت 392 هـ): 08 و؛ بخط أندلسي عتيق.



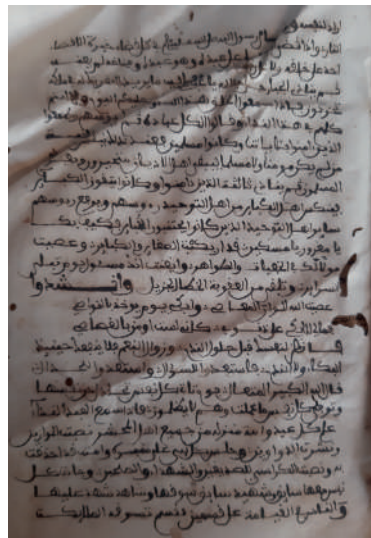
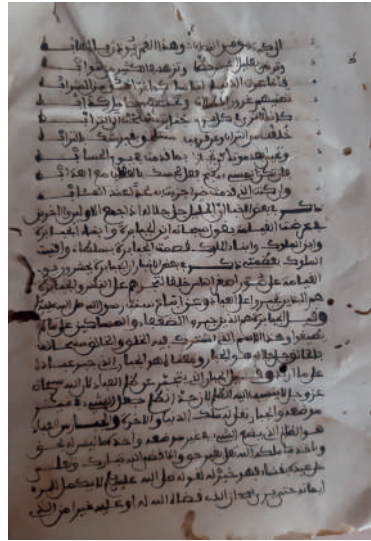
708. أعز ما يطلب، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله ابن تومرت المصمودي؛ مهدي الموحدين (ت 524 هـ): 100 و؛ نسخة نفيسة من قطع صغير بخط أندلسي متقن، كتبت قيد حياة ابن تومرت.



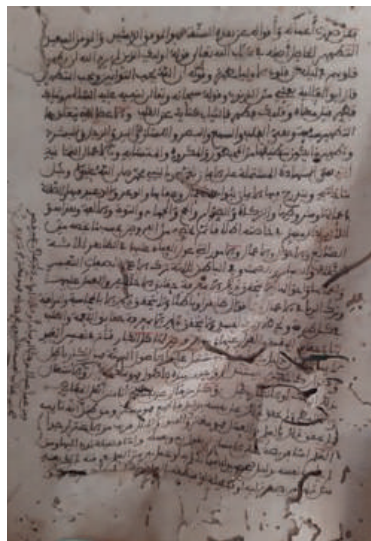
762. شئون من الأدب والتاريخ: 13 و، والقطعة في الغالب متأخرة عن الدولة النصرية؛ لأنها تنقل مراسلات إبانها.



773. المتقى من درر الكتاب؛ لمؤلف أندلسي انتهى من تأليفه سنة (ت 733 هـ). وما أشبهه بـ: «النخبة العليا من أدب الدين والدنيا لأبي الحسن الماوردي»، لابن ليون التجيبي: 68 و.



794. كتاب في التصوف؛ ذكر فيه صاحبه جملاً من أصول الديانات، ونبذاً من الإشارات في الآداب والولايات، تصلح لأهل الرياضات، وأهل الحقائق والرعايات، لأبي العباس أحمد بن محمد بن موسى، ابن العريف الصنهاجي (ت 536 هـ): 07 و.



أبعاد التواصل العلمي والحضاري بين المغرب وبلاد السودان الغربي من خلال مخطوطات الشيخ أحمد بابا التمبكتي المحفوظة بالخرزانة الحسنية

الدكتورة حكيمة شامي
باحثة جامعية في قضايا العقيدة والفكر الإسلامي

لم يكن من قبيل الصدفة، أن نفكر في إنجاز بحث حول أبعاد التواصل العلمي والحضاري في فكر أحمد باب التمبكتي من خلال مخطوطاته المحفوظة بالخرزانة الحسنية، ضمن أعمال الندوة العلمية الذي تنظمها منظمة العالم الإسلامي للتربية والعلوم والثقافة، حيث لم يعزب عنا أهمية البحث في المكانة والقيمة العلمية الكبيرة لهذا الشيخ الجليل أحمد باب التمبكتي، الذي ترك بصماته جليّة في التراث الإسلامي عموماً، والتراث الإفريقي خصوصاً.

لذا كان لزاماً علينا الاحتفاء بهذه الشخصية العلمية البارزة لأمر كثيرة، منها:

– اتفاق العقلاء على أن الأمة التي تتجاهل أجداد بناء أمجادها، فبطن الأرض خير لها من ظهرها، ولا خير فينا إن لم نشمر عن ساعد الجد، لإعادة الاعتبار والاهتمام وكذا التذكير بأعلام أمتنا، وذلك بإنجاز بحوث تكشف عن قيمة الرجل الدينية، والفكرية، والأخلاقية، والأدبية. فلعل ذلك يحفزنا على معرفة مضان مجموعة من المؤلفات التي ظن أنها فقدت أو التي ظلت مغمورة عند الخاصة بل والعامة؛

– حصول الاتفاق بين علماء الأمة وفضلاء العلم والفكر، أن أحمد باب التمبكتي من ألمع وأشهر عظماء السودان الغربي الذين تركوا بصماتهم داخل المغرب وخارجه، وأبلى البلاء الحسن في تجديد الفكر الديني المغربي وتركيز مذهبته الفقهية والعقدية خلال القرن العاشر.

- الإهمال والتهميش للتراث الإفريقي من قبل علماء الغرب وكذلك من قبل أهله أنفسهم الذين لم يفكروا في البحث عنه والنهوض به إلا بعد تحرير دول إفريقيا الغربية من ربق الاستعمار الأوربي⁴⁹⁹.

ولذلك، فقد آثرنا أن يكون توجُّهنا، في هذا البحث، توجُّها تحليليا، يستنطق النصوص الواردة في كتب هذا العالم الجليل، وذلك بتفكيكها، ثم تحليلها، لاستخراج قضايا جديدة، لعلنا نظفر ببعض الحقائق العلمية الجديدة الدالة على عمق التواصل العلمي بين بلاد السودان الغربي والمملكة المغربية، بغية إغناء الجوانب العلمية المتعددة في شخصية الرجل، وإضافة ما لم يكن معهودا لدى الباحثين السابقين، وتأسيسا لمشاريع مستقبلية، لا سيما التي تحمل شعار «إحياء علم التراجم والمناقب».

وحيث لم يكن أنُسنا بكتب الشيخ أحمد باب مقصدا لذاته، بل كان وسيلة لتتبع كل ما وصلنا منها بالمغرب⁵⁰⁰، وخاصة بالمكتبة الحسنية بالقصر العامر بالرباط، المؤلفات الأكثر تأثيرا في الحركة العلمية والدينية بالغرب الإسلامي، وهي وثائق تاريخية شاهدة على الأوضاع العلمية والاجتماعية والسياسية خلال القرن العاشر⁵⁰¹.

وعليه، فستنخرط أفكار البحث في سلك أربعة مطالب، وهي:

⁴⁹⁹من أهم ما قام بها علماء إفريقيا دعوة أصحاب المجموعات الخطية وإقناعهم بإخراج مخطوطاتهم وتقديمها للعلماء لفهرستها.

⁵⁰⁰فقهاء المالكية وآثارهم في مجتمع السودان الغربي، سحر عنتر محمد أحمد مرجان، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2011م، ص.102.

⁵⁰¹الحركة الفقهية ورجالها في السودان الغربي من القرن 8 إلى القرن 13هـ، عبد الرحمن محمد ميغا، مطبعة البيضاوي، المطبعة الملكية، 2011م، ص.35.

المطلب الأول : الأبعاد الحضارية والثقافية بين المغرب وبلاذ السودان الغربى

إن الناظر فى تاريخ التراث العربى الإسلامى، يجد أن الأعمال البيبليوغرافيا أو كتب السير والمناقب، تزخر بكم هائل من المعلومات المتعددة والغزيرة، عن الأعلام والشخصيات فى مختلف الفنون والعلوم، فهى نوع من الدراسات الموضوعية التى تختص بدراسة علم من الأعلام، من حيث ترجمة حياته، وسرد مؤلفاته، وتعداد الدراسات التى عنيت بمؤلفاته جمعا وتحقيقا، ودراسة وترجمة.

وعلى هذا الأساس فإن اتخاذا كتب البيبليوغرافيا منطلقا لدراسة العلاقات العلمية والحضارية بين المغرب وبلاذ السودان الغربى، الذى ظل طوال عقود مرتبطة بالمغرب الإسلامى، والذى يعتبر المدخل الأساس لمختلف المؤثرات الدينية والروحية والتجارية إلى إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى.

لقد أسهمت هذه الرقعة الإفريقية فى خلق قاعدة كبيرة من علماء وفقهاء، الذين تركوا لنا ثروة علمية فى جميع التخصصات الإسلامية بل الإنسانية، ما زال أغلبها مغمور وغميس فى الخزائن الوطنية أو الخاصة، ولعل القرنين الرابع والخامس الهجريين يمثلان ظهور هذه الحركة العلمية، برز فيها علماء من البربر، ساهموا فى الإبداع المغربى الصرف وتأثيرا⁵⁰²، ونمت بشكل قوى خلال الفترة السعدية، من خلال التبادل الثقافى والعلمى بين الحواضر العلمية السودانية كـ «تمبكت»⁵⁰³ والحواضر العلمية المغربية «فاس» و«مراكش»، التى استقطبت الكثيرين من علماء العالم الإسلامى،

502. محاضرات فى تاريخ المذهب المالكي فى الغرب الإسلامى، عمر الجيدى، منشورات عكاظ، الرباط، 2016/، ص. 30.

503. إفريقيا، مارمول كرنخال، تـ. محمد حجي ومحمد زنيبر وآخرون، ج. 3، دار نشر المعرفة، ط. 1989م، ص. 165.

504. الحضارة الإسلامية العربية فى غرب إفريقيا: سماتها ودور المغرب فيها، د. شوقي عطا الله الجمل، مجلة المناهل، العدد 7، تاريخ الإصدار: 1 نونبر 1976م.

وطلاب العلم والمعرفة، وما زال دورها الحضاري الحقيقي لم يكشف عنه كاملاً⁵⁰⁴.

فتأثرت بالحضارة الإسلامية العربية، واستطاعت أن تتسرب بشكل واسع، كما أنها لم تهدف هدم المجتمع القديم، بل استطاعت تطويعه للدين الجديد من إلزام بأوامره ونواهيه، والقضاء على الوثنية والبدع⁵⁰⁵، وقد ذكر المؤرخ السعدي السوداني في أكثر من موضع في كتابه إلى أن حضارة غرب إفريقيا حضارة مغربية قلباً وقالباً⁵⁰⁶.

ومن هنا آثرنا أن تكون دراستنا من خلال هذه فهارس الخزانة الحسنية للوقوف على أبعاد التواصل العلمي بين المغرب وبلاد السودان، وخدمة أحمد باب التمبكتي للمدرسة المغربية.

المطلب الثاني : أحمد باب التمبكتي سيرته وآثاره العلمية

قبل البحث عن صورة المغرب في مؤلفات هذا العالم الجليل التمبكتي الأصل، فهو أبو العباس أحمد باب بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت التمبكتي المالكي المزداد ليلة الأحد 21 ذي الحجة عام 963هـ/26 أكتوبر 1556م بتمبكتو، والمتوفي بمسقط رأسه في 7 شعبان 1036هـ/6 يونيو 1627م، ينتمي إلى أسرة من بني أقيت المنحدرة من قبيلة مسوفة ثم من قبيلة كدالة⁵⁰⁷، إحدى

⁵⁰⁵.الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، مؤلفا مجهول، تسيهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط.1، 1979م، ص.17.

⁵⁰⁶.تاريخ السودان، عبد الرحمن السعدي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ص.21، 51، 57.

⁵⁰⁷.كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، أحمد باب التمبكتي، ج.1، ص.181.

⁵⁰⁸.عرف أحمد باب التمبكتي نفسه في كتابه «كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج»، ج.2، ت. محمد مطيع، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 2000م، ص.513.

⁵⁰⁹.الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، أبو العباس أحمد الناصري السلاوي، ج.5، ت.جعفر الناصري ومحمد ناصر، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، 1955م، ص.127.نظر أيضاً: نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، الإفراني، والمحجي في «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر»، والقادري «نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني» و«الإكليل والتاج في تذييل كفاية المحتاج».

فروع قبيلة صنهاجة، الممتدة من شواطئ المحيط الأطلسي غربا حتى نهر السنغال والنيجر جنوبا⁵⁰⁸. يعد من كبار القضاة في عهد الاسكيين، الذين حكموا إمبراطورية سنغاي ببلاد السودان ما بين 899 - 1000هـ / ل-1493م 1591م⁵⁰⁹.

لقد كان مجيء العلامة احمد باب التمبكتي إلى بلاد المغرب خلال عهد السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي سنة 1002هـ / 1594م، واستقراره بمدينة مراكش إلى حين رجوعه إلى بلده تمبكتو عام 1016هـ / 1607م⁵¹⁰، عين خلالها مدرسا بجامع الشرفاء واستغل فرصة إقامته للنهل من خزائن الكتب المغربية، واتصل بعلماء المنطقة وتأثر بالحركة الصوفية ببلاد المغرب على عهده⁵¹¹.

كان احمد باب نقطة مضيئة في تاريخ الحركة الفكرية في بلاد السودان، فما هي طبيعة المواضيع التي عالجتها تأليفه؟ وهل سار الرجل على نهج علماء المغرب في التأليف والتدريس؟ وما هي أهم المميزات العلمية والمعطيات الكوديكولوجية الكامنة في تأليفه؟ وبما أفاد أو استفاد خلال إقامته بمراكش؟ وما المكانة العلمية التي حظي بها عند أهل المغرب؟ وكيف أسهم احمد باب في بناء المدرسة المغربية وتدعيم ثوابتها؟.

إن قدوم احمد باب إلى مراكش يأتي في سياق الحملة السعدية «السلطان أحمد المنصور» إلى بلاد السودان والتي انتهت بضمها إلى مملكته⁵¹²، وحسب

510. كفاية المحتاج: ج.2، ص.284.

511. بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، أبو القاسم سعد الله، ط.1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2003م، ص.67.

512. تاريخ الفتاش في ذكر الملوك وأخبار الجيوش وأكابر الناس، محمود كعت، ط.1، تحقيق حماد الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، 2012م، ص.215.

513. حلقة التدريس بمسجد الشرفاء بمراكش، يقول: «فكنت أجلس في مسجد الشرفاء وأبدأ محاضرتي بقراءة كتاب خليل الذي كنت أفسر نصوصه بتقديم بعض الشروحات والاستشهادات والأمثلة المستقاة من أفضل المراجع الفقهية»: احمد باب التمبكتي، كفاية المحتاج، ج.2، 2000، ص.284.

ما ذكره الإفرائي أن محنة ترحيل العالم أحمد باب التمكني الصنهاجي قسرا إلى مراكش، وما قاساه من شدائد ومحن، إلا أن هذه الفترة كانت ذهبية في حياة الرجل، لم تمضي إلا فترة قصيرة من وجوده حتى الإقراء في أحد كبريات جوامع العاصمة مراكش⁵¹³، وأصبح من كبار قضاتها ومفتيها، وهي الفترة الأكثر تأليفا فيها، ألف فيها زهاء نصف كتبه، والتي تقدر بأربعين مؤلفا، تحتوي جلها على تفاصيل مهمة حول التاريخ الثقافي والاجتماعي والديني والسياسي بالمغرب خلال فترة حكم الدولة السعدية، إضافة إلى القضايا الفقهية والشذرات الأدبية وكرامات الأولياء⁵¹⁴.

ولذا، باتت مؤلفاته مشهورة بالمدرسة المغربية، ومراجع أساسية بالخزانات الوطنية، عاجلت قضايا شتى في فن الفقه واللغة والتاريخ والتراجم والعقيدة بل والسياسة، وتميزت بالوصف والتحليل والتنقيب، كتبت أغلبها بخط مغربي واضح جميل، كما تحلت كتابته بالموسوعية العلمية العالية.

الآثار العلمية:

أحمد باب التمكني من أساطين الدين، ومن أهل التمكين الراسخين، الذين تخلقوا بعلوم الظاهر، وتحققوا بعلوم الباطن، ومن أبرز المجددين المصلحين، الذين طبقت شهرتهم الآفاق، كما تشهد بذلك عبارات الثناء، التي حلاه بها مترجموه⁵¹⁵، وكما تقرره كتبه المنسوبة إليه، والتي سيتم ذكر المشهور منها لاحقا ضمن مطلب مخطوطات الخزانة الحسنية.

⁵¹⁴ توفي أحمد باب عام 1036هـ، قضى عشرين سنة في المغرب، وله 52 مؤلفا وصل منها 32 مؤلفا، وأول عمل أكاديمي وضع عن أحمد باب تلکم الأطروحة التي قدمها الباحث المالي الدكتور الزبير في جامعة الصوروبون بإشراف المستشرق شارل بلا (CH. Pellat) المتوفى عام 1992م، وقد نشرت هذه الرسالة عام 1977م، وهي أطروحة نال بها المؤلف درجة دكتوراه السلك الثالث.

⁵¹⁵ روضة الأس العاطرة الأنفاس في ذكر ما لقيته من أعلام الحاضرين مراكش وفاس، أحمد المقرئ، المطبعة الملكية، ط. 2، الرباط، 1983م، ص. 303.

وقبل الكلام عن المعطيات الكامنة في مؤلفاته، لا بأس أن نشير إلى بعض شروط التأليف التي نهجها في كتاباته، فقد نقل مقاصد التأليف وغاياته كالتى ذكرها ابن خلدون عن ابن حزم بقوله: «قال ابن حزم وغيره: أقسام التأليف سبعة، لا يؤلف عاقل إلا في أحدها: إما بشيء لم يسبق إليه يخترعه، أو ناقص يتممه، أو مستغلق يبينه، أو طويل يختصره دون إحلال بمعانيه أو مفترق يجمعه، أو مختلط يرتبه، أو خطأ يصلحه...»⁵¹⁶. فجاءت بذلك مصنفاته استجابة للواقع المعيش، وهما في إصلاح العلوم والتعليم، وترسيخا للمذهب المالكي، والعقيدة الأشعرية، والسلوك التربوي العملي للمدرسة الصوفية المغربية.

نعم لقد استند هذا العالم المالكي، الذي أصبح من فقهاء المغرب، على كتب المشاركة؛ بدون ريب؛ لكنه لم ينسخها، بعنوان التأليف، ولا كرر مباحثها، ولا شرحها شرحا ملفقا، بل إنه قرأها بعين الثقافة المغربية، مراعية في ذلك خصوصية الزمان والمكان. كما تصرف في النصوص المشرقية، لدى شرحها، بالإضافة والحذف، بما يبعد عن مشروعه العلمي الإصلاحى والتكميلي فضول الكلام، أو الجهل بمقاصد الأسلاف.

مخطوطات الشيخ احمد باب التمكنى المحفوظة بالخزانة الحسنية⁵¹⁷ :

اختلف في عدد مؤلفات احمد باب التمكنى، وقد أورد صاحب فتح الشكور منها تسعة وثلاثين، وحصرها الدكتور أحمد الزبير في ستة

⁵¹⁶ تاريخ ابن خلدون، ج. 1، ط. 3، مكتبة المدرسة ودار الكتب اللباني للطباعة والنشر، بيروت، 1967م، ص. 1026 - 1028.

⁵¹⁷ فهرس الخزانة الحسنية، الجزء الأول، فهرس قسم التاريخ والرحلات والإجازات، إنجاز: عبد العالي لمدير ومحمد سعيد حنشي، إشراف شوقي بنين، الخزانة الملكية، المطبعة الملكية، 1421هـ/2000م.

⁵¹⁸ P.99 Davidson, Basil ; Old Africa Rediscovered (1970) نقله جمال محمد أحمد إلى العربية معتمدا على الطبعة الأولى بعنوان: «إفريقيا تحت أضواء جديدة، بيروت، 1961.

وخمسين عنواناً، ولم يذكر منها إلا بضعا وثلاثين، وقد نشر بازل دافيدسون (Basil Davidson) سنة 1959م «أن أحمد باب الذي عرف بوفرة إنتاجه، والذي قد تصل مؤلفاته إلى اثني عشرة كتاباً، واستدرك في الطبعة الثانية سنة 1970م، أنه عثر في شمال نيجيريا على مخطوطين من مؤلفاته»⁵¹⁸، وأشار محمد إبراهيم الكتاني في محاضرته بجامعة أربور ميشيغان بالولايات المتحدة أنه يوجد بمكتبات المغرب حوالي ثلاثين كتاباً ورسالة لأحمد باب⁵¹⁹.

بيد أن الفهارس الحديثة ستبين أن مؤلفات الرجل قد تجاوزت العدد المذكور سابقاً، ومع استعراض المواضيع التي تناولها والقضايا التي اشتغل بمناقشتها كانت متعددة ومتنوعة، متوزعة بين قضايا مذهبية وشرعية، ومسائل عامة كالرق وما كان يتبع ذلك من بيع الرقيق.

سنذكر في هذا المطلب مؤلفات الشيخ أحمد باب المحفوظة بالخزانة الحسنية بالقصر العامر بالرباط، وهي إحدى أهم دور المخطوطات والمطبوعات الحجرية بالمملكة المغربية، وهي كالتالي:

– إرشاد الواقف لمعنى «وخصصت نية الخالف»⁵²⁰: هذه رسالة مختصرة لتنبيه الواقف الذي سيأتي ذكره، توجد نسخة واحدة بالخزانة الحسنية،

⁵¹⁹ مؤتمر الدراسات الشرقية الدولي السابع والعشرين، الذي انعقد بجامعة أن أربور بميشيغان بالولايات المتحدة، أغسطس 1967م، تحدث فيه عن مؤلفات علماء غرب إفريقيا في المكتبات المغربية دعوة الحق، العدد الأول، السنة الحادية عشرة، شعبان 1387هـ/نوفمبر 1967م، ص. 84.

⁵²⁰ تحت رقم: 9615.

⁵²¹ مسجل تحت أرقام الخزانة الكتانية 1/4534، خزانة التهامي الكلاوي 1073.

⁵²² تحت رقم: 9616.

⁵²³ مسجل تحت أرقام 3/4534 الخزانة الكتانية، وخزانة التهامي 1073.

وقد طبع طبعة حجرية بفاس 1307هـ، تقع ضمن مجموع وبه 16 صفحة⁵²¹.

– إفهام السامع بمعنى قول خليل في النكاح بالمنافع⁵²²: أو «النكت اللوامع في مسألة النكاح بالمنافع»، توجد نسخة واحدة، وطبعة حجرية بفاس دون تاريخ، تقع ضمن مجموع⁵²³.

– أنفس الاعلاق في فتح الاستغلاق من فهم كلام خليل في درك الصداق⁵²⁴.

– تحفة الفضلاء ببعض فضائل العلماء⁵²⁵: فيها يتناول فضائل العلماء والأخبار بما ورد من الآيات والأخبار، وما خصوا به من أنواع الإكرام والاعتبار في كل الأعصار، ورتبها على ثلاثة فصول وخاتمة، ويتناول الفصل الأول فضل العلماء وما ورد في ذلك من آيات الكتاب والسنة والأقوال المأثورة، ويتناول الثاني ذكر أفضلية العلماء على غيرهم من العباد، ويورد المؤلف في ذلك طائفة من الأحاديث والأقوال والأخبار والروايات، ويتناول في الفصل الثالث موضوع المفاضلة بينهم وبين الأولياء العارفين، ويستشهد في ذلك بأقوال طائفة من الأئمة والحفاظ والحكماء، توجد منها ثلاث نسخ، وهي نسخ متلاشية الأطراف، كتبت بخط مغربي حسن ملون، وتقع ما بين 10 ورقات و51 ورقة ذات مسطرة مختلفة ومقياس متباين، بها تعقيبات وطرر وخروم كثيرة، وهي عارية من الناسخ وتاريخ النسخ.

– تعليق على قول خليل في آخر الخيار⁵²⁶: «وخير المشتري...»: (الزند الوري في مسألة تخير المشتري).

⁵²⁴ تحت رقم: 7745 – 9616 – 12010.

⁵²⁵ تحت رقم: 5534 – 5675 – 6308.

⁵²⁶ تحت رقم: 9615.

⁵²⁷ تحت رقم: 9226.

⁵²⁸ تحت رقم: 3754 – 13875.

- تنبيه الواقف على تحقيق وخصصت نية الخالف⁵²⁷.
 - تنوير القلوب في تكفير الأعمال الصالحات للذنوب⁵²⁸: وهو كتاب في العقيدة، تناول فيه الإشكال الواقع فيما ورد في ورد في بعض أحاديث الفضائل من تكفير ببعض الأعمال، مع ما أجمع عليه العلماء من كون أن الكبائر لا تكفر إلا بالتوبة.
 - جلب النعمة ودفع النقمة لمجانبة الظلمة وذوي الظلمة⁵²⁹: وهو مخطوط في الفقه كان الفراغ من تأليفه عام 997هـ/1590م.
 - خمائل الزهر فيما ورد من كفيات الصلاة على سيد البشر⁵³⁰: وهو كتاب تصوف أورد فيه المؤلف 91 صنفا من التصليات.
 - فتح الرزاق في مسألة الشك في الطلاق⁵³¹: كتاب في الفقه، وهو تقييد على قول خليل: «ولا يؤمر إن شك هل طلق أو لا؟»⁵³².
 - فتح المحيي في مسألة حيي⁵³³.
 - قصيدة قافية في شرب الدخان⁵³⁴.
 - كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج⁵³⁵: توجد منها عشرة نسخ وهو عبارة عن مختصر لنيل الابتهاج وفيه اقتصر على ترجمة مشاهير الأئمة وأولي التصانيف دون غيرهم لتيسير تحصيله وتقريب تناوله، ويختلف المختصر في ديباجته عن النسخة الكاملة، حيث حذفت منها قصة التجاء المؤلف إلى رعاية السلطان المنصور، ولكنه مطابق من حيث الترتيب، ويبدأ بترجمة
529. تحت رقم: 3731 - 5534 - 12453 - 13442 - 13729.
530. تحت رقم: 14060.
531. تحت رقم: 9615.
532. طبع ضمن مجموع بفاس سنة 1307هـ.
533. تحت رقم: 8228.
534. تحت رقم: 14068.
535. تحت أرقام: 453 - 681 - 1741 - 1970 - 2045 - 3029 - 8077 - 11626 - 12730 - 13996.

الأحمدين، وفي نهايته ترجمتان إضافيتان، ثم تعريف المؤلف بنفسه، وذكره لمصادر كتابه. وهو ما لم يرد في النسخ الكاملة.

أوله: «الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه محمد سيد المرسلين وعلى آله وصحبه وتابعيهم بإحسان أجمعين، وبعد فهذا جزء اختصرته من الذيل ذيلت به كتاب الذبيح المذهب» وآخره: «معرفة الأفاضل الأمة من صحابي وتابعي وفقه من شأن أهل العلم ومعرفة تاريخ موتهم وولادتهم ليتبين من سبق عمن لحق...».

– اللغ في الإشارة لحكم تبغ⁵³⁶: توجد منها نسخة واحدة.

– معراج الصعود إلى نيل حكم مجلب السود⁵³⁷: توجد منه ست نسخ كتب بخط مغربي جيد، وهو جواب عن سؤال ورد عليه من منطقة توات، وهي رسالة في إجازة استرقاق بعض الأصناف من السود، بين فيها حكم تملك وبيع العبيد المجلوبين من السودان.

– منظومة في استنشااق تابغة⁵³⁸: توجد منها نسخة واحدة.

– منن الرب الجليل ببيان مهمات خليل⁵³⁹: كتاب في الفقه، توجد منه ثلاث نسخ

– أجوبة في شأن القوانين العرفية⁵⁴⁰، توجد منها نسخة واحدة.

– النكت المستجادة في اتحاد الفاعل والمبتدأ في شرط الإفادة⁵⁴¹.

⁵³⁶.تحت رقم: 12471.

⁵³⁷.تحت رقم: 3565 - 7248 - 7579 - 12580 - 14001 - 14031.

⁵³⁸.تحت رقم: 12453.

⁵³⁹.تحت رقم: 4468 - 4975 - 11226.

⁵⁴⁰.تحت رقم: 5813.

⁵⁴¹.تحت رقم: 12260.

- نيل الابتهاج في الذيل على الديباج⁵⁴²: يوجد منه عشرة نسخ كتبت كلها بخط مغربي جميل، وغالبا ما تكون ملونة ومشكولة ومجدولة وتتراوح صفحاته ما بين 45 و442، ومسطرتها ما بين 23 و31 سطرا، وهو تكملة لكتاب الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب المالكي، لأبي إسحاق برهان الدين إبراهيم بن علي بن فرحون البعمري الأندلسي المتوفى سنة 799هـ/ 1396م. وأنجز مختصر لهذا الكتاب تحت عنوان «مختصر كتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج» من طرف مؤلف مجهول كان معاصرا لأحمد باب.

المطلب الثالث: قراءة كوديكولوجية في عناوين مؤلفات الشيخ أحمد بابا التمبكتي

إن المتصفح لمؤلفات الرجل يقف على معطيات كوديكولوجيا في غاية الأهمية يجب التنبيه عليها، فهي تمدنا بمعلومات قيمة وفريدة عن الأوضاع الثقافية والاجتماعية والسياسية في القرنين السادس والسابع عشر، فهو ينتمي إلى مرحلة القرن العاشر التي قيل عنها مرحلة الجمود والتقليد، الأمر الذي جعل الكثير يتبرم منها، ويصنفون في التنديد بها، وبالوضعية المزرية للعلوم والتعليم، وهو ما عبر عنه السيوطي بالمشرق بالزيادات القبيحة في العلوم، وندد به أحد أعلام المغرب خلال القرن العاشر علي بن ميمون الغماري بقوله: «الفساد الأعظم، في هذا الزمان الأدهم، في المشرق والمغرب»، هذا الفساد الذي لم يترك جزئية من جزئيات الحياة، إلا سرى فيها وانتشر، فلا «مال حلال، لعظيم تراكم الفساد، بين الناس، في العقود الشرعية»، ولا معاملة بمقتضى «الشرع على ما أمر به، بل لا نجد، إلا مخالفات الشرع، وارتكاب عكسه»⁵⁴³.

⁵⁴² تحت أرقام: 13910-13144-11311-9902-4206-2358-2139-1896-1274-99.

⁵⁴³ مواهب الرحمن في كشف عورات الشيطان لأبي الحسن علي بن ميمون الغماري، مخطوطة مصورة،

محفوظة في الخزنة الحسنية بالرباط، مسجلة تحت رقم «14142»، ص. 348.

بيد أن هذه المرحلة سادت في المشرق وعممت على أهل المغرب، في حين قد قابلتها مرحلة تقدم علمي وثقافي رائد في المغرب، بلغ فيه علم الكلام والفقه والسلوك قمة النضج، وظهر فيه علماء وفقهاء أبدعوا أيما إبداع، في تنشيط الحركة الثقافية والعلمية في المغرب⁵⁴⁴.

هذا، وقد جاءت مؤلفاته شاهدة على المشهد العلمي والديني المغربي التي كانت حاضرة بجدّة في جميع مؤلفاته، واصفا بعض المؤسسات التعليمية بالبلد وحلقات التدريس، منوها ببعض العلماء الذين لعبوا دورا كبيرا في نهضة العلم والتعليم بالمغرب، وسجل تفاصيلها الدقيقة في كتبه، كما تمحور حديثه عن مساجد المغرب ومزارات الصالحين وأضرحتهم⁵⁴⁵.

وعلى الرغم من انبهاره بالمستوى العلمي والديني، فهذا لم يمنعه من إثارة بعض مواطن النقص التي شابت بعض جوانب الحركة العلمية، خاصة ما له علاقة بعلوم الدين واللغة العربية، قال عنها: «لعمري فقد ذهب العلم بهذه المدن المغربية التي هي من بلاد العلم في قديم الزمان كفاس وغيرها، حتى صار يتعاطى الإقراء على كراسيها من لا يعرف الرسالة أصلا، فضلا عن غيرها، بل من لم يفتح كتابا للقراءة، فصار ذلك أضحوكة»⁵⁴⁶، وقد عاب عنهم عدم انفتاحهم على جميع كتب الفقه المعروفة عند المالكية، واقتصارهم على بعضها فقط، الشيء الذي اعتبره عنوان تراجع هذه المادة.

⁵⁴⁴ الأمر بالاتباع والنهي عن الابتداع للجلال السيوطي، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. 1، 1408 / 1988، ص. 33.

⁵⁴⁵ مغرب القرن السادس عشر من خلال كتابات العلامة باب الصنهاجي التمبكتي، مبارك ايت عدي، مجلة أسيناك، العدد الثاني عشر، 2017م، ص. 59-68.

⁵⁴⁶ كفاية المحتاج: ج. 2، ص. 284.

فجاءت شروحه الفقهية وكتبه التاريخية وسائر رسائله في غاية الإتقان والدقة، واضعا بذلك شروطاً للتصنيف والنسخ كالتى وضعها الفارابي⁵⁴⁷، فأحى بها الكثير من النصوص وأعادها إلى أصولها، جارياً على قواعد الفن المبحوث فيه، وهذا مظهر من مظاهر مرحلة التقدم الفكري والعلمي، لدى المسلمين، فحقق بها التكامل المطلوب بين العلوم، مواجهها بذلك التجزيء الذي حل بالتفكير الإسلامي.

ومما لا شك فيه أن العنوان هو سمة الكتاب⁵⁴⁵، فهو خلاصة الموضوع الذي يخوض غماره المؤلف، وزبدته، وهو الأثر الذي يدرج هذا الموضوع في الفن الذي يليق به. إنه وسيلة ضرورية لحث القارئ، من أجل القيام بعملية تخمين ذهني، وتسائل عميق، عن مدى مطابقة العنوان لمضمون الكتاب، إنه كلمة - كما يقول عبد الفتاح كيليطو - «تفتح أفق انتظار، أفق قراءة»⁵⁴⁹.

فلا يخفى أهمية البحث في العنوان، كما لا يخفى صعوبة صناعة العنوان، إن أهمية البحث في هذه المسألة لا تخلو من عمق، لأن العنوان بمثابة «الثريا» - كما يقول «ديريدا» - التي تضيء لنا كل جوانب الغرفة، كما قد يحيلنا الأمر إلى ما لا يمكن أن نجد في «الكتاب» نفسه.

⁵⁴⁷ يضبط هذه الشروط قول أبي نصر الفارابي: «فإن الكتب السابقة، إذا كانت قد استوفت جميع أجزاء الصناعة على الكمال، فتأليف الإنسان كتاباً، ينسبه إلى نفسه، يثبت فيه ما قد سبقه إليه غيره، فاستوفاه، فُضِّل، أو جُهِل، أو شرارة. اللهم إلا أن يكون ما ألفه الأول غامضاً، إما في العبارة المستعملة فيه، وإما في غير ذلك، فيشرحه الثاني، ويسهله، تابعاً؛ فيما يقوله ويؤلفه؛ لما نص عليه الأول. على أن تكون فضيلة تكميل الصناعة لمن تقدم، وللثاني؛ فيما تكلفه؛ فضيلة الرواية، والترجمة، وتسهيل ما أغمضه ذلك فقط» (كتاب الموسيقى الكبير لأبي نصر الفارابي، تحقيق غطاس عيد الملك خشية، دار الكتاب العربي، القاهرة، د. ت.، ص. 36).

⁵⁴⁸ تاج العروس من جواهر القاموس لمرتضى الزبيدي، تحقيق علي شيري، دار الفكر، بيروت، 1414 / 1994، ج. 19، ص. 709، مادة «عنو».

⁵⁴⁹ الغائب: دراسة في مقامة للحري، لعبد الفتاح كيليطو، دار توبقال، الدار البيضاء، ط. 2، 1987، ص. 27.

فالعنوان تعبير عن الحالة النفسية القلقة والمضطربة للمؤلف من أوجه عدة:

• استكمال واستدراك المشاريع العلمية السابقة

وفي ذلك يقول: «... ما زالت نفسي تحدثني من قديم الزمان، وفي كثير من ساعات الأوان، باستدراكي عليه (ابن فرحون) ببعض ما فاتته أو جاء بعده من الأئمة الأعيان، فقيدت فيه بحسب الإمكان»⁵⁵⁰، و«... لما كان علم التاريخ ومعرفة الأئمة من علماء الملة، من الأمور العلية، يعتني به كل ذي همة زكية، إذ هم نقلة الدين وحملة الشريعة المحمدية، وبه يتميز الصالح من الطالح، والمسحوظ من المقبول، ويعرف ذو العدل منهم ومن هو مجهول، فيعطى كل ذي حق حقه...»⁵⁵¹.

• النفسية المتأزمة والمنكسرة

حضور عبارات الأسف والأسف، فيختتم مؤلفاته بعبارات من قبيل: «يوم الفتنة»، و«يوم وقعت علينا المحنة»، و«يوم الكائنة الكبرى»، و«وما أنا عليه من الضيق والحيس»⁵⁵²، عجل الله بالفرج آمين»، و«تشئت البال وتنك الأحوال»⁵⁵³.

وعلى الرغم من هذه النفسية المتدمرة من الواقع الاجتماعي والديني والسياسي، التي ظهرت في أغلب مؤلفاته خاصة على مستوى المشاهد وطريقة السرد والحكاية، إلا أن هذا لم يؤثر بشكل جذري على الصورة التي قدمها حول المغرب والعلماء.

⁵⁵⁰. نيل الابتهاج: ص. 28.

⁵⁵¹. نيل الابتهاج: ص. 27.

⁵⁵². معراج الصعود إلى نيل مجلب السود، (أجوبة أحمد باب حول الاسترقاق)، تـ. فاطمة الحراق، وجون هنويك، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، 2000م.

⁵⁵³. فتح الشكور: 34

وسنشير إلى بعض ملامح الإبداع الفكري عند الرجل في مجال التدوين، التي تميزت بالشمولية، وسعة المادة، وحسن التناول، وبراعة الأسلوب، وتنوع المصادر الأصلية والمعاصرة.

ويلاحظ أيضا أسلوبه في المعالجة والتحليل لمجمل القضايا، اعتمد طريق الاختصار ليسهل تداوله واستيعابه، بأسلوب حجاجي تداولي، تميز بالصنعة والحبكة العلمية في صناعة العنوان لرسائله وأجوبته التي قدمها للمكتبة الإسلامية.

المطلب الرابع: مساهمة أحمد باب في بناء المدرسة المغربية وتشيت دعائمها

دوره في الحفاظ على الثوابت الدينية المغربية

من المعلوم أن الأركان الثلاثة التي بنيت عليها الثقافة المغربية هي «العقيدة الأشعرية»، و«الفقه المالكي»، و«التصوف الجنيدي»، تتجلى بجلاء كبير في مجمل مؤلفاته وفتاويه التي عالج فيها واقع عصره، وصحح فيها المسارات العقدية والأخلاقية التي كانت سائدة في زمنه على ضوء المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية، والسلوك، فجاءت كتبه متممة لسابقتها، وشارحة لما أشكل في غيرها، ومختصرة لأمّهات الكتب المعتمدة في المذهب والسلوك.

كما تجسدت خصائص المدرسة المغربية في فكر أحمد باب، من خلال أمرين:

– أولهما: ما حلاه به مترجموه، حيث نعتة تلميذه وصاحبه الحاج أحمد التواتي: «عالم الدنيا ومعلمها، حامل لواء الأحاديث ومفهمها، رافع رواية مذهب الإمام مالك، ومقدمها، العالم العلامة المقبول، الفاضل، الفهامة»⁵⁵⁴، ونُعت بـ «الفقيه، العالم، العلامة، فريد دهره ووحيد

⁵⁵⁴فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور»، للعلامة الولاتي، تـ. محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، ط. 1، 1981م، ص. 33.

عصره... وسلم له علماء الأمصار في الفتوى»⁵⁵⁵، وقال عنه القادري: «..نفع الله به هذا القطر المغربي وحمل منه علم غزير، وأُستفيد ما عنده من التحقيق والتحرير، وقد اشتهر فيه اشتهاً أهله، وتحققت فيه مكانة قدره وفضله...»⁵⁵⁶ إذ صفة «المتكلم» تشير إلى «العقيدة الأشعرية»، وصفة «الفقيه» تشير إلى «الفقه المالكي»، وصفة «الزاهد» و«الصالح» و«البركة» تشير إلى «التصوف الجنيدي»؛

- ثانيهما: منهجه في التأليف ودواعي التصنيف، ومجموع رسائله توحى بالأركان الثلاث، كما سنبينه في العناصر الثلاثة التالية:

العنصر الأول: معالم تثبيت العقيدة الأشعرية

نذكر من معالم إسهامه في تثبيت العقيدة الأشعرية في المغرب، والتوطئة لترسيمها، فهو الذي تشبع بالمنهج الأشعري على يد شيخه محمد بن محمود ببيغ التمكني، وقرأ عليه السنوسية الكبرى وصغرى الصغرى «أم البراهين» التي كانت ضمن المقررات الدراسية في غرب إفريقيا، بل إنها ترجمت إلى اللغات المحلية، وقد حلاه بـ «الإمام، العلامة، الولي، الصالح»⁵⁵⁷.

فكان من أهم معالم إحياء التراث العقدي الأشعري في مسيرة أحمد باب التمكني:

1. تأليفه في العقيدة الأشعرية: كتابا «شرح صغرى السنوسي»، وكتب أخرى كـ «شرح الصدر وتنوير القلب ببيان مغفرة ما نسب للجانب النبوي من ذنب»، و«فتح الصمد الفرد في معنى محبة الله تعالى

⁵⁵⁵. حلاه بهذا الوصف تلميذه السعدي، تاريخ السودان: ص. 35.

⁵⁵⁶. نشر المثاني: ج. 1، ص. 275.

⁵⁵⁷. الألائل السندسية في الفضائل السنوسية، مخطوط محفوظ في المكتبة الوطنية بالرباط، مسجل تحت رقم «471 د»، الورقة 83 ب.

للعبء»، و«نزول الرحمة في التحديث بالنعمة»، واختصاره شرح «صغرى السنوسي» الذي نسبته أحمد المقرئ لأحمد باب، ونعته بأنه «في أربع كراريس»⁵⁵⁸. وغيرها كثير⁵⁵⁹.

2. إسهامه في تصحيح المسارات العقيدية وقدرته على التواصل مع الواقع، ومزاوجته لـ «العقيدة الأشعرية» و«الفقه المالكي» في تقديم الحلول للمشاكل المستجدة والمستعصية.

3. إقراءه عقائد الإمام السنوسي في حلقاته العلمية، الأمر الذي يعكس همه في تحذير المذهبية الفقهية المالكية والعقيدة الأشعرية، ومقدرته الفائقة في شرح قواعدها وتوضيح دقائقها، بالإضافة إلى قيامه بمزواجة بين العقيدة مع الفقه عموماً، والفقه المالكي خصوصاً في مشروعه الإصلاحية.

⁵⁵⁸. روضة الآس العطرة الأنفاس، ص. 304.

⁵⁵⁹. وردت معظم هذه الكتب في فهرسة المراكشي، وبعضها ذكر في كتاب «فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور» للعلامة الولاتي، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، ط. 1، 1981م.

العنصر الثاني: معالم تثبيت الفقه المالكي

أهم الخصائص التي ميزت تأليفه الفقهية خصيصتان:

- أولهما: الخدمة الكبيرة الذي قدمها في كتبه الأربعة: «نيل الابتهاج» و«كفاية المحتاج» و «المقصد الكفيل»، و«من رب الجليل» في الفقه المالكي، والاجتهاد في نشره على نطاق واسع؛

- ثانيهما: الإبداع والتجديد، فقد تميزت أعماله بالاستدراك والتميم والتصحيح والشرح والاختصار، فكتابه «نيل الابتهاج بتطريز الديباج» تناول تراجم المذهب المالكي من الأدب والتصوف والتاريخ، ضم ثمان مئة واثنان ترجمة من الفقهاء المالكية في الغرب الإسلامي والمشرق وبلاد الأندلس، عمل أعطى لنا صورة عن فقهاء المالكية ووحدتهم المذهبية في العالم الإسلامي⁵⁶⁰.

فقد أخذ وجدد، وأعطى وأبدع، فقد اجتهد في طفولته وشبابه في تحصيل العلم وخدمته حتى عُد من أعلام المذهب المالكي، وسمه السعدي بقوله: «...جاهد بداية أمره بخدمة العلم حتى برع جميع معاصريه...ولا يناظره في العلم إلا أشياخه... وسلم له علماء الأمصار بالفتوى، وكان وقفا عند الحق، ولو كان من أدنى الناس، ولا يدهن فيه ولو الأمراء والسلاطين...»⁵⁶¹.

فهو بحق مثل حلقة وصل بين المغرب الإسلامي وبلاد السودان ورمزا للوحدة المذهبية، متفاعل مع البيئة المغربية وظروفها السياسية وأحوالها الاجتماعية منذ مجيئه إليها، مساهما بثقافته وعلمه في إصلاح الواقع الديني والاجتماعي والسياسي.

⁵⁶⁰ اعتبر ليفي برونسفال هذا الكتاب من أهم المصادر المغربية المتعلقة بالتراجم المالكية، فقال: «إن أحمد باب التمبكتي جدير بأن يسجل اسمه ضمن المؤرخين غير المباشرين للمغرب أواخر القرن السادس عشر الميلادي» ص. 179.

⁵⁶¹ تاريخ السودان: ص. 35.

العصر الثالث: معالم تثبيت التصوف الجنيدي

كان أحمد باب فقهما متصوفا، كما تفيدنا بذلك مؤلفاته، حيث يفيدنا أحمد المقرئ (1041هـ/1631م): «الشيخ المؤلف الكبير المصنف العلم الطائر الصيت ... لقيته بمراكش ... وانتفعت به واستفدت منه، وكنت كثيرا ما أذهب معه إلى زيارة الصالحين⁵⁶²..»، وقال عنه تلميذه عبد الرحمن السعدي: «سيد الوقت وبركته الشيخ العالم العلامة فريد دهره ووحد عصره»⁵⁶³، وهذه التحلية لا يحوزها إلا من كان من أهل البركة واليقين، ومن كان من المشتغلين بعلم التصوف.

بيد أنه كان على طريقة أهل التصوف الأخلاقي، الذي ارتضاه المغاربة ركنا أساسا من أركان ثقافتهم، وأعني بذلك تصوف أبي القاسم الجنيدي (ت. 297 هـ/910م). ويكفي دلالة على ذلك، ما ذكر عن تحصيله وتدريسه لكتب التصوف ومطالعتها لها في نيل الابتهاج، عند ملازمة شيخه بغيغ، منها كتاب «حكم ابن عطاء الله بشرح أحمد زروق لها، ومما يشير إلى حرصه على تثبيت دعائم التصوف الأخلاقي في المغرب، يجبرنا بعد خروجه من المحنة، طلب منه الإقراء بجامع الشرفاء بمراكش، فلازمه جمع غفير أخذوا عنه «حكم بان عطاء الله» و«شمائل الترمذي» و«الشفاء».

ومما يستدعي التوقف عند معالم محبته للأولياء وأهل الصفة في بعض ترجماته، فعندما ترجم لأبي العباس السبتي (تـ601هـ/1204م)، يصف قبر المترجم له وروضته، ويقول: «وإلى الآن ما زال الحال على ما كان عليه في روضته من ازدحام الخلق عليها وقضاء حوائجهم، ولكن قل ذلك العطاء لفساد

⁵⁶². روضة الأس العطرة الأنفاس في ذكر ما لقيته من أعلام الحاضرتين مراكش وفاس، أحمد المقرئ، ط. 2، الرباط، المطبعة الملكية، 1983م، ص. 303.

⁵⁶³. تاريخ السودان: ص. 244.

الزمان، وتقاصر أهله وبخلهم ومع ذلك فما زالت بركته تعم قاصديه من الفقراء والقاصدين، فله الحمد، وقد زرته على نحو خمسمائة مرة»⁵⁶⁴، وقد كان يحمل إليه بطاقة مختومة: «يضعها عليه، ويقول إني أسألك ما في هذه البراءة»⁵⁶⁵، وزار ضريح محمد بن عبد الكريم الهزميري مرارا بأغصات وتوسل عنده⁵⁶⁶.

وقد كانت من مصادره المعرفية المعتمدة، عدد كبير من التصنيفات التاريخية التي اعتنت بالتعريف بالصالحين والعارفين والزهاد والمتصوفة، مثل كتاب **التشوف إلى رجال التصوف** لابن الزيات، و**المواهب القدسية في المناقب السنوسية** للملاي، والذي اختصره، و**النجم الثاقب فيما لأولياء الله من المناقب** لابن سعد، وغيرها..

وعليه، فاحمد باب فقيه من فقهاء وصوفية أهل المغرب، كانوا متكلمين، بل كانوا من أعمدة الكلام، الذين لا يشق لهم غبار، ولا تجهل لهم آثار، كأبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي، والعكس يقال، حيث كان أساطين التصوف المغربي هم أساطين الفقه المالكي في المغرب، إلى أن قيل: «لقد كدنا نعجز عن العثور على متكلم متجرد عن السلوك الصوفي، بعد عصر السلاجلي»⁵⁶⁷.

⁵⁶⁴. نيل الابتهاج: ج. 1/ص. 69.

⁵⁶⁵. نشر المثاني: ج. 1/ص. 174.

⁵⁶⁶. المصدر السابق: ج. 1/ص. 184.

⁵⁶⁷. عثمان السلاجلي ومذهبيته الأشعرية، «دراسة لجانب من الفكر الكلامي بالمغرب من خلال «البرهانية وشروحها»، د. جمال البختي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط. 1، 2005م، ص. 143.

«وبذلك، أصبح الغرب الإسلامي، لأول مرة، صاحب مبادرة في التأثير، بعد أن أخذ عليه، أنه اكتفى بمجرد التقبل والتأثر. وكان التصوف أبرز العناصر، التي وسعت من مجال المضمون الثقافي المغربي، وعمقت تأثيره، سواء نحو أقطار الشمال الإفريقي، أو نحو إفريقيا السوداء، أو جنوب الصحراء»⁵⁶⁸.

وهذا دليل آخر على الانسجام الثقافي والفكري الذي كان بين المغرب وبلاد السودان، نجم عنه تواصل روحي سيأخذ مدارات مضيئة في باقي إفريقيا جنوب الصحراء، ويحمل دلالات دينية كثيرة، أهمها أن تجديد الفكر الديني، لدى علماء المغرب، ارتبط ارتباطا وثيقا بهذه العلوم الثلاثة في مشاريعهم الإصلاحية.

⁵⁶⁸ تجليات الفكر المغربي: دراسات ومراجعات نقدية في تاريخ الفلسفة والتصوف بالمغرب، لعبد المجيد الصغير، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، ط.1، 1421هـ/2000م، ص. 45.

خلاصة

لقد حاولنا من خلال هذا البحث استعراض بعض نماذج من أعمال أحد كبار أعلام الفقه المالكي في الغرب الإسلامي، قراءة تحليلية لمجمل مخطوطاته المحفوظة بالخزانة الحسنية بالرباط، غايتنا الوقوف على غنى التراث الثقافي المغربي السوداني المشترك، وإظهار الأبعاد التواصلية الحضارية والعلمية التي جمعت المملكة المغربية وبلاد السودان الغربي.

ولاريب أن مثل هذه المبادرات العلمية واللقاءات التواصلية قادرة على أن تمتن أواصر العلاقات الثقافية والعلمية، وبعثها من جديد في انتاجات فكرية وعلمية جديدة، تحافظ على ديناميكية التكامل المعرفي بين شمال إفريقيا وباقي مناطق القارة.

واليوم نشهد بقوة أن الوثائق والمخطوطات هي التي تحفظ تاريخ الأمم ومعارفها، إيدان وعنوان على إدراكها لقيمتها وأهميتها، والتراث العلمي التي تركه أحمد باب ثروة علمية نفيسة ساهم في إثراء الحياة الثقافية والفكرية في عهده، ويكفي الإشارة إلى ما قدمه في فن التراجم والمناقب، سيظل مرجعا أساسا لدارسي التاريخ العلمي والفكري، وللمهتمين بالتواصل بين مختلف بلدان العالم الإسلامي شرقا وغربا.

وتبقى هذه المساهمة الثمينة سريعة لمجموع فهرس الخزانة الحسنية التي قدمت لنا دليلا على الفكر الموسوعي للعلامة أحمد باب التمبكتي، ولا ندعي بذلك أننا قد استوفينا هذه الشخصية العلمية الكبيرة حقها من الدراسة والتحليل، ولكن فتحنا بابا للمزيد من الدراسات الجادة في علم البيبليوغرافيا عن شخصيات بصمت التاريخ الحضاري والثقافي والسياسي للسودان الغربي.

رحم الله العلامة أحمد باب التمبكتي، وجازاه عن المغرب وبلاد السودان وعن العالم الإسلامي قاطبة خير الجزاء، والله المستعان.

المصادر والمراجع

- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، أبو العباس أحمد الناصري السلاوي، تـ. جعفر الناصري ومحمد ناصر، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، 1955م.
- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، أبو العباس أحمد الناصري إفريقيا تحت أضواء جديدة، بيروت، 1961. Davidson, Basil ; Old Africa Rediscovered (1970) نقله جمال محمد أحمد إلى العربية معتمدا على الطبعة الأولى بهذا العنوان.
- إفريقيا، مارمول كرنخال، تـ. محمد حجي ومحمد زنيير وآخرون، ج.3، دار نشر المعرفة، ط.1989م.
- الإكليل والتاج في تذييل كفاية المحتاج، محمد بن الطيب القادري، تـ. ماريا دادي، تقديم. محمد بنشريف، ط.1، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطبعة شمس، وجدة، المغرب.
- الأمر بالاتباع والنهي عن الابتداء للجلال السيوطي، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. 1، 1408 / 1988م.
- بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، أبو القاسم سعد الله، ط.1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2003م.
- تاج العروس من جواهر القاموس لمرتضى الزبيدي، تحقيق علي شيري، دار الفكر، بيروت، 1414 / 1994.
- تاريخ ابن خلدون، مكتبة المدرسة ودار الكتب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، ط.3، 1967م.
- تاريخ السودان، عبد الرحمن السعدي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

- تاريخ الفتاش في ذكر الملوك وأخبار الجيوش وأكابر الناس، محمود كعت، ط.1، تحقيق حماد الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، 2012م.
- تجليات الفكر المغربي: دراسات ومراجعات نقدية في تاريخ الفلسفة والتصوف بالمغرب، لعبد المجيد الصغير، شركة النشر والتوزيع المدارس، 1421هـ/2000م.
- الحركة الفقهية ورجالها في السودان الغربي من القرن 8 إلى القرن 13هـ، عبد الرحمن محمد ميغا، مطبعة البيضاوي، المطبعة الملكية، 2011م.
- الحضارة الإسلامية العربية في غرب إفريقيا: سماتها ودور المغرب فيها، د. شوقي عطا الله الجمل، مجلة المناهل، العدد 7، تاريخ الإصدار: 1 نونبر 1976م.
- الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، مؤلفا مجهول، تسهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط.1، 1979م.
- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، أمين الدين الحجي، دار صادر، د.ت، لبنان.
- روضة الأس العاطرة الأنفاس في ذكر ما لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، أحمد المقرئ، ط.2، الرباط، المطبعة الملكية، 1983م.
- عثمان السلاجي ومذهبيته الأشعرية، «دراسة لجانب من الفكر الكلامي بالمغرب من خلال «البرهانية وشروحها»، د.جمال البخيتي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط.1، 2005م.
- الغائب: دراسة في مقامة للحريري، لعبد الفتاح كيليطو، دار توبقال، الدار البيضاء، ط.2، 1987م.

- فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور» للعلامة الولاتي، تـ. محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، ط.1، 1981م.
- فقهاء المالكية وآثارهم في مجتمع السودان الغربي، سحر عنتر محمد أحمد مرجان، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط.1، 2011م.
- فهارس الخزانة الحسنية، الجزء الأول، فهرس قسم التاريخ والرحلات والإجازات، إنجاز: عبد العالي المدبر ومحمد سعيد حنشي، إشراف شوقي بنين، الخزانة الملكية، المطبعة الملكية، 1421هـ/2000م.
- كتاب الموسيقى الكبير لأبي نصر الفارابي، تحقيق غطاس عبد الملك خشبه، دار الكتاب العربي، القاهرة، د. ت.
- كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، أحمد باب التمبكتي، تـ. محمد مطيع، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 2000م، ص.513.
- اللآلئ السندسية في الفضائل السنوسية، مخطوط محفوظ في المكتبة الوطنية بالرباط، مسجل تحت رقم «471 د»، الورقة 83 ب.
- محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي، عمر الجيدي، منشورات عكاظ، الرباط، 2016م.
- محاضرة أقيمت بمؤتمر الدراسات الشرقية الدولي السابع والعشرين، الذي انعقد بجامعة أن أبر بميشيغان بالولايات المتحدة، أغسطس 1967م، تحدث فيه عن مؤلفات علماء غرب إفريقيا في المكتبات المغربية دعوة الحق، العدد الأول، السنة الحادية عشرة، شعبان 1387هـ/نوفمبر 1967م.
- مغرب القرن السادس عشر من خلال كتابات العلامة باب الصنهاجي التمبكتي، مبارك ايت عدي، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مجلة أسيناك، العدد الثاني عشر، 2017م.

- مواهب الرحمن في كشف عورات الشيطان لأبي الحسن علي بن ميمون الغماري، مخطوطة مصورة، محفوظة في الخزنة الحسنية بالرباط، مسجلة تحت رقم «14142».
- نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، محمد الإفرائي، منشورات بردي، د.ت.
- نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، محمد بن الطيب القادري، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1397هـ/1977م، ص.1277.
- نيل الابتهاج بتطريز الديباج، أحمد باب التمبكتي، إشراف وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ط.1، 1398هـ/1989م.

ملكة التنزيل عند الشيخ أحمد بابا التمبكتي، نظرات في فتواه: (القوانين العرفية عند أهل الجبال)

الباحث: خالد درامي

حنانيك ربنا، لا ناصر لنا ولا معين غيرك، باسمك نستلهم الصواب، وبقدرتك
نستمد العون، وبعنايتك نتوقى مواطن الزلل، وبك أستعصم أن أقول هجرا؛
فلك الحمد على نعمك السوابغ، ولك الشكر على مننك المتتالية.

وصل وسلم يا مولانا على سيد الأولين وإمام المرسلين، محمد الذي طمست
بفجره دجنات الجهل، وأذهبت بيقين برهانه دياجير الشكوك، حتى أوضح
للعالمين ما أحللت لهم، وما حرّمت عليهم، وعلى آله وصحبه قواميس العلوم،
ومفاتيح الغوامض والمشكلات.

وبعد:

إن فقه التنزيل، المتعلق بطرق ربط الحكم بالنازلة، أو النازلة بالحكم، ذو درجة
شريفة، ومرتبة منيفة، لكنه صعب المراس، إذ لا يكفي فيه مجرد استيعاب المادة
الفقهية؛ لأنه أخص من علم الفقه؛ لأن متعلق الفقه كلي من حيث صدق
كلياته على جزئيات، أما التنزيل فمبني على إعمال النظر في الصور الجزئية،
وسبر ما اشتملت عليه من الأوصاف الكامنة فيها، فيلغى الطردي، ويعمل
المعتبر. ولا بد في هذا النوع من الدربة والتمرن، لأنه صناعة، قد يحسنها من
لا باع له في الفقه، ولا يحسنها من له باع، ويدل على وعورة مسلكه ما قاله
ابن سهل الأندلسي (486هـ): « وحضرت الشورى في مجالس الحكام، ما

دريت ما أقول في أول مجلس شاورني سليمان بن أسود، وأنا أحفظ المدونة والمستخرجة الحفظ المتقن... » فحفظ المسائل الفقهية لا يكفي ما لم يصحبه التدريب على تطبيقها على الواقع⁵⁶⁹.

وضمن هذه الوريقات أحاول إبراز لمحات من هذا الجانب في حياة الشيخ أحمد باب الفقهية، وعلو كعبه فيه، انطلاقاً من فتواه (القوانين العرفية التي تعارف عليها بعض سكان الجبال)، وهي فتوى كتبها إبان إقامته بالمغرب الأقصى، وسأتناولها من أربع حيثيات:

الحيثية الأولى: في نبذة عن القوانين العرفية (ألواح جزولة)

الحيثية الثانية: موقف العلماء من هذه القوانين

الحيثية الثالثة: الصناعة الفقهية عند أحمد بابا في تحرير هذه النازلة.

الحيثية الرابعة: في إثبات نص النازلة.

نبذة عن القوانين العرفية

من النوازل الواردة على الشيخ أحمد باب التمكنكي وهو بالمغرب، مسألة القوانين العرفية التي تعارف عليها أهل الجبال، من جزولة وغيرها؛ وهي عبارة عن قوانين وضوابط تعارف عليها رؤساء القبائل في سوس، وتعاهدوا على الاحتكام إليها في فض نزاعاتهم، حين لم يكن لديهم سلطة مركزية يحملون إليها الدعاوى والشكاوى، وكان ذلك في أواخر عهد أحمد المنصور؛ وهذه القوانين اتخذت زواجر لمن يهدد أمن البلاد، أو يخالف سياستها، فانتخبوا هذه القوانين سدا للخطر الدائر بهم من المتلصصة وقطاع الطرق.

⁵⁶⁹ديوان الأحكام الكبرى أو الإعلام بنوازل الأحكام وقطر من سير الحكام، لأبي الأصبح، عيسى ابن سهل الأندلسي، تحقيق: يحيى مراد، (دار الحديث، القاهرة - جمهورية مصر العربية)، 1428 هـ - 2007 م، ص 25.

وهذه الألواح حررت بإشراف جماعة من الأعيان (رؤساء القبائل) بل ويرى البعض أن للعلماء أثرا في تحريرها، كالدكتور الحسن العبادي — وهو المتخصص في النوازل السوسية بين القرنين 9 - 11هـ — حيث ذكر أنه لم يوجد في القرن التاسع كلام عن الألواح السوسية، حتى أقبل القرن الحادي عشر فبدأ العلماء ينظرون في أمرها ويسبرون مضامينها، واستنتج من هذا السكوت السافر في القرن التاسع والعاشر، أن لبعض العلماء أثرا في وضع هذه القوانين وذكر منهم: الحسن بن عثمان التملي (932هـ) و أحمد بن عبد الرحمن المسكدادي (958هـ) وعبد الله بن مبارك اللقاوي (971هـ) وعمرو بن أحمد البعقلي (968هـ)⁵⁷⁰

وتعالج هذه الألواح قضايا كثيرة، وتضع ضوابط وزواجر لكل قضية، وهي بلغة العصر «مواد القانون الجنائي» وتشمل مرافق كثيرة منها: نظام الأمن، المرافق التجارية، المرافق التربوية، ومرافق الإيداع التي تسمى بالحصون، وغيرها كثير.

⁵⁷⁰ ينظر: فقه النوازل في سوس قضايا وأعلام من القرن التاسع إلى نهاية القرن الرابع عشر الهجري، تأليف الدكتور الحسن العبادي، (مطبعة النجاح الجديدة — الدار البيضاء) ط1، 1420هـ — 1999م. ص 437 - 439

موقف العلماء من هذه القوانين

لقد تنازع العلماء في أمر هذه النازلة إلى حد كبير، تراوحت بين سهولة وتيسير في غير موضعه، بسوء استخدام القواعد وعدم الإلمام بدقائق الجزئيات، وبين غلو وتنطع من غير موجب، بالإعراض عن قواعد الفتوى، وبين توسط في الأمر واقتصاد.

ولا تغل في شيء من الأمر واقتصاد كلا طرفي قصد الأمور ذميم

وممن تناول هذه النازلة:

1. عبد الواحد بن أحمد الرجراجي (1036هـ)

الراجراجي رفض هذا الفعل ونادى عليه بالنكير؛ بل و لوح بالتكفير ، يقول: «اعلم - أرشدنا الله وإياك - أن الحق جلت قدرته، لم يواجه خليفته بما أطلعه من محكم شريعته، ليقابل فيه بالإعراض، ولا أوضح طريقته، ليعامل فيها بوهي الأغراض، بل يكتفي بما ارتضاه ديناً لعباده».⁵⁷¹

2. أبو مهدي عيسى بن عبد الرحمان السكتاتي (ت 1062هـ)

لأبي مهدي جوابان على هذه المسألة، ففصل في الأمر، وقسم مضامين الألواح قسمين: ولعله استفاد من الشيخ أحمد باب في ذلك.

- قسم جائز: وهو تعاهدهم واتفاقهم فيما بينهم على التعاون لمحاربة المفسدين من المتلصصة وقطاع الطرق، واسترداد المنهوب منهم، وأدخل هذا القسم تحت أصل تغيير المنكر، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن

⁵⁷¹ الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة، أبو زيد عبد الرحمن التمناري، تحقيق اليزيد الراضي، تقديم محمد المنوني، (دار الكتب العلمية — بيروت) ط2، 2007م، 470.

لم يستطع فبقليه، وذلك أضعف الإيمان.» وشروط ذلك وموانعه وأسبابه معلومة مشهورة في كتب الأصول. والواجب عليهم تغيير المنكر وفق الشريعة إذا توفرت الشروط والأسباب وانتفت الموانع.

- قسم غير جائز: هو تحميلهم الأقارب جريرة قريبتهم، ومؤاخذتهم الضعفاء من الأيتام والأرامل، والتمسك بدينه؛ لأن ذلك من دفع الضرر بالضرر⁵⁷².

3. أبو زيد عبد الرحمن بن محمد التمنارتي (ت 1070هـ)

يحكي التمنارتي عن نفسه حين سئل عن الألواح قائلا: «سافرت من تارودانت لبلاد القبلة؛ فمررت ببلاد هنكيسة، فكانوا يتحاكمون إلي، فإذا عرضت خصومة تتعلق بحصونهم التي أعدوها لحفظ أموالهم، وكانوا يبنونها على شواهد منيعة، قالوا هذه إنما يحكم فيها ألواح الحصون، فسألتهم عنها، فقالوا هي ضوابط وقوانين رسموها، وينتهون إليها عند وقوع حادث في الحصن؛ فشرحوها لي منها كثيرا، فوجدتها كلها من باب العقوبة بالمال التي ليست في الشريعة إلا في الغش، وليس شيء منها في الغش، بل هي عوض عن الحدود التي نصبها الشرع زواجر؛ فقلت لهم: هذا من التحاكم إلى الطاغوت الذي أمرنا أن نكفر به⁵⁷³».

4. محمد بن عمر المشتوكي قاضي مراكش (ت 1098هـ)

أما المشتوكي فقد ذهب بعيدا، واعتبر أن الاعتماد على هذه الأحكام والإعراض عن أحكام الشرع كفر والعياذ بالله، بل حرّض الحكام على قتالهم، حتى يفيؤوا إلى أمر الله، يقول: «فترك الأحكام الشرعية، واستنباط

⁵⁷². ينظر: المصدر السابق، ص 470. بتصرف.

⁵⁷³. الفوائد الجمة للتمنارتي، ص 462هـ.

ضوابط وقوانين، تخالف أحكام الشرع المحمدي كفر صراح، فيجب على من
مكنه الله في الأرض أن يحسم مادة أولئك الفجرة، ويردهم إلى الشرع ولو
بقتلهم⁵⁷⁴. »

5. أجوبة علماء القرويين

يوجد بعض الفتاوى تخص هذه النازلة في جوابات علماء القرويين، تؤيد
العمل بمضمون أعراف أهل الجبال، غير أن تلك الأجوبة غير صحيحة النسبة،
كما نبه على ذلك فقهاء المذهب، والنابعة الغلاوي اعتبرها من الفتاوى
الشیطانية اللیطانية، يقول:

هذا بيان كتب الشيطان وما من الأقوال لليطان
قد حذروا من كتب منسوبة للعلماء نسبة مكذوبة

إلى أن قال:

والقرويون إليهم تنسب أجوبة وهي لزور أنسب
وما من الأحكام للزياتي يعزى على نهج الضلال آت
فكلها فتوى من الشيطان وما لها في الشرع من سلطان⁵⁷⁵

وهناك جم غفير ممن تحدث عن هذه النازلة ما بين محل بإطلاق ومحرم بإطلاق،
ومقسط مفرق بين جيدها وردئها، ولكني اكتفي بهذا القدر خشية الإطالة، إذ
لست هنا مستقصيا، وإنما القصد إبراز نبذة من الفتاوى التي تخص هذه النازلة.

⁵⁷⁴الإعلام بمن حل مراكش وأغامت من الأعلام، تأليف العباس بن إبراهيم السملالي، راجعه: عبد الوهاب
ابن منصور، (المطبعة الملكية - الرباط) ط2، 1413هـ - 1993م، ج5، ص 446.

⁵⁷⁵بوطليحية (منظومة في المعتمد من الكتب والفتاوى على مذهب المالكية)، لخمم النابعة الغلاوي (1245هـ)
تحقيق يحيى ولد البراء، (مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع) ط2، 1425هـ / 2004م. ص 103 — 104.

الصناعة الفقهية عند الشيخ أحمد باب في تحرير هذه النازلة

لقد سار الشيخ أحمد باب في تحرير هذه النازلة على منهجية في غاية الدقة، في كيفية تنزيل القواعد على هذه النازلة، وتصويب ما نيط منها بغير محلها، حيث أعمل النظر في صور جزئية هي خفية على غير المتأمل، واستنجد بمعرفة الفروق والجموع — والفقه جمع وفرق — فأصاب؛ حيث فرق في ثانيا فتواه بين مستويين من أمور الشريعة:

المستوى الأول: التصديق؛ ويتعلق بكل ما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقطع ثبوتاً ودلالة.

المستوى الثاني: العمل؛ وهو العمل بمقتضى ما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا المستوى محاط بأسباب وشروط وموانع، وهو ما يسمى عند الأصوليين بـخطاب الوضع.

ولا يصح التكفير بشيء مما يتعلق بالجانب العملي، ما لم ينشأ عنه اعتقاد، كأن يجحد قاطعاً من القواطع، أو يعتقد حلية ما حرم من دون شبهة، وهذا رد على الذين كفّروا أهل الجبال باحتكامهم إلى ألواحهم.

ثم إنه بنى فتواه على ثلاث مسائل:

1. قيام جماعة المسلمين مقام القاضي والإمام
2. التحقيق بين العقوبة بالمال والعقوبة في المال
3. التحقيق بين المصلحة المعتبرة والملغاة.

المسألة الأولى: قيام جماعة المسلمين مقام القاضي والإمام

هذه من الأصول التي طفحت بها كتب متأخري المالكية، بعبارات مختلفة تارة يعبر عنها «بالعدل» وأخرى «بصالح الجيران»، لكن التي كثرت على السنة الأئمة، هو الأول، «جماعة المسلمين»، وهذه القاعدة من حيث هي مبنية على أصل آخر، وهو المصلحة.

فالشريعة قد رتبت شؤون الناس بناء على حكم ومصالح، وأناطها بجهة معينة، وهو ولي الأمر الشرعي (الإمام)، وهو الذي ينوب عن الجماعة في تطبيق تلك الأمور في الوقائع والنوازل، ولما كان هو في الأصل نائباً عن الجماعة، فلم يكن مستبعداً عند المالكية أن ينوب عنه الجماعة أيضاً عند فقده، رعيًا لمصالح الناس، ودراء وسدا لباب المفساد. و هل ذلك عام في كل نازلة، أم يخص بعضها فقط؟ هذا محل خلاف بين المالكية، حيث يتنازع بعض الفقهاء في دخول هذه القاعدة على بعض النوازل.

والشيخ أحمد باب التمبكتي فتح هذه الذريعة لسكان الجبال ابتداء، لكن بشرطين أساسيين أوماً إليهما أثناء التحرير:

1. قيام المقتضي وانتفاء المانع، وهو خلو البلد من إمام يقيم الشرائع، إما حساً، أو معنى كأن يكون كافراً، أو تاركاً تحكيم الشريعة أو غير عدل. وهذا كله من باب رفع الضرر، والضرورة تقدر بقدرها؛ ولهذا دعاهم إلى الدخول تحت حكم السلطان، إذ لا يصح بقاء الناس فوضى لا سرة لهم، ولعله أدرك بإقامته بمراكش، أن دخولهم تحت حكم السلطان غير متعذر.
2. أن يكون جماعة المسلمين قائمين بتطبيق الشريعة على الوجه الذي أراد الشرع دون زيادة ولا نقصان؛ «لأن الحدود لا تتغير كیفیاتها ولا تبدل آلاتها» كما يقول الجويني⁵⁷⁶.

⁵⁷⁶ الغياثي (غيث الأمم في التياث الظلم)، إمام الحرمين الجويني (478هـ)، تحقيق الدكتور عبد العظيم الديب، (مطبعة النهضة - مصر)، ط2، 1401هـ، ص 519.

وجمع الشيخ هذين الشرطين بقوله: «فاعلم أن الموضع الذي لا سلطان فيه، ولا يلحقه حكم السلطان، إن اجتمعت جماعة المسلمين فيه على إقامة أحكام الشرع على الوجه المشروع فإن حكمهم يقوم مقام السلطان، والقاضي؛ حيث لا سلطان ولا قاضي. ولكن يجب عليهم السعي في الدخول تحت حكم السلطان؛ إذ لا يجوز البقاء فوضى؛ للأحاديث الكثيرة، كحديث: «من مات وليس في عنقه بيعة؛ مات ميتة جاهلية».

ولا شك أن الشيوخ الذين قننوا قوانين الجبال، بنوها على هذه القاعدة، وإن كانوا لم يوفقوا في توظيفها حسب نظر الشيخ أحمد باب؛ إذ القاعدة لها محال تطبق فيها، وشروط لا بد من مراعاتها، والشيوخ لم يتنبهوا لذلك، فنبههم الشيخ أحمد باب، إلى بعض تلك الضوابط بكليّمات مقتضبة.

المسألة الثانية : التحقيق بين العقوبة بالمال والعقوبة في المال

العقوبة المالية من مسائل التشريع الجنائي التي شغلت فقهاء المالكية بالغرب الإسلامي برهة من الزمن، فبحثوها من منطلق الاستدلال المرسل، الذي يسمى بالمصلحة المرسلة. وهي عند الفقهاء قسمان: العقوبة في المال، والعقوبة بالمال، وهما متشابهتان شكلا، مختلفتان في الحقيقة.

فحقيقة العقوبة في المال: هي تفويت الشيء المعصي به أو فيه على ربه تفويتا لا يحصل بسببه انتفاع له ولا لغيره غير الزجر والردع⁵⁷⁷ أي معاقبة الحاكم الجاني، بأخذ ماله الذي كان سببا في ارتكاب المعصية أو شارك به فيها.

أما العقوبة بالمال: هي أخذ مال من الجاني مما لم يعص الله به أو فيه.⁵⁷⁸ أي أن يعزّر الحاكم الجاني ويؤدبه بأخذ قدر من ماله على معصيته حتى ينزجر.

⁵⁷⁷. كتاب النوازل، للشيخ أبي الحسن بن الشيخ عيسى بن علي العلمي، تحقيق المجلس العلمي بفاس، (وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المملكة المغربية) 1409هـ/1989م، ج3، ص 159.

⁵⁷⁸. نفس المصدر والجزء والصفحة.

ولا نقاش في العقوبة في المال لوضوحها، وإنما النقاش بينهم في العقوبة بالمال، وقد ظهر النزاع فيها بتونس في مستهل القرن التاسع، بين الشيخ الحافظ البرزلي (ت 844هـ) وبين الشيخ أبي العباس أحمد الشماخ الهنتاتي (ت 861هـ) فأفتى البرزلي بجوازها، وأنكر عليه الشماخ، وألف فيه كتابا يؤيد به مذهبه أسماه: «مطالع التمام ونصائح الأنام ومنجاة الخواص والعوام في رد القول بإباحة إغرام ذوي الجنايات والإجرام زيادة على ما شرع الله من الحدود والأحكام».

ولكن بعضا من فقهاء المغرب أيدوا فتوى البرزلي، منهم أبو محمد عبد الله الهبطي (963هـ)، وأبو القاسم خجوج (956هـ)، وكذلك الفقيه موسى بن علي الوزاني (ت 970هـ)، وكذلك أبو حامد العربي الفاسي (ت 1052هـ) له رسالة في العقوبة بالمال، يذهب فيها إلى جوازها، نشرتها دار المرقاة للدراسات والنشر، بتحقيق د. يونس بقيان. وغيرهم كثير.

وعمل الشيوخ بالعقوبة بالمال في قوانين الجبال لا يخلو من أمرين:

1. إما أنهم بنوها على قاعدة «ما جرى به العمل» وهو العمل بالضعيف أو المرجوح رعيًا للمصلحة، و قد رأوا من فتوى البرزلي ركنًا يأوون إليه.
2. أو أنهم أجروها على أنها من باب العقوبة في المال.

أما الأول، فهو باطل عند الشيخ أحمد باب؛ لأن العقوبة بالمال باطل في مذهب مالك، إما اتفاقًا وإما على المشهور، وإن شهدت لها بعض الفروع في الصدر الأول، إلا أن العلماء حكوا الإجماع على نسخها؛ ولذا قال المنشريسي «أما مسألة العقوبة بالمال فقد نص العلماء على أنها لا تجوز بحال»⁵⁷⁹ فإذا ثبت ذلك فلا يجوز للقاضي المقلد، الحكم بغير المشهور، وحكمهم بالعقوبة بالمال لا يرفع الخلاف؛ لأن حكم القاضي الذي يرفع الخلاف هو القاضي المجتهد لا المقلد.

⁵⁷⁹ شرح الزرقاني على مختصر خليل، عبد الباقي بن يوسف بن أحمد الزرقاني (ت 1099هـ)، ضبطه وصححه وخرج آياته: عبد السلام محمد أمين، (دار الكتب العلمية — بيروت — لبنان)، ط1، 1422هـ، 2002م، ج5، ص 110.

فإن قيل: أفتى به عالم مؤهل للاقتداء، وجرى به العمل، قيل لهم: قول هذا العالم في هذه المسألة ضعيف في المذهب اتفاقا، ولصحة العمل بالضعيف شروط ذكرها الأصوليون في مصنفاتهم، منها: ألا يكون شديد الضعف، وفتوى البرزلي، ضعيف المدرك؛ لأنه عارض قاطعا، وهو الإجماع، وليس بين قطعي وظني تعارض. وهذا الذي أهمله شيوخ الجبال؛ في نظر الشيخ أحمد بابا، فهم راعوا بعض الشروط، وأهملوا أهمها، وهو النظر في المدرك.

ولم يركز الشيخ أحمد باب على حكاية الإجماع؛ لأنه لم ينطلق إلا من المذهب المالكي، وهو من الذين لا يجوزون للمقلدين الخروج عن المذهب، لذا اقتصر على ما في المذهب، فحكى «الاتفاق» نظرا لعدم اعتبار فتوى البرزلي، وحكى «المشهور» نظرا إلى اعتبار فتواه هو ومن وافقه من الفقهاء.

ومسألة «العمل» عند علماء جنوب الصحراء مخوفة بشروط صعبة، فيرون أنها غير متوفرة في كثير من القضايا التي يدرجها المغاربة تحت قاعدة ما جرى به العمل؛ ولهذا في أغلب الأحيان يبحثون المسائل من حيث المدرك فقط، فإن كانت مما له وجه ... وإلا اسقطوها، كما فعل أحمد باب هنا.

أما إن كان الثاني، فقد أخطأوا في تحقيق المناط، لأن حقيقة العقوبة في المال غير العقوبة بالمال، فالأولى مقيد بالمال الذي شارك به في الجناية، والثانية مطلقة؛ وفي التنزيل لا بد من معرفة الفروق والجموع؛ لأن مسائل الشرع ربما تتشابه صورها، وتختلف أحكامها.

يقول رحمه الله تعالى: «وأما عقوبتهم الجاني بهدم داره وإتلاف أمواله، و يسمونه إنصافا؛ فاعلم أن الواجب على الجاني إن قطع الطريق بإخافة، أنه محارب؛ فيجب إنفاذ حكم المحارب فيه؛ من قتل، أو قطع، أو حبس، أو نفي. وإن كان سارقا بحكم السرقة، أو غاصبا، فحكمه في كلها واضح، و يؤخذ منه ما غصبه، أو حارب عليه، ويرد إلى ربه، ولا تهدم داره ولا تتلف أمواله بعد ذلك؛ لأنه عقوبة بالمال وهي لا تجوز في المذهب، إما اتفاقا وإما على

المشهور، والجزئيات الواقعة في المذهب من ذلك، إنما هي عقوبة في المال لا بالمال، بخلاف ما غش فيه ونحوه.»

المسألة الثالثة: التحقيق بين المصلحة المعبرة والملغاة

إن من الأسس التي بنيت عليها قوانين الجبال، المصلحة، وهي بذلك تتفق مع مقاصد الشرع ولو في الظاهر؛ لأن مدار الشريعة الإسلامية، على ثلاث مصالح:

الأولى: درء المفساد، وهو ما عبر عنه الشاطبي بالضروريات

الثانية: جلب المصالح، وهو مبحث الحاجيات

الثالثة: الجري على مكارم الأخلاق، والعادات الحسنة، وهي التحسينيات.

والوصف من حيث إناطة الحكم به، لا يخلو: إما تكون إناطة الحكم به، تتضمن إحدى المصالح الثلاث بالذات، أو لا تتضمن مصلحة أصلا لا بالتبع ولا بالذات، أو تتضمنها بالتبع لا بالذات.

فإن كانت إناطة الحكم به تتضمن إحدى المصالح المذكورة، فهو الوصف المناسب عند السادة الأصوليين، وذلك كإناطة تحريم الخمر بالإسكار، فإنها تتضمن مصلحة حفظ العقل، ودرء المفسدة عن العقل، وحفظ العقل من الضروريات.

أما إن كانت إناطة الحكم بالوصف لا تتضمن مصلحة أصلا لا بالذات ولا بالتبع، فهو الوصف الطردي، ولا يصح التعليل به، والوصف قد يكون طرديا في جميع أحكام الشرع، كالطول والقصر، وقد يكون طرديا في بعضها دون بعض كالذكورة والأنوثة في العتق، فهما طرديان في مثل الميراث والشهادة لقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ [النساء:]

وقوله تعالى ﴿ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ﴾ [البقرة: 281]. و أما إن كانت إناطة الحكم به لا تتضمن مصلحة إلا بالتبع والاستلزام، فهو الذي يجمع بين الفرع والأصل في ما يسمى عند الأصوليين بقياس الشبه، وهو في منزلة بين المنزلتين، فهو فوق الطرد، ودون المناسب.

فإذا تبين أن الوصف من حيث تضمنه للمصلحة وعدمها، ينقسم إلى هذه الأقسام الثلاثة، فإن ذلك يمهّد لنا الطريق للحديث عن الوصف المناسب الذي هو بمثابة بيت القصيد، ومربط الفرس.

الوصف المناسب إنما كان مناسبا لتضمنها المصلحة، وهذه المصلحة التي تضمنها الوصف فصار به مناسبا تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأولى: ما دل دليل خاص من الشرع على اعتبار تلك المصلحة، وعدم إهدارها، كالإسكار في تحريم الخمر، والصغر بالنسبة إلى الولاية على المال. فهو المعروف بالملائم

الثانية: ما دل دليل خاص على إلغائها وإهدارها وعدم اعتبارها، كتخصيص كفارة إفطار الملوك في نهار رمضان بالصوم، لمصلحة الزجر والردع؛ فإن ذلك ملغاة لأن الشارع ترك كفارات الصوم على التأخير. وهو المعروف بالغريب

الثالثة: ما لم يدل دليل خاص على اعتبارها ولا على إلغائها وعدم اعتبارها، وهو ما يسمى عند المالكية بالمصلحة المرسلة.

وهذا المصلحة المرسلة من أدلة المالكية، ولا شك أن شيوخ الجبال، تعلقوا بها كثيرا، في تقنين قوانينهم، فأدرجوا أمورا كثيرة تحت بساط المصلحة، لكن الشيخ أحمد باب التمبكتي، رأى أنها ليست من المصلحة المعتمدة شرعا، وإن لاح لناظر ابتداء أنها مصلحة معتبرة، أو مرسلة، وبيان ذلك من وجوه:

1. أن المصلحة المرسلة ما لم يقيم دليل على اعتباره وإلغائه، وتحريم أكل أموال الناس بالباطل، ضروري في الدين لا سبيل إلى انتفائه، ورده. وهم في هذه القوانين يأخذون أموال الجاني وأموال عشيرته، ولذا قال: «وأعظم منه جناية، وأكبر بلية؛ أخذ أموال أقاربه، سيما الأيتام والأرامل، فإن ذلك من أعظم الكبائر، وأفحش الفواحش الممنوع بالإجماع؛ إذ ليس الشرع أخذ الإنسان بجناية غيره قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: 166].

2. أن كفة المفساد في قوانين الجبال رجحت كفة المصالح، كما يتجلى ذلك في إتلافهم متاع الجاني، بغير حق، وهو تعد محض، والمناسبة تنخرم بمفسدة تلزم راجحة أو مساوية.

3. أن المصلحة الموهومة التي في القوانين العرفية لدى سكان الجبال، قد عارضت الكتاب والسنة والقياس وخرقت كليات الدين، قال رحمه الله: «وقد قرر العلماء أن ما جرت به العادة من أخذ القريب أنه ظلم ليس من الشرع كما بينه ابن فرحون وغيره؛ فقول هؤلاء الشيوخ: إن ذلك فيه المصلحة كذب وبهتان وإثم وخطأ، فإذا اعتقدوا حل ذلك ربما أفضى بهم إلى المروق من الدين...»

وهنا أراد الإشارة إلى أن القاعدة الأصولية المشهورة «العادة محكمة» غير مطلقة، وإنما هي مقيدة بما لم يخالف كتاباً ولا سنة، إذ تحكيم العادة بالإطلاق مؤذن بنسخ الشريعة المحمدية.

نص الفتوى

يقول التمنارتي: وقد طالعت في المسألة (القوانين العرفية لسكان الجبال) جوابا آخر لنزيل مراکش أبي العباس أحمد بابا - به عرف - بن أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت، الصنهاجي، السوداني، التمبكتي؛ نقله المنصور مع عشائره حين افتتح السودان لمراكش، وهم من أهل العلم، والمروءة؛ فانقرضوا كلهم بمراكش سوى أبي العباس، فإنه رجع لبلاده، بعد وفاة المنصور بأمر ولده الملك زيدان، فتوفي بمسقط رأسه في تاريخ وفاته المتقدم؛ ونص جوابه:

الحمد لله - وبالله التوفيق - إن هذا السؤال، اشتمل على فصول، احتاج كل فصل إلى الجواب عنه بحدته:

أما قولكم: «يَجْتَمِعُونَ عَنْ آخِرِهِمْ»... إلى قولكم: «الشيخ والضمان»... فاعلم أن الموضوع الذي لا سلطان فيه، ولا يلحقه حكم السلطان، إن اجتمعت جماعة المسلمين فيه على إقامة أحكام الشرع على الوجه المشروع فإن حكمهم يقوم مقام السلطان، والقاضي؛ حيث لا سلطان ولا قاضي ولكن يجب عليهم السعي في الدخول تحت حكم السلطان؛ إذ لا يجوز البقاء فوضى؛ للأحاديث الكثيرة، كحديث: «من مات وليس في عنقه بيعة؛ مات ميتة جاهلية».

وأما جعلهم الضوابط والأحكام على مقتضى المصالح؛ فإن كانت جارية على وجه الشرع، فليس بجعل؛ وإنما هو إنفاذ لحكم الشرع، وإن كان على خلافه فهو أمر حرام، لا يجوز قطعا، يعلم فساده من له أدنى إلمام بالشرعية؛ فلا تكون الأحكام إلا على مقتضى ما شرع الله تعالى على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم، وبينه علماء سنته: ﴿لَتُبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 44] وعلى ذلك تجري الأحكام والوقائع: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: 84]، والغيرية صادقة في الأصول والفروع، فسواء اتبع ديناً غيره أو ابتدع أحكاماً غير أحكامه.

وأما استردادهم من قاطع الطريق ما أخذه من الأموال بعينها؛ فإن كانوا ليردوها إلى أربابها؛ فهو فعل حسن، وأمر مستحسن، أمر به الشرع، وإن كانوا ليأكلوها؛ ففعل قبيح حرام، بل زادوا شراً على شر، وكذا ما يغرمونه للقطاع مما أكلوه؛ حكمه ما تقدم ءانفا.

وأما عقوبتهم الجاني بهدم داره وإتلاف أمواله، و يسمونه إنصافاً، فاعلم أن الواجب على الجاني، إن قطع الطريق بإخافة، أنه محارب؛ فيجب إنفاذ حكم المحارب فيه؛ من قتل، أو قطع، أو حبس، أو نفي. وإن كان سارقاً بحكم السرقة، أو غاصباً، فحكمه في كلها واضح، و يؤخذ منه ما غصبه، أو حارب عليه، ويرد إلى ربه، ولا تهدم داره ولا تتلف أمواله بعد ذلك؛ لأنه عقوبة بالمال وهي لا تجوز في المذهب، إما اتفاقاً وإما على المشهور، والجزئيات الواقعة في المذهب من ذلك، إنما هي عقوبة في المال لا بالمال، بخلاف ما غش فيه ونحوه.

والكلام في المسألة طويل عريض، لا يسعه المقام، إلا أن يكون بنى داره في موضع يقطع فيه الطريق؛ فتهدم عليه. فإذا ثبت الاتفاق على عدم جواز أخذ المال من الجاني على وجه التأديب له، وهو المسمى بعرف الظلمة « بالإنصاف » ففعل هؤلاء الشيوخ ممنوع حرام؛ لأنه ليس من أحكام الشرع. بل الجاني على المال يؤخذ منه عينه، إن كان قائماً لم يتغير، أو قيمته أو مثله إن تلف، ليس إلا... و يعاقب في بدنه على قدر جانيته بما يرد عنه وغيره، بهذا أمر الشريعة المحمدية، وفيه أعظم الزجر؛ لأن الإذابات البدنية على قدر الجناية أعظم من إتلاف الأموال، وأنكى في رجوع أهل الضلال، بما في السؤال من أكلهم ماله وهدمهم داره؛ فظلم، وعدوان، وتعد محض، وطغيان.

وأعظم منه جناية، وأكبر بلية؛ أخذ أموال أقاربه، سيما الأيتام والأرامل، فإن ذلك من أعظم الكبائر، وأفحش الفواحش الممنوع بالإجماع؛ إذ ليس في الشرع أخذ الإنسان بجناية غيره [...] بمافعل [...] فحمل عليه⁵⁸⁰؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: 166]. وقد قرر العلماء أن ما جرت به العادة من أخذ القريب أنه ظلم ليس من الشرع، كما بينه ابن فرحون وغيره؛ فقول هؤلاء الشيوخ: إن ذلك فيه المصلحة كذب وبهتان وإثم وخطأ، فإذا اعتقدوا حل ذلك، ربما أفضى بهم إلى المروق من الدين؛ وقد كفر العلماء المهدي بن تومرت؛ لافتعاله أحكاما غير شرعية كما ذكره الإمام ناصر السنة أبو إسحاق الشاطبي (ت 790هـ) في كتاب الحوادث والبدع.

وأما تحليفهم المتهم خمسين يمينا؛ فمن جملة تغيير الشرع، إذ ليس في الشرع تحليف بغير يمين واحدة، إلا في القسامة بخمسين، وفي اللعان بأربعة مع التخميس باللعن والغضب؛ وإنما يحلف المتهم يمينا واحدة مع تهديد له وضرب وسجن؛ رجاء أن يخرج المال المتهم به، كما قال ابن يونس وعبد الحق واللخمي وغيرهم من علماء المذهب وهذا واضح.

وأما قول الشيوخ إنهم لو تركوا أخذ «الإنصافات» من الجاني وأقاربه، لم تنتظم كلمتهم، ولا استقام أمر بلادهم، فهو كلام من وصل في الجهل إلى الغاية، أو غرق في اتباع الهوى إلى النهاية، بل انتظام الكلمة واستقام الأحوال، إنما يكون باتباع أحكام الشرع في الأقوال، والأفعال؛ ولو علم الله صلاح خلقه بغير ما شرعه على لسان نبيه لشرعه وبينه، ﴿وَمَنْ لَمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: 46]. فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ [المائدة: 44]؟

⁵⁸⁰ هكذا في المخطوطات والمطبوعات التي اطلعت عليها، وهي عبارة قلقة كما لا يخفى، وعلامات الحذف التي بين المعكوفتين بياضات في النسخ.

وكتب عمال عمر بن عبد العزيز إليه، أن السراق وأهل الفساد كثروا ببلدنا، أفنأخذهم بالظنة والتهمة؟ أو بما أمر به الشرع؟ فكتب إليهم: لا تأخذوهم إلا بما أمر به الشرع، فمن لم يصلحه الشرع؛ فلا أصلحه الله انتهى.

وكتب السيد الصالح عمر الملا، — وكان كبير الشأن — إلى السلطان الصالح نور الدين محمود الشهيد، صاحب الشام ومصر، أن القطاع والمفسدين كثير ويحتاج فيهم إلى نوع سياسة من قتل، وصلب، وضرب، وإذا أخذوا مال إنسان في بادية فمن يشهد له؟ فكتب إليه السلطان محمود على ظهر كتابه، أن الله قد خلق الخلق وهو أعلم بمصلحتهم، وشرع لهم شرعة، ومصلحتهم فيما شرع لهم، تحصل على وجه الكمال؛ فلو علم أن الشريعة زيادة في المصلحة؛ لشرعها، فما لنا حاجة إلى الزيادة على شرعه تعالى. قال الإمام ابن الأثير: فلما وصل الكتاب لعمر الملا، جمع أهل الموصل، وقرأ عليهم الكتاب، وقال: انظروا كتاب الزاهد إلى الملك، وكتاب الملك إلى الزاهد. انتهى. وقد ذكرنا ذلك، في كتابنا «قطع السلوك في ذكر الخلفاء وفضلاء الملوك»

وأما قولكم: «ما الحكم فيما أخذوه من الإنصافات» إلى آخره ... فالحكم في ذلك بعد إعطاء أرباب الحقوق حقوقهم من أموال الجناة أنفسهم، أن يردوا الباقي إلى مولاه إن كان حيا، أو لورثته إن مات؛ وإن جهلت أربابه صار فيئا، حكمه للإمام العدل، اللهم إلا أن يكون الجاني، ممن طالت جنائته بأخذ الأموال، حتى استغرقت ذمته، فماله كله فيء يسلك به مسلك الفيء.

وأما ما أخذوا من أموال أقارب الجاني، فليس إلا رده لأربابه؛ إذ أخذ غير الجاني بجنايته غير مشروع. فهذا ما تيسر من الجواب، وبسطه بالنصوص يحتاج لتطويل لا يسعه الوقت، وبالله التوفيق. كتبه فقير مولاه أحمد بابا بن أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن يحيى وفقه الله وألهمه رشده. اهـ.

الخاتمة

بعد هذه المحطات المهمة في حياض هذه الفتوى، - وقد حرصت كل الحرص على الاختصار لدرجة الإخلال - أخص هنا ما بسطت قبلاً، فأقول:

منهج الشيخ أحمد بابا لتمبكتي في التنزيل، متميز بالتقعيد الفقهي، وحسن التوظيف للقواعد الأصولية والفقهية، والمقاصدية، حتى إنه ما يكاد ينطق إلا بالقواعد، إما تصريحاً، وإما تلويحاً، مع دقة النظر في التقييدات التي حُفت بها القواعد، وهذا الجانب يهمله كثير من النوازليين، فيقع عندهم الخلل في التنزيل.

الشيخ أحمد بابا، كغيره من فقهاء أفريقيا جنوب الصحراء، لا يكاد يخرج عن مشهور المذهب قيد أنملة، ولديهم نظرة خاصة تجاه ما يسمى بعمل البلد، فإن العلماء الذين يقتدى بهم، ويسمح لهم بالاستدلال بالأحاديث والآيات، هم المجتهدون فقط دون غيرهم، وإنما حظ المقلد، الفتوى بكلام شيوخ المذهب، ومشهوره.

الشيخ أحمد بابا في الإفتاء هين لين إلا فيما يتعلق بالأمن العام للبلاد؛ لذا ألغى مصلحية القوانين العرفية مع وجود الحاكم، وإمكانية الدخول تحت حكمه، واللجوء إلى ركنه، خوفاً من انقراط عقد الأمة، وتشتت شملها، ولا يخفى ما في ذلك من مفساد.

والله أعلى وأعلم.

المصادر والمراجع

- الإعلام بمن حل مراكز وأغمات من الأعلام، تأليف العباس بن إبراهيم السملالي، راجعه: عبد الوهاب ابن منصور، (المطبعة الملكية - الرباط) ط2، 1413هـ - 1993م.
- بوطليحية (منظومة في المعتمد من الكتب والفتوى على مذهب المالكية)، لمحمد النابغة الغلاوي (1245هـ) تحقيق يحيى ولد البراء، (مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع) ط2، 1425هـ / 2004م.
- ديوان الأحكام الكبرى أو الإعلام بنوازل الأحكام وقطر من سير الحكماء، لأبي الأصمغ، عيسى ابن سهل الأندلسي، تحقيق: يحيى مراد، (دار الحديث، القاهرة - جمهورية مصر العربية)، 1428هـ - 2007م.
- شرح الزرقاني على مختصر خليل، عبد الباقي بن يوسف بن أحمد الزرقاني (ت 1099هـ)، ضبطه وصححه وخرج آياته: عبد السلام محمد أمين، (دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان)، ط1، 1422هـ، 2002م.
- الغياثي (غياث الأمم في التياث الظلم)، إمام الحرمين الجويني (478هـ)، تحقيق الدكتور عبد العظيم الديب، (مطبعة النهضة - مصر)، ط2، 1401هـ.
- فقه النوازل في سوس قضايا وأعلام من القرن التاسع إلى نهاية القرن الرابع عشر الهجري، تأليف الدكتور الحسن العبادي، (مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء) ط1، 1420هـ - 1999م.
- الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة، أبو زيد عبد الرحمن التمناري، تحقيق اليزيد الراضي، تقديم محمد المنوني، (دار الكتب العلمية - بيروت) ط2، 2007م.
- كتاب النوازل، للشيخ أبي الحسن بن الشيخ عيسى بن علي العلمي، تحقيق المجلس العلمي بفاس، (وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المملكة المغربية) 1409هـ / 1989م.

فهرس المحتويات

الجلسة الافتتاحية لندوة أحمد بابا التمبكتي 3

كلمة معالي المدير العام للإيسيسكو
الدكتور سالم بن محمد المالك 4

كلمة سعادة السفير خالد فتح الرحمن
مدير مركز الحوار الحضاري بالإيسيسكو 4

كلمة معالي وزير التعليم العالي والبحث العلمي والابتكار
الدكتور عبد اللطيف ميراوي 10

كلمة معالي وزير التعليم العالي والبحث العلمي بجمهورية مالي
البروفيسور بورينا كنساي 14

كلمة رئيس المجلس العلمي الجهوي لمراكش آسفي
الدكتور محمد فاضل 20

كلمة معالي رئيس جامعة القاضي عياض
الدكتور بلعيد بوكادير 23

كلمة معالي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية، الموسومة
«سياق التدخل السعودي في السودان، وقراءات حال أحمد باب»
الدكتور أحمد توفيق 26

الجلسة الأولى: الأثر المغربي في تكوين أحمد بابا التمبكتي في الموارد وطرق التلقي 45

معالم في مسيرة العلامة التمبكتي: الشيخ محمد بن محمود بن أبي
بكر الونكري
البروفيسور عبد القادر إدريس ميغا 46

مع العالم أحمد بابا التمبكتي السوداني في تغريته بمراكش
1593 - 1607م
الدكتور توفيق محمد لقبايي 67

حياة أحمد بابا التمبكتي في مراکش: من المحنة إلى الاستقرار
ذة. صابرين البقالي 89

مظاهر التواصل العلمي والحضاري بين المملكة المغربية وبلاد السودان الغربي
الدكتور عبد الرحيم الإسماعيلي 112

البعد اللغوي في التواصل المغربي السوداني شرح أحمد بابا للآجرومية نموذجاً
مليفة نعيم والأستاذ محمد الشكري 124

**الجلسة الثانية : التواصل الحضاري بين المغاربة وإفريقيا جنوب
الصحراء كما تعكسه الرحلات والمراسلات العلمية 159**

البعد الروحي والتواصل العلمي وأثرهما في تتين العلاقات المغربية الإفريقية
أ.د. رضوان غنيمي جامعة ابن زهر-الكلية متعددة التخصصات تارودانت 160

أثر نفي أحمد بابا التمبكتي في التواصل بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء
الدكتور أحمد بن محمد عمّالك 185

أحمد بابا: إسهام استثنائي في الصلات الحضارية بين السودان الغربي وبلاد المغرب
الدكتور سعد الدين العثماني 224

التكامل الحضاري بين المغرب ودول غرب إفريقيا الخلفيات التاريخية
والآفاق المستقبلية
الدكتور وسام شهير 256

الجلسة الثالثة: التواصل الثقافي والاجتماعي بين شمال أفريقيا وجنوبها 295

من نوادر خزانة المواسين «منجم التمبكتي» - كما تدل عليه خرومها
الدكتور محمد الطبراني 296

أبعاد التواصل العلمي والحضاري بين المغرب وبلاد السودان الغربي من
خلال مخطوطات الشيخ أحمد بابا التمبكتي المحفوظة بالخزانة الحسنية
الدكتورة حكيمة شامي 327

ملكة التنزيل عند الشيخ أحمد بابا التمبكتي، نظرات في فتواه:
(القوانين العرفية عند أهل الجبال)

خالد درامي 354

هذا الكتاب

يتناول شخصية العلامة أحمد بابا التمبكتي (1556-1627)، الذي كان عالماً وفقيهاً ومؤرخاً بارزاً، وأحد رموز التواصل الحضاري بين المغاربة وإفريقيا جنوب الصحراء، ويركّز الكتاب على دور هذا العلم الكبير في الدبلوماسية المعرفية ذات الآثار الحضارية التي أفضت إلى ترسيخ نمط مشهود من العلاقات الثقافية والعلمية بين عدوتي الصحراء، كما يناقش فكرة نفي «التمبكتي» إلى مراکش، التي واصل بها التدريس والتأليف، مع تناول تأثيره في العلوم الإسلامية، باستعراض علاقات المغرب بغرب إفريقيا، ودور العلماء في الحفاظ على التراث الإسلامي، إضافة إلى أهمية المخطوطات الإفريقية وقيمتها في حفظ الهوية الثقافية للمنطقة.

يجسّد الكتاب أعمال الندوة التي عرضت لسيرة العلامة التمبكتي، وكانت قد عقدت بجامعة القاضي عياض، ضمن برامج «مراكش عاصمة الثقافة في العالم الإسلامي 2024»، برعاية منظمة العالم الإسلامي للتربية والعلوم والثقافة -إيسيسكو-.



JOIN US !



انضموا إلينا



REJOIGNEZ-NOUS

